مؤلّفة "بجعات بريّة"

يونغ تشانغ

الأخوات الثلاث

نساء مميّزات رسمنَ تاريخ الصين الحديث



ترجمة

سميّة فلّو عبود

دار الساقي

مؤلّفة "بجعات بريّة"

يونغ تشانغ

الأخوات الثلاث

نساء مميّزات رسمنَ تاريخ الصين الحديث



ترجمة

سميّة فلّو عبود



الأخوات الثلاث

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- بجعات بريّة: دراما الصين في حياة نساء ثلاث ١٩٠٩-١٩٧٨



يونغ تشانغ

الأخوات الثلاث

نساء مميّزات رسمنَ تاريخ الصين الحديث

ترجمة

سميّة عبّود فلّو



Jung Chang, *Big Sister, Little Sister, Red Sister: Three Women at the Heart of Twentieth-Century China, 2019*

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢١

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢١

ISBN-978-614-03-0235-8

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على



@DarAlSaqi



دار الساقي



Dar Al Saqi

إلى أمّي

مقدمة

أفضل "حكايات الجن" الصينية الحديثة حكاية الأخوات الثلاث من شانغهاي اللواتي وُلدنَ في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. عائلتهنّ، سونغ، كانت ثرية ومعروفة ولها مكانتها في مجتمع النخبة في المدينة. الوالدان مسيحيان ملتزمان، فالأم تنتمي إلى الجمعية المسيحية الأكثر شهرة في الصين (جمعية "زو" الذي أطلق اسمه على أحد أحياء شانغهاي)، والأب أول صيني اعتنق المسيحية في مراهقته وانضمّ إلى الميثوديين جنوبي الولايات المتحدة، والبنات الثلاث، إي–لينغ ("عمر الحنان" وُلدت في ١٨٨٩)، وتشينغ–لينغ ("عمر البهاء" ولدت في ١٨٩٣)، وماي–لينغ ("عمر الجمال" ولدت في ١٨٩٨) أُرسلنَ إلى أميركا لمتابعة تعليمهنّ، وهذا أمر نادر جداً في تلك الفترة. عادت الفتيات بعد سنوات إلى بلادهنّ وهنّ يعرفنَ الإنكليزية أكثر من الصينية. جمع بينهنّ صغر القامة والفك العريض وأنهنّ لم يكنّ جميلات بالمقاييس التقليدية، وأن وجوههنّ لا تشبه بذور الشمّام، وعيونهنّ ليست على شكل حبّات اللوز، وحواجبهنّ ليست مقوّسة كأغصان الصفصاف. لكنهنّ تميزنَ بالبشرة الناعمة والملامح الدقيقة ورشاقة الحركة والملابس الأنيقة. الأخوات عرفنَ العالم، وكنّ يتمتعنَ بالذكاء والاستقلالية والثقة بالنفس و"الرقيّ".

كان الزواج الاستثنائي لكل واحدة منهنّ هو العامل الأهم الذي جعلهن ''أميرات'' الصين الحديثة. أول رجل وقع في حب إي–لينغ ومن بعدها تشينغ–لينغ كان سون يات–سين الذي قاد ثورة الجمهورية التي أطاحت بحكم الملكية في ١٩١١. وهو يُعرف بأنه أبو الصين (الجمهورية)، وكل المتحدثين الصينية في جميع أنحاء العالم يجلّونه. تشينغ–لينغ تزوجته.

مات سون في ١٩٢٥ وخليفته شيانغ كاي–شيك تودّد إلى ماي–لينغ، الأخت الصغرى، وتزوجها. شكّل شيانغ حكومة من القوميين في ١٩٢٨، وحكم الصين إلى أن أخرجه الشيوعيون من البرّ الرئيسي إلى تايوان في ١٩٤٩. صارت الأخت الصغرى سيدة البلاد الأولى لاثنتين وعشرين سنة أثناء تسلمه السلطة. خلال الحرب العالمية الثانية، عندما قاد شيانغ المقاومة الصينية في مواجهة الاجتياح الياباني، صارت أكثر النساء شهرة في زمانها.

إي–لينغ الأكبر سناً، الأخت الكبرى، تزوجت هـ. هـ. كونغ الذي تولّى منصبي رئيس الوزراء ووزير المالية لسنوات طويلة بفضل علاقات زوجته. هذان الموقعان ساعدا إي–لينغ أيضاً على أن تصير من أغنى نساء الصين.

عائلة سونغ التي تتألف من ثلاث أخوات وثلاثة إخوة شكلت الحلقة الداخلية في نظام شيانغ كاي–شيك، باستثناء تشينغ–لينغ أرملة سون يات–سين، التي انضمت إلى الشيوعيين. كان يشار إليها أحياناً بأنها ''الأخت الحمراء''. هذان المعسكران السياسيان المتخاصمان فرّقا بين أفراد العائلة. خلال الحرب الأهلية التي اندلعت بعد الحرب العالمية الثانية، فعلت ''الأخت الحمراء'' ما في وسعها لمساعدة الشيوعيين للتغلب على شيانغ، مع أن ذلك يعني تدمير عائلتها. بعد سقوط نظام شيانغ وتأسيس الصين الشيوعية بقيادة ماو تسي–تونغ في ١٩٤٩، صارت ''الحمراء'' نائبة الرئيس ماو.

من الواضح أن الأخوات كنّ مميزات خارج إطار علاقة الزواج وما حققته لهنّ من نفوذ وتأثير. في أوساط المتحدثين بالصينية، لا يملّ الناس عن التحدث عنهنّ، وحتى عن حياتهنّ الخاصة. أذكر خاصة حكايتين سمعتهما في المدة التي قضيتها في بداية حياتي في الصين التي سيطر عليها نظام ماو من الخمسينيات حتى السبعينيات، حين كانت البلاد في قبضة التوتاليتارية الصارمة ومعزولة كلياً عن العالم الخارجي. الحكاية الأولى أن السيدة شيانغ – الأخت الصغرى – كانت تستحم كل يوم بالحليب الذي يضيف لمعاناً إلى بشرتها. والحليب في تلك المدة، وهو مادة غذائية مهمة ومطلوبة، كان مفقوداً في الأسواق ويصعب على الناس العاديين الحصول عليه، فاستخدامه كبديل عن الماء للاستحمام تبذير يثير الغضب. حاول أحد الأساتذة مرة تصويب هذا الخلل فسأل تلاميذه متذمراً: ''حسناً، هل تعتقدون بالفعل أن الاستحمام بالحليب ممتع؟'' سرعان ما تمّ تصنيفه في صفوف ''اليمينيين'' المُبعدين.

الحكاية الثانية التي تركت فيّ تأثيراً كبيراً أن تشينغ–لينغ، نائبة رئيس الصين الحمراء المتزمّتة، كانت تعيش مع رئيس حراسها وعمره أقل من نصف عمرها. ويقال أن علاقة حميمة ربطت بينهما، وأن الحارس كان يحملها إلى سريرها عندما صارت كبيرة في السنّ وعاجزة وبحاجة إلى الكرسيّ المدولب. كان الناس باستمرار يتساءلون هل تزوجا، ويتناقشون حول علاقتهما وإلى أي حد هذه العلاقة مقبولة. الرأي السائد كان أن الحزب يسمح بهذه العلاقة انطلاقاً من واقع أن تشينغ–لينغ صارت أرملة منذ وقت طويل وتحتاج إلى رجل، والحزب سمح لها أيضاً بالاحتفاظ باسمها المرموق، مدام سون. أذكر هذه الحكاية جيداً لأنه كان من النادر سماع الناس يتناقلون أخبار الحياة الجنسية لأحد قادة البلاد. لم يجرؤ أحد على ذكر أي أمر يتعلّق بسائر القياديين.

بعد وفاة ماو في ١٩٧٦ وانفتاح الصين، انتقلت إلى بريطانيا وعرفت الكثير عن الأخوات. حتى أنني كُلفت في أواسط الثمانينيات تأليف كتاب صغير عن ''الأخت الحمراء''، تشينغ–لينغ، لكن رغم

البحث الذي أجريته، وأنني كتبت نحو ثلاثين ألف كلمة، تملّكني إحساس غريب بأنني غير معنية بالموضوع. حتى أنني لم أحاول الوصول إلى الحقيقة بخصوص الفضيحة مع الحارس.

في ١٩٩١، صدر لي كتاب *Wild Swans*: *Three Daughters of China* [**بجعات برّية**] وهو يدور حول حياة جدتي ووالدتي وحياتي، فانتقلت إلى كتابة سيرة حياة ماو مع زوجي، جون هاليداي. ماو ألقى بظلّه على السنوات الست والعشرين الأولى من حياتي، وكنت متحمسة لمعرفة المزيد عنه. ثم لفتت انتباهي الإمبراطورة دواغر سيزي، آخر الأباطرة العظماء في الصين (لم تُتوّج لأن العرش الملكي حكرٌ على الرجال). ارتفع شأنها من خليلة من طبقة أدنى إلى سيدة دولة. سيزي حكمت الإمبراطورية دون أن تعتلي كرسي العرش، وطوال عقود واكبت تطور البلاد من القرون الوسطى إلى العصر الحديث. أسرَني الموضوعان واستغرقا عشرين سنة من حياتي. واختيار الموضوع التالي لم يكن سهلاً. فكرت في الكتابة عن الأخوات سونغ لكنني تراجعت. بعد *Wild Swans* أخذت أكتب عن واضعي الخطط ومغيّري التاريخ، والأخوات لسنَ من هؤلاء.

من المعلومات التي توفّرت لديّ أنهنّ كنّ بصفتهنّ أفراداً يشبهنَ شخصيات عالم ”حكايات الجن“، ويمكن تلخيص وصفهنّ بالآتي: ”كانت هناك في بلاد الصين ثلاث أخوات. واحدة أحبت المال، وواحدة أحبت السلطة، وواحدة أحبت بلادها“. لا يبدو هناك صراع فكري، أو معضلة أخلاقية، أو قرارات تتطلب جهداً كبيراً، أي الأمور التي تجعل البشر ينتمون إلى عالم الواقع ويثيرون الاهتمام.

فكرت في الكتابة عن سون يات–سين، الأب الروحي للصين الجمهورية، الذي عاش من ١٨٦٦ حتى ١٩٢٥، وصار مشهوراً من حقبة سيزي حتى حقبة ماو؛ كان سون من واضعي الخطط مثلهما، وشكّل ما يشبه ”الجسر“ بينهما. في ظلّ حكم سيزي، بدأت الصين رحلتها نحو الديموقراطية البرلمانية، وتوقعت الحصول على المزيد من الحرية والانفتاح. مع ذلك، بعد أربعة عقود من وفاتها في ١٩٠٨، استلم ماو السلطة وعزل البلاد وأخضعها لحكم التوتاليتارية المستبدة. ما الذي حدث في هذه العقود الأربعة التي كان سون يات–سين فيها لاعباً رئيسياً؟ هذا السؤال شغلني. والآن جاءت الفرصة لمعرفة الجواب.

صورة سون عند الصينيين، ومن هم من غير الصينيين وسمعوا عنه، هي صورة قديس. لكن هل كان بالفعل كذلك؟ ماذا فعل للصين؟ وكيف كان على الصعيد الشخصي؟ أردت اكتشاف الإجابات عن كل هذه الأسئلة، وعن المزيد من الأسئلة أيضاً.

أثناء تتبّعي خطوات حياة سون، والأشخاص المحيطين به، لفت انتباهي عمق شخصية زوجته وأختَيها. أدركت أن سون مستنفد حتى النهاية في عالم السياسة ومنشغل بمواصلة طموحاته بكل قواه. إنه ليس قديساً وهذا مريح (بالنسبة إلى من يكتب سيرته). أثناء رصد طريقه للوصول إلى السلطة، وما فيها من صعود وهبوط، ورجال عصابات، وأساليب العصابات، واللجوء إلى الثأر والاغتيالات، شعرت كأنني أشاهد فيلماً مثيراً. كان الكشف عن كيفية صنعه التاريخ مرضياً ومريحاً. لكن النساء اللواتي كانت السياسة لهنّ جزءاً من حياتهنّ ازددن أهمية وحضوراً في ذهني. فقررت أن أجعلهنّ شخصيات هذا الكتاب.

حين حولت انتباهي إلى الأخوات، رأيت بوضوح مدى تميّزهن. امتدت حياتهن لتشمل ثلاثة قرون (ماي–لينغ توفّيت في ٢٠٠٣ عن ١٠٥ سنوات)، وكنّ في قلب الأحداث خلال مئة عام من الحروب والثورات المدمرة والتحوّلات الدراماتيكية. المشهد ينتقل من الحفلات الفخمة في شانغهاي إلى الشقق في نيويورك، ومن مساكن للمنفيين في اليابان وبرلين إلى غرف الاجتماعات السرية في موسكو، ومن المجمعات التي تضمّ منازل النخبة من الشيوعيين في بيجينغ إلى دهاليز السلطة في تايوان التي تتحول نحو الديموقراطية. تنوعت تجارب الحياة وعرفن الأمل والشجاعة والعشق إلى جانب اليأس والخوف والأسى. تمتعنَ بالكثير من الرفاهية والفخامة والمراكز المرموقة، لكنهن خاطرنَ بأرواحهنّ. تشينغ–لينغ نجت من الموت مرة لكنها أجهضت ولم تعد قادرة على الإنجاب بعد الحادثة. معاناتها سوف تلعب دوراً كبيراً في سلوكها نائبةً لرئيس الصين الشيوعية.

ماي–لينغ أيضاً تعرّضت لإجهاض حرمها الإنجاب. زوجها، شيانغ كاي–شيك، بدأ مساره السياسي بعد اغتياله أحد أعداء سون، وكانت حياته في خطر دائم، وتمكّن اثنان من القتلة من الوصول إلى سرير زوجته ذات ليلة.

إي–لينغ ساعدت الأخت الصغرى في ملء الفراغ في حياتها بسبب حرمان الإنجاب، لكنها كانت بحاجة أيضاً إلى تجاوز خيبات الأمل على امتداد حياتها، وليست أقلّها أهمية سمعتها السيئة بأنها الأخت الكبرى الجشعة والشريرة، فيما كانت "الأخت الحمراء" محبوبة وفاتنة، والأخت الصغرى نجمة عالمية أنيقة. العلاقة بين الأخوات كانت دائماً مشحونة بالانفعالات وليس ذلك حصراً لأن تشينغ–لينغ ناشطة في عمل سوف يدمر حياة أختيها؛ شيانغ كاي–شيك قتل الرجل الذي أحبته بعد وفاة سون (دنغ يان–دا)، وهو شاب جذاب يتمتع بموهبة القيادة، وشكل حزباً ثالثاً ليكون بديلاً عن الشيوعيين والقوميين.

التجارب المؤلمة التي تعرّضت لها الأخوات سونغ دخلت في مسار تاريخ الصين الحديث. أثناء كتابتي عنهنّ – وعن عملاقي الصين سون يات–سين وشيانغ كاي–شيك – كنت محظوظة بوفرة المواد التي تمكّنت من الحصول عليها. عدد كبير من الرسائل والكتابات والمذكرات إلى جانب مواد كثيرة محفوظة في الصين سبق نشرها أو كانت متوافرة. في تايوان التي تعتمد اليوم النظام الديموقراطي، فتحت مراكز الأرشيف أبوابها. وفي لندن، حيث هيأ سون عملية "اختطافه" التي كانت بداية انطلاقة عمله السياسي، قدمت الكثير من المعطيات. فوق كل ذلك، في الولايات المتحدة التي كان أفراد العائلة الممتدة على صلة وثيقة بها، توجد في المؤسسات والمكتبات لمجموعات عدة من الوثائق التي هي ببساطة كنوز نفيسة، وأضيفت إليها منذ مدة غير بعيدة مذكرات شيانغ كاي–شيك البالغة الأهمية، وقد واظب على كتابتها يومياً لسبعة وخمسين عاماً، وهي بمعظمها تدور حول أمور شخصية ويكشف فيها أموراً كثيرة عن علاقته بماي–لينغ.

حكاية الأخوات سونغ بدأت مع تحول الصين من الملكية إلى الجمهورية. والرجل الذي لعب الدور الأكبر في هذه العملية التاريخية هو سون يات–سين.

الجزء الأول

الطريق إلى الجمهورية

(١٨٦٦ـ١٩١١)

١

الصين: نهوض الأب

في الرابع من تموز/ يوليو ١٨٩٤، أعلنت هاواي نفسها جمهورية بعد مضيّ سنة على خلع الملكة ليلي يوكالاني وعزلها. كان تأثير هذا الحدث، الذي جرى في المحيط الهادئ على بعد ستة آلاف ميل عن الشاطئ الصيني، من الصعب التنبؤ به؛ لقد ساهم في تكوين الصين التي نعرف اليوم. وصل الشاب الصيني الراديكالي سون يات–سين، ابن السابعة والعشرين، إلى الأرخبيل، وانخرط في عالم كانت فيه كلمة جمهورية تتردد على كل لسان. الملكيون يتآمرون لإعادة ليلي يوكالاني، فيما تستعد القوى المساندة للجمهورية لسحقهم. في هذا الجو المحموم، خطر للشاب المنهمك في تدبير مكيدة للإطاحة بالملك في بلده أن الصين أيضاً قد تصبح جمهورية.

لم تكن هذه الفكرة واردة من قبل لأن الملكية هي النظام السياسي الوحيد الذي عرفه الصينيون. في تلك الفترة، كانت البلاد تخضع لحكم سلالة مانشو. والمنشويون ليسوا من أهل الصين الأصليين لكنهم سيطروا على البلاد أواسط القرن السابع عشر. وبما أن عددهم لم يتجاوز الواحد بالمئة من السكان، ظلوا أقلية من الحكام الدخلاء الذين تعرضوا باستمرار لمجابهة من ثوار الهان المحليين الذين كان سون واحداً منهم. اعتاد الثوار المطالبة باستعادة سلالة مينغ (١٣٦٨–١٦٤٤) التي سبقت سلالة مانشوهان. لكن هذا الطرح كان يصعب تحقيقه. مينغ صارت أشبه بشجرة مهترئة استأصلت جذورها ثورة الفلاحين، قبل أن يستفيد المنشويون من حالة الفوضى ويهاجموا البلاد ويقضوا عليها كليّاً. لم يبدِ الناس حماسة لاستعادة حكم المينغ. ولم يظهر بينهم من لديه تصور واضح للمستقبل. لكن سون يات–سين استطاع بفضل أحداث هاواي أن يكوّن رؤية مستقبلية واضحة للصين: أن تصبح جمهورية. في تشرين الثاني/ نوفمبر، وفي هاواي التي تنعم بأشعة الشمس، أنشأ تنظيماً سياسياً يدعى "زينغ–زونغ–هوي" (إحياء المجتمع الصيني). عقد اللقاء التأسيسي عند صيني يعمل مديراً لمصرف محلي، في منزل خشبي يتألف من طابقين بشرفات واسعة يظللها الشريط المنخليّ والشجيرات الاستوائية. كل واحد من المجتمعين الذين فاق عددهم العشرين وضع يده اليسرى على

الإنجيل، على طريقة أهل هاواي، ورفع يده اليمنى وحلف اليمين التي كتبها سون: "لطرد المنشويين... وتأسيس جمهورية".

إن الجمع بين هذين الهدفين أثبت أنه ضرب من العبقرية. صار الجمهوريون بفضله ينعمون بتأييد شعبي. وفي غضون أقل من عقدين، أُطيح بالسلالة المنشوية وأصبحت الصين جمهورية وتكرست زعامة سون على أنه أبٌ لها.

كانت فكرة الجمهورية ستخطر على بال آخرين، عاجلاً أم آجلاً، لكن، بفضل هاواي، استطاع سون يات–سين أن يستحوذ عليها أولاً. إن شخصية سون الطموحة والجهود التي سيبذلها لتحقيق أهدافه لها علاقة حاسمة في تقرير مسار الصين الجمهورية.

سون يات–سين رجل أسمر اللون، قصير القامة، وملامح وجهه متناسقة ولطيفة. وُلد في الساحل الجنوبي للصين بالقرب من هونغ كونغ وماكاو، المستعمرَتين البريطانية والبرتغالية. كانت عاصمة الإقليم كانتون، على بعد مئة كيلومتر إلى الشمال، وسون كان كانتونياً. تقع قريته التي وُلد فيها على الشاطئ، وتحيط بها تلال حرجية منخفضة، ولها اسم رائع: كويهنغ (طريق الزمرّد الواسعة). لكن تربتها الرملية والطينية بمعظمها لم تكن تصلح للزراعة، والعيش فيها اتسم بالفقر المدقع. أبصر سون النور في ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٦٦ في كوخ طيني طوله نحو عشرة أمتار وعرضه أربعة، وشاركه العيش فيه والداه، السيد والسيدة سون دا–تشينغ، وجدته لأبيه، وشقيقه البالغ اثنتا عشرة سنة، وشقيقته ذات الأعوام الثلاثة. عندما كبر في السن، ازدادت حاجته إلى مساحة أكبر للنوم، فصار شقيقاه الأكبر منه ينامان عند أقاربهم. طعام أفراد العائلة اقتصر على البطاطا الحلوة، ونادراً ما كان يشمل الأرز الذي يشتهونه. لم يكن الرجال غالباً ينتعلون الأحذية. كان السيد والسيدة سون يتمنّيان لطفلهما حظاً أفضل في الحياة ولذلك أطلقا عليه اسم دي–زيانغ أي صورة إله الشمال، الشفيع السماوي للمنطقة.

هذا الطفل، الذي سيهاجم في المستقبل المعتقدات التقليدية، بدأ يعبّر عن اعتراضه عليها وهو لم يتجاوز الرابعة بعد. كانت والدته منهمكة بربط وتقييد قدمي شقيقته مياو–زي التي صارت في السابعة. إن تقييد القدمين عادة معروفة عند فتيات الهان الصينيات منذ ألف عام. وهي تعتمد على كسر الأصابع الأربعة الصغيرة في كل قدم وثنيها وربطها بباطن القدم ليصبح شكل القدم يشبه بَتلة الزنبق. ومن ثم تُستخدم قطعة قماش طويلة للفّ القدم بإحكام للحؤول دون شفاء العظم المكسور وعودة القدم إلى النمو. كانت بنات الفلاحين الصغيرات يتعرضنَ لهذا التعذيب في سن أكبر من فتيات الطبقة العليا اللواتي تُقيّد أقدامهن في الثانية أو الثالثة كي تبقى القدم المعتلّة صغيرة الحجم.

بنات الفلاحين كنّ بحاجة إلى العمل، ولذلك كان يُسمح لأقدامهن بالنمو أكثر. حين بدأت والدة سون، التي كانت مقيدة القدمين بدورها ولا تزال تعاني من الألم، إجراء هذه العملية لابنتها، شاهد سون شقيقته وهي تعاني وتمشي بتشنج محاولة الإمساك بأي شيء لتخفيف ألمها، وأخذ سون يتوسل إلى والدته أن تتوقف عن إيذائها. بكت السيدة سون وقالت له إن شقيقته لن تكون لديها قدمان تشبهان الزنبق عندما تصبح شابة، وسوف يعاملها الناس كمنبوذة "لا كسيدة صينية". "هذا يجلب لنا العار". استمر سون بمضايقة والدته، وأخيراً رضخت له، لكنها لم تتراجع أكثر من أن تأخذ ابنتها إلى المختص بربط أقدام الفتيات في القرية.

عندما كان في الخامسة، توجه شقيقه آه مي، البالغ سبعة عشر عاماً، على متن سفينة إلى هاواي في رحلة لأربعين يوماً محاولاً الحصول على فرصة أفضل للعمل. كانت هاواي مملكة مستقلة تخضع للنفوذ الأميركي، وتريد دعم الزراعة، وترحب بالمزارعين الصينيين. بذل آه مي جهداً كبيراً في العمل بصفةِ عامل زراعي في البداية، ثم بدأ عملاً خاصاً به. تحسّنت أحواله وأخذ يرسل النقود إلى عائلته. صارت أوضاع عائلته أفضل بكثير وتمكنت من بناء منزل جديد وإرسال سون إلى مدرسة القرية حين كان في التاسعة، لكنه كان ينزعج من حفظ الكتابات الكونفوشيوسية بقدر ما يكره العمل في الحقل. قال لرفاقه في مرحلة لاحقة إنه منذ بدأ "يفكر" استحوذت عليه فكرة الهرب من الحياة التي يعيشها. وأخيراً، سنة ١٨٧٩، أرسل شقيقه في طلبه، ورحل سون إلى هاواي. حين وطئت قدماه أرض هاواي وقع الصبي الذي لم يتجاوز الثانية عشرة في حب موطنه الجديد. ميناء هونولولو بأبنيته الرائعة الأوروبية التصميم سحره كأنه "بيت العجائب". الشوارع نظيفة ومنظمة كأنها جنة بالمقارنة مع قريته الوسخة والمتداعية.

كان آه مي يريد من سون مساعدته في أعماله، لكن سون لم يبدِ أي رغبة في ذلك. سجّله آه مي في مدارس عدة في هونولولو وأولها Lolani College التي أسستها إرساليات الكنيسة الإنكليزية للصبيان المحليين والمهاجرين. كان برنامج الدراسة فيها على نسق المدارس الرسمية الإنكليزية وكان معظم أساتذتها أنكلوسكسونيين. نجح سون في دراسته، وعند تخرجه بعد ثلاث سنوات في ١٨٨٢ كان في المرتبة الثانية في امتحان قواعد الإنكليزية. آه مي، الفخور بهذا الإنجاز، أقام له احتفالاً كبيراً. كانت جائزة نجاحه في المدرسة كتاباً عن تاريخ الصين وحضارتها. لم تكن المدرسة تريد من طلابها أن ينسوا جذورهم. وبالفعل، لم ترد أنكلزة سون؛ احتفظ الصبي بتسريحة الشعر المميزة والإجبارية للذكور الصينيين تحت حكم المنشويين: ضفيرة طويلة تنسدل على ظهره. أحب

سون المدرسة وتعلق بها: البذلة والنظام وخاصة التدريب العسكري؛ أثاره الزحف المتعاقب الارتفاع والانخفاض.

تابع دراسته في أفضل مؤسسة تعليمية في الأرخبيل، Oahu College التابعة للإرسالية الأميركية في هونولولو (من خريجي هذا المعهد العالي الذي يعرف اليوم باسم Punahou School باراك أوباما الذي تخرج بعد سون بنحو مئة سنة، في ١٩٧٩). كان القسط باهظاً: دولاراً واحداً من الفضة في الأسبوع، أي ثمن عنزة وزنها أكثر من مئة باوند. لم يكن هذا عبئاً يسيراً على آه مي الذي بدأ يواجه صعوبات في عمله. كان قد اشترى أرضاً على جزيرة ماوي لزراعة قصب السكر. لكن مزرعته كانت أعلى الجبال التي تلفها السحب على ارتفاع نحو أربعة آلاف قدم عن سطح البحر؛ أرضها منحدرة وصخرية وفيها بعض الأعشاب التي تتشبث بقوة بالتربة المتآكلة. لم تكن زراعة قصب السكر ممكنة ولا حتى تربية الماشية أو الخراف. الماعز فقط تستطيع العيش هناك وصارت أهم ما يملك آه مي الذي ضحّى في سبيل أخيه.

أواهو، التي تقع أسفل الجبال، بدت جنة لسون؛ المباني الحجرية الضخمة للدراسة، والشوارع التي تزيّنها أشجار جوز الهند للتنزه، والمروج الخضراء المعتنى بها جيداً للعب. وهناك نافورة يظللها السرخس، وتلتقي عندها كل يوم طالبات يتحدثن عند الغداء ويضحكن أثناء تناول الأطعمة الموضّبة. هؤلاء كنّ أميركيات جميلات ومرحات وواثقات بأنفسهن. شكّلت النساء الغالبية من الهيئة التعليمية بمن في ذلك المديرة المسؤولة ومساعدتها، والأخيرة على علاقة معلنة إلى حدّ ما مع أحد الأساتذة.

كان هذا عالماً بعيداً من بيئة قرية سون الكانتونية ونسائها. وقد ترك تأثيراً هائلاً في ابن السادسة عشرة. طوال حياته ظلّ سون يتوق إلى نساء يشبهنَ اللواتي التقاهنّ في مدرسته، في وقت كان فيه معظم الرجال الصينيين يفضّلون زوجات تقليديات: مطيعات وبلا شخصية.

إن علاقة سون بهؤلاء الشابات الصغيرات اللواتي كنّ مسيحيات (كأصدقائه من الشبان) شكّلت له في الغالب دافعاً للانضمام إلى الكنيسة كي يؤكد انتماءه في هذا المجتمع. لكن آه مي لم يخفِ انزعاجه عندما أخبره سون برغبته. كان إله الشمال مقدّساً عنده. وبعد مدة من الشجار والغضب اشترى آه مي لأخيه العنيد تذكرة للسفر إلى الصين دون عودة، مضحّياً بقسط المدرسة المدفوع سلفاً.

بعد مضيّ أربع سنوات على غيابه صارت العودة غير محتملة. بدأ سون يتلهف للمغادرة لحظة وصوله صيف ١٨٨٣. وسرعان ما اكتشف السبيل لذلك. كان المعبد هو المكان الأكثر أهمية في

القرية، حيث يوجدُ تمثالٌ لإله الشمال مصنوع من الصلصال ومزخرف ومطليّ بإسراف. يرفع الإله سيفاً بيده وإبهامه يشير إلى السماء للدلالة على قدسية سلطانه، وعلى جانبيه تمثالان أصغر حجماً لآلهة البحر وآلهة الخصب. كانت عبادة إله الشمال من تقاليد الناس في هذه المنطقة.

التقى سون ذات يوم بعدد قليل من أصدقائه وقال لهم إنه ينوي دخول المعبد ''لإزالة بعض هذا التخريف بتخريب تمثال الإله نفسه''. يذكر لوك شان، وهو واحد من المجموعة، أن فكرة سون صدمتهم، لكنها أثارت حماستهم. قصدوا المعبد وسط النهار حين يكون خالياً؛ لم يكن هناك سوى حارس غلبه النعاس فأسند ظهره إلى الحائط. طلب سون من لوك وصبي آخر مراقبة الحارس وتوجه إلى داخل المعبد مع لُو الذي كان لديه طموح فني وله عينان كئيبتان وشفتان ممتلئتان. اكتفى لو بكشط الطلاء عن خدّي أحد الآلهتين، لكن سون لم يتردد في فتح سكين الجيب الذي يحمله وقطع إبهام إله الشمال الذي يشير إلى السماء. عندما دخل صديقاه وشاهدا الإبهام المقطوع تملكهما الخوف. كتب لوك لاحقاً عن الحادثة ووصفها بأنها ''خطوة هائلة'' بالنسبة إلى مزارع صغير من قرية صغيرة.

استيقظ حارس المعبد وسرعان ما انتشر الخبر. هرب الصبية الثلاثة لكن سون ظلّ مكانه برباطة جأش لأنه أراد من الناس أن يروه ويعرفوا أنه المسؤول عن هذه الفتنة. تملّك أهالي كويهنغ ذهول مرعب. وبّخ كبار السن الغاضبون دا–تشينغ بسبب ما فعله ابنه وقالوا له إنه لا بدّ من إبعاد سون، وإلّا فإن إله الشمال لن يهدأ وسوف تحلّ الكوارث على الجميع. بذل الأب المصدوم جهداً كبيراً في الاعتذار وفي جمع مبلغ كافٍ لإصلاح التمثال، وفي هذه الأثناء، غادر سون القرية.

لاحظ لوك أن سون ''كان هادئاً تماماً ومتماسكاً وهو يغادر القرية مطروداً''. وانتبه إلى أن سون على الأرجح ''خطط لهذا العمل ونفذه'' بهدف المغادرة. مع الوقت، حين صار لوك على معرفة أفضل بسون أدرك أن سون ''لم يقدم على أي عمل قبل التفكير ملياً في الأسباب والتأثيرات ومعرفة النتيجة النهائية وتحديدها''. لا شك أن سون بدأ منذ صباه يكتسب سمات الإستراتيجي البارع.

كان سون قد وصل إلى قريته في الصيف، وفي الخريف، غادرها إلى هونغ كونغ. كانت المستعمرة البريطانية في البداية كناية عن مجموعة من قرى الصيادين تقع على سفوح سلسلة من الهضاب، وهي اليوم مدينة مذهلة. واجهتها البحرية ذكّرت سون بهونولولو، لكنها تفوقها فخامة. توجّه الثائر الذكيّ مباشرة إلى مدرسة ودار أيتام ديو سيزان بويز اللذين تديرهما الكنيسة الإنجليكانية، حيث كان متأكداً أنه سيجد مأوى. وتمكن من ذلك بالفعل في مبنى الكنيسة في الطابق الذي يعلو غرف الدراسة.

اقترح عليه والداه، اللذان ما زالا يعملان جاهدين للمصالحة، أن يتزوج ابنة أحد أصدقائهما من القرية المجاورة. كانا مثل معظم الأهل يظنان أن الزواج وتربية الأطفال سيساعدان ابنهما على الاستقرار وتحمل المسؤولية. وافق سون وعاد إلى قريته في السنة التالية ليتزوج الفتاة التي اختارها والداه، بعدما تسجّل في Central School في هونغ كونغ، وهذا كان على ما يبدو الشرط الذي فرضه للموافقة على عرضهما.

هذا الزواج المدبّر كان بالفعل مناسباً لابن السابعة عشرة. العروس مو–زين، التي تصغره بعام واحد، كانت لطيفة ومتعلمة، وجميلة في الوقت نفسه. وهي بطبعها مهذبة. لم تكن أبداً من اللواتي يفتعلنَ المشكلات. بعد زواجهما اقتصرت حياتها على العناية بوالديه والقيام على واجباتها المنزلية، وهي تعرج من قدميها المقيدتين. أما سون، فرحل ولم يمضِ على زواجه أكثر من أسبوعين. كان يعود من حين إلى آخر، لكنه عاش بالإجمال حياة منفصلة وعرف عدداً من الخليلات.

سنة ١٨٨٤، بعد زواجه بمدة قصيرة، تعمّد سون في هونغ كونغ على يد الدكتور تشارلز ر. هايغر، وهو إرسالي أميركي يعيش في الطابق الأعلى فوق مكان إقامة سون. وبعد عمادته، غيّر سون اسمه من "صورة إله الشمال" إلى يات–سين، أي "رجل جديد كل يوم". لم يكن سون صادقاً بإيمانه، ولاحظ رفاقه أنه نادراً ما يذهب إلى الكنيسة (سوف يسخر من الإيمان لاحقاً). لكن الإرساليات المسيحية كانت وسيلته لترك حياته السابقة وفتحت أمامه أبواب مجتمع واعد. عندما توقف آه مي عن دفع قسط مدرسته لأنه غضب من عمادته، أنجدته الكنيسة وقدمت إليه مقعداً في كلية الطب التابعة للإرسالية الأنجلو–أميركية في كانتون التي تقع بعد اجتياز البحر على البر الرئيسي أعلى نهر بيرل.

في كانتون شبكة من الأزقة الضيقة غير المرصوفة حيث يحتشد المشاة ويتدافعون، والمحامل تتمايل، ويتقدمها أحياناً أشخاص يفسحون أمامها الطريق بصراخهم. كما تحتل مساحة من الشارع صفوف من الباعة، وبعضهم يبيعون الثعابين والقطط غذاء للناس. لم يرغب سون في العيش في كانتون القذرة بحشودها التي تفوح منها رائحة العرق الكريهة، فتصالح مع آه مي وعاد في أقصر وقت إلى هونغ كونغ. هناك تسجل في كلية الطب التي فتحت حديثاً للصينيين. لم يتردد آه مي في إعالته للدراسة من أجل مهنة مرموقة كهذه. وبعد بضعة أشهر توفّي والدهما. آه مي، الحزين على والده، شعر بمسؤولية أكثر تجاه أخيه الصغير، فضاعف المبلغ الذي يرسله إليه. هكذا استطاع سون أن ينعم بعيش رغيد لخمس سنوات في المدينة التي أحبها.

تخرج في كلّيته صيف ١٨٩٢، لكنه لم ينجح في الحصول على عمل. لم تكن شهادته معترفاً بها في هونغ كونغ، لأن برنامج الكلية في سنواتها الأولى لا يراعي بالقدر المطلوب المعايير البريطانية. كما أن ماكو، المستعمرة البرتغالية المجاورة، لم تقبل شهادته أيضاً. بعد مضي سنة وهو على هذه الحال قرر الانتقال إلى كانتون حيث لم تكن شهادته مشكلة. لكن سون لم يكن يرغب في العيش في تلك المدينة أو ممارسة مهنته فيها. في هذه المدة، ومع أنه كان فاتراً بعد فقدان الأمل في إمكانية مزاولة الطب في أماكن يريدها، قرر سون يات–سين بجدية أن يصبح ثائراً.

تجربة سون ما وراء البحار جعلته يكره موطنه، وكان مقتنعاً أن حكم المانشو هو المسؤول عن تلك المشكلات كلها. مضت بضع سنوات وهو يتحدث مع رفاق يتفقون معه في تفكيرهم على مدى رفضهم حكم المنشويين، بدءاً من الضفائر التي تتدلى على ظهورهم حتى هول الاحتلال المنشوي. كانوا يشربون الشاي ويتناولون الشعيرية ويحلمون بالإطاحة بعرش المنشويين. بين أصدقائه كان لو شريكه السابق في الاعتداء على آلهة القرية، وتشينغ بحضوره اللافت كونه زعيم مجموعة سرية في كانتون تعرف بـ"الترياد". ملامح هذين الشابين شديدة الاختلاف: لو لطيف الوجه، فيما بدا تشينغ كقاطع طريق، غامض النظرة، ولا تكاد تبرز عيناه من الجلد الذي يغطيهما، وأسنانه مطبقة خلف شفتيه المتهدّلتين. ربما بدا الأصدقاء مجموعة لا تلفت الانتباه لكن طموحاتهم كانت كبيرة: لم تكن أقل من الإطاحة بالسلالة المنشوية وأن يصبحوا حكاماً للصين. لم يهابوا أنهم يواجهون دولة عظمى.

هذا التوق والاندفاع ليسا استثنائيين، فالصين لديها تاريخ طويل من ثورات قادها رجال عاديون تمكنوا من الوصول إلى العرش. ثورة تايبينغ – أكبر حركة عصيان للفلاحين في تاريخ الصين – بدأت في الإقليم حيث وُلد سون. قائد الثورة، هونغ زيو–كوان، من قرية لا تبعد كثيراً عن قرية سون، زحف بجيشه حتى مسافة قريبة من بيجينغ، محتلاً مساحات كبيرة من الصين حتى كاد أن يسقط عرش المنشويين. تمكن هونغ من إقامة دولة منافسة. لكن جنوده تشتّتوا بعد هزيمته، وذلك قبل ولادة سون بمدة قصيرة، وعاد واحد منهم إلى بيته في قرية سون. كان المحارب الكهل يجلس تحت شجرة فيكوس عملاقة ويحكي عن المعارك التي خاضها. كان الطفل سون يستمع له مأخوذاً. وحين كبر في السن صار يعبّر عن إعجابه بقائد تايبينغ ويتمنى لو كان النصر حليف هونغ. وعندما يمازحه البعض قائلين إنه يجب أن يكون "هونغ الثاني"، كان يأخذ كلامهم على محمل الجد ويرى أنه قادر على ذلك.

لم يمضِ وقت طويل حتى وجد الفرصة مواتية. سنة ١٨٩٤ شنت اليابان حرباً ضد الصين وحققت انتصاراً ساحقاً في السنة التالية. في تلك الفترة، كان على رأس الإمبراطورية الصينية الإمبراطور غوانغزو، وابن الثالثة والعشرين كان ضعيفاً وعاجزاً تماماً عن قيادة البلاد في أول حرب حديثة تخوضها.[1] مع انتشار الأخبار السيئة بدأت ابتسامة عريضة ترتسم على وجه سون. قال لأصدقائه: "يجب ألّا نفوت هذه الفرصة التي قد لا تأتي مرة ثانية". واتفقوا على خطة. سوف يبدؤون التمرّد في كانتون ويحتلون المدينة؛ بعد هذه الخطوة التي أطلقوا عليها اسم "انتفاضة كانتون" سيعمدون إلى السيطرة على أجزاء أخرى من الصين. قدّم تشينغ، زعيم "الترياد"، اقتراحاً جعل هذه المغامرة ممكنة: أن يستخدموا رجال العصابات مثل "إخوته" في "ترياد" مقاتلينَ. في البلاد عصابات كبيرة ويمكن شراء العديد من أفرادها. رأى سون أن هذه فرصة قد تكون ناجحة بالفعل.

1 كان الإمبراطور يعاني من حالات رهاب مرضية متعدّدة، منها خوفه الشديد من الرعد. أثناء العاصفة الرعدية كان المخصيون يجتمعون ويصرخون بأعلى صوتهم في محاولة غير مجدية لإخفاء صوت الرعد.

لكن كلفة هذا المشروع الهائل باهظة. لا بد من جمع مبالغ ضخمة لشراء الأسلحة ودفع أجور رجال العصابات. عاد سون إلى هاواي في ١٨٩٤ لجمع التبرعات، وهناك وجد الأمل في بناء المستقبل بعد المنشويين: تأسيس جمهورية.

تبرّع الصينيون الهاواويون بآلاف الدولارات الأميركية، فقرر سون الذهاب إلى أميركا لجمع المزيد من المال. في هذا الوقت، وصلته رسالة من صديق في شانغهاي يحثه فيها على العودة حالاً لإعلان بداية الثورة. كانت الصين تعاني من هزائم متتالية أمام اليابانيين، والنظام المنشوي بدا عاجزاً وقد انفضّ الناس من حوله، فقرر سون العودة في الحال.

كان سونغ تشارلي هو كاتب الرسالة الذي ساهم في انطلاقة ثورة الجمهورية، وهو مبشّر سابق في الثالثة والثلاثين وكان تابعاً للكنيسة الميثودية الأميركية الجنوبية، والآن رجل أعمال ثري يقيم في شانغهاي. التقى سون في بداية تلك السنة حين كان سون في زيارة قصيرة إلى المدينة، ولُو الذي لجأ إلى شانغهاي بعد الاعتداء على آلهة القرية هو الذي عرفهما على بعضهما بعضاً. استمر الثلاثة في مناقشة الوضع السياسي حتى وقت متأخر في الليل. أيّد تشارلي عداء سون للمنشويين وأبدى إعجابه به لأنه مستعد لأخذ المبادرة عكس معظم الناس الذين يكتفون بالتعبير عن الشكوى فقط. ومع أن سون لم يكن معروفاً آنذاك، كان يعطي انطباعاً قوياً عن ثقته بنفسه، وبما يفعل، وبأنه سوف

يحقق أهدافه. هذا الإيمان الكلي بالذات جذب إليه عدداً من المناصرين مثل تشارلي الذي سوف يساعده بسخاء لاحقاً.

تشارلي هو والد الأخوات سونغ الثلاث، وآنذاك كانت ابنته الكبرى إي–لينغ في الخامسة، وابنته الصغرى ماي–لينغ لم تكن قد ولدت. أما الوسطى، تشينغ–لينغ، التي ستتزوج سون لاحقاً – رغم غضب تشارلي واعتراضه –، فكانت طفلة عمرها سنة واحدة.

حين عاد سون يات–سين ورفاقه من هاواي، بناء على نصيحة سونغ تشارلي بداية ١٨٩٥، باشروا الإعداد لانتفاضتهم. انضم إليهم مدير مصرف في هونغ كونغ يدعى يونغ، مع أعضاء جمعية "منتدى الكتاب"، وكان يرتدي غالباً بذلة من ثلاث قطع ويضع محرمة مزخرفة في جيب سترته، ويعتز بما لديه من صلات جيدة مع مجتمع الأعمال في المقاطعة. جلب معه دعماً مهماً من الصحف المحلية الإنكليزية والصينية، ووعد بتجنيد عمّال عوضاً عن قطّاع الطرق. يفوق عدد المنتسبين إلى "منتدى الكتاب" عدد رفاق سون، ومعظمهم كانوا حذرين منه. كتب أحدهم في مذكراته في ٥ أيار/ مايو ١٨٩٥: "يبدو سون يان سين طائشاً ومتهوراً. قد يخاطر بحياته من أجل الشهرة". وفي ٢٣ حزيران/ يونيو: "سون يريد أن يستمع الجميع له. هذا مستحيل". وعلّق عضو آخر: "أنا لا أريد أن تربطني أي علاقة بسون".

هكذا، عندما التقت المجموعتان لانتخاب "رئيس" لنظامهما الجديد، فاز يونغ. غضب سون لأنه صاحب فكرة الانتفاضة والرئاسة من حقه. وتشانغ، زعيم ترياد، غضب أيضاً وقال لسون: "دعني أتعاطى مع يونغ، سوف أزيحه من دربنا. عليّ أن أقتله فقط". لكن أحد الرفاق حذره: "إذا قتلته، سوف تورطنا في جريمة قتل في هونغ كونغ، ولن نستطيع متابعة العمل من أجل الثورة". وافق سون على اعتبار يونغ رئيساً حتى السيطرة على كانتون. باتت النزاعات الدامية على السلطة وشيكة حتى قبل أن تبدأ الثورة من أجل الجمهورية. كان طموح سون واضحاً ولافتاً منذ البداية – أن يكون رئيساً للصين – ومن أجل ذلك كان مستعداً لإراقة الدماء.

قرر الرفاق وضع خلافاتهم جانباً وتحديد اليوم التاسع من الشهر التاسع القمري للشروع في العمل، وهو يوم زيارة المقابر وفق التقاليد. عائلات كثيرة لديها مدافن في كانتون، وسوف يشهد اليوم حشوداً غفيرة، وهذا يشكل غطاء للثوار كي يتمكنوا من دخول المدينة.

تلقت السلطة في بيجينغ تحذيراً بشأن الخطة من الموظفين العاملين في الدول التي كان سون يجمع فيها المال خفية ويشتري السلاح من صينيين مقيمين في الخارج. وحذرت سلطة بيجينغ حاكم

كانتون الذي علم بالأمر من مخبريه. لم يصدر الحاكم أمراً بإلقاء القبض على سون لكنه اتخذ إجراءات أمنية ووضع سون تحت مراقبة هادئة ومحكمة.

أحسّ سون بالخطر. ثم حدث إرباك في اللحظة الأخيرة: لم يستطع العمال الذين وظفهم يونغ في هونغ كونغ الوصول في الوقت المناسب فطلب تأخير المهمة يومين إضافيين. قرر سون إجهاض التحرك برمّته. وفي صباح اليوم الموعود، بلّغ الرفاق بإلغاء الخطة، فدفع تشينغ لرجال العصابات الذين جمعهم أجرهم وذهب كل منهم في حاله. هرب تشينغ على المركب المسائي إلى هونغ كونغ، لكن سون شعر أن المرفأ يخضع بالتأكيد لحراسة مشدّدة من الجنود، ولذلك قرر اعتماد سبيل آخر.

في ذلك المساء، أقام القسّ المحلي، الذي كان صديقاً لسون، مأدبة للاحتفال بزواج ابنه. واختيار يوم تخصصه التقاليد لزيارة المقابر والعناية بها من أجل الاحتفال بزفاف أمر غريبٌ بالفعل، والصينيون يرونه نذير شؤم. ربما أراد القسّ أن يكون الاحتفال غطاء لهرب سون الذي قصد مكان الاحتفال وهناك ضاع في الحشد وتسلّل إلى نهر بيرل حيث كان مركب صغير في انتظاره. أبحر المركب في اتجاه مجرى النهر في روافد لم يكن حتى المراكبيّ يعرفها. سون تولّى إرشاده؛ من الواضح أنه درس الأمر بعناية. في البداية، قصد ماكاو، حيث مكث في الخفاء بضعة أيام، ثم انتقل إلى هونغ كونغ حيث تحرك بحرية. لم يشأ سون أن يعرف أحد أنه أول من هرب.

صديقه لُو لم يكن معه حين قرر إجهاض الخطة، ولم يتمكن من الهرب في الوقت المناسب. أُلقي القبض عليه وقُطع رأسه. كما أن عدداً من قادة التحرك وقعوا في قبضة الشرطة حين وصلوا إلى كانتون مع مجنديهم قادمين من هونغ كونغ، وحُكم عليهم بالإعدام. سُجن عدد كبير من العمال، لكن سون كان قد رحل منذ مدة. هاجمته صحف هونغ كونغ لأنه تخلى عن رفاقه وتركهم يواجهون مصيرهم. إنه على الأرجح لم يعرف كيف يمكنه مساعدتهم دون تعريض نفسه للخطر. ورغم ذلك، أثبت بخطته المحكمة للهرب أنه داهية ويعرف جيداً كيف يحمي نفسه.

في هونغ كونغ، طلب سون من الدكتور جايمس كانتلي أن ينصحه بما يمكن أن يفعله، وهو أستاذه في كلية الطب وتربطه به صداقة وثيقة. هذا الدكتور، بعينيه العطوفتين ولحيته الفكتورية الكثيفة، كان مندفعاً ومفعماً بالحماسة، ويحب التعليم، وهو راديكالي مُحبط ويميل بطبعه إلى المغامرة. كان معارضاً بحدّة لحكم المنشويين في الصين، وهو في موطنه يتمسك بقوميّته الاسكتلندية. كتب عنه أحد أصدقائه قائلاً: "إن أبرز سماته الاستثنائية قوميّته النقية". أثناء دراسته الطب في لندن كان يرتدي التنّورة الاسكتلندية كل يوم، وكان هذا الأمر مستغرباً آنذاك. كانتلي سوف ينقذ حياة تلميذه السابق ويساعده في الانطلاق في عمله السياسي.

أرسل كانتلي، المتعاطف للغاية، سون إلى محامٍ، فنصحه الأخير بمغادرة الجزيرة في الحال. كانت بيجينغ تريد إلقاء القبض عليه وعلى رفاقه المتآمرين وتسليمهم جميعاً لسلطة بلادهم. رحل سون (وتشانغ) على أول مركب بخاري من هونغ كونغ إلى اليابان. هناك اكتشف سون أن السلطة اليابانية تسعى بدورها إلى تسليمه فقرر المغادرة. ومن أجل إخفاء هويته، قصّ سون ضفيرته (كان يكرهها على أي حال)، وأرخى شاربه، وارتدى بذلة غربية. غادر إلى هاواي وهو يبدو كرجل ياباني حديث المظهر.

جرى التداول بلائحة من المطلوبين يتصدّرها اسم سون. ووصلت الجائزة للقبض عليه إلى ألف دولار من الفضة؛ هكذا بدأ سون يات–سين حياته سياسياً منفيّاً من بلاده.

في هاواي، حاول سون جمع ما يكفي من المال من أجل محاولة جديدة. هذه المرة كان مسعاه فاشلاً تماماً. كان الناس إما غير موافقين على العنف في عمله، وإما خائفين من التورط معه. كانوا يرفضون الإصغاء إليه ويبتعدون من حوله. لكن سون الذي لا يهاب المخاطر لم يتأثر بالإحراج. فكر في ما وراء هاواي ورحل إلى القارة الأميركية في حزيران/ يونيو ١٨٩٦. بعد انتقاله من الشاطئ الغربي إلى الشرق، اتصل بالصينيين المقيمين وحدثهم عن الثورة قبل أن يطلب منهم التبرع لها. لكن الأحياء الصينية أقفلت أبوابها في وجهه سواء في سان فرانسيسكو أو نيويورك. وقد وصف ما كان يجري لاحقاً بأن أبناء وطنه عاملوه كأنه "ثعبان سام، أو عقرب مخيف". قلة من المسيحيين فقط تحدثت معه. وبعد مرور بضعة أشهر غير مجدية، غادر عبر الأطلسي إلى بريطانيا.

كانت بيجينغ تراقب تحركاته. استخدمت المفوضية الصينية في لندن وكالة Slater للتحري من أجل هذه المهمة. وفي الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، سلّم مدير الوكالة، هنري سلايتر، المفوضية تقريره الأول الذي ورد فيه:

> بناء على تعليماتكم أرسلنا أحد مندوبينا إلى ليڤربول من أجل مراقبة المدعو سين وُن (من أسماء سون) الذي كان مسافراً على متن الباخرة س. س. Majestic التابعة لشركة White Star ونضيف أن رجلاً صينياً تنطبق عليه الصفات المعطاة شوهد وهو ينزل من الباخرة المذكورة في الثانية عشرة ظهراً البارحة إلى رصيف پرنس في ليڤرپول.

ثم أرسلت الوكالة تقريراً مفصلاً عن رحلة سون إلى لندن: القطار الذي كان يريد أن يستقله ولم يلحق به، والقطار الذي استقلّه، وكيف جمع حقائبه من غرفة الحقائب في محطة سانت پانكراس، وركب بعدها في سيارة تاكسي تحمل الرقم ١٢٦١٦ إلى أحد الفنادق.

في اليوم التالي، زار سون الدكتور كانتلي في منزله، في شارع ديڤونشاير رقم ٤٦ وسط لندن. عاد كانتلي من هونغ كونغ في شباط/ فبراير من تلك السنة. ولاحقاً أدلى بشهادته أمام السلطات البريطانية، وورد فيها أنه قبل مغادرته "أحد أصدقاء سون جاء إليّ وقال إن سون يريد رؤيتي وإنه الآن في هونولولو". غيّر كانتلي وجهة سفره ورحل إلى هاواي للقاء تلميذه السابق. كان الدكتور كانتلي بالفعل إنساناً عطوفاً.

ساعد كانتلي سون في تأمين سكن له. وكان الأخير أثناء إقامته يزور غالباً عائلة كانتلي، فهو لم يكن لديه أصدقاء غيرهم، كما لم يكن أمامه الكثير لفعله. وقد أورد المتحرّون في وصفهم لما يفعله خلال اليوم غالباً:

> تمشّى في شارع أكسفورد وتأمل ما تعرضه المحلات في واجهاتها... ثم دخل إلى مؤسسة تعاونية Express Dairy Co's في هولبورن حيث تناول طعام الغداء، وعاد بعدها إلى Gray's Inn Place في الرقم ٨، الساعة ١:٤٥ بعد الظهر. خرج ثانية وتوجه إلى مطعم في هولبورن وبقي هناك ثلاثة أرباع الساعة ليعود بعد ذلك إلى Gray's Inn Place في الرقم ٨، في الساعة ٨:٣٠ مساء، ولم يخرج بعد ذلك.

لاحظت الوكالة بعد أسبوع "أن عمليات المراقبة اليومية لم تبين شيئاً ذا أهمية؛ كان الرجل المقصود يتجول في الشوارع الرئيسية متفرجاً فقط". طلبت المفوضية الصينية من الوكالة الانتباه خاصة إلى زوار سون من الصينيين. رد سلايترز: "لم يره أحد يلتقي أي واحد من أبناء وطنه". بعد بضعة أيام توقف المتحرّون تقريباً عن مراقبته.

ذكرى مرور سنة على انتفاضة كانتون المجهضة باتت قريبة، وسون يجب أن يفعل شيئاً ما لأنه لا يريد لمبادرته أن تغرق في النسيان. خطرت فكرة في باله. إنّ مقر المفوضية يقع في Portland Place رقم ٤٩، وهو يمر أمامه حين ينزل من الحافلة في Oxford Circus ليتوجه إلى منزل الدكتور كانتلي، الذي يقع على مسافة ثلاث دقائق سيراً على الأقدام من مقر المفوضية. بسبب هذه المصادفة غير المتوقعة، قال له الدكتور كانتلي في أحد الأيام: "حسناً، لا أعتقد أنك ستذهب إلى المفوضية الصينية". ضحك سون، كما ورد في شهادة الدكتور كانتلي لاحقاً، وقال: "لا أعتقد ذلك". قالت له السيدة كانتلي: "إياك أن تفعل؛ سوف يضعونك على باخرة متوجهة إلى الصين لإعدامك هناك".

مع أن الأمر أضحكهم، لكن سون لم يكن مرتاح البال. بإمكانه الدخول إلى مقر المفوضية، وهو تابع للصين نظرياً، وافتعال حادثة ما، كأن يتجادل مع الموظفين مثلاً، أو حتى يتشاجر معهم، والأمر ينتهي بطرده إلى الشارع. هذا، في ظنه، أسوأ ما يمكن أن يحدث له، وقد ينجح في لفت انتباه

الناس بسبب ذلك. ربما لا يخلو الأمر من المخاطرة لكن سون ليس متهوراً. إنه يفكر ملياً في المجازفات التي عليه مواجهتها. بعد البحث الدقيق، توصل إلى استنتاج: "هذه إنكلترا. الوزير الصيني لا يستطيع اتهامي بأنني مجرم. حتى لو قرروا حجزي، هم غير قادرين على إيذائي. الوزير الصيني ليست له سلطة قضائية هنا، وليست هناك معاهدة لتسليم المتهمين بين الصين وبريطانيا". لم يرَ أنه من الممكن تهريبه من وسط لندن إلى الصين، فاستبعد هذا الاحتمال. كما استبعد اغتياله داخل المقر. من الأسهل بكثير على الحكومة الصينية أن تكلف قاتلاً مأجوراً للتخلص منه في غرفة فندق غير معروف. مقر المفوضية منزل يفتح بابه على الشارع الرئيسي وسط لندن، ومعظم موظفيه من البريطانيين. ومنهم مدبرة المنزل والسّاقي والخادم والبوّاب. ومن غير المعقول أن يشارك هؤلاء في قتله. إلى جانب ذلك كان المسؤول عن المفوضية في تلك المرحلة السير هاليداي ماكارتني الاسكتلندي، لأن الوزير الصيني غونغ كان مريضاً. هذه المعلومات حصل عليها سون من الدكتور كانتلي الذي يعرف وظيفة السير هاليداي، ويعرف أيضاً أين يقيم رفيقه الاسكتلندي.

سون، الذي يفكر في الدخول إلى المقر، أحسّ بالاطمئنان إلى أن المسؤول عن المفوضية بريطاني. فالبريطاني يعرف جيداً قانون بلده ومن المستحيل أن يتسبب في مقتله.

استشار سون الدكتور پاتريك مانسون، وهو أول عميد لكليته في هونغ كونغ. هو عالم مرموق وإنجازاته جعلته معروفاً بأنه "أبو الطب الاستوائي"؛ لم يوافق على نشاط سون في كانتون وطلب منه "التوقف عن هذا العمل". أخبر مانسون السلطة البريطانية لاحقاً بأن سون "تحدث عن نيته الدخول إلى المفوضية، فقلت له إنه من الأفضل ترك ذلك. فردّ بأنه سيأخذ بنصيحتي ولن يذهب إلى هناك".

لكن سون ذهب يوم السبت ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٩٦، في المدة التي ستحل فيها الذكرى الأولى لانتفاضة كانتون الفاشلة. دخل المبنى وسأل هل يوجد كانتونيون مثله هناك. تحدث معه تانغ، وهو يجيد الكانتونية. اتفقا على عودة سون في اليوم التالي ليذهبا معاً إلى المرفأ كي يلتقي تجاراً كانتونيين. بعد مغادرة سون، أيقن تانغ، عند إعادة التفكير في الحديث بينهما، أن هذا الرجل هو بالتأكيد سون يات–سين، أبرز المطلوبين من السلطات المنشوية. أبلغ تانغ الوزير غونغ بما حدث.

لم يكترث سون لأمر الوزير. غونغ بيروقراطي وهو في الواقع طموح جداً لكنه ليس بالفعل ذكياً. إن مجرد التفكير في المكافأة التي يمكن الحصول عليها من إلقاء القبض على هذا العدو وتسليمه للعرش جعله يأخذ المبادرة ويتولى إصدار الأوامر بنفسه، رغم حالته الصحية (توفّي بعد ذلك

ببضعة أشهر). صدرت الأوامر باحتجاز سون وإرسال برقية إلى بيجينغ بأن سون مجرم مطلوب يجب أن يمثل أمام العدالة، ومقر المفوضية أرض صينية، و"لذلك من الطبيعي القبض عليه".

صباح الأحد، طلب السير هاليداي من الخدم، وعلى رأسهم الساقي جورج كول الإنكليزي، ترتيب غرفة وتنظيفها في الطابق الثالث في الجهة الخلفية من المبنى من أجل احتجاز سون فيها. حين أتى سون، ادعى تانغ أنه يريد اصطحابه في جولة في أرجاء المنزل، وقاده إلى الغرفة، ورافقه السير هاليداي في الدخول إليها. هناك قال الاسكتلندي، بقامته المهيبة، لسون "الصغير" (كما سيصفه الصحافيون في لندن) أنه يعرف أن سون مجرم خطير في القانون الصيني. "الآن أنت هنا، وسوف تمكث عندنا ليوم وليلة، إلى حين وصول جواب من بيجينغ". ثم غادر الغرفة وأغلق الباب طالباً من كول الانتباه لمنعه من الهرب. تولّى كول حراسة الغرفة بالتنسيق مع سائر الخدم.

سون لم يتوقع ذلك. كان يفضّل أن يرموه خارجاً لا أن يسجنوه. حين سمع تانغ يأمر كول بوضع قفل آخر على الباب، وسمعهم يثبّتون القفل، ازداد قلقه. لم ينم في تلك الليلة.

أرسل الوزير غونغ برقية إلى بيجينغ معتزاً بما فعله لإخبارهم أن سون في الحجز، وأنه ينتظر أوامرهم. إنه ببساطة يجيد تنفيذ الأوامر. لكن بيجينغ لم تعرف ماذا تفعل. سبق لبريطانيا أن رفضت طلبها بالقبض على سون وتسليمه. طلبت الخارجية الصينية من الوزير ترتيب الأمر بنفسه: "كيف تريد نقله بحراً إلى كانتون وإيصاله إلى هناك دون أن تعمد إنكلترا لعرقلة الخطة؟ الرجاء الاتصال بمحامين واستشارتهم لدراسة الأمر بعناية لاتخاذ الإجراءات المناسبة قبل أي خطوة". بدت بيجينغ قلقة ممّا قد يتأتّى من أحداث، وإلى حد ما مستاءة من غونغ: "نتمنى منك أن تكون حريصاً جداً وأن تحسب الأمور بدقة".

طلب الوزير غونغ من السير هاليداي أن يجد حلاً. اتصل الاسكتلندي بصديق له يملك شركة للشحن بالبواخر تدعى The Glen Line of Steamers، للبحث في احتمال استئجار باخرة لنقل "مجنون" عبر المحيط. طلبت الشركة سبعة آلاف جنيه إسترليني من أجل سفينة حمولتها ألفا طن. أرسل غونغ برقية إلى بيجينغ يطلب فيها الإذن بذلك، وأضاف أنه في حال رفضهم سوف يكون مضطراً إلى إطلاق سون. لم تردّ الخارجية الصينية على البرقية. من الواضح أن مسألة تهريب سون من وسط لندن إلى الصين بدت لها غير ممكنة. لكنها لا تريد رفض الخطة، لأن هذا يعني إصدار الأمر بإطلاق سراح سون. السلطة في بيجينغ لم تشأ تحمل المسؤولية فالتزمت الصمت.

أقلع غونغ عن فكرته لأنه لم يحصل على الإذن بدفع سبعة آلاف جنيه إسترليني لـGlen Line. ولم يترك سون يذهب في حاله أيضاً. هو أيضاً لا يريد تحمل هذه المسؤولية. هكذا بقي سون في

الحجز.

داخل الزنزانة بدأ سون يحتاط من احتمال التعرض للتسمم. استفاد من تدريبه الطبي وعاش على الخبز والحليب المعبأ في قنينة والبيض النيّئ. ذات يوم دخل عليه المترجم تانغ وأخبره بأمر Glen Line، وهذا بالفعل أثار خوفه. طلب من تانغ "التوسّل" إلى الوزير، وعبره، إلى العرش، للصفح عنه، متعهداً أنه "لن يشارك في أي ثورة في ما بعد".

بات ملحاً له إيصال رسالة إلى الدكتور كانتلي. سلّم ملاحظات عدة لجورج كول، متمنياً عليه تسليمها للدكتور، وواعداً إياه بمكافأة كبيرة. كول أعطى الملاحظات إلى السير هاليداي الذي قال له إن سون "رجل مجنون"، فأحسّ سون أن ما كتبه لم يصل إلى الدكتور، وأخبر كول أنه بحاجة إلى الهواء المنعش، ففتح كول النافذة، وكانت مسيّجة بقضبان تمنعه من الهرب، لكن المجال بينها كان كافياً ليمد يده. رمى رسالة على سطح بيت مجاور بعد أن وضع فيها نقوداً معدنية كي يصبح وزنها مناسباً. رأى خادم صيني ما فعله سون، وكول صعد إلى السطح وحمل الورقة إلى السير هاليداي. طلب الاسكتلندي منه إغلاق النافذة بالمسامير.

مع الوقت تمكن سون من إقناع كول بأنه ليس "رجلاً مجنوناً" بل أشبه بزعيم حزب معارض، "ولأنني زعيم هذا الحزب احتجزوني هنا. يريدون تقييدي وإسكاتي، ووضعي على سفينة وترحيلي إلى الصين". تأثر كول بكلام سون وسأل مدبرة المنزل السيدة هُووي هل من المفروض مساعدته. ردت هووي: "لو كنت مكانك، كنت سأساعده، يا جورج!" قبل أن يحمل كول رسالة سون إلى الدكتور كانتلي، أخذت هذه السيدة الحنونة المبادرة لفعل ذلك. كتبت رسالة لا تحمل اسماً ووضعتها تحت باب منزل الدكتور. تقول الرسالة: "لك صديق مسجون في المفوضية الصينية هنا منذ الأحد الماضي. إنهم ينوون ترحيله إلى الصين، وهناك سيعدمونه بالتأكيد. من المؤسف ترك هذا الرجل المسكين. إن لم يفعل أحد شيئاً لإنقاذه، فسوف يتمكنون من إبعاده... لا أجرؤ على توقيع اسمي لكن هذه هي الحقيقة، ولذلك أرجوك أن تصدّق ما كتبت".

عندما سمع الدكتور كانتلي جرس الباب ووجد الرسالة، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً، في السبت ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر. مضى أسبوع على احتجاز سون. بدأ الدكتور حالاً حملة لإنقاذه. توجّه مباشرة إلى بيت السير هاليداي لكنه لم يجد أحداً هناك. استقل هنسوميه (hansom)[2] إلى مركز الشرطة في ماريلبون، وتوجهت به المركبة بعد ذلك إلى مقر سكُتلاند يارد. وجد صعوبة كبيرة في إقناع أحد بصحّة ما يقول. واعتقد المفتش في سكُتلاند يارد أنه ربما كان سكراناً أو

معتوهاً، وطلب منه الذهاب إلى بيته. أمضى الدكتور كانتلي الليل في الشارع خارج مقر المفوضية، لأنه خاف من احتمال تهريب سون.

2 مركبة بعجلتين، مقعد الحوذيّ فيها خلفيّ. (م.)

كتبت السيدة كانتلي في مذكراتها تقول إن ذلك الأحد كان "يوماً مشحوناً بالآمال والمخاوف. توجه هاميش (الدكتور كانتلي) في البداية للقاء القاضي أ... ثم السيد هـ... لكنه فشل في مساعيه لعمل شيء لسون يات–سين. بعد عودته من الكنيسة توجه لمقابلة مانسون وحاول مجدداً لقاء السير هاليداي ماكارتني. مانسون وقف في صفنا وبدا غاضباً من المفوضية. أتى رجل يُدعى كول، وتبيّن أنه سجان سون، وسلمنا بطاقتين صغيرتين وتوسّل إلينا أن ننقذه".

كتب سون على الجهة الثانية لإحدى هاتين البطاقتين: "أنا مخطوف في المفوضية الصينية منذ الأحد، وسوف يجري تهريبي إلى الصين لإعدامي هناك. أرجو مساعدتي بسرعة!" كُتبت هذه الكلمات بقلم رصاص أولاً وأُعيدت كتابتها بالحبر. على الجهة الأولى، فوق اسمه المطبوع "الدكتور ي. س. سون" دوّن سون اسم كانتلي وعنوانه، وأضاف في الأسفل: "أرجو الاهتمام بحامل الرسالة في الوقت الحاضر. إنه فقير جداً وسوف يخسر وظيفته بسببي"[3].

3 هناك أخطاء في اللغة الإنكليزية داخل الرسالة، وردت will Lost والصحيح أن تكون will lose. (م.)

حملت البطاقة الثانية التماساً أكثر إلحاحاً مكتوباً بالحبر فقط: "هناك سفينة شحن جاهزة من س. لا. لنقلي إلى الصين. سأكون سجيناً على متنها ولن يسمح لي بالتكلم مع أحد". "آه! الويل لي!"

توجه كانتلي برفقة الدكتور مانسون ومعه البطاقتان إلى سكُتلاند يارد للمرة الثانية، وانطلقا من هناك إلى وزارة الخارجية.

أحد أعضاء الهيئة الإكليركية في "الخارجية" تولى الأمر في الحال وبدأ الإجراءات المناسبة. توجه الأطباء إلى مقر المفوضيّة كي يدرك الجميع أن السلطات البريطانية على علم بما يجري. شعر أعضاء المفوضية أن اللعبة انتهت. أرسل الوزير كونغ في الحال برقية إلى بيجينغ يسأل هل من المفروض إطلاق سراح سون قبل أن تبدأ المشكلات مع الحكومة البريطانية. لكنه لم يحصل مجدداً على أي رد. لم يكن أحد يريد أن يقول: "أطلقوا سراحه". هكذا بقي سون محجوزاً في مقر المفوضية.

بينما خبّأ كبار القيّمين على السلطة في الصين رؤوسهم في الرمال يتمنون زوال المشكلة، استمرت الاتصالات المكوكية بين "الخارجية" و"الداخلية" وسكُتلاند يارد. اللورد سالزبري كان

في الوقت نفسه وزيراً للخارجية ورئيساً لمجلس الوزراء، وبمرافقة الأخير نُشر فريق من رجال الشرطة خارج مقر المفوضية كي يكون على أهبة الاستعداد للهجوم على كل من يحاول إخراج سون خلسة من المقر. صدرت الأوامر لمراقبة كل السفن المتجهة إلى الصين. وفي الوقت نفسه، خضع كول للاستجواب. قدم الطبيبان الجديران بالاحترام كانتلي ومانسون شهادتيهما بعد تأدية القسم. بناء على هذه المعلومات، وفي الخميس ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر، بعد أحد عشر يوماً على توقيف سون، كتب اللورد سالزبري رسالة إلى المفوضية الصينية: ”إنّ احتجاز هذا الرجل عنوة في المفوضية الصينية هو في رأي حكومة صاحبة الجلالة خرق للقانون الإنكليزي وإساءة للامتيازات الديبلوماسية المعطاة لهيئة أجنبية، فهي لا تسمح بأي حال بإجراء كهذا. بناء عليه، لي الشرف أن أطلب إطلاق سراح سون يات–سين في الحال“.

استُدعي السير هاليداي إلى وزارة الخارجية لإبلاغه بطلب اللورد سالزبري. وافق على تنفيذ الأوامر وأجرى الترتيبات المناسبة لإطلاق سراح سون في اليوم التالي في المفوضية عند الرابعة والنصف بعد الظهر. في الوقت المحدد، في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر، قصد قائد الشرطة ف. جارفيس، وموظف من ”الخارجية“، مقر المفوضية لاستلام سون، يرافقهما دكتور كانتلي المرح.[4]

[4] بعد إطلاق سراح سون دبّت الحياة مجدداً في أوصال القيّمين على الأمر في بايجينغ فأرسلوا برقية إلى المفوضية تنصّ على استئجار باخرة لنقله إلى الصين، وتؤكد أنه يجب أن يكون مقيّد اليدين وتحت حراسة مشدّدة. من الواضح أن البرقية كانت ضرورية لإثبات المتابعة أمام المسؤولين في السلطة العليا. وجرى تعديل تاريخ البرقية إلى الوقت الذي كان فيه سون لا يزال في الحجز. أخبر الوزير غونغ من ناحيته، بايجينغ، أنه استأجر باخرة لترحيل سون إلى الصين عندما تدخلت الحكومة البريطانية.

عندما اقتيد إلى أسفل الدرج للانضمام إلى الدكتور كانتلي، بدا سون ”في صحة جيدة... مفعماً بالحيوية“. وكان مسروراً حين وجد نفسه محاطاً بمجموعة كبيرة من الصحافيين. الدكتور كانتلي هو الذي أبلغ الصحافة بالأمر، فاحتشد خارج مقر المفوضية مصورون ومراسلون ومتفرجون ساخطون، وانهالت عليه الأسئلة. في غضون أيام، كانت الصحف في أميركا وأستراليا وحتى في اليابان وهونغ كونغ وشانغهاي تتحدث عنه مستخدمة كلمة ”خطف“ في عناوينها.

كتب السيد هاليداي إلى *The Times* يقول إن سون أتى إلى المفوضية بملء إرادته. لكن اللورد سالزبري أشار إلى أن ما يهمّ البريطانيين هو أنه ”في الداخل... كان موقوفاً كسجين“. أنكر سون بحدة أنه أتى إلى المقر بملء إرادته، مضيفاً أنه لم يكن يعلم أنه مقر المفوضية أصلاً. أدلى بتصريحه بعد اختيار كلماته بعناية مشيراً إلى أنهم ”بادروا الكلام... ثم أجبروني على الدخول“. وبعد ذلك حين استجوبته الحكومة البريطانية بدا سون أكثر حرصاً وانتباهاً حين قال: ”لم يلجأ أحد

إلى العنف؛ كل شيء جرى بطريقة ودية''. أي عملية خطف بالقوة تستدعي تحقيقاً جنائياً، وهو في هذه الحالة يجب أن يصف ما حدث بعد القسم وقد تظهر الحقيقة في هذه الحال.

لكنه ليس بحاجة إلى هذا القدر من الحذر إذا ألّف كتاباً. وقد أسرع بالفعل إلى إصدار كتاب، بمساعدة كبيرة من الدكتور كانتلي، بعنوان لافت: *Kidnapped in London* [مخطوف في لندن]. احتل الكتاب المركز الأول في قائمة المبيعات وترجم إلى لغات عدة. صار سون مشهوراً، مع أن اسمه كان يثير ردود فعل متباينة. هدأ الرأي العام البريطاني بعدما أظهر حسن نيته تجاه سون. البريطانيون إجمالاً لا يحبذون الثورات العنيفة. صار أصدقاء السيدة والسيد كانتلي يشيرون إلى سون بسخرية قائلين: ''صديقكما المثير للمتاعب''. ولم يكد احتفظ بمؤيدين له في أوروبا غيرهما.

لكن سون كان معنياً بأن قصته وصلت إلى الراديكاليين الصينيين وصار معروفاً لديهم. هؤلاء طلبوا منه العودة واستعدوا لاستقباله. في تموز/ يوليو ١٨٩٧، قرر مغادرة لندن متوجهاً إلى الشرق الأدنى عبر كندا، ورجل الأمن الخاص الذي كان يرافقه أشار إلى أنه كان لديه برنامجاً حافلاً بلقاءات كثيرة، وأنه عندما كان يتحدث إلى الجمهور الصيني ''كانوا جميعاً يصغون إليه ويتابعون خطابه''. كما أنهم ساهموا في دفع التبرعات له. تمكن سون في ڤانكوڤر من استبدال بطاقة سفره في الدرجة الثانية ببطاقة لحجرة في الدرجة الأولى ودفع مئة دولار كندي لتغطية فارق السعر، كما ''ارتدى بذلة رسمية أنيقة لم يرتدِ مثلها من قبل''. شعر منذ ذلك الحين كما قال لصديق طفولته لوك تشان، وهو يضحك بمرح: ''إنني أحصل على ما أريد حيث أكون''. ولاحظ لوك: ''هذا صحيح بالفعل... هو قادر على السفر من مكان إلى آخر في العالم معتمداً على اسمه فقط. هناك على الدوام وسيلة نقل مؤمنة له، وبيت وطعام، والتمويل الكافي عندما يطلب ذلك... حتى كان بالإمكان تأمين سيارات أو مراكب إذا لزم الأمر''. إنّ تعرض سون للخطف في لندن جعله الثائر الصيني الوحيد الذي يحمل اسماً معروفاً على صعيد دولي.

بهذه الشهرة المكتسبة حديثاً، أخذ سون يات–سين يبحث عن مقر قريب من الصين يعدّ فيه لانتفاضات جديدة. سمحت له اليابان، التي هددته في الماضي بترحيله، أن يقيم على أرضها، وأعطته نفقات عيشه ووفرت له الحماية من الشرطة.

سنة ١٩٠٠، أخذت جماعة الفلاحين المعروفة بـ''بوكسرز''، التي تناصب الأجانب والمسيحيين العداء، تنشر الفوضى شمالي الصين. وبما أن الخطوات التي اتخذتها الحكومة المنشويّة بدت غير كافية للقضاء عليها، تشكل جيش من ثمانية حلفاء شمل اليابان وأميركا وبريطانيا وهاجم بيجينغ.

أُبعِدت الأسرة الحاكمة عن العاصمة ونُفيت إلى زيان، وهي عاصمة قديمة شمال غربي الصين. في هذه الفترة، بدا العرش الصيني مترنحاً. عرض سون على الحكومة اليابانية أن يعمد إلى تحريك العصابات لتستولي على مقاطعات عدة في الجنوب فيعلن تأسيس ”جمهورية“ برعايتها. واقترح أن يبدأ بتمرد ثلاثي على الشاطئ الشرقي–الجنوبي في تايوان التي صارت تحت الاحتلال الياباني منذ حرب ١٨٩٤–١٨٩٥. وتستطيع اليابان استخدام هذا التمرد كحجة للهجوم على أرض الصين انطلاقاً من تايوان.

بعد التداول المتأني رفضت طوكيو الخطة. قرر سون إيجاد حالة أمر واقع وطلب من صديقه تشينغ المضي قدماً بالتمرد على الساحل، وهو بنفسه انتقل إلى تايوان، حيث كان الحاكم الياباني ينتظر الهجوم بصبر فارغ. في بداية تشرين الأول/ أكتوبر، بدأ تشينغ الانتفاضة على الساحل الشرقي–الجنوبي ببضع مئات من الرجال. وتقدّم المسلحون باتجاه ”أموي“ وهو مرفأ كبير. لكن السلطة في طوكيو أصدرت أمراً صارماً تمنع فيه حاكم تايوان من التدخل، ومن إرسال قوات دعم أو أسلحة. فشل التمرد وتايوان طردت سون (بعد بضعة أشهر توفّي تشينغ فجأة في هونغ كونغ بعد تناول الطعام. ذكر تقرير الطبيب الشرعي أن سبب الوفاة سكتة دماغية، لكن ذلك لم يبطل الشك في احتمال التسمم).

عاد سون إلى اليابان، حيث شعر أنه غير مرغوب فيه. حاول إيجاد مكان آخر أكثر ترحيباً به بالقرب من الصين لكن عقبات كثيرة واجهته. تايلاند وهونغ كونغ البريطانية وفييتنام الفرنسية رفضت جميعها استقباله. كانت الحكومات الأجنبية تفضل التعامل مع الإمبراطورة دواغر سيزي التي استلمت السلطة. وفيما كان سون يسعى من الخارج لتحريك انتفاضة عنيفة، كانت الصين في هذه الأثناء تسعى إلى ثورة إصلاحية بعيدة من العنف في الداخل بتوجيهات الإمبراطورة. هذه السيدة المذهلة، التي كانت خليلة سابقة للإمبراطور، اعتلت العرش بانقلاب في القصر بعد وفاة زوجها في ١٨٦١، وحاولت الانتقال بالبلاد من القرون الوسطى إلى العصر الحديث. في هذا الإطار، شهدت الصين إنجازات عظيمة. في ١٨٨٩، تنحّت عن الحكم عندما وصل ابنها بالتبنّي، الإمبراطور هوانغزو، إلى السن القانونية واستلم السلطة بنفسه، لكنها بعد الحرب الكارثية مع اليابان استعادت نفوذها وبدأت الإصلاحات مجدداً في ١٨٩٨. [5] ورغم توقف عجلة الإصلاح بسبب مكيدة الاغتيال التي دبّرها لها الإمبراطور جوانغزو وما تلاها من عنف ”البوكسرز“، تمكنت من دفعها مجدداً إلى مستويات جديدة بعد السيطرة على الاضطرابات. في العقد الأول من القرن العشرين،

أعلنت مجموعة من الإصلاحات الرئيسية اشتملت على نظام تربوي جديد، وصحافة حرة، وحرية للمرأة بدأت بإصدار مرسوم في ١٩٠٢ يمنع تقييد الأقدام. كانت البلاد ستصبح ملكية دستورية بمجلس نواب ينتخبه الشعب. هذه الثقافة التنويرية انطلقت بسرعة كبيرة: ''ألف لي 'Li' (٥٠٠ كلم) في اليوم''، كما وصفها سون بنفسه. التقى سون الدكتور تشارلز هايغر، الذي عمّده، في لوس أنجلس عام ١٩٠٤، وقال له إن ''الإصلاحات التي ناضلت لتحقيقها أقرها عرش المنشويين''، وإن الصين تستطيع تجديد نفسها في ظل النظام الملكي. رد عليه سون ببساطة: ''يجب طرد المنشويين''.

5 تُنسب إصلاحات ١٨٩٨ عادة إلى الإمبراطور جوانغزو ورجال آخرين، فيما يُشار إلى الإمبراطورة دواغر سيزي بأنها بغيضة ورافضة للإصلاح. لكن هذا بعيد من الحقيقة، انظر كتاب:

يونغ تشانغ، *Empress Dowager Cixi*: *The Concubine Who Launched Modern China*، الفصل ١٩.

في ذلك العقد، اكتسب برنامج سون – طرد المنشويين وبناء جمهورية – شعبية بين الصينيين. كان آلاف الطلاب يقصدون اليابان في تلك المدة للدراسة، وكان عدد كبير منهم يناصر الحكم الجمهوري. عندما عاد إلى يوكوهاما بعد جولات في صيف ١٩٠٥ أخذ الناس يفدون إليه كأنهم حجاج. ذهب في موكب إلى طوكيو لإلقاء محاضرة في قاعة كبيرة مكتظة. وامتلأت الشوارع بحشود كانت تريد إلقاء نظرة على المرشد. حين وصل ببذلته البيضاء الرسمية علا دويّ التصفيق، وعندما بدأ يتكلم، ساد الصمت في القاعة.

سرعان ما تمكن سون من تشكيل منظمة Tong–meng–hui (''العصبة المتحدة'') في طوكيو، فمنظمة ''إحياء المجتمع الصيني'' التي أسسها في هاواي لم تعد موجودة. لم يكن مصير المنظمة الجديدة أفضل من مصيرها. وجّه زملاؤه اتهامات إليه بأنه يخصّ نفسه بالتبرعات، وأنه ''ديكتاتوري''. لم يكن سون يجيد العمل مع مجموعة. كان بطبعه يميل إلى اتخاذ القرارات وإعطاء الأوامر بنفسه مفترضاً أنه سيُطاع.

في ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٨، ماتت الإمبراطورة العجوز المهيبة. قالت صحيفة *New York Times* في تعليقها على الخبر: ''صارت الصين بعد رحيلها بحاجة ملحّة إلى قائد قوي... الصين بلا قيادة وتتداعى بسرعة''. كان التيار الأكثر قوة تيار الجمهوريين. المنشويون أجانب وحكم الأجانب يجب أن يسقط. ومع أن منظمة سون لم تكن ناشطة، واصل الجمهوريون الملتزمون النضال بأنفسهم من أجل تقطيع أوصال النظام الملكي.

بعد رحيل سيزي بثلاث سنوات، في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١١، انقلب نحو ألف جندي في مدينة وُوهان التي تقع على نهر يانغتزي وسط الصين. لم يكن الثوار هذه المرة من رجال العصابات

بل قوات حكومية تؤازر المدّ الجمهوري. كان سون في رحلة إلى أميركا في هذه المدة ولم يتسنَّ له قيادة الانقلاب. لي يوان–هونغ قائد عسكري، قصير وممتلئ الجسم، متواضع ومحبوب جداً من الجنود والسكان المحليين (أطلقوا عليه لقب ''البوذا'')، تحمّل المسؤولية وتولّى القيادة. كان أول رجل عالي الشأن والمكانة ينضم إلى الثوار، وهذا ترك تأثيراً هائلاً في مسار القضية.

سرعان ما انضم هوانغ زينغ إلى لي، وهو الرجل الثاني الأعلى نفوذاً بين الجمهوريين. كان هوانغ مقاتلاً شرساً قوي البنية وخشن الملامح. في ذلك الربيع، تزعّم انتفاضة في كانتون كانت صادمة رغم فشلها، وخسر في القتال اثنين من أصابع يديه. وهو الآن يتولى قيادة الهجمات المرتدّة للجيش النظامي، ويعزّز صمود المدينة كي تنتفض سائر الأقاليم وتنتقل إليها شرارة التمرد.

لم يسرع سون يات–سين في العودة. مضى أكثر من شهرين وهو في أميركا وأوروبا، وانتقل بعد ذلك إلى جنوب شرق آسيا. كان بحاجة إلى أن يتأكد أن النزاع سيكون لمصلحة الجمهوريين، لأنه عندئذٍ يستطيع العودة من دون المخاطرة بحياته. كانت تنقلاته بهدف الشهرة وإعلان نفسه. بمساعدة الطلاب الصينيين في الأماكن التي زارها، أبلغ الصحف، أو استخدم وسائل لإبلاغها، أنه من يدير الحراك، وأنه عند تأسيس الجمهورية سيكون أول رئيس لها. وأصدر بياناً رسمياً باسم ''الرئيس سون''. نشرت صحف في الصين مقابلات معه، وهذا رفع شأنه هناك.

ولتبرير طول غيابه أمام الثوار، أرسل سون برقية إلى هوانغ يقول فيها إن إقامته في الغرب هي للحصول على دعم ديبلوماسي، وهذا في رأيه أساسي لتحقيق النصر. ادّعى عبر الصحافة أنه يسعى إلى جمع ''مبالغ كبيرة''. وأكد أن عدداً من المصارف وعدت بتمويل الجمهوريين حتى آلاف الملايين من الدولارات عندما يتولى (سون) الرئاسة. حاول سون بالفعل لقاء أشخاص ذوي نفوذ لإعطائه حوالة مصدّقة أو مبالغ نقدية، وأثناء وجوده في لندن نزل في فندق Savoy، وهو من أغلى الفنادق، واستخدم الحوالة المصدّقة بسخاء. لكنه ظلّ يراوح مكانه. اقتصرت نشاطاته على الأحياء الصينية، ولم يجد سبيلاً إلى المؤسسات الغربية.

في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١١، بدأ البلاط المنشَوي مفاوضات سلام مع الجمهوريين إثر اندلاع الثورات في أرجاء الصين كافة. كان الجمهوريون بالتأكيد هم المنتصرين. شكّلوا حكومة مؤقتة وعيّنوا هوانغ زينغ رئيساً عليها، وهوانغ قَبِلَ التعيين. عندما وصلت الأخبار إلى سون يات–سين قرر الإسراع في العودة إلى الصين، ووصل إلى شانغهاي في الخامس والعشرين من الشهر نفسه. لم يعد أمامه مجال لإطالة غيابه. لا بد له أن يشهد ولادة الجمهورية، فهي رؤيته التي حرص

على استمرارها نحو عقدين. كما يجب أن يكون هناك للمطالبة بالموقع الذي يرى أنه من حقه: رئاسة الجمهورية الصينية.

٢

سونغ تشارلي: مبشّر ميثودي وثوريّ في السر

تشارلي، والد الأخوات سونغ الثلاث، كان واحداً من أوائل المؤيدين لسون يات–سين. وُلد سنة ١٨٦١، أي أنه من جيل سون ويشبهه أيضاً في أصوله المتواضعة. إنه ابن فلاح من جزيرة هاينان التي تقع مقابل الساحل الجنوبي للصين، وقد غادر منزله، كما فعل سون، من أجل البحث عن حياة أفضل ما وراء البحار، ولم يتجاوز الرابعة عشرة، مع أخيه الأكبر سنّاً. أول محطة له كانت جاوا، وبدا هناك كواحد من السكان المحليين، ببشرته الداكنة، وعينيه الواسعتين والغائرتين، وشفتيه المقلوبتين (لا تشبهان شفاه الصينيين). تبناه عم له وصحبه معه إلى أميركا وهو في السابعة عشرة. كان عمه يملك في الحي الصينيين المكتظ من بوسطن متجراً صغيراً للحرير والشاي، حيث استغله العمّ في أعمال بسيطة. لم يتعلم تشارلي القراءة والكتابة. كان يرغب في الذهاب إلى المدرسة، لكن عمه لم يسمح له. يبدو أن مسألة التبنّي بالنسبة إليه كانت وسيلة ليكسب عاملاً مجانياً. ليست هذه الحياة التي حلم بها تشارلي، فهرب بعد مضي بضعة أشهر. ذات يوم، في كانون الثاني/ يناير ١٨٧٩، قصد المرفأ وصعد إلى متن السفينة الشراعية Albert Gallatin التابعة لـUS Revenue Cutter، يطلب عملاً. عطف عليه القبطان غابريالسون، وصار عاملاً على السفينة. اعتقد القبطان على الأرجح أن تشارلي في الرابعة عشرة لأنه قصير القامة ولا يتجاوز طوله خمسة أقدام وبدا أصغر من عمره الحقيقي. لم يصحّح تشارلي سوء التفاهم هذا، لأن الناس يتعاملون معه كصبي بسهولة أكثر ويظهرون له عطفاً وحناناً.

كان تشارلي موهوباً في تحبيب الآخرين به. مرح وهادئ ويراعي مشاعر الآخرين. عمل بجهد وعناية. اعتبره القبطان غابريالسون في حمايته، وكان غالباً ما يدعوه إلى منزله في إدغار تاون بماساتشوستس. زوجة القبطان كانت ابنة شقيق القاضي بيس، وكانا يعيشان في منزل فخم. لأول مرة في حياته، ذاق تشارلي طعم الراحة والرفاهية والحياة العائلية الخالية من الهموم. كان السيد والسيدة غابريالسون ملتزمين التعاليم الميثودية، وكان تشارلي يرافقهما إلى الكنيسة أيام الأحد التي يمضيها في ضيافتهما. ترسّخ إيمانه الديني كما ازداد تعلّقه بالقبطان. عندما نُقل القبطان بعد ذلك

بسنة إلى سفينة شراعية ثانية – Schyler Colfax – في ويلمنغتون بنورث كارولاينا، ترك تشارلي عمله لينضم إليه. في هذه المدينة التي تفخر بعدد كنائسها، عرّفه القبطان إلى الكاهن توماس ريكود الذي عمّده في تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٨٠. نشرت الخبر إحدى الصحف المحلية، وورد فيه: "تشارلي هو على الأرجح أول واحد من أبناء الصين يتعمّد في نورث كارولاينا"، وأشار الخبر بحماسة إلى أن تشارلي "أثار اهتماماً كبيراً لدى الرعية المتديّنة". وجده الناس "لافتاً في تأثيره" وهو يصافح المصلّين في نهاية القدّاس، ويخبرهم عن المخلص ورغبته في العودة إلى الصين للتبشير بتعاليم **الإنجيل** بين أبناء شعبه.

تنصير تشارلي ساهم في زيادة الإعجاب به. في تلك المدة، كانت الكنائس البروتستانتية تنتشر بسرعة في الصين، وأثبت الميثوديون أنهم الأكثر تعصّباً بين "الجنود المسيحيين". صار تشارلي معروفاً لدى أبناء الرعية المتماسكة والضيّقة من الميثوديين الجنوبيين. وفي هذه المرحلة، تضاءل دور القبطان غابريالسون في حياته، وصار جوليان كار، المحب للخير وتاجر التبغ، هو كفيله. تسجّل في Trinity College (جامعة ديوك اليوم) في دورْهام القريبة، في نيسان/ أبريل ١٨٨١، طالباً غير اعتيادي لدراسة الإنكليزية و**الإنجيل**. تولى عميد المعهد براكستون كرايڤن والسيدة كرايڤن تدريسه الإنكليزية. وبعد ترينيتي قصد تشارلي Vanderbilt University في ناشڤيل بتينيسي، مقرّ الميثوديين الجنوبيين ليتدرب كي يصبح مبشّراً. أمضى سبع سنوات مع الميثوديين وهذه التجربة ستحدّد مستقبله ومستقبل بناته الثلاث لاحقاً.

في رسالته الأولى – والوحيدة – إلى والده، التي كتبها بعد مدة قصيرة من وصوله إلى ترينيتي، عبّر تشارلي عن تقديره للذين أحسنوا إليه وذلك في إطار من الاندفاع الديني:

والدي العزيز،

أكتب إليك هذه الرسالة اليوم لأخبرك عن أحوالي. تركت أخي في الهند الشرقية في ١٨٧٨ قاصداً الولايات المتحدة، وأخيراً[6] اهتديت إلى المسيح مخلّصنا... إن مدرسة الأحد في دورهام وترينيتي تساعدانني وأنا أريد أن أتعلم بسرعة[7] حتى أتمكن من العودة إلى الصين وأتحدث معكم عن عطف الأصدقاء في دورْهام وعن نعم الله... أذكر حين كنت طفلاً صغيراً أنك أخذتني إلى معبد كبير للصلاة للآلهة الخشبية... لكنني اليوم اهتديت إلى مخلص يرافقني حيث أذهب... أتوكل على الله وأتمنى أن أراك ثانية على هذه الأرض بمشيئة الله. نحن اليوم في إجازة وأنا أقيم في منزل السيد ج. س. س، في دورْهام. أرجو أن تكتب لي بسرعة بعد وصول رسالتي. أنا مشتاق لأعرف أخبارك. بلّغ أمي وأخي وأخواتي كم أحبهم وأحبك أيضاً... السيد والسيدة كار مسيحيان صالحان وهما لطيفان جداً في معاملتي.

6 أخطأ في كتابة كلمة finally فكتبها finely. (م.)

7 خطأ لغوي and I am [in] a great. (م.)

لكن رسالة تشارلي لم تصل والده. كان تشارلي قد أرسلها إلى الدكتور يونغ ج. ألين، وهو عميد إرسالية الميثوديين الجنوبيين في شانغهاي، كي يتولى مهمة إرسالها إلى والده. لكن الدكتور ألين طلب من تشارلي أن يرسل إليه اسم والده وعنوانه بالصينية، وتشارلي كان عاجزاً عن ذلك. هو أميّ في ما يختص بلغته الأم، لأن فقر عائلته حال دون إرساله إلى المدرسة ولأن الكتابة الصينية صعبة للغاية. اكتفى بنقل أسماء بعض الأمكنة – شانغهاي، هونغ كونغ، جزيرة هاينان – عن خريطة للمبشرين ودوّنها على رسم بسيط حاول أن يشير فيه إلى الموقع التقريبي لقريته. نقل اسم والده كما يلفظ باللغة المحلية. وبما أن هناك مئات – بل آلاف العائلات – التي لديها أبناء مهاجرين في ذلك الإقليم، كان من المستحيل على الدكتور ألين أداء مهمته. أقلع تشارلي عندئذ عن محاولة الاتصال بعائلته.

أحسّ أنه وحيد. وذات صباح في ڤاندربلت، انضم إلى مجموعة من الشبان لحضور قداس في كنيسة والمشاركة في الترتيل والصلاة والحديث عن تجربة العبادة والإيمان. يذكر أحد رفاقه، الكاهن جون س. أور، أن تشارلي "وقف صامتاً لوقت، ثم قال وشفتاه ترتعشان: أشعر أنني صغير جداً. منعزل ووحيد. بعيد جداً من أهلي. منذ زمن بعيد وأنا أعيش بين غرباء. أشعر أنني زورق صغير يطفو في مجرى نهر المسيسبي". وأضاف أور: "كانت دموعه تنهمر على خديه، وقبل أن يتمكن من إضافة كلام آخر التفّ حوله عدد من الشبان وأحاطوا به بأذرعهم وهم يؤكدون له أنهم يحبونه كأخ لهم".

كان تشارلي بالفعل يعامَل باستمرار بعطف وتقدير. نظر إليه الناس "بكثير من الاحترام، ونال إعجابهم بطموحه وجديته في متابعة طريقه في الكلية". لكن رفيقاً له في ترينيتي يدعى جيرم دود لاحظ أن "الشبان كانوا ميالين إلى مضايقته وتعريضه لأصناف المزاح". وفي ڤاندربلت، كان رئيس المعهد، الأسقف ماكتاير، قاسياً معه أحياناً. في نهاية دراسته، طلب تشارلي الحصول على تدريب إضافي في مجال الطب. لكن الرئيس رفض ذلك. وكتب للدكتور ألين رسالة يقول فيها بلغة متعالية: "يريد سون (سونغ) أن يبقى سنة أو سنتين لدراسة الطب ليصبح أكثر فائدة... إلخ. كفيله الكريم، السيد جوليان كار، ليس متردداً في متابعة رعايته له. لكننا ارتأينا ألا نستنفد 'الصيني' الذي داخله قبل أن يباشر العمل بين الصينيين. لقد جرب 'الحياة السهلة' ولا يبدي نفوراً من رفاهية حضارة أرقى. ليس هذا ذنبه...".

كان تشارلي يجيد ترتيب أولوياته، فرفض تقبّل الإساءة ببساطة. حافظ بإصرار على ''سلوكه الرصين''، وكان ''مهذباً جداً جداً''. ظلّ ''مرحاً ومفعماً بالحيوية''، وعند تعرضه للسخرية كان ''مستعداً دائماً للرد بأسلوب هزليّ''. لديه حسٌّ فطري بالدعابة. بعد عمادته كُتبت كنيته ''سون'' كتقدير تقريبي لكيفية لفظ الاسم بلهجته المحلية. ويذكر أحد رفاقه في ڤاندربلت، جايمس س. فينك، أنه ''عند تعريفه إلى بعض الشبان، ابتسم وقال: أفضّل أن أكون مبكّراً [soon] على أن أكون متأخراً''[8].

[8] أخطأ في اللفظ فقال بالإنكليزية: ''I'd radder be soon den too late''، والصحيح: than ،rather (م.)

كان هذا المظهر اللطيف إلى حدّ ما نتيجة جهد دؤوب وموجع أحياناً لكبت مشاعره. أحبّ تشارلي النساء وهو بعيد من ذلك، في هذه الرسالة إلى زميل له في الدراسة في ترينيتي سنة ١٨٨٢، وجاء فيها:

> الآنستان فيلد هنا لكنهما ستعودان إلى المنزل صباح الجمعة المقبل. أجد متعة كبيرة في رؤيتهما وأحبهما كثيراً... تبدو ترينيتي ممتعة الآن لكنني لا أعرف كيف ستكون بعد رحيلهما... الآنسة بيرغود هنا... وهي جميلة جداً كما تعرف. إنني ألتقيها والآنسة كاسي أحياناً. تتحدث بحيوية لافتة... كنا مستمتعين بتمضية النهار معاً. لم نكد نفتح الكتب... الآنسة مامي وزميلتان لها أتينَ للزيارة ليلة البارحة وكنا سعيدين برفقتهنّ... ذهبت مع فورتيستي لزيارة إيلّا كار وهذا أفضل ما يمكن للمرء أن يتمناه.

لكن الشاب لم يستطع أن يتقدم بأي خطوة إضافية في هذه العلاقة. لأن إيلّا كار المذكورة في الرسالة هي ابنة شقيق كفيله جوليان الذي يحسن إليه، وابنة أستاذ في المعهد. بعد ذلك بخمسة عقود قالت إيلّا لصحيفة *Greensboro Daily News* إنّ تشارلي كان يأتي غالباً إلى المنزل ليسمع عزفها على البيانو إلى أن طلبت منه والدتها ذات يوم ''أن يكفّ عن المجيء باستمرار''. فابتعد وودّعها تاركاً صورة له يبدو فيها ''في غاية الأناقة''.

كان قريباً جداً من الآنسة آني ساوثغايت، وهي ابنة رجل له نفوذه في دورْهام. وفي إحدى رسائله إليها التي يلمّح فيها إلى مشاعره، اعتذر في البداية لأنه أضاع عنوان أحد الأشخاص وأضاف: ''ترى، ما الذي يجعلني لا أخطئ في عنوانك ولا أقدر على ذلك؟''. ''لا مجال أن أقع في حب أي واحدة من ابنتي العمّ ر. (ريتشارد): الآنسة جيني ستعلن خطوبتها على شاب لا يتجاوز طوله سبعة أقدام وتسعة إنشات، والآنسة روس صغيرة وعمرها ١٥ عاماً فقط وقصدت منزل أختها لتمضية الصيف هناك. هكذا ترين أنه لا مجال أمامي للوقوع في الحب حتى لو أردت ذلك'' (بعد ذلك بسنوات سمّى واحدة من بناته، التي ستصبح السيدة سون يات–سين، روزاموند، على اسم روس).

بكلام صريح قدر الإمكان وحزين ومؤثر، عبّر تشارلي عن حبه للآنسة آني: ''أعتقد أنك في مكان ما. أتمنى أن تكوني سعيدة حيث أنتِ. يجب أن أعترف لك، يا آنسة آني، أنني أحبك أكثر من أي فتاة أخرى في دورهام. ألا تصدقينني؟'' لم يكن تشارلي قادراً على المضيّ أبعد من ذلك. يعرف أنه يحبها لكنه أحجم عن الاندفاع في حب بلا أمل، لأنه ''رجل صيني''.

اكتشف تشارلي أن السيطرة على المشاعر أمر ضروري جداً، وهو في ما بعد سيطلب من أولاده أن يعتادوا ذلك منذ الصغر. تذكُر ماي–لينغ، وهي الأصغر سناً بين الأخوات سونغ الثلاث، وهي طفلة تستمع لوالدها يقول لهم: ''لا تظهروا مشاعركم، وابتعدوا من العاطفية المفرطة''. ذات يوم ''بكت وذرفت دموعها'' لأن أخاها الأكبر يغادر البيت للمرة الأولى للذهاب إلى مدرسة داخلية، لكنها حبست دموعها في الحال حين رأت ملامح والدها ''تنقلب فجأة لتصبح قاسية وعابسة''. منذ ذلك اليوم نادراً ما كانت تبكي. ''أستطيع أن أعدّ المرّات التي بكيت فيها قبل أن أصبح أكبر سنّاً''.

رغم حالات الإحباط التي عاشها تشارلي، أحب هذه البلاد. ووضع في ما بعد على أعلى قائمة أولوياته أن يتلقّى أولاده الستة تعليماً أميركياً. كان هذا الهدف دافعاً له لتحصيل المال، وحين نجح في الحصول عليه أنفق الجزء الأكبر منه على تعليم أولاده، بناته الثلاث درسنَ في أميركا، وماي–لينغ كانت في التاسعة فقط حين ذهبت إلى أميركا وعاشت عقداً كاملاً هناك. المثير للدهشة بالفعل أن الفتيات عشنَ في الغربة دون رعاية، فلم يكن معهنّ أحد من العائلة ليهتم بشؤونهن. كان إيمان تشارلي راسخاً وثقته بالميثوديين والمجتمع الأميركي لا تشوبها شائبة.

وبما أنه كان يبدو دائماً ''اجتماعياً مندفعاً، وكثير الكلام والمزاح''، اعتقد بعض رفاقه في الدراسة أنه طائش، وكان من الصعب عليهم أن يتخيلوا أنه ''قد يشغل باله بأمر جدّي''. لكنه عكس تصوّرهم انشغل بأمر جدي، ووصل إلى قرار حاسم: كان مصمّماً على مساعدة وطنه الأصلي ليصبح شبيهاً بأميركا – guo–mei – ''الوطن الجميل''. وفي نهاية ١٨٨٥، غادر أميركا التي يحب إلى شانغهاي.

كانت شانغهاي في هذه الفترة واحدة من أكثر المدن إثارة وكوزموبوليتانية في العالم. تقع بجوار المكان الذي يندفع فيه يانغتزي، أطول نهر في الصين، إلى البحر، وكانت أرض مستنقعات منذ بضعة عقود فقط، قبل أن تسمح سلطة المنشَويين للغربيين باستثمارها. والآن ترتفع فيها أبنية أوروبية التصميم بجوار بيوت الخيزران الهشّة، وتتشابك الشوارع العريضة المرصوفة مع دروب يغطيها الطين وآثار دواليب عربات اليد وحدائق تمتد إلى حقول الأرز. خارج رصيف الميناء

المسوّر، والواجهة البحرية، وبمحاذاة الشاطئ حيث تنتصب ناطحات السحاب، تهزّ الأمواج العديد من الزوارق في مشهد مؤثر لمدينة مزدهرة تعجّ بالحياة.

اتخذ الدكتور ألين، الرئيس المسؤول عن إرسالية الميثوديين الجنوبيين، مقراً له في المدينة مكرساً حياته لإدخال الثقافة الغربية إلى الصين. وكان رائداً في ترسيخ أسس التعليم الحديث في الإمبراطورية القديمة. رجل وقور وله لحية طويلة وكثيفة. كان ألين عالماً متميزاً في الثقافتين الصينية والغربية، ويحظى باحترام وتقدير المثقفين والبلاط المنشوي على حد سواء. أنشأ مدرسة رائدة للذكور هي Chinese College–Anglo، قبل مجيء تشارلي، وكان تشارلي يمنّي نفسه بالتدريس فيها.

وجد ألين طموح تشارلي جريئاً وغير مقبول لأنه أمّيّ في الصينية. وفي رسالته إلى الأسقف ماكتير، لم يحاول ألين إخفاء انزعاجه: ''الأولاد والشبان في معهدناChinese–Anglo يتفوّقون عليه لأن المتقدمين منهم يعرفون الإنكليزية والصينية معاً... سون (سونغ) لن يكون يوماً ضالعاً في الصينية، وسيظل في أفضل الأحوال رجلاً صينياً مجرداً من انتمائه، ساخطاً وحزيناً حتى يجد مركزاً ويتقاضى أجراً يفوق مؤهلاته... المشكلة أنني لم أجد أحداً من الإخوة يرغب في وجوده''.

أبعد ألين تشارلي من شانغهاي وأرسله إلى بلدة صغيرة، كونشان، وصنّفه ''مبشراً محلياً''، وهذا يعني أن أجره أقل بكثير من المبشر الأجنبي. تألّم تشارلي كثيراً من ذلك. لكنه اكتفى بالإفصاح عن غضبه في رسائله إلى الآنسة آني وكبت رغبته في الانتقام من ألين.

لكنّ رئيس الإرسالية بدا مصمماً على معاقبة تشارلي بأساليب أخرى. رفض السماح له بالذهاب لرؤية عائلته بعد وصوله. هذه المرة غضب تشارلي ودافع عن حقه. ورغم ذلك، فهو لم يترك احتجاجه يصل إلى خلاف كبير، كما أكّد للآنسة آني. لم يتمكن من العودة إلى قريته إلّا في خريف ١٨٩٦. وجد والداه صعوبة في التعرّف إليه. وعندما أدركا أنه نفسه الصبي الذي اعتقدا أنهما فقداه إلى الأبد، انهمرت دموعهما من فرحهما بلقائه. وبعد اجتماع الشمل مدة قصيرة عاد إلى كونشان، على بعد ١٧٠٠ كلم.

واجه تشارلي صعوبات أخرى. لم يشعر أن الصين موطنه. كتب للآنسة آني يقول: ''إنني أمشي ثانية على الأرض حيث أبصرت النور، لكنها بعيدة من أن تكون موطناً لي. أشعر أنني في بلدي في أميركا أكثر مما أشعر بذلك في الصين''. كان بحاجة إلى برنامج مكثف ليتعلم الصينية المكتوبة، وعليه أيضاً أن يتعلم لغة كونشان المحكية. ''لغة الناس هنا تختلف تماماً عن لغتي الأمّ ولذلك أنا بالنسبة إليهم غريب كأنني في أميركا أو أوروبا''. ''السكان المحليون يسخرون منه. الأولاد

الفلاحون يعاملونه باستهزاء وينادونه ’القزم الصغير‘!“ (كان أقصر قامة من الرجل العادي هناك بطوله الذي يكاد يتجاوز خمسة أقدام).

استمر تشارلي في كفاحه بثبات وعزم. وتمكن أخيراً من التبشير باللغة المحلية، ولكن مع بعض التردد والتلعثم. كان يبوح بما يعانيه للآنسة آني. ورغم أن شوقه إليها هو بحد ذاته مصدر آخر لعذابه، حرص على أن تعكس رسائله إليها روحية الاعتدال والتفاؤل. عندما ماتت الآنسة آني في ١٨٨٧ كتب إلى والدها قائلاً إنه ”في حزن شديد“ عليها.

أواخر تلك السنة تغيرت حياة تشارلي: تزوج الآنسة ني كواي–تسينغ ابنة الثامنة عشرة. كانت الآنسة ني ابنة أكثر العائلات المسيحية شهرة في الصين، تزو غوانغ–كي (أطلق اسمها على مقاطعة في شانغهاي). كان تزو موظفاً مرموقاً في ظل نفوذ أسرة مينغ، وقد اهتدى بواسطة اليسوعيين في بداية القرن السابع عشر. تعاون مع ماتيو ريتشي على إدخال العلوم الغربية إلى الصين. لكن النسل الكاثوليكي توقف عندما تزوجت والدة ني بمبشّر بروتستانتي وتحولت إلى المذهب البروتستانتي، ما أثار ضجيجاً لافتاً.

مثل سائر أسلافها المشهورين كانت الآنسة ني مسيحية مخلصة في إيمانها وتقواها. وتشير ابنتها ماي–لينغ إلى ذلك لاحقاً فتقول:

> كانت والدتي كما عرفتها قريبة جداً من الله... أذكر وأنا طفلة أنها كانت تقصد غرفة في الطابق الثالث أعدتها للصلاة، وتمضي فيها ساعات وهي تصلي، وتبدأ غالباً قبل الفجر. وعندما نسألها عن رأيها في أمر ما، تقول: دعوني أسأل الله أولاً. لم نكن قادرين على استعجال ردّها، هذا السؤال لا يعني أنها مسألة تنتهي في خمس دقائق، وتقتصر على الدعاء بالبركة للطفل ومنح ما يطلبه. إنه يعني الانتظار حتى تشعر بأن الله يرشدها.

كان الناس بالفعل يقولون لها إن ما لديها ”من قوة الشخصية والصفاء الروحي يضيفان إلى ملامحها جمالاً“. كان لها حضور آسر. جميع بناتها وأزواجهنّ، رغم شهرتهم أو نفوذهم، طلبوا رضاها، وهي لم تمنحه بسهولة.

بدأت حياتها طفلة عنيدة ومستقلة. عندما حاولت والدتها ربط قدميها، كما فعلت مع ابنتيها الأكبر سناً، أبدت نفورها وعانت أياماً من ارتفاع في حرارتها. رضخ والداها وتخليا عن المحاولة ورضيا أنها ”بقدمين كبيرتين“ قد لا تجد زوجاً.

لكن تشارلي المبشر دخل حياتها، وعرفها إليه أحد أقربائها. كانا توأمين في الروح وعرفا طعم السعادة معاً. كتب إلى نورث كارولاينا معلناً حفل زفافه بكثير من المرح والظرف: سيتم الزفاف في

"شانغهاي، في الصين، في اليوم الرابع من الشهر القمري الصيني التاسع. وكل من يجد حلاً لهذا اللغز مدعو للحضور".

بيل بورك، صديق تشارلي من أيام ڤاندربيلت، زار العروسين في كونشان. كانا يقيمان في بيت القس في الإرسالية، وهو بيت صغير يقع في أسفل درب ضيق أو متمعّج، ويمتد من الرصيف حيث ترسو المعدّية، وكان في الوقت نفسه صالة لتناول الشاي. يذكر بورك جيداً أن قدمي العروس كانتا طبيعيتين: "خطواتها واثقة وتامة ورشيقة كأي سيدة أميركية". وجد تشارلي أخيراً رفيقة حياته التي سيناقش معها شؤونه كافة ويتخذ معها كل قراراته. كانا يلفتان انتباه الناس بأنهما "زوجان متناسبان".

أنجبا للمرة الأولى طفلة سمياها إي–لينغ، في ١٥ تموز/ يوليو ١٨٨٩؛ وتبعها خمسة أطفال: ابنتان: تشينغ–لينغ وماي–لينغ، وثلاثة أبناء: تسي–ڤين، وتسي ليانغ، وتسي–آن الذين أبصروا النور في ١٨٩٤، و١٨٩٩ و١٩٠٦. كان يشار إلى الأبناء الذكور بالأحرف الأولى من أسمائهم: ت. ڤ، ت. ل.، ت. آ.

توقع تشارلي تكوين عائلة كبيرة، وصمم على إرسال أولاده إلى أميركا ليتعلموا هناك، ولذلك استقال من عمله مبشّراً في ١٨٩٢. سرت بين المبشرين شائعة بأن "تشارلي ارتد لممارسة الشعائر الوثنية وعبادة الأوثان". كتب تشارلي رسالة إلى نورث كارولاينا يوضح موقفه: "لقد تركت الإرسالية لأنها لا تعطيني ما يكفي للعيش. لا أستطيع إعالة نفسي وزوجتي وأولادي بنحو خمسة عشر دولاراً أميركياً في الشهر". وأعلن: "سأكون ناشطاً مستقلاً في إرساليتنا الميثودية"، وكان صادقاً في وعده.

خاض تشارلي مجال العمل بخلفية متأمركة وشخصية مندفعة إضافة إلى المثابرة والموهبة، فكان النجاح حليفه. استورد آلات لمطاحن الطحين والقطن، وأسس دار نشر لطباعة **الإنجيل**، في وقت كانت فيه "الجمعية الأميركية للإنجيل" وتشارلي ينتسب إليها تقدم إنجيلاً إلى كل من يرغب.

دخل بسرعة في الوسط الراقي في شانغهاي، وشيّد منزلاً كبيراً لعائلته التي أخذت تزداد عدداً، وقد كان أقرب إلى التصميم الأوروبي منه إلى الصيني. زوّد المنزل بوسائل الراحة الأميركية، ونظام تدفئة، وشعر أنه "لن يكون أبداً صينياً إلى حد أن يجلس في غرفة باردة وهو يرتدي كل ملابسه" (لم يكن يحب الطعام الصيني أيضاً). كما التزم التصميم الأميركي في غرف النوم والحمامات. أوردت إي–لينغ في وصفها أن لدى العائلة

غرف الحمام المجهزة بأحواض "سوشو" الجميلة، تزينها من الخارج تنانين صفراء ومطلية في الداخل بطبقة رقيقة من الأخضر. وهي مزوّدة بالماء البارد، فيما يُسخّن الماء في الأسفل ويرفع إلى الأعلى... اعتمدت التدفئة على شبكات أنابيب تعمل بالغاز، وهذا ترف لم ينعم به كثيرون من الأجانب الذين يعيشون في شانغهاي. وبدلاً من تلك الأسرّة الخشبية القاسية والمسطحة التي لا يزال معظم الصينيين يستخدمونها، كانت لدينا أسرّة جيدة ومريحة وعليها فرْشات أميركية. كان الجيران يأتون لرؤية تلك الأسرّة، والضغط عليها بأصابعهم ليجدوا عيباً فيها، ويتفقون بينهم أنها غير صحية وتشكل خطراً على الأطفال.

وفق مقاييس الأثرياء في شانغهاي هذا المنزل الكبير والمريح والحديث ليس فخماً (لا يستدعي التباهي) إضافة إلى موقعه "في البرية"، في الحقول بعيداً من وسط المدينة. اعتقد الناس أن الزوجين غريبا الأطوار، لكن تشارلي كان لديه مبرر لذلك: إنه يسعى إلى توفير المال لدعم ثورة سون يات–سين من أجل الجمهورية.

السيدة لويز روبرتس، وهي مبشّرة أميركية، استأجرت شقة من أجل إصدار نشرتها الخاصة عن الإرسالية، وذلك في المَجْمع عند تشارلي، الذي يضم مكتبه بالإضافة إلى أنه منزل العائلة. وبصداقتها مع تشارلي شعرت "أن همه الأساسي، بعد عائلته، مساعدة بلاده لتصبح الموطن العظيم الذي تستحق أن تكون". عندما غادر تشارلي أميركا كان حلمه تغيير الصين، وهذا الحلم صار أكثر إلحاحاً منذ عودته قبل نحو عقد، في أواخر ربيع ١٨٩٤ حين التقى سون، وسهر برفقته لياليَ عدة وهما يتحدثان (ومعهما صديقهما المشترك لو). ترك ابن السابعة والعشرين تأثيراً عميقاً فيه، وبعد مغادرته، أخذ تشارلي يستعيد ما دار بينهما من أحاديث. أواخر تلك السنة، بعد نشوب الحرب مع اليابان وما تكبدته الصين من هزائم كارثية، عانى تشارلي من خيبة أمل مطلقة بالنظام المنشوي واقتنع بأن الثورة التي يروّج لها سون هي السبيل الوحيد لإنقاذ البلاد. ورأى أن سون هو الرجل المناسب؛ ثقافته غربية ويميل إلى الأنماط الغربية. وهو مسيحي ملتزم... أو هكذا ظن تشارلي (سون يتعرف إلى محيط تشارلي، ومن الطبيعي أن يحاول الفوز بالحظوة لديه عبر إثارة مسألة الإيمان الديني). كتب تشارلي رسالة إلى سون يحثه فيها على العودة إلى الوطن من هاواي لبدء العمل. ساهم في تمويل انتفاضة الكانتون، ورغم فشلها وإعدام لو ووجود سون في المنفى وجائزة مالية لمن يقتله، لم يتراجع تشارلي أبداً واستمر في دعم صديقه الهارب، فأرسل إليه المال بأساليب سرية على امتداد سنوات.

ما فعله تشارلي كان بالغ الخطورة. لو عرفت السلطة المنشوية به، لكانت ستلاحقه، والدكتور ألين، الذي لم يكن صافي النية تجاهه في الأصل، كان سيُلحق به أذى كبيراً بين أفراد الرعيّة. ألين يكره الثورات العنيفة وهو يعبّر عن موقفه في صحيفة يصدرها باللغة الصينية، فيستخدم أقسى

العبارات لإدانة سون يات–سين، ويرى فيه ''مجرماً خسيساً''. وجد تشارلي نفسه مضطراً إلى إخفاء قناعته السياسية، ونجح في ذلك. لم يشك أحد في أن رجل الأعمال الدّمث والثري والدعامة الراسخة في المجتمع في شانغهاي هو ثوري في السرّ. وقلّة من الناس خطر لهم أنه يخفي طبعاً انفصالياً ومتهوراً خلف ما يبديه من رقة ومودّة. وبناء على عدد قليل من اللقاءات تبنّى مشروع سون الخطير وشبه المستحيل. ورغم أنه لم يكد يعرف سون، كان مأخوذاً به حتى أنه كتب له: ''لم أعرف رجلاً بين الصينيين أكثر منك نبلاً وتعاطفاً ووطنية''.

بعد نجاح الثورة الجمهورية لم يطلب تشارلي شيئاً مقابل ما قدّمه من أجلها. لم يطلب لنفسه مركزاً أو شهرة، ولم يزر سون عندما وصل إلى شانغهاي وأقام فيها أسبوعاً في نهاية ١٩١١. اكتفى بالكشف عن سره، بشيء من التهور، للسيدة روبرتس حين سيطر الجمهوريون على شانغهاي في تشرين الثاني/ نوفمبر. دخل إلى مكتبها بخطوات متوثبة، وبدأت السيدة روبرتس تتحدث عما جرى الليلة الماضية بحماسة واضحة. أشرق وجهه وقال: ''الآن أستطيع أن أبوح لك بما جرى''. قالت السيدة روبرتس في مقابلة أجرتها معها محطة إذاعية أميركية بعد ذلك بسنوات: ''أخبرني عن صداقته الطويلة مع سون يات–سين، وكيف ساعده بكل الوسائل المتاحة، خصوصاً بإرسال المال. وأضاف بضحكة خافتة: مع أنني لم أفكر يوماً في كتابة وصل بالمبالغ التي أرسلتها''. وأشارت إلى أن تشارلي كان غالباً ما يضحك بهدوء، وتلمع عيناه فرحاً. سألها: ''ربما تسألين نفسك لماذا نعيش حياة بسيطة في هذا المكان؟'' فأجابت المبشّرة: ''لم أفكر كثيراً في الأمر، لكنني شعرت أنك أنت والسيدة سونغ لا تهتمان بالمظاهر، وأعرف أنك كريم جداً في الهبات التي تمنحها لأنشطة الكنيسة. كما أنك تنفق الكثير في سبيل تعليم أولادك''. ردّ تشارلي: ''هذا صحيح، لكنني ادّخرت قدر الإمكان من أجل قضية سون، لأنني شعرت أنه أفضل ما أستطيع فعله من أجل مساعدة بلادي''. ضحك ضحكة خافتة مجدداً وانتقل إلى موضوع آخر: كيف يقنع شقيقته بالمجيء إلى شانغهاي لتكون في أمان من جَيَشان الثورة.

الجزء الثاني

الأخوات وسون يات – سين

(١٩١٢ـ١٩٢٥)

٣

إي‐لينغ سيدة شابة "ذكية جداً"

حين صارت في الخامسة، سنة ١٨٩٤، قرر تشارلي وزوجته إرسال طفلتهما الأولى، إي‐لينغ، إلى مدرسة "ماكتاير" الداخلية الميثودية التي أسسها الدكتور ألين وأطلق عليها اسم الأسقف ماكتاير. لم يتردّد تشارلي في قراره رغم أن مؤسسَيْ المدرسة كانا يعاملانه بعداء أو استعلاء. كانت أفضل مدرسة للفتيات في شانغهاي، وهي مدرسة أميركية. إي‐لينغ بنفسها طلبت الالتحاق بها. لاحظت أن تلميذاتها لديهنّ أماكن خاصة للجلوس في الكنيسة يوم الأحد. حتى في هذه السنّ المبكرة أظهرت إرادة قوية وتقديراً للمكانة سوف يحددان مسار حياتها. لكن والدتها خافت لأنها لا تزال صغيرة جداً لتذهب إلى مدرسة داخلية. لكن إي‐لينغ أصرّت، وفي النهاية، تسجّلت لتبدأ الدراسة في فصل الخريف. احتجّت جدّتها تي وبكت. لا يلجأ أي صيني إلى إبعاد ولده إلّا إذا كان في حالة فقر مدقع، أما إرسال طفل بعيداً من البيت مع أن والديه يستطيعان إعالته، فيعدّ تصرّفاً "وحشيّاً". لكن تشارلي وزوجته أرادا تشجيع أولادهما على الاستقلالية، وفضّلا كبت مشاعرهما.

هناك دلالة أخرى على اندفاعها الذي سيجعلها أكثر النساء ثراء في الصين: كيفية تعاطيها مع حقيبة السفر التي حصلت عليها لتأخذها إلى المدرسة. قالت لإميلي هان التي تكتب مذكراتها إنها ظلت لأسبوع "تتابع التحضيرات والملابس و'الصندوق'، بانفعال شديد. إنه أول صندوق يخصّها وحدها، وهو صندوق جميل أسود لامع". لكنها عندما رأت ملابسها الجديدة داخله: "شعرت بخيبة أمل كبيرة... لأن الصندوق لم يكن ممتلئاً. وأصرّت على وضع ملابسها الشتوية فيه لتملأ الفراغ".

كما أن ابنة السنوات الخمس بدت منزعجة لأنها تحظى بـ"جلسات ممتعة لتناول الشاي في البيت؛ فهل ستحظى بذلك في المدرسة؟" وارتاحت فقط عندما وضّبت لها والدتها سلة من الحلويات التي اختارتها الصغيرة بنفسها: "علبة حلوى من السكر الأسمر والزبدة من غولاند وباوسرز، وعلبة من الشوكولاتة السوداء المرّة".

أخيراً جلست بقرب والدها في السيارة وهي ترتدي سترة من القماش الاسكتلندي المنقوش بالمربعات، وبنطالاً أخضر، وشعرها يتدلّى في ضفيرة على ظهرها، وانطلقا إلى المدرسة. لكن

حماستها زالت عندما ودعها والدها، فتعلقت برقبته رافضة إفلاتها. ظلت تتذكر هذا المشهد لعقود عدة، لكن لم تتذكر كيف تتمكن والدها من الابتعاد.

ذكرياتها عن المدرسة غلبت عليها المعاناة: كانت الطفلة الأصغر سنّاً، الطاولات في الصفّ عالية وقدماها لا تصلان إلى الأرض، ولذلك كانت تفقد الإحساس بهما أثناء ساعات الدراسة الطويلة. وصفت لاحقاً ذلك بقولها إنها كانت ''تتألم كثيراً، ولا أحد انتبه إلى الأمر أو حاول إيجاد حل مناسب''. اضطرت إلى أن تجد بنفسها طريقة لجعل الدماء تجري في عروقها. وقد يكون أسوأ ما تذكره هو فزعها أثناء الليل. بينما كانت الطالبات الأكبر يعملنَ على إنهاء فروضهنّ، كانت ''تستلقي على سريرها وحدها في قاعة النوم الكبيرة في الطابق العلوي وهي ترتعد من الخوف''. لم تكن تشعر بالراحة إلّا عندما تسمع الفتيات ينشدنَ ترتيلة ''ابقَ معي'' بعدما ينتهينَ من واجبهنّ المسائي ويبدأنَ التوجه إلى قاعة النوم. فهذا كان يعني أنها لم تعد وحدها، وأنها تستطيع أن تنام عند سماع أصواتهنّ وهنّ يرتلنَ. ظلت طوال حياتها عندما تسمع لحن هذه الترتيلة تشعر بارتياح عام.

في ''ماكتاير''، صارت إي–لينغ أقوى شخصية وأكثر اعتماداً على الدين. لم تخبر والديها أبداً بمأساتها. والدها ووالدتها لا يحبان النواح. حياتها في المدرسة في سنوات طفولتها تعني أنها كانت في معظم الأوقات منعزلة ودون رفيقات من عمرها. صارت وهي تكبر في السن انطوائية وحتى منفّرة. طوال حياتها لم يكن لديها سوى عدد قليل من الأصدقاء المقربين، ولذلك عند تعرّضها لحملات انتقاد شاملة ضدها لم تجد من يدافع عنها.

ابنة عائلة سونغ الثانية، تشينغ–لينغ، كانت أصغر منها بثلاث سنوات، فقد وُلدت في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٨٩٣. كانت صحتها رقيقة في طفولتها، ثم كبرت لتصبح فتاة ''حالمة وجميلة''، ''هادئة ومطيعة''، والأقرب إلى والدتها. تلقت تعليمها في البداية في المنزل، ولم تذهب إلى ''ماكتاير'' حتى صارت في الحادية عشرة. ربما تكون السيدة سونغ شعرت بمعاناة إي–لينغ فأشفقت على ابنتها الثانية الضعيفة. كانت تشينغ–لينغ تتبع والدتها حيث تذهب، وهي تفكر بهدوء. اختلفت تماماً عن أختها في ردّ فعلها على المكانة المرموقة. تتذكر ذلك قائلة: ''في طفولتي كانت والدتي تصطحبني إلى الكنيسة أيام الأحد لأنها مسيحية ملتزمة في إيمانها. عند وصولنا يبعد القسّ ومساعدوه النساء اللواتي يرتدين ملابس بسيطة ويجلسن في الصف الأول لإفساح المجال لنا للجلوس!'' هذا السلوك أبعدها من الإرساليات، وزرع في أعماقها بذور تحولها إلى الشيوعية لاحقاً. كانت خجولة وودودة في الوقت نفسه، واستطاعت تكوين صداقات قليلة وحافظت عليها.

المنفتحة في العائلة هي الأخت الصغرى ماي–لينغ. ذهبت إلى "ماكتاير" وهي في الخامسة، لأنها أرادت منافسة أختها الكبرى. وُلدت في ١٢ شباط/ فبراير سنة ١٨٩٨ ممتلئة وصحتها جيدة ونشيطة. في الشتاء، كانت والدتها تلبسها سترة قطنية سميكة ومبطنة وبنطالاً فتبدو كأنها يقطينة هالووين[9]، وهذا جلب لها ألقاباً للسخرية منها لكنها لم تأبه. حذاؤها القطني "رأسا النمر"، كل فردة تحمل شارباً ملوناً وأذنين منفرجتين وعينيْن نافرتيْن مخيفتيْن. شعرها يتدلّى في ضفيرتين مربوطتين بشريط أحمر ومرفوعتين بحلقتين. موضة الفتيات الصغيرات تعرف باسم مزعج: "حفرتا السلطعون"، وهذا أيضاً لم يضايقها.

9 عشية عيد جميع القديسين. (م.)

في "ماكتاير"، اضطرت ماي–لينغ إلى المشي وحدها في ممرات مظلمة والتعويض عن تأخرها في دروس صعبة. وأصرت أمام معلماتها أنها لم تجد شيئاً صعباً أو مخيفاً. لكن واحدة منهنّ رأتها وهي تستيقظ مرتعشة في الليل، وتنزل عن سريرها لتقف بجانبه وتسمّع درسها. قررت المدرسة عندئذٍ إرسالها إلى البيت. استعادت الأخت الصغرى عندئذ روحيّتها المنفتحة والمرحة.

كانت حياة العائلة منظمة ومتدينة. ولأن "الله لا يرضيه ذلك"، لم يكن يُسمح لأحد باللعب بأوراق الشدّة ولا بالرقص الذي يعدّ من "أعمال الشيطان". أفراد العائلة يصلون كل يوم، ويزورون الكنيسة أيضاً. وجدت ماي–لينغ أن جلسات الصلاة العائلية مملّة، ولذلك أخذت تبتكر الأعذار لمغادرة الغرفة. كما كرهت العظات الطويلة في الكنيسة. تشينغ–لينغ أطاعت والدتها في كل ما تطلبه منها لكنها ظلّت بعيدة من الالتزام، فيما صارت إي–لينغ، ببطء وبثقة تامة، امرأة متدينة.

يبدو أن الأولاد بالفعل لم ينفروا من تزمّت والديهم. الأولاد الستة تأثروا بإخلاص والديهم وتفانيهما، لأنهم يرونهما قدوة لهم ويشعرون بالثقة والأمان من التزامهما. لم يكونوا مدلّلين مثل كثيرين من أبناء العائلات الثرية لكنهم استمتعوا على طريقتهم. السيدة سونغ التي تجيد العزف على البيانو كانت في معظم السهرات العائلية تعزف، فيما يغني تشارلي الأغاني التي تعلمها في أميركا. عندما تكون إي–لينغ في المنزل تنضم إليه في الغناء. شجع الوالد والوالدة أبناءهما على الركض في الحقول وتسلق الأشجار. تعلّم الأولاد أن يلعبوا مع بعضهم بعضاً. وكان مهما ينشأ من تنافس بينهم، يظل تحت السيطرة. هذه الصلة الحميمة والحنونة رافقتهم وهم راشدون، ودعّمت أعمدة وجدران "سلالة سونغ" التي سوف تشتهر لاحقاً.

كان السيد والسيدة سونغ مصممين على تأمين تعليم أميركي لأولادهما. قبل أن تصبح إي–لينغ في الثالثة عشرة اتصل والدها بصديقه القديم من ڤاندربيلت، بيل بورك، وأجرى الترتيبات اللازمة لكي يأخذها إلى أميركا. هذا المارد الأيرلندي اللطيف من ماكون في جورجيا، مركز الميثوديين الجنوبيين، حيث توجد كلية Wesleyan للفتيات، التي تتميز بأنها الأولى في العالم التي تعطي شهادات للإناث. كتب بورك رسالة إلى مدير الكلية، الكولونيل دو پون غيري، الذي رحّب بقبول إي–لينغ. عندما اصطحب بورك أفراد عائلته الصغيرة في رحلة قصيرة إلى أرض الوطن، أخذ معه إي–لينغ. في تلك الفترة، كانت أميركا تلجأ إلى إبعاد الصينيين والتضييق عليهم وضبط عدد الذين يودون الدخول إلى البلاد. من أجل تحاشي هذه المشكلة، اشترى تشارلي جواز سفر برتغالياً لإي–لينغ، وهذا الإجراء لم يكن مستغرباً.

في يوم مشرق من أيار/ مايو ١٩٠٤، وقفت إي–لينغ، ابنة الرابعة عشرة، برصانة وتأهب على مرسى الميناء في شانغهاي، ومعها صندوق مليء بملابس جديدة غربية النوع. كانت تنتظر ركوب زورق ينقلها مع أفراد عائلة بورك إلى السفينة الكبيرة، Korea، التي ستبحر بهم إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية. كانت أول امرأة صينية تتلقى تعليمها في أميركا. لم تبدِ أي حماسة أو حزن لمفارقة عائلتها، أو أي خوف من الرحلة إلى المجهول. ودّعت والدها الذي رافقها إلى السفينة بتحفظ، ومن دون دموع، عكس وداعها له في "ماكتاير" قبل ذلك ببضع سنوات. صارت الفتاة المراهقة مثالاً للانضباط. ومع ذلك، عندما أبحرت السفينة، انفجرت بالبكاء، لكن بصمت وفي زاوية منعزلة. بورك رآها، وقال بعد إنها المرة الأولى والوحيدة التي رأى فيها إي–لينغ تحت سيطرة مشاعرها.

كانت إي–لينغ تلفت الانتباه. ذات ليلة أقيمت حفلة بعد العشاء على سطح السفينة، وعُزفت الأوركسترا موسيقا الفالس. أتت إي–لينغ مع عائلة بورك لحضور الحفلة، فاقترب منها أحد الضباط المسؤولين عن السفينة، وطلب منها أن ترافقه في الرقص، هزّت رأسها بإصرار: "لا، شكراً، لا أستطيع". حاول الضابط استرضاءها: "حسناً، هذا أفضل وقت لتتعلمي. تعالي، سوف أعلّمك". ردت ابنة الرابعة عشرة بإصرار: "لا، ليس الرقص مناسباً لي". "لماذا؟" ردّت بجدية: "لأنني مسيحية، والمسيحيون لا يرقصون".

رافقتها عائلة بورك حتى يوكوهاما في اليابان، لأن السيدة بورك كادت تشرف على الموت من التيفوئيد الذي أصيبت به قبل الرحلة، وغادر أفراد العائلة السفينة ليبقوا معها. طلب بورك من زوجين على السفينة رعاية إي–لينغ. قصدت غرفتهما لتلتقيهما. لم يكونا في الداخل، ولكنهما قد

تركا باب الغرفة مفتوحاً، فدخلت تنتظرهما. في الممر، أثناء توجههما إلى غرفتهما، ارتفع صوت الزوجة وهي تقول: ”تعبت من هؤلاء الصينيين القذرين... أتمنى ألّا نرى أحداً منهم لمدة طويلة“. نهضت إي–لينغ وهما يدخلان وسرعان ما ابتكرت عذراً لمجيئها، وقالت إنها يجب أن تعود الآن إلى غرفتها. ثم قالت إن هذا الكلام جعل قلبها يتحجّر إلى الأبد. لكنها ارتاحت نسبياً بظهور مبشّرة أميركية في خريف عمرها تدعى الآنسة آنا لانيوس، طرقت على بابها وعرّفتها بنفسها ورافقتها طوال الرحلة (بين المسافرين على السفينة كان جاك لندن الذي يعود إلى بلاده قادماً من كوريا. إنه مؤلف كتاب *The Call of the Wild* [نداء البريّة] وهو شاب في الثامنة والعشرين كان يغطي أخبار الحرب الروسية–اليابانية، ويبدو أنه أرسل تقارير عنها أكثر من أي واحد من رفاقه المراسلين الأميركيين).

كانت بانتظار إي–لينغ صفعة أقوى من ذلك الكلام المعيب عندما وصلت السفينة إلى غولدن غايت في سان فرانسيسكو، في ٣٠ تموز/ يوليو ١٩٠٤. رفض موظفو دائرة الهجرة الاعتراف بجواز سفرها البرتغالي وهددوا بحجزها. تخلت إي–لينغ عن اتزانها وانفجرت غاضبة: ”لا تستطيعون وضعي في مركز الحجز. كنت مسافرة ولديّ غرفة، ولست مسافرة من الدرجة الدنيا“. قصدت أنها لا يجب أن تعامل كأنها من طبقة العمال. في النهاية، لم تتعرض للحجز، لكنها أُجبرت على الانتظار على متن Korea بصفة سجينة. وعندما حان وقت إبحار السفينة، نُقلت إلى سفينة ثانية، ثم إلى ثالثة.

مضت ثلاثة أسابيع وهي في هذا الوضع الملتبس. ظلت الآنسة لانيوس معها ورافقتها في انتقالها من سفينة إلى أخرى رغم أن والد الأخيرة كان يحتضر والكل ينتظر عودتها. أخيراً تمكنت إي–لينغ بمساعدة شبكة الميثوديين من دخول أميركا. تتذكر الآنسة لانيوس بمحبة، لكنها تتذكر معاملة المسؤولية لها بكثير من الغضب. ومن أجل الانتقال إلى جورجيا واجتياز ما تبقى من رحلتها، استقلّت القطار العابر للقارة، واحتفظت طوال الوقت بعبوسها وصمتها. رافق بورك إي–لينغ في القطار بعد عودته من اليابان إثر وفاة زوجته هناك. كان يتطلع ليعرفها إلى بعض الأماكن التي يجتازها القطار، عساه ينسى حزنه في سعادتها. لكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة. وصف بورك شعوره بأنه ”أحسّ كأنه يحاول الترفيه عن تمثال من الجصّ لعرض الملابس“.

إن قلة اكتراثها لتبدو مهذبة في التعامل مع الرجل الذي ساعدها كي تتعلم في أميركا، والذي فقد زوجته منذ مدة وجيزة، تدل على أنها سيدة صغيرة عنيدة للغاية. بعد مضيّ أكثر من سنة لم تكن قد نسيت تجربتها السيئة بعد. وعند وصول العمّ وين الذي أتى إلى واشنطن في عداد وفد من السلطة

المنشوية، أقنعته بالسماح لها بمرافقة الوفد إلى البيت الأبيض كي تطلع الرئيس ثيودور روزفلت على ما حدث. بالفعل قدمت إليه شكواها بصراحة، وأبدى الرئيس أسفه.

توقف القطار الذي يحمل الفتاة ذات الإرادة الصلبة في ماكون في ٢ آب/ أغسطس. وطوال خمس سنوات عاشت إي–لينغ كشابة أميركية ميسورة تستطيع متابعة تعليمها في كلية أميركية في بداية القرن العشرين. لكن تجربتها لم تكن عادية. ماكون بلدة متديّنة وفيها كنائس لمذاهب عدة مشيّدة بجوار بعضها بعضاً، وأبراجها وقببها تتنافس على الهيمنة عليها. لم يكن أبناء البلدة بالإجمال متحمسين لحضورها، إنها أول طالبة صينية شابة تعيش بينهم. أشارت *The Macon Telegraph* إلى مؤهلاتها المسيحية: ''إنها ابنة لجهودنا التبشيرية'' وWesleyan ''سوف تعدّها للنشاط المسيحي بين أهل بلدها في الصين''. وأوضح المدير غيبري: ''لن تفرض نفسها أو يتم فرضها على أي واحدة من زميلاتها في عمل مشترك يجمعهما''، وأصدر التماساً مبطناً: ''لا تساورني أي شكوك في أن الجميع سوف يعاملونها بلطف واحترام''.

هكذا لاقت إي–لينغ استقبالاً غير مريح، وهي بالتأكيد انتبهت إلى ما يجري. حتى عندما كان البعض يعاملها بلطف، كانت طريقة التعامل تبدو غير طبيعية. قررت أن تنزوي بنفسها لدرجة أنها حين صارت مشهورة بعد سنوات وطُلب من معاصريها استعادة ذكرياتهم عنها، لم يستطع أحدهم الإشارة إلى ما هو خصوصي بشأنها. تذكروا ''رصانتها'' و''وقارها الهادئ'' وأنها كانت ''طالبة جدية ومتزنة ومتحفّظة''. هذا كل ما قيل، إلى جانب ملاحظة أنها ''لم تستطع بالفعل أن تصبح واحدة منّا''. بقصر قامتها وملامحها العادية وميلها إلى البدانة، تمكنت بسهولة من ألا تلفت الانتباه ومن أن تنزوي في حرم الكلية تحت أشجار الدّردار والزّان لتقرأ وتدرس وتفكر. ارتدت ملابس أميركية وتخلت عن ضفيرتها ورفعت شعرها في تسريحة ''بومبادور''[10]. صباح أيام الأحد، كانت تنضم إلى رفيقاتها في النزول من أعلى التلة إلى الكنيسة الميثودية في شارع مالبري. لكنها لا تكاد تتحدث إليهنّ، وطوال خمس سنوات لم تكن لديها أي صديقة. هذا بعكس أختيها ووالدها الذين كان لديهم جميعاً أصدقاء في أميركا، وربطتهم بالبعض صداقات حميمة وصداقات استمرّت طوال حياتهم.

10 تسريحة للنساء يرفع فيها الشعر عالياً فوق الجبين. (م.)

كبرت إي–لينغ لتصبح مكتفية بذاتها ومتكبرة إلى حدّ كبير. إحدى زميلاتها انتبهت إلى أنها ''أهينت... حين قال لها أحد الأساتذة في Wesleyan إنها صارت مواطنة أميركية أنيقة''. قدمت

مرة عرضاً لأوبرا Madame Butterfly [مدام بترفلاي] أعدّته بنفسها، فوقفت على المسرح كملكة لا كضحية. طلبت من عائلتها أن ترسل إليها قماشاً حريرياً مطرّزاً كي تصنع الزيّ المناسب، فأرسل تشارلي أربعين يارداً. عرضها الرائع والغني بالألوان سحر زميلاتها الطالبات اللواتي حسدنَها ورحنَ يتهامسنَ عن ''صناديق الحرير'' التي لديها.

لاحظت الفتيات أن إي–لينغ تميل إلى الخوض في مواضيع جدية، وأنها كانت ''مطلعة جيداً على التاريخ الحديث، فيما لم يكن هذا يثير اهتمامنا''. آخر بحث قدّمته في الكلية يظهر ما لديها من نضوج سياسي يتعدّى سنوات عمرها التسع عشرة. تحت عنوان ''وطني وسحره''، انتقدت كونفوشيوس، ''أيقونة الصين الثقافية'': ''خطؤه الجسيم أنه لم ينظر إلى المرأة بما يليق بها من احترام. نحن نعرف من مراقبة ما يجري أن أي أمة تعجز عن النهوض والتميز حتى تعلّم نساءها وترى أنهنّ مساويات للرجال معنوياً واجتماعياً وفكرياً... إن نمو الصين سوف يتحقق بمعظمه عبر نسائها المثقفات''.

إن وصف إي–لينغ لحداثة الصين كان استثنائياً في دقته ومتقدماً على معظم الكتابات المعاصرة وحتى المستقبلية التي تطرقت إلى هذا الموضوع: ''نستطيع أن نحدد ١٨٦١ [11] على أنها بداية لنهضتها''. منذ ذلك الحين ''صار التحول الكبير الذي عرفته الصين واضحاً رغم أنه كان تدريجياً...''. وتابعت الشابة المراهقة: ''منذ اندلاع أزمة 'البوكسرز'، التي كانت في الواقع نعمة لا نقمة، عرفت الصين تطوراً سريعاً لم تشهد له مثيلاً من قبل''.

11 السنة التي استلمت فيها الإمبراطورة دواغر سيزي السلطة وبدأت تحديث الصين.

كانت تتابع ما يجري من أحداث في الصين وتكوّن آراءها الخاصة. كما أن سنوات الدراسة عمّقت إيمانها. كتبت مرة: ''الصين بحاجة إلى مزيد من المبشّرين''. تأثر المسؤولون عن الكلية بذكائها، وسرَّهم التزامها المسيحية. اقتنعوا بأن هذه الشابة الصغيرة ''سيكون لها دور مسيحي بارز'' في الصين. كانوا على حق، لأن إي–لينغ ساهمت بعد في تحوّل حاكم الصين شيانغ كاي–شيك إلى المسيحية، وساعدت في أن تصبح ماي–لينغ، السيدة الأولى، متفانية في تديّنها. هذه الأحداث تركت تأثيراً قوياً على تاريخ الصين.

في ١٩٠٨، خلال السنة الأخيرة لإقامتها في Wesleyan، انضمت إليها أختاها. حصلت تشينغ–لينغ على منحة من الحكومة قبل ذلك بسنة عندما كانت في الرابعة عشرة، وسافرت إلى أميركا مع مجموعة من الطلاب الذين فازوا بمنح دراسية أيضاً، وذلك بمرافقة موظف رسمي وزوجته: العم

والعمة وين. قرر الوالدان أنه لا بأس في إرسال ماي–لينغ مع أختها مع أنها لم تتجاوز التاسعة. لم يفكرا سوى أنها مع هذه المجموعة لن تواجه أي مشكلة في دخول الأراضي الأميركية. خاف السيد والسيدة سونغ أن تضيّع ماي–لينغ هذه الفرصة لمتابعة تعليمها.

وصلت الأختان ولم تعترضهما أي عقبات. ساعدتهما إي–لينغ على الاستقرار في Wesleyan وهي تفرط بالانتباه إلى التفاصيل الصغيرة وتساعدهما في كل ما تحتاجان إليه. هذا الجانب العاطفي في شخصيتها، الذي ظل مكتوماً مدة طويلة، وجد متنفساً له أخيراً. ستبدأ منذ الآن لعب دور الأم مع أختيها، وستستمر في ذلك حتى بعد أن تصبح كل واحدة منهما "سيدة أولى". اعتنت بنحو خاص بماي–لينغ التي تصغرها بنحو عقد. شاهدت إحدى الطالبات مرة إي–لينغ وهي توبّخ ماي–لينغ لأنها "تصادق فتاة تعتقد إي–لينغ أنها لن تترك تأثيراً جيداً فيها. ردت ماي–لينغ باندفاع: لكنني أحبها. إنها مدهشة". كانت الأخت الصغرى كطفلة مدلّلة وعنيدة تحاول استعطاف أحد والديها. وهي ترى أختها الكبرى قدوة لها، وفي Wesleyan، أذهلها ذكاء إي–لينغ. سوف تقول بعد إن أختها الكبرى هي بلا شك الأكثر ذكاء في العائلة. كما لاحظ مقربون من الأخوات بعد ذلك بسنوات أن ماي–لينغ تتصرف كأنها ابنة لإي–لينغ، فهي تنفذ كل ما تطلبه منها وتخضع تماماً لتأثيرها. وفي Wesleyan، ظهرت هذه العلاقة (على نحو غير مقصود) على المسرح في قاعة الكلية، في أوبريت *The Japanese Girl* [الفتاة اليابانية]. لعبت الأخت الكبرى دور الإمبراطور الياباني، والأخت الصغرى دور مرافق الإمبراطور.

في ١٩٠٩، تخرّجت إي–لينغ، وعادت إلى شانغهاي، فيما تابعت أختاها الدراسة في Wesleyan ونجحتا بسرعة في اكتساب صداقة الفتيات. كانت إي–لينغ في مستهل العشرينات ولديها طموحات كثيرة تريد تحقيقها في الصين. بدأت الثورة من أجل الجمهورية في ١٩١١، وأخبرها والدها عن علاقته بسون يات–سين. كان وصفه له يستحضر صورة شبيه بالمسيح يضحي بنفسه من أجل خلاص شعبه. صارت إي–لينغ تبجّل سون. مع أنها لم تلتقِ به، لكنها رأت فيه عمّاً وبطلاً ملحمياً. فيما حثّ تشارلي المبشرين على توفير الدعم للجمهوريين، أعدّت إي–لينغ عروضاً مسرحية لجمع المال لهم. سبق لتشارلي أن اقترح عليها إقامة حفلات موسيقية لجمع التبرعات، لكنها لم توافق، وهي الآن صارت متحمسة للفكرة. تبين أنها منظّمة من الدرجة الأولى، تتقن التصنيف والترتيب، ومبدعة في أفكارها. استأجرت مسرحاً كبيراً للحفلات، وكانت العروض بالإنكليزية، وكان هذا أمراً جديداً حتى في شانغهاي. كانت إي–لينغ تتوق للقاء بطلها وخدمة ثورته.

في هذه الأثناء، كان سون منشغلاً بمعركته من أجل رئاسة الجمهورية الآتية، ورأى أن هذا حقه. بدأ القتال عند وصوله إلى شانغهاي في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١١. لكنه جوبه بالنقد والجفاء لأنه لم يشارك في الانتفاضات ولأنه تأخر في العودة إلى الصين لأكثر من شهرين. عدد كبير من الثوار رأوه ''جباناً''. مراسل *The Times*، جورج موريسون، أشار إلى أن الجمهوريين ''يتحدثون بشيء من الازدراء عن رجل لم يكن أكثر من قارع طبول الثورة التي لم يلعب فيها أي دور فعلي، وكان دائماً بعيداً ليحمي نفسه''. ولأن سون ادعى أن وجوده في الخارج كان لجمع التبرعات للثورة، طالبه الصحافيون بأن يثبت أنه أحضر معه ''مبالغ ضخمة''. استعد سون للإجابة. تحاشى الكذب ببراعة، وضحك كأن السؤال غبي وممتع في الوقت نفسه، فقال: ''الثورة لا تعتمد على المال فقط، بل على الشغف. لم أحضر معي المال، بل العزيمة''. هذا الكلام يمكن تفسيره بمحاولة سون أن يفرض نفسه رئيساً. كان يجب أن يحصل على أصوات المندوبين من سبعة عشر إقليماً اندلعت فيها الثورة (من أصل اثنين وعشرين). صار الانتخاب هو الوسيلة الشرعية للوصول إلى مركز الرئاسة. اجتمع في نانجينغ نحو اثني عشر مندوباً للإدلاء بأصواتهم لانتخاب ''رئيس مؤقت''.

ونانجينغ عاصمة المملكة القديمة تقع أسفل سفح جبل الذهب الأرجواني، وتنعم بأجواء ثقافية مميزة. في ما مضى، كانت بيوتها الفخمة العائمة على صفحة مياه القناة وسط المدينة أماكن مشهورة يقصدها الشعراء وكبار الموظفين، لينعموا بالسهر بحضور ''الغيشا'' اللواتي يتمتعن بسرعة البديهة في نظم الشعر وتأليف الموسيقا، فيما يتناول الحضور كؤوس الخمرة العطرة المذاق. بعد الاستمتاع بالإصغاء إلى أبيات شعر تلاقي الاستحسان، كان الجميع يسخون بعطائهم للفقراء فيضعون النقود في أكياس صغيرة من المخمل معلّقة على أطراف عيدان القصب ويمدونها إلى المراكب المجاورة المعدّة للسكن. تبدو القناة ساحرة في ظلام الليل، وضوء المصابيح يومض من خلال نوافذ القوارب المغطاة بالورق الملوّن أو الشّعريات.

بعد الثورة من أجل الجمهورية، صارت المدينة مقراً لتِشين كي–ماي، عراب العصابة الخضراء، وهي أهم جماعة سرية في شانغهاي. كان يبدو رجلاً ضعيفاً لكن عينيه تزرعان الرعب، وشفتاه الرقيقتان تهمسان بأوامر فتّاكة. وهو متعصّب لسون. خلال اندلاع أعمال العنف أحكم سيطرته على شانغهاي، وتوسّع نفوذه ليفرضه على ذوي الشأن في نانجينغ القريبة حيث سيُجرى الانتخاب. كان المندوبون موالين له. لكن أحد المندوبين من فوجيان، يدعى لين تشانغ–مين، كان ينتمي إلى تنظيم سياسي مختلف، و''العرّاب'' أرسل قاتلاً محترفاً لينتظره في محطة القطار في

نانجينغ. أُصيب لين برصاصة لكنها لم تكن قاتلة. كانت الرسالة واضحة: لا علاقة لك بالانتخاب. ولين غادر بالطبع نانجينغ على وجه السرعة.

لكن "العرّاب" لم يكن لطيفاً إلى هذا الحدّ مع المعارضين العنيدين. أحد الرفاق القدماء، تاو تشينغ–زانغ، تحول إلى خصم ناقم على سون، وأخذ مناصروه يتهجمون على سون بقسوة، فاتهموه بأنه "كذاب"، و"يسعى إلى إثراء نفسه" و"مجرم بحق رفاقه". فقرر "العرّاب" تشين إسكاته إلى الأبد. أرسل أحد أتباعه المخلصين، وهو ليس سوى القائد الأعلى شيانغ كاي–شيك، لتنفيذ المهمة. عرف شيانغ أن تاو يقيم في مستشفى كاثوليكي في شانغهاي. دخل إلى غرفة تاو وهو يرتدي بزة أنيقة، وأطلق عليه رصاصة قاتلة من مسافة قريبة وهو في سريره. سجّل شيانغ هذه الحادثة في مذكراته وهو فخور بما فعل. وبما أن الثوار يثنون على سفاكي الدماء المأجورين اعتقد أنها ربما كانت بداية مشجعة تلفت انتباه سون إليه وفي الوقت نفسه تساهم في ارتفاع شأنه سياسياً.

وصف سون "العرّاب" بأنه "الرجل الأول في الانتفاضات من أجل الجمهورية"، رغم أن شانغهاي لم تكن أول مدينة تندلع فيها الثورة؛ كان دعامة أساسية لانتخاب سون رئيساً.

هناك مرشحان آخران: قائدا العصيان في وُوهان، المقدم في الجيش لي يوان–هونغ، والرقم الثاني بين الجمهوريين هوانغ زينغ. ولحسن حظ سون، لم يكن لدى أي منهما طموح إلى الرئاسة. هوانغ بالتحديد لم يجد نفسه معنياً باللعبة السياسية وطلب من مناصريه انتخاب سون.

هوانغ، الذي يشبه المارد، لديه شغف بساحات القتال، حيث يبدو كأنه يسعى للموت. يشن هجماته بنحو مفاجئ ويندفع بحماسة في قتال يبدو انتحارياً حتى ظن الناس أنه مجنون. كان هاجسه دائماً أن ينتصر في معاركه. رغم إحكام قبضته على وُوهان لأشهر وإطلاق شرارة الثورة في عدد من الأقاليم، أحسّ بالإحباط لأنه خسر المدينة. كان على متن مركب بخاري يجتاز نهر يانغتزي وينطلق من وُوهان إلى شانغهاي، فأطال التفكير وأحس بالاكتئاب وأخبر أصدقاءه أنه خسر وُوهان لأن الألمان أعطوا المدافع لجيش السلطة، وأنه يرغب في قتل ستة من الألمان كانوا على متن المركب. حاول صديق ياباني إقناعه بالعدول عن ذلك لأن المركب تمتلكه شركة يابانية ومن المؤكد أنها ستجري تحقيقاً شاملاً وسوف تشير أصابع الاتهام إليه في النهاية، وهذا مؤذٍ للقضية. اقتنع هوانغ على مضض وقال: "حسناً فلنرمِ الكومبرادور[12] الصيني في الماء ونغرقه. إنه يساعد الألمان في أعمالهم وهذا منفّر للغاية". وافق هوانغ على تأجيل القتل إلى اليوم التالي حتى نزولهم من المركب. ولاحظ الصديق الياباني أن ملامح وجهه أشرقت عندما أعطى الأمر بالقتل وأنه "استعاد حيويته".

أخبر هوانغ المجموعة أن القاتل الذي اختاره ممتاز في إصابة الهدف ”ولديه خبرة كافية“. أثناء تناول الغداء تفرّس القاتل جيداً في الكومبرادور كي يتذكره، فيما كان السيئ الحظ يأكل ويشرب بمرح. أحس الصديق الياباني برعشة تسري في عموده الفقري مع أن إراقة الدماء لم تكن أمراً غريباً بالنسبة إليه. سقط الكومبرادور إثر إصابته على حافة الممر الخشبي وهو يغادر المركب. لكن القصة لم تنتهِ هنا. بعد هذه الحادثة بمدة قصيرة استأجر أحدهم القاتل نفسه لاغتيال هوانغ وأجبره على قبول المهمة لأنه كان يحتجز والده رهينة عنده. علم هوانغ بذلك وواجه القاتل الذي اعترف بالحقيقة. طيّب هوانغ خاطره وأعطاه مبلغاً كي يتمكن من مغادرة الصين. وبعد ذلك بمدة عُثر على جثته على شاطئ بالقرب من طوكيو.

12 وكيل أو مستشار وطني تستخدمه مؤسسة أجنبية في الصين. (م.)

رأى هوانغ أن سون مناسب ليكون زعيماً. ومع ذلك، اضطر سون إلى تقديم تنازلات مهمة قبل الانتخاب. طلب سون من المندوبين الذين أتوا إلى شانغهاي لمقابلته إلغاء كلمة مؤقت من اللقب: ”الرئيس المؤقت“، لكنهم ردّوا عليه بأنهم غير مكلّفين انتخابَ رئيس فعلي. هذا الأمر سوف يجري لاحقاً وفقاً للأصول في عملية انتخاب شاملة. وشدّد المندوبون على أنهم سينتخبون رجلاً ”يتولى مهمة الإشراف على مفاوضات السلام“ بين الجمهوريين والعرش المنشوي. أكثر من ذلك، لأن الجمهوريين كانوا غير واثقين من النصر، تعهّدوا أنه في حال نجح يوان تشي–كاي، رئيس وزراء السلطة المنشوية، في إقناع العرش بالتخلي عن سلطته (لتفادي حرب أهلية)، فإنهم سون يؤيدونه بأصواتهم ليصير رئيساً مؤقتاً. وأبلغوا سون أن عليه احترام هذا التعهّد.

رضي بالتسوية، وفي ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر، انتخب المندوبون سون رئيساً مؤقتاً. توجه سون بقطار خاص من شانغهاي إلى نانجينغ، وأقسم اليمين في الأول من كانون الثاني/ يناير ١٩١٢. في تلك المناسبة، أعلن أنه يتعهد بالتخلي عن منصبه ليوان إذا وافق العرش على التخلي عن نفوذه.

قدم سون تعهده رغم أنه غير مقتنع، فحاول منع يوان من الاستيلاء على المنصب. وما دام الأخير لم يكن يستطيع تحقيق هدفه إلّا في حال نجاح مفاوضات السلام، حاول سون إقناع الجمهوريين بالانسحاب من المفاوضات ومواصلة القتال. لكن المندوبين ومعظم الزعماء الجمهوريين رفضوا ذلك. واجهه أحدهم قائلاً: ”لماذا تعارض مفاوضات السلام؟ هل أنت متمسك بالرئاسة لهذا الحد؟“

اتصل سون سرّاً باليابانيين وطلب منهم خمسة عشر مليون يوان كي يتمكن من إعداد جيش يواصل القتال. وفي المقابل، وعد "بتأجير" منشوريا لليابان بعد الإطاحة بالمنشويين. يعرف سون أن اليابان تريد وضع يدها على هذه المقاطعة الصينية الغنية التي تزيد مساحتها عن إنكلترا وفرنسا معاً، لكن اليابان رفضت طلبه.

في ١٢ شباط/ فبراير، تخلّى المنشويون عن العرش وسلّموا السلطة للجمهوريين. وفي اليوم التالي، وجد سون أنه مجبر على الرحيل. حاول فرض "شرط" يطالب فيه بأن تصبح نانجينغ العاصمة، وهي المدينة التي يحكم السيطرة عليها "العرّاب" تشين، كي تصبح مقر يوان. ظن أنه في ظلّ نفوذ "العرّاب" هناك لن يتمكن يوان أبداً من تولّي السلطة. رفض المندوبون "شرطه" وصوتوا على أن تبقى بيجينغ العاصمة. ارتفعت حدة غضب سون و"أمر" بتصويت ثانٍ مهدّداً بإرسال جيش "لمواكبة" يوان من بيجينغ إلى نانجينغ. لكن المندوبين رفضوا العدول عن قرارهم، ولم يكن لدى سون جيش ليرسله، فأدرك أنه استنفذ إمكاناته للتحرك. في ١٠ آذار/ مارس، في بيجينغ، أقسم يوان تشي–كاي اليمين وصار الرئيس المؤقت للصين، فلم يتولَّ سون هذا المنصب لأكثر من أربعين يوماً.

عاد سون إلى شانغهاي في نيسان/ أبريل ١٩١٢ كي يواصل مساعيه ليحل محلّ يوان. إن أفضل ما في شانغهاي مستوطناتها الأجنبية، أي المناطق التي تقع تحت سلطة الغربيين لا تحت سلطة القوانين الصينية. اختار سون الإقامة هناك ليكون خارج نطاق سلطة يوان أثناء إعداده لمعركته. كما أن الجانب الغربي في شانغهاي كان أكثر ملاءمة لمزاجه. صار سون في الخامسة والأربعين وهو في معظم حياته – منذ الثانية عشرة – لم يكد يعيش على الأرض الصينية.

في شانغهاي، قابل الرئيس المؤقت–السابق، سونغ تشارلي مرة ثانية، بعد مضي نحو عقدين على لقائهما الأول. كان الرجل لسنوات عدة كريماً جداً معه، وهذه المرة استقبله بحرارة ودعاه للإقامة عنده. تشارلي يتطلع إلى سون على أنه الرجل الأكثر نبلاً في الصين، وغضب حين استبعد لمصلحة يوان تشي–كان الذي لم يترك المعسكر المنشوي إلّا في اللحظة الأخيرة. بالنسبة إلى تشارلي ليس يوان سوى انتهازي نفعي. جعل سون مقره في منزل تشارلي. في هذه المدة، كانت الأختان، تشينغ–لينغ – في التاسعة عشرة – وماي–لينغ – في الرابعة عشرة – في أميركا. ابنته الكبرى فقط، التي صارت في الثالثة والعشرين، تقيم في المنزل. كانت متلهفة لتفعل شيئاً لبطلها، فتطوّعت للعمل معه مساعدة باللغة الإنكليزية.

صارت إي–لينغ أكثر نضوجاً في خضمّ دوامة الأحداث السياسية، فأشرقت ملامحها وتألقت في صباها بصورة جذابة ولافتة. ورغم أنها قد لا تعدّ جميلة بالفعل، فإنها فقدت الكثير من سمنتها وهي مراهقة، وصارت رشيقة وفاتنة. أخذت وهي في عالمها المنغلق تميل إلى الرقة والدماثة، ربما لأنها انتبهت إلى وجودها مع رجال مهمين يقومون على أعمال عظيمة. زوار منزل عائلة سونغ أبدوا إعجابهم بها. جون كلاين، مدير جامعة سوشو التي أسسها الميثوديون أيضاً، زار المنزل كي يدعو سون لإلقاء محاضرة أمام الطلاب، فسحرته في الحال. في وصفه، يعطي أيضاً لمحة عن حياة سون مع العائلة:

> في البداية، رآني الرجل الذي يجر الجنركشة[13] الخاصة عند الباب الخارجي. كان يؤدي مهمة الحارس الخارجي. لو لم يتعرّف إليّ، ما تمكنت من الدخول. بعد ذلك استوقفني حارس آخر عند الدرج. في الطابق الثاني، جعلني السكرتير أنتظر خارج مكتب خاص، فدخل ثم خرج برفقة إلينغ (إي–لينغ). ولم أقابل أحداً بعد إلينغ. سوون (سونغ) وسون كانا يعقدان اجتماعاً مهماً مع قادة حزبيين في الداخل. لكن إلينغ كانت لطيفة للغاية وبعدما أطلعتها على الهدف من زيارتي قالت إنها سوف تجري الترتيبات اللازمة، وتمكنت من ذلك فعلاً. إلينغ شابة ذكية وكفوءة، سيكون لها شأن في هذا العالم.

13 عربة صغيرة بدولابين تتسع لشخص واحد ويجرها رجل واحد. (م.)

أول مكسب انتزعته كان على ما يبدو سون يات–سين. سون ميّال إلى النساء المتغرّبات. إي–لينغ التي تعلمت في Wesleyan سحرته بسهولة. دونالد، المتورّد البشرة وشعره بلون الرمل، الذي يضع نظارة، وهو صحافي أسترالي ومستشار لسون، لاحظ (كما ذكر كاتب سيرته الذاتية) أنه عندما كان يتحدث مع سون، "كانت آي–لينغ (إي–لينغ) تجلس غالباً بجوارهما وتدوّن ملاحظاتها فيما يتحدث دونالد ويبتسم لها مشجعاً. وسون ينتقل بنظرته الهادئة، والخالية من أي تعبير، من دونالد ثم إليها، ويتركها هناك دون أن يرفّ له جفن... ذات يوم في شانغهاي حدّق في دونالد بعد مرور آي–لينغ (إي–لينغ) الحلوة والخجولة في مكتبه، وهمس له أنه يريد أن يتزوجها... لكن دونالد نصحه بتجنّب الإفصاح عن رغبته، لأنه متزوج، لكن سون ردّ بأنه سيطلب الطلاق من زوجته الحالية". اعترض دونالد لأن سون يبدو عمّاً للفتاة (أكبر منها بثلاثٍ وعشرين سنة). ردّ سون: "أعرف. أعرف. لكنني أريد أن أتزوجها". بدأ بعض الرفاق من الثوار يروّجون أن سون يعيش مع إي–لينغ في شانغهاي. إنها مجرد إشاعة، إذ لا يمكن أن يقبل الوالد والوالدة أمراً كهذا، ولا إي–لينغ ترضى بذلك أيضاً؛ إنهم متدينون وهم بالتأكيد لا يوافقون على علاقة غرامية. لقد أدركت، بلا شك، ما يكنّه لها سون من مشاعر الحب. طريقته في النظر إليها وحدها كفيلة بالكشف عن مشاعره نحوها. لكن إي–لينغ لم تلجأ أبداً إلى مبادلته بالمثل. إن اهتمامه بها غير المرغوب فيه خيّب آمالها.

هو ليس نبيلاً بهذا القدر، كما يدعي. إي–لينغ أخذت في الواقع تتقرّب من مو–زين، زوجة سون التي انضمت إليه مع أولادهما، وكانت باستمرار تعاملها بمودّة. كانت، عندما تخرجان معاً، تمسك بيدها وتسندها لأن مو–زين تمشي بصعوبة بسبب قدميها المقيدتين، وتناديها بـ"أمي"، وأرادت أن يكون ذلك إشارة لسون كي يقلع عن محاولاته التودّد إليها.

هذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها سون عائلته منذ انتفاضة كانتون في ١٨٩٥. في هذه الأوضاع الخطيرة، لم يجرِ أي ترتيبات لأفراد عائلته: مو–زين، ووالدته، وابنه الذي كان في الرابعة، وابنته يان التي لم تكمل عامها الأول. تركهم سون ليتولوا إعالة أنفسهم ورحل عن كانتون. صديقه لوك تشان عاد من هاواي وكان في القرية من أجل زفافه عندما سمع بأخبار الثورة التي فشلت. أخذ على عاتقه مساعدة عائلتي سون وأخيه آه مي لمغادرة ماكاو. ثم رافقهما إلى هاواي، وهذه المرة كانت بناءً على طلب سون. عندما وصل سون إلى هاواي، كان همه جمع التبرعات لثورة ثانية، ولم يكد ينتبه إلى وضع عائلته. بعد إقامته ستة أشهر – خلال حمل مو–زين بطفلهما الثالث – رحل مجدداً.

لم يتأثر سون بدموع المرأتين في عائلته. سمعه بعض الأصدقاء يقول: "مَنْ يلتزم ثورة يجب أن ينتصر على الدموع". لم يكن ذلك على قدرٍ من الصعوبة بالنسبة إليه، لأنه أحاط نفسه دائماً بالمحظيّات والخليلات. سأله صديق له مرة: ما الذي تفضل أن تناضل من أجله، فأجاب دون تردّد: "الثورة" ويليها: "النساء". في اليابان، على سبيل المثال، كانت لديه عشيقتان معروفتان. إحداهما تدعى هارو أسادا، عاشت معه حتى وفاتها سنة ١٩٠٢، وتشير إليها الملفات اليابانية الرسمية أنها محظيته. بعد موتها أخذت مكانها صبية صغيرة رائعة في أواسط مراهقتها تدعى كاورو–أوتسوكي. قيل أنها أنجبت طفلة من سون لم تقع عيناها على أبيها، لأن سون ترك والدتها ذات يوم ولم يعد أبداً، ولم يكتب إليها.

مو–زين ووالدة سون عاشتا في حالة مزرية. كانت السيدة سون العجوز حائرة لأن ابنها الأصغر اختار أن يكون طريد العدالة، وغاضبة لأنه لا يلتفت إلى عائلته. كان لوك غالباً ما يسمعها وهي تشكو "بمرارة لأنها أُجبرت على مغادرة قريتها"، وخسرت منزلها. "عندما كنت أزورهما في منزل آه–مي في ماوي، كانت الأم العجوز تخبرني عن خيبة أملها وحزنها بسبب تصرّفات ابنها. وكانت المسكينة مو–زين تبكي لمجرد ذكر الثورة". كانت مو–زين تتألم لأنها تزوجت رجلاً غائباً باستمرار لم يكن عوناً لها في تربية عائلتها الصغيرة أو رعاية والديه. قدماها المسحوقتان والمقيدتان زادتا أعباء حياتها التي صارت أكثر من قدرتها على الاحتمال. على هاتين القدمين،

هربت واجتازت آلاف الأميال وهي تحمل طفلتها وتجر ابنها وتساعد حماتها التي تمشي بصعوبة بدورها بسبب قدميها المقيدتين أيضاً، وتحمل في الوقت نفسه ما تقدر على حمله من المتاع. كانت تعيش في خوف لامس الجنون أثناء الاختبار في ماكاو، ثم في هاواي في الطرف الآخر من العالم.

طيّب خاطر المرأتين كرم شقيق سون آه مي وزوجته في معاملتهما. السيدة آه مي امرأة قوية فكّت بنفسها رباط قدميها، وكانت المسؤولة عن شؤون منزلها ولم تعامل أقرباءها أبداً على أنهم كانوا عبئاً عليها. كانت طيبة ومنصفة، ونادراً ما كانت النساء يتشاجرنَ بينهنّ. مع مرور الوقت، وجدت مو–زين عزاء في التدين واعتنقت المسيحية، وواظبت على دراسة **الإنجيل** كلّ يوم. أذعن آه مي لرغبتها، وصارت السيدة آه مي ترافقها إلى الكنيسة وتحتفل بعيد الميلاد معها عند راعي الأبرشية. لم تصبح مسيحية احتراماً لمشاعر زوجها. اجتمع شمل العائلة في هاواي، وعاش أفرادها في وئام ومودة. مع مرور الوقت فقدت والدة سون الأمل في ابنها الأصغر، ورضخت لحياة لم يعد له دور فيها. ورغم أنها لم تكفّ عن حمل همه، شعرت أن السنوات التي عاشتها في ماوي هي الأكثر سعادة في حياتها.

لكن سوء الحظ لحق بالعائلتين بعد مرور عشر سنوات؛ خسر آه مي عمله وأعلن إفلاسه. كان على الجميع أن يرحلوا إلى هونغ كونغ، حيث استأجر آه مي بيتاً صغيراً متداعياً. لم يعد قادراً على دفع أقساط المدارس للأولاد. أصيبت السيدة سون العجوز بالعمى، ولم تسمح لها قلّة المال باستشارة الأطباء. ماتت في ١٩١٠ وولداها بعيدان منها. كان آه مي في منطقة بعيدة ويرغب كثيراً في العودة، لكنه لم يستطع جمع مبلغ يغطي كلفة السفر. فُجع بموت والدته وانتابه الغضب من أخيه الذي لم يحمل أبداً مسؤولية العائلة. عندما التقى سون مرة، انفجر في وجهه وظل سون واقفاً وعيناه في الأرض، ولم ينطق بأي كلمة.

بعد انتصار الجمهوريين، أرسل سون إلى عائلته لتنضم إليه في ١٩١٢ وبدأ أخيراً يتولى مهمة رعايتها. ابنه الأكبر فو صار في العشرين، وابنتاه، يان ووان، في الثامنة عشرة والخامسة عشرة. أولاده لم يكادوا التقوه من قبل، وهذه هي المرة الأولى التي يعيشون فيها معه. اتخذ سون التدابير المناسبة كي يتابع فو دراسته في سان فرانسيسكو، وحاول أيضاً الحصول على منحتين إضافيتين لابنتيه. لكن اجتماع شمل العائلة أفسده عشق سون لإي–لينغ، فابنته يان لاحظت ذلك، وعندما اشتدت وطأة المرض عليها في السنة التالية، قبل وفاتها، قالت بمرارة إن والدها "أساء التصرّف".

كما أن سلوك سون تسبب في أذى كبير لخليلته، تشين كوي–فين، التي تعرفت إلى سون ووقعت في حبه في اجتماعات الكنيسة أوائل ١٨٩٠، وهو لا يزال طالباً في كلية الطب. كانت فتاة جميلة في

التاسعة عشرة ولها عينان واسعتان ووجنتان مرفوعتان وفك مرسوم. شاركته في حياته وهو يكافح لممارسة الطب، وكانت عاملة الاستقبال والممرضة والمساعدة له في كل ما يحتاجه، ولم تتركه عندما صارت الثورة همه الوحيد.

ولأن كوي–فين ابنة عائلة فقيرة، لم تزعجها الشدّة. ولم يتملكها الخوف أيضاً من مخاطر الحياة أثناء الثورة. في خضمّ التحضير لثورة كانتون، ساعدت في تهريب الأسلحة إلى المدينة، بعد وضع البنادق في تابوت، وتخبئة الذخيرة والمتفجرات تحت كرسيها في المَحْمَل، وانطلاقها في الموكب الجنائزي. أصدقاء سون أُعجبوا بتصرفاتها. لم تكن خجولة أو متمسكة بقواعد السلوك المألوفة عند الفتيات في ذلك الوقت. كانت تنظر إلى الواحد منهم مباشرة وهي تكلمه، ولم تلجأ إلى خفض جفنيها كما كان مفروضاً على النساء أن يفعلنَ. ولم يكن صوتها رقيقاً. تتناول الطعام بالعودين المخصصين للرجال بدلاً من العودين الرفيعين والرقيقين اللذين يُعدّان أكثر ملاءمة للنساء، وتقبل على الطعام كأنها عامل. لكنها كانت صبية جميلة. ظلّت كوي–فين مخلصة لسون وهو لاجئ نحو عقدين. تعدّ الطعام وتغسل الملابس وتنظف البيت، وتعتني به وبأي رفيق قد يقيم عندهما، ولا تشتكي أبداً. أخبر أصدقاء سون زوجاته اللواتي كنّ يعانينَ منه أن يقتدينَ بها.

لكن وجود كوي–فين صار مربكاً له في وضعه المستجدّ. في ظل الجمهورية الجديدة، استمرت عادة اتخاذ المحظيات كما كانت من قبل، لكن سون يدرك أن عائلة سونغ المسيحية لا تقبلها. كتب سون رسالة إلى آه مي يطلب منه فيها أن يعرض كوي–فين على صديق له ليتخذها خليلة، ووعد بأن يدفع له عشرة آلاف يوان. كان هذا العمل حتى بمعايير مجتمع يبيح اتخاذ المحظيات لا يصدر إلّا عن قلب متحجر، وهو خيانة من رجل بدأ ينجح في حياته تجاه امرأة لم تتركه وظلت وفيّة له أيام الشدّة. رفض آه مي غاضباً هذا العرض ودعا كوي–فين لتنضم إلى عائلته. كوي–فين قبلت الدعوة وانسجمت مع أفراد العائلة الكبيرة كافة، ورأت في مو–زين أختاً لها.

لم تكن كوي–فين تلجأ أبداً إلى الشكوى العلنية من سلوك سون معها مهما تسبب لها في أذى. بل أصرّت على أنها هي التي أرادت تركه. لم تفرّط بكرامتها وكانت لطيفة وسمحة. طوال حياتها احتفظت بهديتين من سون: خاتم من الذهب، وساعة قدمها الدكتور كانتلي إلى سون بعد إطلاق سراحه إثر الخطف في لندن. ولأنها امرأة مستقلة، لم تشأ أن تصبح عبئاً على آه مي، فذهبت إلى بينانغ كي تبدأ العمل في زراعة شجر المطّاط. لكن مساعيها أخفقت إخفاقاً تاماً. مع ذلك، تبنت ابنة صارت مصدر سعادتها. كبرت الفتاة وتزوجت بحفيد آه مي، وهذا ضاعف ارتباط كوي–فين بالعائلة الكبيرة. بعد مضي سنوات، خلال الحرب ضد اليابان أوائل ١٩٤٠، عاد صهر كوي–فين

إلى الصين للتطوع في الجيش في فيلق اللّاسلكي. كوي–فين وابنتها تركتا ماكاو المحايدة والآمنة وانتقلتا معه إلى مناطق النزاع. كانتا ترافقانه حيث يذهب رغم استهداف اليابانيين الدائم لفريق اللّاسلكي بالقصف. اهتمت كوي–فين كثيراً بالحياة العائلية والحب الذي يسيطر عليها. ماتت في الثامنة والثمانين يحيط بها أفراد عائلتها.

آه مي مات قبلها، من ذبحة صدرية على الأرجح، سنة ١٩١٥ وكان في الحادية والستين. سنوات حياته الأخيرة شابها الحزن. خلال المدة القصيرة التي تولّى فيها سون منصب الرئيس المؤقت، حاول بعض الأصدقاء دعم آه مي ليصبح حاكماً على المقاطعة التي نشأ فيها، غوانفدونغ، لكن سون رفض تسميته ليتولى هذا المنصب. قال: "أخي استثنائي في استقامته، وسوف يفشل إذا تعاطى العمل السياسي لأنه لن يعرف الانحراف أبداً". عندما أتى آه مي إلى نانيجنغ لمناقشته في هذا الخصوص، قال له سون إنه لا يصلح للسياسة ويجب أن يظل بعيداً. رضخ آه مي للأمر الواقع وأدرك أنه بعد كل ما قدمه إلى أخيه والثورة لن يحصل على شيء مقابل تضحياته. وهو لم يُعتبر أيضاً "ثورياً" رغم أنه أُبعد من هونغ كونغ وغيرها من المستوطنات البريطانية لأنه نفذ مهمات للجمهوريين. استمر آه مي بتحمل مسؤولية العائلة الكبرى ورعايتها حتى وفاته.

صارت عائلة سون موضع إعجاب إي–لينغ. تعاطفت مع الجميع وتعاملت معهم بحنان ومودة، وبنحو خاص مع مو–زين. واجهت الشابة الصغيرة الذكية محاولات سون للتقرب منها بلباقة، لكنها حافظت على مسافة بينهما واستمرت في عملها معه.

٤

الصين تنطلق في مسار الديموقراطية

بدا واضحاً لسون يات–سين رفض إي–لينغ له. لكن أمراً آخر استحوذ على تفكيره: كان منهمكاً في معركته ليحلّ محل الرئيس المؤقت يوان تشي–كاي.

يوان منافس لا يستهان به. رجل قصير، قوي البنية، ومع ذلك له هيبته ويوحي بالرهبة. وُلد في ١٨٥٩، وهو أكبر من سون بسبع سنوات. ومتحدّر من وسط اجتماعي مختلف كلياً عنه. مسقط رأسه السهل الشمالي في هنان المحاط بالمياه العذبة، وأسلافه من الملّاكين الأشراف الأثرياء. تلقى تربية صينية لها جذورها العميقة ونشأ على التمسك بتقاليدها، وانضم إلى الجيش الإمبراطوري وترقّى في صفوفه. لم يسافر أبداً إلى الغرب، وحياته الخاصة تشبه حياة أي رجل صيني ثري في تلك الفترة. لديه زوجة واحدة وتسع محظيات أنجبنَ سبعة عشر ابناً وخمس عشرة ابنة. كان من غير المسموح للنساء الخروج من البيت، وجميعهنّ لديهنّ أقدام مربوطة. لديه ثلاث محظيات كوريات. كانت كوريا مقر عمل يوان لأكثر من عقد عندما كانت ولاية تابعة للصين. أجبر الشابات الكوريات على معاناة آلام شديدة وحصر أقدامهن التي لم تربط في الصغر في أحذية مروّسة.

كان يوان محافظاً في التمسك بعاداته الشخصية. بعد تزويد القصر الرئاسي بحمامات، تحاشى استخدام المرحاض الجديد بمياهه المتدفقة مفضلاً عليه الكرسي الخشبي القديم. حوض الاستحمام كان يُستخدم مرة واحدة في السنة؛ وفي سائر الأيام، كانت تنظف له المحظيات جسمه بالمناشف الساخنة. تعتمد الحياة الصحية بالنسبة إليه على وصفة صينية قديمة قوامها شرب حليب النساء. كانت لديه مرضعتان مهمتهما جذب الحليب من أثدائهن وجمعه في وعاء له. لم يكن يثق بالطب الغربي، ولا يحب زيارة أطباء غربيين، وقد يكون ذلك سبباً في تعجيل وفاته بعد إصابته بمرض تبوْلن الدم.

مع ذلك، كان إصلاحياً بارزاً. خلال حكم الإمبراطورة دواغر سيزي أثبت قدرته على تنفيذ الإصلاحات الراديكالية التي شملت استبدال النظام التعليمي القديم برمّته بمناهج ومدارس ذات طابع غربي. أسلوب يوان في العمل لاقى استحساناً من الغربيين والصينيين معاً. الكاهن لورد وليام

غاسكوين–سيسيل، الذي جاب أرجاء البلاد، أورد في كتابه *Changing China* [التغيير في الصين] الذي صدر سنة ١٩١٠، أنه ''في المناطق التي تقع في نطاق سلطة هـ. إ. يوان تشي–كاي، تكاد المدارس توازي مستوى الجدارة الغربية''. بين إنجازاته المتعددة إعادة تشكيل الجيش الصيني بمواصفات غربية. وبما أنه كان يهيمن على ولاء العسكر، صار يوان واسع النفوذ في البلاد، وقد أسرف في استعراض قوته. اختار ذات مرة لحراسه – كان ينتقيهم على أساس ضخامة أجسامهم – بزات عليها نقش جلد الفهد، فبدوا مثيرين للدهشة كأنهم ''فهود ودببة'' في آن.

نفوذ يوان وطموحه الذي لا يخفى على أحد جعلاه يشكل تهديداً لورثة سيزي بعد موتها، وهؤلاء كانوا يفتقدون السلطة، فأبعدوه من البلاط. عندما بدأت الانتفاضات من أجل الجمهورية، اضطروا إلى إعادته إلى منصبه كي يأمر الجيش بقتال الجمهوريين. تمكن يوان من استخدام مركزه للتفاوض مع الجانبين وإقرار صفقة خاصة به. كان عليه ''إقناع'' العرش بالتنحي، وأن يسلمه الجمهوريون في المقابل رئاسة الجمهورية. نجح في الحصول على ما يريد. رأى سون يات–سين أن يوان ''سلبه'' المركز الذي يخصه. لكن الغربيين رحّبوا بهذا القرار. لقد تعاملوا معه من قبل، وهم يحترمونه ويرونه رجل دولة وإصلاحياً. وعامة الصينيين أعجبتهم الفكرة أيضاً، لأن يوان يشكل استمرارية لا بد منها لانتقال الصين من الملكية القديمة إلى الجمهورية.

بالفعل، مرت البلاد بفترة انتقالية لافتة في هدوئها. البنية الاجتماعية ظلت متماسكة والحياة العادية استمرت كما كانت. ظهرت الدلالة الكبرى على التغيير في طريقة تصفيف شعر الرجال: اختفت الضفيرة التي تتدلى على الظهر والتي فرضها المنشويون في القرن السابع عشر. موظفون حكوميون عاديون تولوا مهمة جزّ الشعر وأخذوا يجوبون الشوارع والأسواق ويجزّون الضفائر بقسوة. كان التغيير واضحاً أيضاً في الملابس، فصار النمط الغربي هو الأكثر أناقة. إلى جانب ذلك، برزت تغييرات أخرى والأمة تنتقل إلى حقبة جديدة بارتياح غير مألوف.

تعود عملية الانتقال في الواقع إلى مشاركة السلطة المنشوية في سنواتها الأخيرة مع الجمهورية في سنواتها الأولى بالهدف نفسه: تحويل الصين إلى نظام برلماني ديموقراطي. قبل وفاتها في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٨، تعهدت الإمبراطورة دواغر سيزي بتحويل الصين إلى ملكية دستورية فيها مجلس نواب ينتخبه الشعب، وأمرت باتخاذ التدابير بشأن الانتخاب. بداية ١٩٠٩، في غضون بضعة أشهر من وفاتها، جرت انتخابات مجالس إقليمية (ju–yi–zi) في واحد وعشرين إقليماً من أصل اثنين وعشرين (ما عدا زنجيانغ)، وذلك في إطار مرحلة أوّلية لتشكيل برلمان وطني. ورغم أن مليوناً وسبعمئة ألف من المواطنين فقط سجلوا أسماءهم للانتخاب، وذلك من أصل

٤١٠ ملايين، فإنها عملية الانتخاب الأولى في تاريخ الصين الطويل. ومن المدهش أن الناس لم يستغربوا فكرة الانتخاب. اعتماد المنافسة المنصفة سبيلاً للترقّي في الوظيفة له جذوره العميقة في الثقافة الصينية. تاريخياً كان اختيار النخبة السياسية يجري عبر اختبارات تنافسية في كل أرجاء البلاد وهي مفتوحة أمام كل الذكور للمشاركة فيها. هذا النظام أُلغي في ١٩٠٥ في إطار عملية التجديد. شكّل البرلمان للنخبويين المحبطين طريقاً بديلاً للوصول إلى السلطة، وأعلن عدد كبير من الرجال المثقفين ترشحهم للعضوية فيه.

عند بدء الثورة من أجل الجمهورية كان الجميع متفقين على أن "البرلمان" هو المؤسسة المستقبلية للسلطة. وتم التوافق أيضاً على وضع دستور تكون له السيادة. المندوبون الجمهوريون الذين انتخبوا سون ليصبح الرئيس المؤقت سمّوا أنفسهم أعضاء في "برلمان حاكم" يتبع "دستوراً مؤقتاً" يجري التمهيد له. هذا "البرلمان" عارض سون عندما حاول الاحتفاظ بمنصبه، وصوّت بالإجماع كي يتولى السلطة يوان تشي–كاي. مرة أخرى أعلن المندوبون أنهم لن ينفذوا أوامر سون. أراد سون أن يكون الآمر والناهي – بدأ رفاقه يرونه "ديكتاتورياً" – وبدا واضحاً له أن السياسة البرلمانية لا تناسبه.

لكن البلاد كانت منهمكة في بناء الديموقراطية. بعد انتخابات المجالس الإقليمية في ١٩٠٩، جرت في ١٩١٣ انتخابات عامة في الأقاليم الاثنين والعشرين لانتخاب أعضاء لأول برلمان تعرفه الصين. ١٠% من مجموع السكان – أي ما يقارب ٤٣ مليون رجل – سجلوا أسماءهم للاقتراع. قال مراقبون في القنصلية الأميركية إن ٦٠% إلى ٧٠% ممن سجلوا أسماءهم أدلوا بأصواتهم وذلك في مقاطعتين كانوا يراقبونهما. واستنتج باحث فرنسي أن "هذه الانتخابات شكلت بالفعل استفتاء وطنياً... تسجل للمشاركة فيها ٤٠ مليون ناخب... النقاش السياسي كان مفتوحاً وحراً والصحافة نقلته. تبدو هذه العملية الانتخابية، من جوانب عدة، الأكثر ديموقراطية والأكثر قيمة من أي عملية أخرى تلتها". نتج عن الانتخابات الأولى اختيار ٨٧٠ عضواً في البرلمان شكّلوا مجموعة متألقة من ذوي الاختصاصات العليا في حقول المعرفة شتى، وقد وصلوا إلى بيجينغ في أواخر آذار/ مارس من أجل افتتاح الدورة الأولى للبرلمان.

لم يشارك سون في هذا الحدث التاريخي رغم أنه تولّى بالاسم فقط رئاسة حزب سياسي خاض بحماسة العملية الانتخابية. أنشأ هذا الحزب، "الكيومنتانغ" (القوميّ)، نجمٌ جديد في الثلاثين يدعى سونغ جياو–رين، وهو ذو شاربين من هونان، ومفكر نادر الذكاء. آمن بالديموقراطية وأعدّ برنامج عمل متكاملاً عن كيفية تطبيقها في الصين، ولعب دوراً أساسياً في وضع مسوّدة الدستور المؤقت.

تبنّى ''العصبة المتحدة'' المهملة والمتداعية، وهي المنظمة التي أنشأها سون، ودمجها مع أربع مجموعات سياسية أخرى لتأسيس حزب جديد. في بيجينغ في آب/ أغسطس ١٩١٢، كانت انطلاقة ''الحزب القومي'' الذي انتخب سون رئيساً فخرياً له، لكن رئيسه الفعلي كان سونغ، وهو موهوب بالتنظيم وخطيب بارع. كان الناس يحتشدون للاستماع له (لاحقاً رأى كثيرون أنه يشبه بما لديه من جاذبية ساحرة الرئيس الأميركي جون كينيدي). خاض القوميون بتوجيهاته حملة ناجحة جعلتهم حزب الغالبية في البرلمان. استعد سونغ ليكون أول رئيس للوزراء في الجمهورية الصينية، فيما كان يجري انتخاب يوان لرئاسة البلاد. لم يكن هناك مكان لسون يات–سين.

أعلن سون أنه سوف يعتزل العمل السياسي ويتفرّغ لبناء سكة حديدية وطنية. فرح الناس بهذا الطموح المعتدل. تلقّى دعوة من الرئيس المؤقت يوان لزيارة بيجينغ. اسمها المدينة (بيجينغ) يعني العاصمة الشمالية، وهي تقع بمحاذاة صحراء غوبي. تهب العواصف الرملية دورياً على المدينة، وتغطي شوارعها سيول موحلة بعد تساقط أمطار غزيرة. لكن ذلك لا يقلّل من روعة المدينة. الجِمال فيها تتولى نقل البضائع وتسيرُ منتظمة في قوافل طويلة. شوارعها مرتبة كأنها رقعة شطرنج، وكل الشوارع الرئيسية فيها تقود إلى ''المدينة المحرّمة'' التي تضم قصوراً عدة وتحيط بها جدران عالية. كان الإمبراطور الأخير، بويي، لا يزال مقيماً فيها كما نصّت معاهدة التنحّي.

في أواخر حكم المنشويين، بدأت بيجينغ السير في ركاب الحداثة، لكنها حافظت بإصرار على روحية العالم القديم. صارت بعض الشوارع مرصوفة ومضاءة وتُنظّف باستمرار. لكن الجِمال والخيول والعربات المزيّنة التي تجرها البغال ظلت تحتل المشهد اليومي إلى جانب الدراجات والسيارات. كانت خدمة الهاتف جديدة نسبياً في المدينة، وتتقدم بخطوات سريعة لتصير أفضل من شبكة الهاتف في شانغهاي.

في بيجينغ، بدا سون لَبِقاً حين هتف في العلن: ''يعيش الرئيس يوان العظيم!'' ويوان استقبله على السجادة الحمراء. لكن العلاقة بينهما كانت بالنسبة إلى المراقبين المطّلعين أبعد ما تكون من المودّة؛ إنها في الواقع علاقة نزاع لا يعرف الرحمة. في بداية تلك السنة، نجا يوان من محاولة اغتيال استهدفت عربته عندما رمى أشخاص متفجرات عليها من النافذة العليا لأحد المطاعم. تسببت المتفجرات في مقتل عدد من الأشخاص والخيول بجواره. اعتقد يوان أن القتلة كانوا ينفذون أوامر سون. خاف سون أن يسعى يوان إلى الانتقام منه. بالإضافة إلى شبكة الأمان المحكمة التي أعدّها له ''العرّاب'' تشين، احتفظ سون بويليام دونالد، مستشاره الأسترالي، بالقرب منه في كل المناسبات.

لاحظ دونالد أن سون ربما ظنَّ أن أي قاتل ''عند رؤيته لأنه أجنبي سوف يتريث في تنفيذ مهمته خوفاً من التعقيدات الدولية''.

أوضح سون بإصرار مسألة تنحيه عن العمل السياسي، وقال ليوان إن كل ما يطلبه هو أن يمنحه السلطة الكاملة لبناء السكة الحديدية. ويتضمّن الطلب أن توافق الحكومة الصينية على أي مبالغ يستطيع جمعها من الخارج، وتسمح له بالإضافة إلى ذلك أن يتولى وحده التصرف فيها. هذه المطالب أثارت شكوك يوان. بدا له أن اهتمام سون بمسألة السكة الحديدية متعلّق بجمع الأموال فقط. لم يظهر أي اهتمام بمتطلبات هذا المشروع الضخم، ولا حتى أعدّ نفسه بالمعلومات الأولية في هذا الخصوص. أشار في كلامه إلى طول السكة، لكن الأرقام التي قدمها لم تكن نتيجة دراسة أو استشارة خبراء، أو لأنه ناقش الأمر مع أحد. وصف دونالد أسلوب سون المخادع في حساب كلفة الأميال. دخل يوماً إلى إحدى الغرف ليجد سون واقفاً أمام خريطة كبيرة للصين وفي يده ريشة يغطها في الحبر ويرسم خطوطاً سوداء في كل أرجاء البلاد.

قال له الدكتور سون وهو ينظر إليه بخديه الممتلئيْن كأنه طفل بريء: ''آه، أريدك أن تساعدني في رسم خريطة السكة الحديدية... أقترح بناء مئتي ألف لي (مئة ألف كلم) من السكك في غضون عشر سنوات''. وأضاف: ''إنني أرسمها على الخريطة. هل ترى الخطوط العريضة التي تمتد من عاصمة إقليم إلى عاصمة أخرى؟ حسناً، هذه هي الخطوط الرئيسية. سائر الخطوط فرعية وأقل أهمية منها''. من حين إلى آخر، كان سون ''يأخذ قطعة من القطن ويغمسها في الماء ليمحو خطأ متعرّجاً ويرسم مكانه خطاً مستقيماً... أدى الدكتور حركة رشيقة بمد مئات الأميال من السكة الحديدية في مكان، وآلاف الأميال في مكان آخر''.

اقتنع يوان الرئيس المؤقت أن سون يستخدم بناء السكة الحديدية كخدعة من أجل جمع مبالغ طائلة يستطيع بواسطتها تكوين جيش والإعداد للاستيلاء على السلطة. ردّ برفض تعهد الحكومة الكفالة الفورية لأي مبالغ يستطيع سون جمعها، ووضع شركة سون للسكة الحديدية تحت إشراف وزارة النقل، لكن سمح لسون أن يكون مسؤولاً عن بنائها.

بعد تفوّق يوان عليه، قصد سون اليابان في ١١ شباط/ فبراير ١٩١٣. ورغم أنه جوبه بعقبات بدا في العلن مسروراً، وأخذ يضحك وهو يتذكر زياراته السرية إلى اليابان. رحّب به جمهور من الذين يتمنون الخير له، وغطت الصحافة اليابانية زيارته، وأعلن سون أمام الجميع أنه لم يأت لأي أهداف سياسية بل ليجمع تبرعات لإنشاء شبكة سكك حديدية في الصين. لم يتمكن من جمع المال، لكنه بقي في اليابان أربعين يوماً.

تشارلي وإي–لينغ رافقاه في رحلته إلى اليابان. كان تشارلي لا يزال تحت تأثير سحر سون ويتبعه بإخلاص، مهملاً عمله وتاركاً زوجته في شانغهاي. إي–لينغ استمرت في عملها مساعدة له.

في آذار/ مارس ١٩١٣، وصلت مو–زين إلى اليابان مع وان، ابنتها من سون، لتخبره على الأرجح بمرض ابنتهما الثانية يان (التي ستموت في تموز/ يوليو). كان سون يجري جولة والتقى زوجته في أوساكا لنصف ساعة. تطوعت إي–لينغ لمرافقة مو–زين إلى طوكيو. في طوكيو، ارتطمت السيارة بعمود تلغراف وأصيب الجميع بجروح بالغة. أرسل أصدقاء إلى سون برقية له تخبره أن حالة مو–زين حرجة.

كان تشارلي في حالة توتر شديد. أخذ يعدّ للرحلة، وأسرع ليسأل سون: ”ماذا سنفعل بالأمتعة؟“ افترض أن سون يريد تغيير القطار للذهاب إلى طوكيو لرؤية زوجته وابنته. أشار صديق ياباني كان في محيط سون أن الأخير كان يتحدث بمرح معهم عند اقتراب تشارلي. تجمدت ابتسامته وأجابه ”ببرود تام“: ”ما الفائدة من الذهاب إلى طوكيو ونحن لسنا أطباء؟“ وانتبه على ما يبدو إلى أنه تدرب طبيباً فأضاف: ”مع أننا قد نكون أطباء، لكننا سوف نصل متأخرين. إضافة إلى أن لدينا مواعيد في فوكيوكا“. حتى هذا الرجل الياباني الذي يشبه الساموراي وجد أن لا مبالاة سون مثيرة للدهشة.

لم يذهب سون إلى طوكيو لرؤية زوجته وابنته، ولا حتى لرؤية إي–لينغ. بعد بضعة أيام من حادثة السيارة وصل خبر اغتيال مؤسس ”القومي“ سونغ جياو–رين. مساء ٢٠ آذار/ مارس ترأس الأخير وفداً من حزبه للسفر من شانغهاي إلى بيجينغ بالقطار وذلك لحضور افتتاح الدورة الأولى للبرلمان. أُصيب بالرصاص عند حاجز التذاكر في محطة شانغهاي وفارق الحياة في المستشفى.

حين وصول الخبر صرّح سون بشجب هذا العمل وحمّل يوان تشي–كاي المسؤولية. وأسرع في اليوم التالي في العودة إلى شانغهاي ليشنّ حرباً هدفها الأساسي الإطاحة بيوان.

أُلقي القبض بسهولة على القاتل الذي يدعى وُو وهو رجل فقير. اعترف بجريمته مباشرة، لكنه مات فجأة وبطريقة غامضة في الحجز. لا تزال حتى اليوم مسألة تحديد هوية المسؤول الفعلي موضع أخذ وردّ، وذلك بعد مرور أكثر من مئة سنة على الحادثة. يوان وسون تحوم حولهما الشبهات. كل واحد منهما لديه دوافعه: يوان يرى في مشاركة سونغ في السلطة تهديداً له، وسون خسر تماماً دوره السياسي وصار وجوده هامشياً. الضحية نفسه لم يشك في يوان. في المستشفى، خاطب ”الرئيس يوان“ بكلماته الأخيرة وحثّه على ألا يترك موته يشكل عقبة في طريق السياسة

البرلمانية التي وُلدت حديثاً في الصين. ولم يتوجه بأي رسالة إلى سون مع أنه الرئيس الفخري لحزبه.

معظم سائر القيادات من القوميين لم يبادروا إلى اتهام يوان. سألوا سون عن الدليل الذي حمله على اتهامه. قال سون إن لديه شكوكاً لكنه لا يملك دليلاً: يوان ”أصدر الأمر بالاغتيال“، حتى لو لم يكن هناك دليل.

هوانغ زينغ، الرقم الثاني المتفق عليه بين الجمهوريين، رأى أن القضية يجب حلّها عبر القضاء، في ظل وجود نظام قضائي فعال. اعترض على دعوة سون للحرب، وأكّد أنها سوف تدمّر الجمهورية الناشئة، وهم على أي حال قد لا يربحونها. هوانغ كان في الواقع يقف بجوار سونغ عند حاجز التذاكر عند إطلاق النار، وكان من المحتمل أن يكون الضحية إذا أخطأت الرصاصة هدفها. اختلافه مع سون حول مسألة الحرب أدى إلى قطيعة بينهما. اتهمه سون، في مجلس خاص، أنه ”ثعبان“ و”رجل سيئ جداً“ (مات هوانغ بعد ذلك بثلاث سنوات في ١٩١٦). لم يتراجع سون وأمر بحوادث شغب ضد يوان في محاولة لإجباره على الاستقالة لمصلحته. هذه الحرب الأولى في الجمهورية الناشئة أدت إلى عقود من النزاع الداخلي الدموي. ”أبو الصين“ هو الرجل الذي أطلق الرصاصة الأولى.

لم تجد الحرب ضد الرئيس المؤقت يوان تأييداً شعبياً يذكر وسرعان ما تداعت. طُرد سون من المستوطنات الأجنبية حيث مقره. هرب إلى اليابان في آب/ أغسطس ١٩١٣، وكان هذه المرة منفياً، رضيت السلطات اليابانية بوجوده كورقة محتملة في يدها فقط. في تشرين الأول/ أكتوبر، جرت مراسم تولّي يوان منصب رئيس الصين في بيجينغ، ولاقى تأييداً وترحيباً من أنحاء العالم كافة. لكن سون لم يتوقف عن المحاولة.

٥

زواج إي–لينغ وتشينغ–لينغ

وجد تشارلي نفسه مجبراً هذه المرة على إطالة إقامته في اليابان؛ لم يعد رجوعه إلى شانغهاي آمناً بسبب تورطه مع سون. اشتاق كثيراً إلى شانغهاي وبيته وأصدقائه. التقى ذات يوم السيدة روبرتس، صديقته المبشّرة الأميركية وجارته، في محطة القطار في طوكيو. تأثر كثيراً لرؤيتها فأحاطها بذراعيه وضمها إليه بمودّة (لم يكن العناق بين الرجل والمرأة مألوفاً في اليابان في ذلك الوقت). تتذكر السيدة روبرتس أنه حين بدأ القطار يتحرك وقف تشارلي على الرصيف يلوّح لها بيده "وعيناه مغرورقتان بالدمع، وأنا تألمت لتركه وهو على هذه الحال، كما لم أتألم من قبل".

أمضى تشارلي معظم وقته في "جمعية الشبان المسيحيين" (YMCA). التقى هناك بشاب أعجبه كثيراً. هـ. هـ. كونغ، وهو أرمل واعٍ ولطيف وهادئ وأكبر من إي–لينغ ببضع سنوات. هو في الأصل من إقليم شانزي شمال غربي الصين، من عائلة ميسورة تعيش برفاهية. منزل العائلة الكبير، وفق التصميم الصيني التقليدي، يغطي سطحه الآجر الأسود الصلب والجميل، وتحجب الشّعريات المشبكة نوافذه التي تطل على عدد من الباحات. هـ. هـ. يشبه إي–لينغ في أنه تعلّم في مدرسة إرسالية أميركية ومعاهد أميركية. تخرج في Oberlin College وحاز درجة الماجستير في جامعة يال (في الكيمياء في المرحلتين). فوق كل ذلك كان مسيحياً ملتزماً، تعمّد في الثانية عشرة بعدما عالجه طبيب مبشّر من ورم أصابه. في طوكيو، دفع له أوبرلين أجراً ليعمل مع "الشبان المسيحيين".

دعا تشارلي هـ. هـ. إلى مائدة العشاء في منزله حيث التقى إي–لينغ، وسرعان ما أُعجب أحدهما بالآخر. كتب في مذكراته حين كبر في السن: "كنا نتمشى غالباً في المنتزه. زوجتي تحب الشعر. تخصّصت في الأدب الإنكليزي في الكلية... هذا هو الحب الحقيقي!"

صارت لدى إي–لينغ تحفّظات حول سلوك سون، ليس على الصعيد الشخصي فقط، بل على الصعيد السياسي أيضاً. هي وهـ. هـ. تشاركا في النفور من الحرب التي خاضها سون في مواجهة الرئيس يوان. لأن سون استغل جريمة اغتيال سونغ جياو–رين كذريعة لشن الحرب، وهـ. هـ،

الذي كان من المعجبين بسون، تحدّاه في تقديم دليل لإدانة يوان، فاعترف سون أنه لا يملك دليلاً، بل يشك فيه فقط. عبّر هـ. هـ. في مذكراته عن اشمئزازه لأنه شعر أن ما فعله سون كان لمصلحة اليابان أكثر مما هو للصين: بعض "المجموعات اليابانية أرادت مساعدة الدكتور سون من أجل إحداث اضطرابات في الصين. مجموعة الضباط الشباب أرادت فرض النفوذ على الصين. أراد هؤلاء الضباط مساعدة الدكتور سون من أجل تقسيم الصين... أعتقد أن اليابانيين يستغلّون الدكتور سون". حذر سون "من خطر استغلال اليابانيين له"، وكان صريحاً معه: "الحلّ الوحيد هو أن يتعاون يوان تشي–كاي مع الدكتور سون كي تتوحّد الصين ولا تنقسم". هـ. هـ. رفض أيضاً أساليب سون الديكتاتورية. إثر عودة سون إلى اليابان بعد حربه الفاشلة أراد حلّ الحزب القومي لأنه لم يسانده في حربه، والمباشرة في تشكيل حزب جديد، زونغوا–جمينغ–دانغ ("حزب الثورة الصيني"). فرض سون على أعضاء الحزب الجديد أن يقسموا على الطاعة المطلقة له. صُدم هـ. هـ. وقرّر الابتعاد عن محيط سون. كتب أحد الأصدقاء أن هـ. هـ. "لم يعدّ نفسه أبداً واحداً من الثوريين رغم المحاولات الكثيرة لاستدراجه". في الواقع، "كان يكرههم" و"يؤيد سلطة يوان ويخلص في ولائه له... رغم خسارته ما يكنّه له بعض الطلاب الصينيين من إعجاب وتقدير". أيدت إي–لينغ هـ. هـ. في موقفه، ونأت بنفسها بلباقة لكن بوضوح، وابتعدت عن سون.

قررا أن يتزوجا ويعيشا حياتهما الخاصة. في أيلول/ سبتمبر ١٩١٤، احتفلا بعقد قرانهما في يوكوهاما، في كنيسة صغيرة تقع أعلى التلّة، ويحيط بهما بعض الأقارب والأصدقاء المقرّبين. سون لم يحضر المناسبة. تتذكر إي–لينغ جيداً تفاصيل ذلك اليوم: ارتدت سترة وتنورة من قماش الساتان الوردي الباهت والمزيّن ببراعم البرقوق المطرّزة بلون وردي أكثر بروزاً. وازدان شعرها بأزهار تناسب زيّ العرس. بعد تناول طعام الإفطار في منزل عائلة سونغ، انطلق العروسان في رحلة شهر العسل، وتألقت إي–لينغ في فستان بلون التفاح الأخضر مطرز بطيور ذهبية صغيرة. كان الطقس متقلباً في ذلك اليوم، لكنهما عندما همّا بالخروج توقف المطر وظهرت الشمس من وراء الغيوم. لم يفسد المطر ملابس إي–لينغ أو تسريحة شعرها. رأت مع عريسها أن أشعة الشمس الساحرة والمتقطعة "تبشر بالسعادة".

عادا إلى مسقط رأس هـ. هـ. في شانزي ليستقرا هناك. تولّى هـ. هـ. إدارة مدرسة الإرسالية المحلية، وعلّمت فيها إي–لينغ. ثم انتقل إلى العمل في التجارة، وبمساعدة زوجته، صار من الأثرياء.

لم يخفِ سون انزعاجه من هذا الزواج لكنه لم يحزن أو ينسحق قلبه بسبب ذلك، لأن شابة أصغر من إي–لينغ وأجمل منها ظهرت في حياته لتحل مكانها. إنها أختها تشينغ–لينغ التي وصلت قبل ذلك بسنة في آب/ أغسطس ١٩١٣ بعد تخرجها في Wesleyan في ماكون بجورجيا. وهي على عكس إي–لينغ الحذرة مندفعة ومتهورة. كانت جميلة وبشرتها مصقولة مثل البورسلين. صارت مساعدة سون في اللغة الإنكليزية. يبدو أن إي–لينغ لم تخبر أحداً عن محاولات سون التودّد إليها، لأنها كانت بطبعها تفضل التكتم في أمور كهذه.

أثناء وجودها في Wesleyan ما بين ١٩٠٨ و١٩١٣ تتذكر زميلات تشينغ–لينغ ”معطفها الذي أعدّ خصيصاً لها“ و”غرفتها التي يفوح منها العطر الشرقي“. ”إنها أكثر هدوءاً حتى من أختها الأكبر منها“، وهي ”خجولة“ و”متحفّظة“. قالت إحداهنّ: ”أتذكر حماستها عندما وصلتها أخبار أن الصين صارت جمهورية. لفتت انتباهي لأنها بدت مفعمة بالحيوية. هي في الغالب هادئة ومتحفظة، ولذلك أدهشتني رؤيتها وهي تنبض بالحياة“. لم تبدِ حيوية فقط، بل شغفاً سياسياً أيضاً. كان علَم الصين تحت حكم المنشويين، وعليه التنين الأصفر، معلقاً في غرفتها. رأتها زميلتها في الغرفة ”وقفت على كرسي لتنزع علم التنين الصيني عن الحائط عندما أرسل إليها والدها علم الجمهورية الجديد“، وقد سمعت تشينغ–لينغ ”تهتف بانفعال وهي ترمي العلم القديم أرضاً وتدوس عليه قائلة: فليسقط التنين! وليرتفع علم الجمهورية!“

سون يات–سين كان بطلاً في نظرها. كانت تعدّ لرحلتها إلى اليابان لتلتقيه وتجتمع بوالدها، فكتبت إلى إحدى معلماتها: ”سأحمل صندوقاً من فاكهة كاليفورنيا إلى الدكتور سون هدية من المعجبين به هنا، وأنا أيضاً فخورة لأنني أحمل له رسالة خاصة“. بسبب ارتباط عائلتها بسون، صارت ابنة الحادية والعشرين موضع تكريم المعجبين به. تشينغ–لينغ التي لا تميل إلى الاعتداد بنفسها كتبت إلى معلمتها مارغرت هيل: ”تلقيت دعوات لتناول العشاء وحضور مسرحيات حتى بدأت أعتاد الحياة المرفّهة... كنت ’ضيفة الشرف‘ في حفل استقبال الطلاب الصينيين... عندما ركبت الباخرة وجدت غرفتي مزينة بالورود وممتلئة بالصحف والمجلات والفاكهة. شعرت أنني مهمة بالفعل“.

في سرّها، رأت الشابة الصغيرة نفسها على صورة جان دارك، وقارنت نفسها ببطلات حاربنَ من أجل ”قضية“ وضحينَ بحياتهنّ من أجلها. توجد لها صورة من هذه المرحلة تعكس ملامحها تعابير التحدّي، كأنها تحارب ظلماً كبيراً. حين التقت سون كان وضعه السياسي في أسوأ حال منذ إعلان الجمهورية. معركته ضد يوان فشلت، ويعيش في غرفة صغيرة خالية من الأثاث كغرفة

تلميذ، وهو يعتمد على هبات قليلة يتبرع له بها مؤيدون يابانيون. كان هذا كافياً لإبعاد أي امرأة غيرها، لكنه جعلها أكثر تعلقاً به. رأت أن سوء حظ سون هو ظلم بحد ذاته، وأنه يقدّم تضحيات كثيرة من أجل الجمهورية الجديدة. هذه الفكرة حركت مشاعرها. قالت عنه وقلبها الرقيق يتحسّر عليه: ''إنه مصنوع من نسيج متماسك وقوي''. تمنت أن تكرّس حياتها له وتشاركه في تحمل المحن التي تعترض طريقه. تشينغ–لينغ بدأت تحب.

الحياة مع سون ساحرة ومرحة أيضاً. ومع أنه عدو للرئيس الحالي للصين، فإن سون بصفته أول رئيس مؤقت يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة. تلقت تشينغ–لينغ دعوات لحفلات ونزهات بمرافقته، وأمضت وقتاً ممتعاً. في إحدى رسائلها إلى صديقة أميركية، آلي سليپ، تصف الإقامة في منتجع نبع مياه ساخنة قائلة: ''هذا أفخم فندق في العالم''، وعن اختلاطها بالمجتمع الراقي، قالت: ''دعيني... أخبرك عن رجل تتمنى كل فتاة أن يصبح زوجاً لها. إنه سفير النمسا وهو العازب الأكثر وسامة في الدنيا. كل العاملين في السفارة كانوا هناك''.

وعن زيارة موقع جميل آخر، كتبت: ''رأينا حديقة من أشجار الفاكهة المصغّرة. إنها رائعة. فيها كل أنواع الأشجار المقزّمة: أشجار التفاح والإجاص والخرما. الحياة الآن صارت أكثر متعة. إذا كنت تحبين الأشياء الجميلة، عليك أن تأتي لزيارة الشرق في وقت قريب. سوف أرافقك، وأغمض عينيّ عندما تريدين قطف ثمار الفاكهة المحرّمة''.

اكتشفت وجود أمور كثيرة مشتركة بينها وبين سون. لم يكن سون مؤمناً ملتزماً مع أنه تعمّد. وتشينغ–لينغ تساورها الشكوك حول الإرساليات منذ طفولتها، وتميل إلى النظر إليها بسخرية. تحمست لحضور حفلة راقصة تحييها فرقة موسيقية من هاواي على متن السفينة إلى اليابان، وأضافت تصف ما حدث: ''المبشرون حضروا أيضاً... آه! كمتفرّجين فقط بالطبع!'' كانت تشارك سون في المزاح عن الكنيسة. ''أخبرته أنه أثناء وجودي في المدرسة في أميركا كنا جميعاً مجبرات على الذهاب إلى الكنيسة أيام الأحد، وكنت أختبئ في الخزانة خلف الملابس وأخرج بعد ذهاب الفتيات والمشرفات كي أكتب الرسائل إلى عائلتي''، ضحك من قلبه وقال: ''إذاً، سوف نذهب معاً إلى جنهم''.

شعر سون أن هذه العلاقة الآخذة في النمو نعمة حظي بها. كان متيّماً. غابت تشينغ–لينغ مرة لتزور والدتها في شانغهاي. طلب سون من رسول أن يجد عنواناً سرياً كي يستطيع سون كتابة رسائل حب لها دون أن تراها والدتها. أخذ يفقد شهيته ورغبته في النوم وهو ينتظر وصول ردّها. حزرت صاحبة منزله مباشرة أنه مضنى من لوعة الحب. أفضى إليها بما يدور في سرّه: ''لا

أستطيع إبعادها عن تفكيري. منذ رأيتها، أشعر أنني أتعرّف إلى الحب للمرة الأولى في حياتي. أدرك الآن حلاوة العشق ومرارته".

ربما تكمن الدلالة الأكثر وضوحاً على ولع سون يات–سين في أن الرجل الذي رأى نفسه أنه "مخلّص الصين"، و"القائد الوحيد في عظمته ونبله"، الذي "يجب أن يطاع طاعة مطلقة"، بدأ يشعر بالإرباك والخوف من رفض تشينغ–لينغ له. أحست الصبية بما يشغل باله، واستمتعت بإغاظته، فأخبرته مرة أنها تنوي الرحيل إلى أميركا والإقامة هناك، في حين أنها لم تكن تفكر في ذلك على الإطلاق. أثناء تحضيرها لرحلتها إلى شانغهاي، ادّعت أنها ذاهبة بنية الزواج هناك وأنه حين يراها ثانية سوف تكون برفقة زوجها. عندما شاعت أخبار أن الرئيس يوان يريد إعلان نفسه إمبراطوراً، قالت تشينغ–لينغ لسون إنها تخطط للزواج بيوان وإنها سوف "تصبح إمبراطورة"، أو خليلة للإمبراطور. أثار هذا الكلام جنونه فكتب رسالة إلى والدها يطلب منه أن يوضح له مدى صحته. استغرب تشارلي الأمر وردّ: "أعتقد أن الكلام مزاح ولا يحمل تفسيراً آخر. 'إنها تثرثر كطفلة'. لا تصدق ما تقوله صبية تحب المزاح". لم ينتبه تشارلي إلى أن الفتاة لا تمزح بهذه الطريقة إلّا مع الرجل الذي تعرف أنه متيّم بها. قرّر تشارلي العودة إلى شانغهاي بعدما تأكد أن عودته "آمنة تماماً". بقيت تشينغ–لينغ وحدها مع سون في اليابان، وشعرت أنها تزداد تعلّقاً به.

صيف ١٩١٥، وصلت إلى شانغهاي لتطلب الإذن من والديها كي تتزوج سون. صدمتهما برغبتها ورفضا الموافقة على طلبها. هناك حجج كثيرة تدعم موقفهما، وليس فارق السن الأكثر وضوحاً بينهما. هو في الثامنة والأربعين، وهي في بداية العشرينات. قالا لها إن شباناً كثيرين مسيحيين مناسبين للزواج بها. يتردّد على المنزل حالياً واحد يدعى يونغ وآخر يدعى دان. لماذا لا تختارين أحدهما، أو تختارين شاباً آخر؟ تشارلي لم ينسَ حادثة السيارة في طوكيو، ولا مبالاة سون في رفضه الذهاب لرؤية زوجته التي كانت إصابتها بالغة من جرائها. ربما يكون الرجل ثائراً متعصباً لكنه لا يصلح زوجاً. والاعتراض الأكثر حدّة يعود إلى كون سون في الأصل متزوجاً ولديه أولاد. وإذا طلق زوجته، "سوف يبدو خائناً للزوجة التي شاركته محن حياته، والتي أنجبت منه أولاداً هم أكبر سناً" من تشينغ–لينغ. وإن لم يطلق زوجته، فستصبح تشينغ–لينغ في هذه الحالة خليلة له. ولن تجلب العار إلى نفسها وعائلتها فحسب، بل هي بذلك تخالف تعاليم المسيحية. كان تشارلي قد أرسل سابقاً رسالة إلى سون (نتيجة لمضايقة تشينغ–لينغ لسون وادعائها بأنها تخطط لتتزوج يوان تشي–كاي أو تكون خليلته)، وكان تشارلي واضحاً في كلامه: "نحن عائلة مسيحية ولن تصبح أي واحدة من بناتنا خليلة لأحد، حتى لو كان ملكاً أو إمبراطوراً أو رئيساً من الأكثر

نفوذاً في العالم''. تشينغ–لينغ نفسها ''ترفض التحدث مع خليلة''، كما أضاف والدها. لم تقبل التحدث إلى الخليلة ''الثانية'' التي كانت تزورهم. أختها الكبرى إي–لينغ حاولت إقناعها بتغيير رأيها، ما أثار غيظ تشينغ–لينغ. وفي إحدى المواجهات الساخنة بينهما، غابت تشينغ–لينغ عن الوعي. حُملت إلى غرفتها في الطابق الأعلى وأُقفل باب غرفتها من الخارج. خلال الأسابيع التالية ازدادت ثورات الغضب وصارت متعبة.

بينما كانت تشينغ–لينغ تناضل في مواجهة عائلتها في شانغهاي، وصلت زوجة سون إلى اليابان في أيلول/ سبتمبر بناءً على دعوته لها من أجل الاتفاق على الطلاق. كانت مو–زين حزينة على وفاة شقيق سون، آه–مي، الذي كان معيل عائلتها لسنوات عدة، والذي توفّي في بداية تلك السنة وهو في الحادية والستين. خسرت الرجل الذي اعتنى بها وبأولادها. بعد تلقّيها هذه الصدمة، واجهت غدر زوجها غير الجدير بالثقة بلا مبالاة. عادت إلى المنزل في ماكاو، وعاشت هناك لأربعة عقود. هي وسون لم يلتقيا أبداً بعد ذلك.

لكن لم تكن هناك وسيلة لإصدار وثيقة نهائية للبتّ في أمر الطلاق. زواجهما على الطريقة التقليدية لا يعترف بطلاق يحفظ كرامة الزوجة. ورقة الطلاق عادة هي ''رسالة لنبذ الزوجة'' (Shu–Xiu). لم يشأ سون إهانة مو–زين بهذه الطريقة.

أرسل مبعوثاً إلى شانغهاي لمرافقة تشينغ–لينغ إلى اليابان مدعياً أنه مطلق بموجب القانون. وفي الساعات الأولى من إحدى ليالي الخريف، تسلّلت الشابة المتيّمة من منزل عائلتها وركبت على متن سفينة لتحملها إلى اليابان. وفق تقارير المراقبة التي فرضتها عليه الحكومة اليابانية، استقبلها سون في محطة طوكيو في ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٥، وتزوجا في اليوم التالي. أشرف وادا ميزو على المراسم التي أجريت في منزله، ووقّع الزوجان ثلاث نسخ من ''عقد زواج'' أعدّه وادا باللغة اليابانية. تشينغ–لينغ لم تكن تعرف اليابانية، واعتقدت أن وادا ''محامٍ مشهور''، وأن ''العقد'' مسجّل في الدائرة الرسمية في طوكيو وهو عقد قانوني ملزم. لكن وادا ميزو في الواقع ليس محامياً – يملك شركة تجارية صغيرة – والسلطة اليابانية لا تسمح بتسجيل عقود زواج الأجانب. ''عقد الزواج'' كان مجرد ورقة أعدّها وادا ووقّعها ''كشاهد'' وليست لها صفة شرعية. الأمر كله مجرد عرض لإرضاء شابة في الحادية والعشرين، تعلّمت في مدرسة إرسالية، والزواج الشرعي بالنسبة إليها أمر أساسيّ.

لم يدعُ سون من أصدقائه سوى لياو زونغ–كاي، وهو في رأيه الأكثر جدارة بالثقة ويمكن الاعتماد عليه ليكون الشاهد الثاني على العقد. لياو أحضر ابنته سنتيا وهي في الحادية عشرة كي

تترجم للعروس.

بعد التوقيع، دعا وادا العروسين لتناول عشاء سريع، ثم غادر المنزل معهما في السيارة التي أحضرها سون. نزل وادا أولاً في مطعم لـ"الغيشا" ليستمتع هناك بتناول عشاء فعليّ. ثم توجهت السيارة بالعروسين إلى منزلهما. هذا لم يعد يشبه الغرفة التي يستأجرها تلميذ في أحد المنازل، لأن سون انتقل إلى "منزل صغير ومريح يختبئ بين أشجار القيقب الحمراء"، وكانت تشينغ–لينغ تحبه. قالت إن الزفاف كان "الأكثر بساطة"؛ "نحن نكره المراسم والاحتفالات".

في اليوم التالي، وصل والداها. تشينغ–لينغ تركت لهما رسالة عندما تسللت من المنزل، وركبا السفينة التالية إلى اليابان. بعد ذلك بسنوات كتبت تشينغ–لينغ إلى صديقها وكاتب سيرتها إسرائيل إبستين (كانت تسميه إبّي) تخبره أنهما بذلا جهداً كبيراً "لإقناعي بترك زوجي والعودة إلى المنزل... والدتي بكت ووالدي الذي كان مصاباً بمرض في الكبد توسّل إليّ... حتى أنه قصد الحكومة اليابانية لتقديم شكوى... قال إنني صغيرة وإنني أجبرت على هذا الزواج! بالطبع، لم تستطع الحكومة اليابانية التدخل. ومع أنني أشفقت كثيراً على والديّ – لكنني بكيت بمرارة أيضاً –، رفضت ترك زوجي. هكذا، يا إبي، رغم أنه مضى على ذلك أكثر من نصف قرن، لا أزال أشعر أنه حدث منذ بضعة أشهر".

إن توجّه تشارلي إلى الحكومة اليابانية للإبلاغ عن سون يدل على شدّة ألمه. كان يعتقد أن سون "نبيل" و"لا يخدع أصدقاءه أبداً". الآن مثله الأعلى خذله. أفضى بمشاعره إلى صديقه القديم في الإرسالية بيل بورك قائلاً: "بيل، لم أشعر بمثل هذا الألم في حياتي". تشارلي لم يسامح سون. إي–لينغ وزوجها أدركا أن القطيعة مع سون "تامة... والصداقة القديمة تحولت إلى عداوة".

خبر الزواج انتشر بين الناس. رأى المبشرون أن تشينغ–لينغ فرّت من بيت أهلها بقصد الزواج، وطلبوا من تشارلي إعادتها إلى البيت. رفاق سون رفضوا الاعتراف بها زوجة لقائدهم، ولم يشيروا إليها بـ"السيدة سون" بل "الآنسة سونغ".

تشينغ–لينغ لم تعبأ بكل ما كان يدور حولهما، وتمسكت بثقتها بشرعية هذا الارتباط. كانت تعيش في نعيم سعادتها، وكتبت إلى صديقتها آلي بعد زواجها بأسابيع:

> أنا شاردة الذهن في هذه الأيام، لم أعد أعرف هل وضعت الرسالة التي كتبتها لك في البريد أم لا. ولمزيد من الاطمئنان، سأكتب على عجلة بضعة أسطر لأقول لك إنني مربكة (وردت في النص: راضية) وسعيدة ومسرورة لأنني كنت شجاعة وتغلبت على مخاوفي وشكوكي وقررت أن أتزوج.

أشعر أنني مستقرة ولديّ إحساس قوي بالحياة العائلية. أنا مشغولة جداً؛ أساعد زوجي في عمله، وأردّ على الرسائل التي تصله، وأستلم البرقيات وأقرأ ما يرد فيها وأنقله إلى الصينية. وأتمنى أن تُكافأ جهودي وتضحياتي ذات يوم برؤية الصين وقد تحررت من قيود مستبدّ ومناصر للمَلكية وأصبحت جمهورية، بأفضل ما تعنيه هذه الكلمة.

إن كلام تشيغ–لينغ عن تقديم تضحيات في زواجها يعني أنها في أعماقها تعرف أن زواجها مخالف للأصول. وهي تقبّلت ذلك واعتبرت أنها أقدمت عليه من أجل هدف نبيل. زواجهما كان حقيقياً في كل جوانبه ما عدا الجانب الرسمي. سون التزم عهوده وكان مخلصاً، وتشينغ–لينغ كانت مستعدة للتضحية بحياتها من أجله.

في هذه الأثناء، الرئيس يوان، القوي في نفوذه ويحظى بتأييد شعبي، أراد المزيد. كان لديه توق إلى العرش، وفي ١٩١٥، أعلن أن الصين ستعود إلى الملكية، وأنه سيصير إمبراطوراً. لكن هذا الطامح إلى الملكية خاف ألّا يتحقق مبتغاه بسبب فقدانه الشرعية. داخل المدينة المحرمة يتدلى فوق العرش تنّين منحوت يحمل بين أنيابه كرة فضية ضخمة. يسود الاعتقاد بين الناس أن الكرة سوف تسقط على من يجلس على العرش إذا كان لا يستحقه. أصدر يوان أمراً بإبعاد كرسي العرش من التنين لأنه لا يريد أن تسقط الكرة عليه وتسحقه. التأييد الشعبي الذي حظي به لأكثر من عقد انقلب عليه بقوة لأنه ضد العودة إلى الماضي. وشملت المعارضة رفاقه والقادة من العسكريين. من الواضح أن النظام الجمهوري ترسّخ وسوف يبقى. بعد ثلاثة وثمانين يوماً لإعلانه نيته أن يصبح إمبراطوراً، أعلن يوان إلغاء العملية برمتها في ٢٢ آذار/ مارس ١٩١٦. [14]

14 في تموز/ يوليو ١٩١٧، جرت محاولة ثانية لإعادة الملكية على يد الجنرال زانغ زون الذي ظل مخلصاً للعرش المنشوي. احتفظ مع جنوده بتسريحة الشعر المنشوية، الضفيرة، واشتهر بلقبه "جنرال الضفيرة". دخل مع جيشه إلى بايجينغ وأعاد بيو يي، الإمبراطور الأخير، إلى العرش في المدينة المحرمة. لكن هذه الخطوة لم تحظَ بتأييد يُذكر. حتى رجال الحاشية الملكية الذين تم استدعاؤهم إلى البلاط لإعداد المراسيم الإمبراطورية شعروا أنهم "متوترون للغاية وعاجزون عن ابتلاع" الغداء الملكي. راح الفتيان الذين يبيعون الصحف يصرخون بسخرية من المراسيم: "اشتروا الأثري! الأثري بست قطع نحاسية! ستصبح هذه قطعة أثرية خلال أيام قليلة!" لم تستمر هذه المحاولة أكثر من اثني عشر يوماً.

خطة يوان الفاشلة ليصير إمبراطوراً أساءت إلى سمعته، وسون يات–سين بادر لاستغلال ضعف يوان. لكن سون كان قلقاً من أن يقدم يوان استقالته من منصبه، والدستور ينص في هذه الحالة على أن يتولى نائب الرئيس لي يوان–هونغ المنصب، وما يريده سون مستبعد لأنه صار ضعيفاً وفاقداً للمصداقية. لي قائد عسكري يحظى شعبية أكبر وقد شارك في قيادة الثورة في ١٩١١، وصار رجل دولة قوياً ومحبوباً. إذا استقال يوان، لن يكون سون مؤهلاً ليحلّ مكانه. صار واضحاً أن رجاله يجب أن يبادروا في الحال لتنحية يوان. أرسل سون، من اليابان، برقيات عاجلة إلى أتباعه في

الصين يأمرهم بإشاعة الفوضى مباشرة. كان يضع آمالاً كبيرة على "العراب" تشين خاصة، فأرسل إليه توجيهاته لإثارة الشغب في شانغهاي.

تشين، الذي يتوارى في شانغهاي، لم يستطع فعل هذه المهمة. كان مطارداً من سلطة بيجينغ، ومن القيمين على المستوطنات في الوقت نفسه. لم يعد أحد يحتمل تحويله شانغهاي إلى ساحة قتال، ولا جعلها ملجأ وجنة لرجال العصابات. أثناء الثورة من أجل الجمهورية ما بين ١٩١١ و١٩١٢، عندما كانت المدينة تحت سيطرته، عمد إلى حماية العصابات بدلاً من القضاء عليها، عكس معظم زعماء الأقاليم الجمهوريين الذين ارتدّوا على رفاقهم السابقين. تحوّل رجال العصابات إلى شانغهاي وتزايدت سطوتهم فيها.

الآن هؤلاء أنفسهم تخلّوا عنه. تشين تجاوز نطاق عمل العصابات المعتاد وتورّط في السياسة، وانتهى به الأمر مع الجهة الخاسرة. لم يعد عراباً له نفوذه بل ثائراً فاشلاً. وصار عاجزاً عن إثارة اضطرابات، وحتى عن جمع الهبات. عندما كان زعيم شانغهاي، تمكّن من سحب مبالغ طائلة من المصارف ورجال الأعمال بالإكراه. حين اعترض مدير مصرف الصين في شانغهاي على تسليم أموال المصرف لـ"العراب"، أمر الأخير بإلغاء القبض عليه، ودفع المصرف المطلوب منه. لكن هذه الحلول السهلة صارت اليوم بعيدة المنال. لم يعد لديه إمكانات لتمويل انتفاضات أو اضطرابات أو عمليات اغتيال يتمنى اليوم لو يستطيع فعلها. في الواقع، بسط الرئيس يوان نفوذه وصار حامياً أفضل للقتلة المستأجرين.

لم يكد تشين يتقدّم في أداء مهمته ليحصد المزيد من خيبات الأمل، وسون يات–سين نفد صبره وأبدى استياءه. تملّكه الغضب لأنه صار مضطراً إلى تمويل "العراب"، وكان يجب أن تكون الأمور عكس ذلك. دخل إلى شانغهاي خلسة ليتولّى المسؤولية بنفسه، وهذا استثنائي بالنسبة إليه، ويشير إلى أهمية السرعة في التحرك. قد يقدم يوان استقالته في أي لحظة، لأنه يخضع لضغوط هائلة. عندما التقى سون "العراب"، خاطبه بكلمات جارحة، وغادر تشين منكسراً. كان يعاني من تدهور حالته الصحية، لدرجة أنه لم يعد يهتم بحياته أو موته. رآه المحيطون به "ذابلاً كأنه هيكل عظمي لا حياة فيه". ومع أنه كان على قائمة المطلوبين من العدالة، استمر في النزول إلى شوارع شانغهاي بمفرده ودون حراسة. وهو في الحقيقة لا يملك أن يدفع أجر حارس. بعد ذلك، وعن غير قصد، وقع في فخّ مميت.

أحد رفاقه من الثوار تحول سراً إلى مخبر قدم إليه يوماً "صفقة للعمل" مع "شركة للتعدين". والعرض يعد بتزويد خزنة سون بمبالغ مهمة. وافق تشين على مقابلة المعنيّين. في ١٨ أيار/ مايو

١٩١٦، قصد منزلاً كان يلتقي فيه أحياناً مع "مندوبي الشركة" وجلس هناك وحده مع خمسة منهم. أطلق أحدهم النار عليه فأصابه في رأسه ومات في الحال. كان في الثامنة والثلاثين. لم يجلب معه حراساً. سُمح للقتلة بالدخول إلى المنزل دون تفتيش. كل ما جرى يدل على استهتار غير اعتيادي، لأنه بالتأكيد يعرف – أيضاً سون يعرف – أن "شركة التعدين" مجرد خدعة. فكر تشين على الأرجح، أنه إن كان الحظ حليفه في الصفقة الموعودة، سيعطي المال لسون. وإن فشل، فمن الأفضل أن يموت.

بعد إطلاق النار طلب صاحب المنزل التخلص من الجثة في الحال. في الغرفة المجاورة، كان ينتظر عدد من الرفاق، ولكن لم يرغب أحد في حمل الجثة. شيانغ كاي–شيك، الذي سيصبح لاحقاً القائد الأعلى والذي اغتال أحد خصوم سون السياسيين بناءً على طلب تشين، كان يجلّ "العراب" بوصفه معلماً ومرشداً ويحبه كأخ له. أتى بسرعة وحمل جثة تشين إلى منزله، وأقام له مراسم جنائزية. لم يحضر سوى عدد قليل ممن يعرفونه، ولم يستطع سون يات–سين الحضور لأن حياته في خطر. "العراب" الذي كان يهابه الجميع مات وحيداً. جثته حُفظت لأن عائلته لا تملك المال لدفع كلفة جنازة لائقة. حزن شيانغ كاي–شيك حزناً شديداً. كتب تأبيناً يعبّر فيه عن اشمئزازه من "أصدقاء" تشين. ودون أن يذكر اسم سون، أشار إلى أنه عامل الرجل الذي لعب دوراً أساسياً في نجاحه بأسلوب خسيس، وأنه ساهم في قتل تشين.

عندما وصل خبر اغتيال "العراب" تشين إلى اليابان، ركبت تشينغ–لينغ في أول سفينة متجهة إلى شانغهاي وأسرعت للقاء زوجها. كانت قلقة جداً عليه ومقتنعة أنه لن يكون بخير إلّا إذا كانت معه. وصلت في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. وهي تنزل على الممر الخشبي، والضباب ينقشع تدريجياً، كان بإمكانها التعرف إلى سون الذي كان ينتظرها على الرصيف. لم يكن من عادة سون انتظار أحد في المرفأ؛ إنه "الرجل المشغول دائماً"، كما سمته تشينغ–لينغ بتحبّب. هذه مخاطرة في هذا الوقت بالذات. يبدو أن سون تأثر بحب تشينغ–لينغ وأراد أن يظهر مدى تقديره لمجيئها. وهي تأثرت بدورها لمبادرته وارتاحت كثيراً لرؤيته واطمأنت إلى أنه بخير.

بعد ثمانية عشر يوماً من وصولها، مات الرئيس يوان من داء تبوْلن الدم، ولم يقدم استقالته من منصبه، وكان في السادسة والخمسين. نائب الرئيس لي صار خلفاً له في الحال. سون خسر هدفه الذي لم يعد ممكناً. أوقف الحرب التي بدأها، وأخذ يفكر في كيفية التعاطي مع لي. بالنسبة إلى تشينغ–لينغ، صار زوجها الآن في أمان. كانت في غاية السعادة.

٦

كيف صارت السيدة سون

من تجربته السابقة، يعرف سون أن الرئيس لي ليس لديه طموح فعلي كي يحكم الصين. تقرّب منه بمبادرات ودية وحسنة النية، متأملاً أن يتخلّى لي عن منصبه له. لكن لي خيّب أمله؛ لم يقدم إليه سوى لقب خاص: المستشار الأعلى للحكومة. سون رفض اللقب باستياء، وحاول إقناع أعضاء من القوميين في البرلمان للمطالبة به رئيساً للبلاد. وبما أنه لم تكن هناك قاعدة دستورية تبيح مثل هذا التحرك، رفض القوميون طلبه. وفي النهاية، أعلن بعضهم بتردّد أنهم قد يلجؤون إلى اقتراح بتعيين سون نائب رئيس. عندما نقل إليه المبعوث من قبلهم هذا الاقتراح، اشتد غيظ سون وقال له: "كونوا حذرين. سوف أبدأ ثورة الآن... سأبدأ تحركاً مسلحاً. كونوا حذرين".

بدأ سون إعداد حرب في مواجهة حكومة لي. كان يحتاج إلى المال لتحقيق غايته. الحرب العالمية الأولى قدمت إليه الفرصة لذلك. بداية ١٩١٧، قطعت أميركا علاقاتها الديبلوماسية مع ألمانيا وطلبت من الصين أن تبادر بدورها إلى ذلك. كانت أميركا دولة صديقة للصين، فوعدتها أنها سوف تربح كثيراً إذا انضمت إلى الحلفاء. استمر البرلمان أسابيع عدة في دراسة القضية، بوجود وزراء من الحلفاء ومن الجانب الألماني يستمعون للمناقشات من مقاعد الزوّار. وفي ١٠ آذار/ مارس، وافق البرلمان على قطع العلاقات مع ألمانيا. تكشف وثائق من الأرشيف الألماني أن ألمانيا حاولت تقديم رشوة إلى بيجينغ كي ترفض القرار، وركّزت بمساعيها بنحو خاص على رئيس الوزراء دوان كي–روي، وهو جندي سابق كان رأس الحربة في قيادة الحملة التي دعت للانضمام إلى الحلفاء. عرض الألمان على دوان مليون دولار له شخصياً. رفض دوان العرض مباشرة (كان تحت وصاية يوان تشي–كاي، ولعب دوراً فعّالاً في إقناع الوصيّ عليه بالتخلي عن حلمه في أن يصير إمبراطوراً).

أرادت ألمانيا تغيير دوان وتعديل القرار. بدأت إجراء محادثات سرية مع سون يات–سين بواسطة مبعوث هو آبل تسان. "القنصل الألماني العام في شانغهاي، هير كنيبينغ، أبلغ برلين أن سون مستعد للتعاون، وأنه في المقابل يطلب مليوني دولار". وافق المستشار الألماني على طلبه، وحصل سون

على مليون ونصف من الدولار المكسيكي الفضي (واحد من العملات المتداولة في الصين في ذلك الوقت)[15]. هذه كانت أول رعاية أجنبية كبيرة يحصل عليها سون.

15 تم تحويل المبلغ إلى كانتون عبر المصرف الهولندي ومصرف تايوان، كما ورد في تقرير القنصل الأميركي العام ب. س. هاينتزلمان.

خطّط سون لاستخدام المال من أجل تأسيس مقر له، واختار كانتون، المدينة الساحلية الجنوبية المزدهرة التي تحيط بها التلال المنخفضة ويبلغ عدد سكانها مليون نسمة. في شبابه، رفض سون كانتون لإحساسه بأنها قديمة. هي اليوم أكثر عصرية: الدروب القديمة اتسعت لتصبح شوارع للسيارات، وعلى الطرقات الريفية الجديدة، وبسبب الحفر، كان ركاب السيارات يهتزون كثيراً وهم يجلسون على مقاعدهم المغطاة بالساتان. الأكثر أهمية لسون كان وجود مجموعة من أعضاء البرلمان من بيجينغ هناك قد يشكلون قاعدة أولية لانطلاقه. البرلمان الأول في الصين كان في حالة تشوّش وفوضى، كما ورد في المقالات التي نشرتها الصحف الحرة، ورُفعت عرائض من أجل إجراء انتخابات جديدة. تحت هذه الضغوط، أعلن الرئيس لي حلّ البرلمان في حزيران/ يونيو ١٩١٧ ودعا إلى انتخابات جديدة. هذه الخطوة في الواقع تشكل انتهاكاً للدستور. غادر نحو مئة من أعضاء البرلمان بيجينغ للتعبير عن احتجاجهم، واستطاع سون يات–سين، بالمبلغ الذي دفعه الألمان، أن يموّل معظمهم للمجيء والعمل انطلاقاً من كانتون. وبالمال الألماني أيضاً، استطاع بواسطة صديق قديم، تشنغ بي–غوانغ، إقناع أصحاب مجموعة من المراكب يعانون من شحّ مواردهم كي يكونوا موكباً له. يشكّل سون "حكومة" في كانتون، في مواجهة بيجينغ، مدعياً أنه يدافع عن الدستور.[16]

16 بعد أخذ المال الألماني، أعلنت حكومة سون الحرب على ألمانيا حين بدا مصيرها مشؤوماً.

طلب سون من أعضاء البرلمان المجتمعين انتخابه ليتولى منصب "الرئيس المؤقت" للصين. تريثوا، وقالوا إن عددهم غير كافٍ، وفق الدستور، لانتخاب سون لهذا المركز. لم يكن هدفهم إسقاط بيجينغ بأي حال؛ كانوا يريدون إعادة تأهيل البرلمان فقط. انتابت سون الذي صار أكثر تردّداً موجة غضب عارم في ذلك الوقت، وانهال بالشتائم على المتحدث. تم التوصل إلى تسوية وحاز سون لقب "المشير الأعلى" (على أساس أن حكومة كانتون "عسكرية"). قَبِلَ سون اللقب بكثير من الخيلاء، فارتدى بذلة تزدان بشرّابات ذهبية وحزام أحمر، وريشة، وحمل سيفاً رسميّاً مهيباً.

شنّ سون مباشرة حرباً على بيجينغ. سوف يتقاضى الجندي خمسة عشر يواناً شهرياً إذا تسجل مع سلاحه وعشرة إذا تسجل من دون سلاح. أمواله الألمانية تبدّدت بسرعة. لم يكن لدى المارشال

الأعلى أي سلطة لفرض ضرائب، وعندما طلب من المسؤولين الإداريين في كانتون تحويل أموال الإدارة إليه، رفضوا. غضب سون وانهال عليهم بالشتائم، كعادته، وأصدر أوامر إلى القوة البحرية بقصف المبنى الإداري. لكن البحرية رفضت تنفيذ أوامره؛ ركب سون في سفينة وأطلق بنفسه قذيفة مدفعية على المدينة. هذا التصرف أثار سخط واستنكار المسؤول عن القوة البحرية، تشنغ بي–غوانغ. لم يمر وقت طويل حتى قُتل هذا الصديق القديم لسون بإطلاق النار عليه بالقرب من أحد أرصفة الميناء. طبقاً لرواية صديق حميم لسون كان الأخير على علاقة وثيقة بحادثة الاغتيال هذه وغيرها من عمليات الاغتيال، وأنّ سكرتير سون، زو زي–تزين، هو الذي أعدّ للعملية. وورد أن سون علّق على عملية القتل بأنها ”تنفيذ لحكم بالإعدام، لمخالفة الأوامر“.

أعضاء البرلمان أرعبتهم هذه ”الديكتاتورية“ الظالمة. ندموا على تعاونهم مع سون ووجدوا طريقة تجبره على ترك منصبه. أدلوا بأصواتهم لإلغاء منصب المارشال الأعلى والتعويض عنه بقيادة جماعية من سبعة رجال يكون سون واحداً منهم. حسبوا أن سون لن يتحمل القيادة الجماعية. وبالفعل، قدم سون استقالته في الحال وغادر كانتون في ٢١ أيار/ مايو ١٩١٨ بعدما تولّى منصب المارشال الأعلى لأقل من سنة.

الأشخاص الذين التقوه في هذه الفترة صُدموا بشكله الهزيل: كان في الحادية والخمسين، وأخذ شعره الرمادي يتساقط، وكتفاه تدليا من ضعفه، وملامحه بدت بلا حياة. إحدى عينيه أصيبت بالتهاب فتورمت وسال دمعه على وجهه المكتئب. كان منهاراً تحت وطأة ظلم كبير ألمّ به. إنه الرجل الأول الذي دافع عن الجمهوريانية ولم يأخذ حقّه. عظمته لم تلقَ التقدير المناسب، والمنصب الذي يستحقه – رئاسة الصين – كان باستمرار بعيد المنال.

كانت تشينغ–لينغ مقيمة في شانغهاي معظم الوقت، فيما كان سون في كانتون. عادت الأخت الصغرى ماي–لينغ من أميركا ووصلت إلى شانغهاي في تموز/ يوليو ١٩١٧، بعد غياب دام عشر سنوات. ثم أصيب الوالد بالسرطان وتوفّي في ٣ أيار/ مايو ١٩١٨. هذه الأحداث، بالإضافة إلى غياب سون، أعادت تشينغ–لينغ إلى حضن عائلتها.

عندما تخلّت كانتون عن سون، أراد الأخير القدوم إلى شانغهاي، وتمكنت تشينغ–لينغ من الحصول على موافقة من القنصلية الفرنسية بأن يقيم مع زوجته في المنطقة التابعة للامتياز الفرنسي. منزل عائلة سون كان منزلاً كبيراً وأوروبي التصميم وتحيط به حديقة شاسعة. كان يقع في نهاية زقاق غير نافذ وأمامه منزلان لا غير. وبذلك، تصير مهمة حراسته سهلة نسبياً. على

جدار غرفة الجلوس، عُلقت صورة لجورج واشنطن. وكان سون يأخذ الأمر بجدية عندما يقول له البعض إنه جورج واشنطن الصين.

تشينغ–لينغ السيدة المتزوجة صارت أكثر جمالاً مما كانت من قبل. جوليان كار، من نورث كارولاينا، الشهير في تجارة التبغ، وكان الراعي لوالدها في ما مضى، زار شانغهاي في هذه الفترة، ووصفها بأنها "أجمل امرأة شابة" رآها في الصين.

زوار عائلة سون كانوا كثيرين، وهي سحرتهم جميعاً بفتنتها. جورج سوكولسكي، مراسل أميركي تردّد على المنزل، أشار إلى أنها "ذات شخصية لطيفة للغاية ومحبوبة"، لدرجة أنها تحجب وجود زوجها بسهولة. "حضورها في الغرفة، وضحكتها الودّيّة، وحديثها الراقي، كل ذلك كان يترك تأثيراً أعمق بكثير مما تترك شخصية القائد السياسي القاسي والحالم". تستقبل تشينغ–لينغ كل زائر "بترحيب دافئ، وأسلوب لطيف، وكلمة عطوفة"، لكنها لا تنسى أنها "تحافظ على وقت الدكتور وعلى طاقته، من أجل حماية سلامه الداخلي". في الصباح، تلعب معه التنس. وبعد تناول طعام الفطور يقرأ ويكتب، وهي تعيد كتابة مخطوطاته. كانت تعمل بتواضع سكرتيرة له وتبعد نفسها كلياً من الأضواء. "كانت حاضرة دائماً لكن خلف الدكتور لا بجانبه... تحرس الرجل العظيم... ولا تقحم نفسها أبداً كي لا يخبو تألق عظمة زوجها".

بمساعدتها له بوصفها سكرتيرته، كتب سون كتيباً اختار له عنواناً مهيباً *The Sun Theory* [نظرية سون]، عمل شامل كان فخوراً للغاية به، يطرح فيه موضوعاً واحداً "فعله أسهل من قوله" (nan–zhi–yi–xing)، وهذا عكس المثل القديم: "قوله أسهل من فعله". أعلن سون أن المثل القديم منبع للعلل كافة في البلاد، وأن حكمته المأثورة "هي السبيل الوحيد لإنقاذ الصين"، و"إدراك حقيقة الكون". ومن أجل إثبات صحة وجهة نظره، يبدأ طرح مسألة الرغبة في تناول أطعمة مثل الفول المتخثّر، وفطر الأذن الخشبي، وأمعاء الخنزير، ويتابع بالحديث عن أهمية المال، وينتقل إلى محاضرات تتمحور حول اللغة، وداروين، والعلم، والإصلاحات اليابانية، وضرورة تطوير الاقتصاد. والموضوعات كلها في رزمة واحدة دون أي ترتيب، وبغض النظر عن تساوقها أو وجود صلة بينها.

في هذا الخليط، يؤكد سون تفوّق الرجل الذي "قال" ذلك أولاً. وهو يعني بهذا نفسه، بوصفه أول من نادى بالجمهوريانية. واستنتج أن رجلاً كهذا يجب أن يُطاع. هسو شيه، المثقف الليبرالي الطليعي في تلك الفترة، ألقى الضوء على ما أراده سون وحدّده بوضوح: سون ألّف الكتاب ليقول:

"أطيعوني"، "نفّذوا ما أقوله"، "بعد دراسة متأنية للكتاب لا نستطيع سوى استنتاج أن هذا هو التفسير الوحيد المعقول لما ورد فيه".

تشينغ–لينغ التي كتبت مقالات لافتة في جدليتها أثناء دراستها في الكلية، وتحب السخرية من الاعتداد بالذات، أعجبها ما ورد في الكتاب. أخذتها ماي–لينغ، الحادة الملاحظة، وهي تتمتع بحدس مميز، فكتبت لصديقتها إيمّا ميلز: "أتعلمين، لقد تبين لي أن أكثر الرجال نجاحاً ليس الذين يملكون قوى هائلة كالعباقرة بل أولئك الذين لديهم ثقة مطلقة في أنفسهم فينجحون دائماً في استمالة الآخرين ودفعهم مسلوبي الإرادة إلى تصديق ما يريدون، ويطبقون ذلك على أنفسهم أيضاً".

تشينغ–لينغ كانت بالتأكيد واقعة تحت تأثير سحر زوجها. كتبت إلى آلي تقول: "لا أزال أحتفظ بإعجابي به، ولا أزال متفانية في تبجيل شخصية كما كنت دائماً... أفضل ما أتمناه لك، أيتها العزيزة آلي، أن تجدي آمالك متجسدة في رجل يكون لك مثالاً أعلى فتعرفين عندئذٍ معنى السعادة الحقيقية. أنت بالتأكيد سعيدة جداً الآن، أيضاً، لكن سعادة الحياة الزوجية مختلفة وأرفع منزلة".

امتدت إقامة سون في شانغهاي أكثر من سنتين. خلال تلك المدة جرت انتخابات عامة ثانية في ١٩١٨، ونتج عنها رئيس جديد للدولة، هسو شيه–تشانغ، وهو سياسي معروف بأنه "مثقف ونبيل" والكل يحترمه لاستقامته. قاطعت الانتخابات خمسة أقاليم متضامنة مع كانتون، لكن الحكومة المنتخبة في سائر أرجاء البلاد حظيت باعتراف دولي.

بادر الرئيس هسو إلى تقديم عروض من أجل ترسيخ السلام مع كانتون وإعادة التوحد معها، فاستجاب الناس، وغادر كثيرون من ذوي المناصب المهمة المدينة الجنوبية. وضع سون خطة للرجوع إلى كانتون والاستمرار في نضاله، ضد الرئيس هسو هذه المرة. كان يؤمن أن الوصول إلى السلطة لا يتحقق إلّا بماسورة البندقية. بعد مظاهرة الرابع من أيار/ مايو في ١٩١٩، القومية الطلابية (كانت حدثاً بالغ الأهمية في تاريخ الصين) زاره بعض الشبان للتشاور معه. لم يبدِ سون اهتماماً يذكر في تحركهم، لكنه قال: "سأعطيكم خمسمئة بندقية للتخلص من حكومة بيجينغ. ما رأيكم؟" أرسل ثلاث مجموعات مختلفة من المبعوثين إلى ألمانيا لدعوة الجيش الألماني لاجتياح الصين والهجوم على بيجينغ. اعتبره الألمان "مجنوناً". وتوسّل إلى اليابان عبر القنصل في شانغهاي لدعمه في حربه، ووعد بإعطاء اليابان منشوريا ومنغوليا عندما ينتصر. ولم يكترث اليابانيون له.

في هذه المرحلة، كان قد مضى عقد تقريباً على اعتماد النظام الديموقراطي الانتخابي في الصين. وفيما كان المجتمع ينعم بحرية لم يعرفها من قبل، أخذ أشخاص من الطموحين الأذكياء يطرحون

أفكاراً غير تقليدية عن كيفية حكم البلاد، ويحاولون وضعها موضع التنفيذ. واحد من هؤلاء كان تشين تشي يونغ–مينغ، وهو ضابط في الجيش الكانتوني. قبل اختياره مهنة عسكرية، كان قد تدرب محامياً وانتُخب عضواً في الجمعية الإقليمية في غوانغدونغ في ١٩٠٩. اعتقد الضابط تشين أن الصين شاسعة ولا تستطيع حكومة مركزية أن تفرض سلطتها عليها وأفضل بديل يكون باعتماد نظام فيدرالي (مثل ذلك الموجود في أميركا). وفي هذا الإطار، يجب أن يتمتع كل إقليم باستقلالية تمكنه من إدارة شؤونه بذاته. ومن أجل تحويل رؤيته إلى واقع، عزم الضابط تشين على جعل غوانغدونغ إقليماً عاصمته كانتون، وعدّد المشاريع التي ينوي تنفيذها: بناء المدارس والمنازل والطرقات والحدائق وغيرها من المرافق العامة. كانت مشكلته أنه مجرد ضابط وليس مؤهّلاً أن يكون حاكماً لإقليم، ولن يصغي إليه أحد في هذه الحالة. فكر في سون يات–سين وظنّ أنه يستطيع استخدام اسمه لتحقيق غايته. سون استغلّ هذه الفرصة وطلب منه فرض نفوذه على كانتون، ودخل إليها بنفسه في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٠.

سرعان ما ندم الضابط تشين على اختيار سون رفيقاً له. كان هدفه بعيداً جداً من هدف سون الذي ينوي استخدام كانتون كقاعدة لشن حروبه من أجل أن يحكم كل أرجاء الصين. وفي النتيجة، بدأت الخصومة على النيات. وفي هذا المجال، لم يكن الضابط تشين نداً لسون. في مدة قصيرة، شكّل سون حكومة ثانية لمنافسة بيجينغ. وفي هذه المرة، لم يعد راضياً عما جرى في ١٩١٧ عندما استطاع الحصول على لقب المارشال الأعلى، فأعلن نفسه "الرئيس الأعلى للجمهورية الصينية" في ٧ نيسان/ أبريل ١٩٢١. هكذا، إنّ سون يات–سين، أبا الصين، قسّم البلاد وشكّل ولاية منشقّة، وفتح جبهة في مواجهة حكومة منتخبة ومعترف بها دولياً. لم يأخذ هذه الخطوة أي إقليم آخر.

زار الملحق العسكري الأميركي الرائد ماغرودر كانتون وسون، ولاحظ أن الرجل مأخوذ "بدافع وحيد في حياته هو تعظيم ذاته"، ومن أجل تحقيق هذا الهدف الشخصي، لا يتوقف أمام شيء ولا يتردد في التضحية بأيّ كان. والملحق العسكري الثاني الذي تلى ماغرودر، الرائد فيليان، كانت لديه ملاحظة مشابهة: "عيناه مركزتان (على بيجينغ). وهي غايته. يعتقد أن الصين كلها سوف تخضع له... وأن البلاد كلها ستطيعه".

في أيار/ مايو ١٩٢٢، زحف سون بجنوده شمالاً للإطاحة بالرئيس هسو، بحجة أن الأخير لم يكن منتخباً من الأقاليم الاثنين والعشرين كافة. لم يشأ هسو اندلاع حرب ثانية، فاقترح أن يقدم مع سون استقالتيهما ويفسحا المجال لإجراء انتخابات جديدة. وعمد في الحال إلى تقديم استقالته بعد تحقيق نجاح ديبلوماسي لافت. كان اليابانيون يحتلون جزءاً من إقليم شاندونغ منذ الحرب العالمية الأولى.

وفي مؤتمر فرساي الذي تلى الحرب في ١٩١٩، أخفقت الصين في استرجاعه، وكان ذلك دافعاً لانطلاقة احتجاج الرابع من أيار/ مايو القومي الطلابي. وببراعتها في إدارة المفاوضات، تمكنت حكومة هسو من إجبار اليابان على إعادة الأرض في ١٩٢٢. بعد توقيع المعاهدة في بيجينغ في الثاني من حزيران/ يونيو، قدم الرئيس هسو استقالته صباح اليوم نفسه، وغادر العاصمة بعد الظهر (هذا الانتصار الدبلوماسي مُحي من كتب التاريخ).

لم يكن سون يتوقع أن يتخلى هسو عن الرئاسة بهذه السهولة، فتهوّر وقال إنه سوف يستقيل معه. وهو الآن يواجه الرأي العام الذي يطالبه بالوفاء بوعده، ووضع حدّ للحرب التي يخوضها. ادّعى أنه لم يقل شيئاً من هذا القبيل. الضابط تشين وجنوده الذين يتوقون إلى السلام منذ مدة طويلة لم يعد بإمكانهم تحمل المزيد وردّوا عليه بوضوح أنهم لن يقاتلوا من أجله؛ طالبوه باستقالة تنشر في الإعلام. في ١٢ حزيران/ يونيو، عقد سون مؤتمراً صحافياً مندّداً بجيش تشين وأخذ يشتمه بالأساليب شتى. وأعلن مهدّداً: "الناس يقولون إن سون يات–سين 'مدفع كبير' [كثير التبجّح]. سوف أثبت لكم ماذا يعني المدفع الكبير بالفعل هذه المرة. سوف أستخدم مدافع بقياس ثمانية إنشات لإطلاق الغاز السام... وأحوّل الكتائب التي تفوق الستين في جيش تشين إلى رماد في ثلاث ساعات. إنّ ذبح أكثر من ستين كتيبة من الجنود وزرع الرعب في نفوس سكان مدينة بأسرها هو بالتأكيد عمل عنيف ووحشي. لكنني إن لم أقدم عليه، فلن تستقيم أحوالهم أبداً". وطلب من الصحافيين نشر تهديداته.

تلك كانت النقطة التي أطفحت الكأس بالنسبة إلى الضابط تشين. خلال بضعة أيام انتشر الجنود حول "قصر سون الرئاسي" الذي يقع عند سفح التلة. على منتصف الطريق التي تصل إلى قمة التلة المنخفضة، وفي نهاية الممشى المزيّن والمغطّى، كان يقع منزله الخاص، فيلّا أنيقة وسط حديقة وافرة، تطلّ على شوارع المدينة في الأسفل، وعلى نهر بيرل البعيد. سون لزم مقره الرئاسي واستلم رسائل تحثه على المغادرة، لكنه رفض.

بعد نحو ساعة من منتصف ليل ١٦ حزيران/ يونيو، تلقى إنذاراً بأن هجوماً مسلحاً سوف يُشنّ على المجمع عند الفجر. قرر سون عندئذٍ أن من الأفضل له أن يهرب. ارتدى ثوباً صيفياً من القطن الأبيض ووضع على عينيه نظارة شمسية وغادر مع عدد قليل من الحراس يرتدون ملابس عادية، وأخذ معه الوثائق الأكثر سرّية. نزلوا أسفل التلة وصاروا في شوارع كانتون. ركبوا عربات الجنركشة الصغيرة إلى رصيف الميناء القريب، حيث استأجروا زورقاً بخارياً ليحملهم إلى سفينة

حربية موالية لسون. خلال وقت قصير، لا يتجاوز ساعة ونصف، صار سون في أمان، ولم يصطحب زوجته معه.

عند الفجر، بدأ جيش الضابط تشين هجومه على منزل سون. لم يكونوا يعرفون أن الرئيس العظيم ليس هناك. وبما أن تشينغ–لينغ لا تزال هناك، ردّ حراس سون الذين يزيدون عن الخمسين بقوة على مصادر النار.

تشينغ–لينغ تطوّعت للبقاء لتشكل غطاء لفرار سون. كتبت إلى صحيفة في شانغهاي مباشرة بعد الحادثة: "اعتقدت أنه من غير المناسب له أن يصطحب امرأة معه، فطلبت منه المغادرة بإلحاح وتركي هناك في الوقت الحالي". وصرحت في مناسبة أخرى أنها قالت لزوجها: "الصين تحتمل غيابي لكنها لا تحتمل فقدانك". كانت مولعة به ومستعدة للتضحية بنفسها من أجله.

لكن السيدة الصغيرة لم تعرف أنه حتى بعد وصوله بسلام لم يكن زوجها يريدها أن تهرب بدورها. وصل إلى السفينة قبل الفجر ببضع ساعات، أي قبل موعد الهجوم الذي حدّده جيش الضابط تشين. كان لديه ما يكفي من الوقت لتوجيه رسالة إلى تشينغ–لينغ ليخبرها أنه وصل بأمان وأنها يجب أن تغادر المنزل. لكنه لم يفعل ذلك. في الواقع، طلب من أحد الرجال العودة إلى القصر الرئاسي، لكن بهدف "الاستطلاع" فقط لا لأي شيء آخر. هكذا لم تكن لدى تشينغ–لينغ أي فكرة عن أن زوجها صار في مكان آمن وبقيت هي في مواجهة الخطر بشجاعة.

كتبت أن الهجوم على المنزل بدأ مع شروق الشمس. حراس سون ردّوا مستخدمين "البنادق والرشاشات، فيما استخدم العدو مدافع الميدان... غرفة الحمام تدمرت بالكامل... مع اقتراب الثامنة بدأ مخزون الذخيرة لدينا يتناقص بسرعة، ولذلك قررنا التوقف عن إطلاق النار والاحتفاظ بما لدينا حتى اللحظة الأخيرة. عندئذٍ وافقت على المغادرة. زحفت مع ثلاثة من المرافقين على أرض الممشى المغطّى في محاولة للوصول أسفل التلّة. لكن العدو صوّب نيرانه على الممر وأخذ الرصاص المتطاير يصفر في آذاننا. شعرت مرتين أن رصاصتين كادتا أن تصيبا وجنتي، لكنني لم أتعرض لأذى".

هربها لم يكن هادئاً كهرب زوجها، بل "كان صراعاً بين الحياة والموت". "منذ الثامنة من ذلك الصباح حتى الرابعة بعد الظهر كنا في جحيم فعلي لإطلاق مستمر للنيران. الرصاص يتطاير في كل الاتجاهات. تساقط سقف إحدى الغرف بعد مغادرتي لها بدقائق".

أحد المرافقين أُصيب برصاصة ولم يعد قادراً على الاستمرار. ارتدت قبعته ومعطف سون ووصلت إلى الطريق مع مرافقين آخرين. رأت الجنود في كل مكان. "في هذه الأثناء، بدؤوا يفقدون

السيطرة".

كنت متعبة للغاية وطلبت من المرافقين أن يطلقا النار عليّ. لكنهما أحاطا بي ورحت أستند إليهما لمتابعة السير... الجثث في كل مكان... رأينا رجلين يجلسان القرفصاء تحت سقف أحد المنازل. تبين لنا عندما اقتربنا منهما أنهما ميتان وعيونهم جاحظة. ربما قتلهما الرصاص الطائش.

مرة ثانية اعترضت طريقنا مجموعة من الناس يهربون من ممر صغير. أخذوا يتهامسون أن علينا أن نستلقي على الأرض كأننا أموات. حين فعلنا ذلك لم نصب بأذى، ثم نهضنا وتابعنا سيرنا. نصحني الحارسان بألا أنظر إلى الجثث كي لا أفقد الوعي. بعد نحو نصف ساعة، ومع تراجع حدة إطلاق النار، وصلنا إلى بيت ريفي صغير. حاول صاحب البيت دفعنا إلى الخارج خوفاً من تحمل مسؤولية إيوائنا لكنه أجّل طردنا لأنني فقدت الوعي.

صحوت لأجد الحارسين يغسلان وجهي بالماء البارد ويلوحان بالمروحة أمامي. أحدهما خرج ليستطلع الأمور. وفجأة انطلق الرصاص بغزارة مجدداً. أسرع الحارس الآخر إلى إغلاق الباب. قال لي إن زميله أصيب وربما يكون فارق الحياة.

عندما هدأ الرصاص، تنكّرت في زيّ امرأة ريفية، وارتدى الحارس ملابس بائع متجول، وغادرنا الكوخ. حملت سلة ووضعت فيها القليل من الخضار عن الطريق. وأخيراً وصلنا إلى بيت أحد الأصدقاء... نمنا هناك في تلك الليلة. لكن القصف لم يتوقف طوال الليل، وارتحنا كثيراً عندما سمعنا أخيراً هدير قنابل المدافع من السفن الحربية. الدكتور سون في أمان.

كان هذا دليلاً على أنها لم تكن تعلم أن سون صار في أمان إلّا في ذلك الحين. لهذا السبب، اختارت البقاء في القصر الرئاسي عندما بدأ جيش الضابط تشين هجومه. من الواضح أن سون أراد استخدام زوجته كطُعم حتى يزداد الهجوم حدة وتصل المعركة إلى ذروتها. عندئذٍ ستصير لديه حجة لقصف كانتون من السفن التي تحمل المدافع. عدد من المندوبين المحليين والأجانب أتوا لمناشدته وقف القصف، وهو أسكتهم بالإشارة إلى الهجوم الذي شنّه جيش تشين على منزله. وفي تصريح للصحافة، ادّعى أن الهجوم بدأ "بعد دقائق" من مغادرته. وتابع: "أصدرت الأوامر إلى البحرية لتبدأ القصف لأنني كنت غاضباً ولأنني مصمم في الوقت نفسه على أن تأخذ العدالة مجراها".

هدير المدافع جعله أكثر انفعالاً وسعادة. يتذكر الذين رأوه آنذاك أنه كان "يتحدث ويضحك"، ويقول: "أنا مرتاح لمسار المعركة اليوم!"

في هذه الأثناء، كانت حياة زوجته في خطر. بعد يومين وليلتين من القصف الجحيمي تمكنت أخيراً من الاتصال بالهاتف بأحد الأصدقاء، الذي استطاع تأمين زورق لينقلها إلى سفينة سون. خلال فرارها من الموت لم يقدِم زوجها على أي خطوة لمساعدتها. تلاقيا لوقت وجيز وغادرت إلى منزل العائلة في شانغهاي.

أثناء الفرار عانت تشينغ–لينغ من عملية إجهاض، وقيل لها أنها لن تتمكن من الحمل مرة أخرى.

كانت الصدمة قوية جداً عليها. تشينغ–لينغ تمنّت الإنجاب. هذا الألم رافقها بظلاله الكئيبة معظم حياتها. في السنوات التالية، لاحظ أصدقاؤها المقربون أن أي حديث عن الولادة "يزعجها"، وتبادر إلى "تغيير الموضوع". رد فعلها "يكاد يكون مَرَضياً". في ما بعد، سوف تترك رغبتها التي لم تتحقق في إنجاب الأطفال تأثيراً عميقاً في سلوكها. بعد الحادثة مباشرة، لم تأتِ على ذكر الإجهاض في دفتر مذكراتها. كان الألم شديداً آنذاك. انتبهت صديقة أختها ماي–لينغ الأميركية، إيما ميلز، إلى معاناتها، وكانت في ذلك الوقت في شانغهاي ورأت تشينغ–لينغ عند وصولها وهي متنكرة بملابس فلاحة. كتبت إيما في مفكرتها أنها "كانت صغيرة، وضعيفة، وشاحبة جداً، وتبدو وحيدة أكثر من أي شخص رأيته في حياتي" (بقيت حتى موعد العشاء وساعدت ماي–لينغ والخياط الذي أتى لإعداد ملابس لتشينغ–لينغ).

كانت تصرفات زوجها ثقيلة الوطأة عليها. شارفت على الموت. خسرت جنينها والأمل في الحمل ثانية. كان مفهوماً أن يستخدمها سون لتغطية فراره، لكن أن يحوّلها إلى هدف لاستدراج العدو لشنّ هجوم مسلح وهو يعرف جيداً أنها قد تلاقي حتفها، فهذا أمر لا يحتمل. هذا السلوك قد يدفع أي امرأة عادية إلى التنكر لحبها. وحبّ تشينغ–لينغ لسون لم ينجح في تخطّي هذه المحنة. سألها صديقها الصحافي الأميركي إدغار سنو لاحقاً كيف أحبت سون. وكتب سنو أنها ردّت ببطء: "أنا لم أحبه، تعلّقت به كبطل قبل أن ألتقيه. كنت فتاة رومانسية فتملكتني فكرة العمل معه... أردت إنقاذ الصين والدكتور سون هو الرجل الوحيد الذي يستطيع فعل هذه المهمة، ولذلك أردت مساعدته".

لكن الرسائل التي كتبتها وهي مغرمة به تروي حكاية مختلفة. كانت تحبه لكن هذا الحب المخلص والعميق مات. تبدّدت الغشاوة عن عينيها ورأت الجانب البشع في زوجها. لم يكن أفضل منها أو أكثر نبلاً؛ هو لا يستحق تضحياتها. حلّ الانفصال مكان الشغف في علاقتهما. لم تكن تريد تركه، لكنها أرادت التوصل إلى عقد "اتفاق" معه. وتشينغ–لينغ فكرت بدقة في ما ستطلبه: إنها تريد أن تلعب دوراً علنياً شريكةً في العمل السياسي. لم تعد ترغب في الاستمرار سكرتيرة تنهمك في الطباعة في زاوية خلفية في حين أن سون وزواره يتناقشون. تريد أن تشارك في هذه النقاشات، وأن تظهر أمام الناس بجانبه... طالبته بذلك في الماضي لكنه رفض تحقيق رغبتها، بحجة أن الناس لم يتعودوا رؤية زوجات زعمائهم. والآن صمّمت على توجيه الدفّة في الاتجاه الذي تريده. عمدت، على الأرجح، إلى الكتابة عن عملية فرارها إلى الصحيفة في شانغهاي كي توضّح لسون ومعاونيه مدى صعوبة ما حدث لها، وتثبت لهم أنها تستحق تحقيق مطالبها.

في هذه الأثناء، لم يجنِ سون فائدة من قصف كانتون ولم يستطع العودة إلى المدينة. في آب/ أغسطس، التقى زوجته في شانغهاي، وأبلغها موافقته على مطالبها. يبدو أنه شعر بأنه مدين لها بذلك. وفي ما بعد، سوف يطلب من معاونيه ”أن يعتنوا“ بتشينغ–لينغ. وأولئك الذين اعترضوا في البداية على ظهورها العلني شريكة لسون غيّروا رأيهم؛ أذعنوا للأمر أمام شجاعتها وتضحياتها في سبيل سون. أخذوا يعاملونها باحترام وتقدير.

منذ ذلك الحين أثبتت تشينغ–لينغ جدارتها أمام الرأي العام، ونجحت بجدارتها في اكتساب مقام رفيع (بدأت زوجة للزعيم وصارت شخصية عامة). كتبت إلى صديقتها الأميركية آلي في ١٥ أيلول/ سبتمبر: ”هل تستطيعين تقديم خدمة عظيمة إليّ؟ أنا بحاجة إلى بطاقات زيارة من أحدث نوع. أرجو أن تطلبي لي مئتي بطاقة في الحال من Tiffany أو أي متجر آخر يطبعها، وأن تختاري نمطاً بسيطاً في الطباعة يكون جذاباً في الوقت نفسه. البطاقة تحمل ببساطة اسم: Mrs SEN–SUN YAT.

في ما بعد، قرّرت أن كلمة Mrs لا تتناسب مع مقام ”أبي الصين“ ومكانته. فقررت أخذ اللقب الفرنسي اللائق ”مدام“، وصارت تشينغ–لينغ تُعرف بـ”مدام سون يات–سين“.

٧

”أتمنى أن يكون مصيري مثل صديقي لينين“

بعد إبعاد سون من كانتون صيف ١٩٢٢ بدأت روسيا تلعب دوراً كبيراً في حياته وحياة ”المدام سون“.

بدأ يتواصل مع الدولة البلشفية الجديدة بإرسال برقيات إلى لينين في ١٩١٨. في هذه المرحلة، بعد فراره إلى السفينة الحربية في حزيران/ يونيو، بعث برسول ليلتقي رجال موسكو في شانغهاي، وحمّله رسالة من بضعة أسطر كتبها على عجلة، على ورقة انتزعها من دفتر تلميذ. الرسالة موجهة إلى شيشرين، مفوض الشعب للشؤون الخارجية، وتحمل في الختام ”أفضل التحيات“ إلى لينين. كتب سون رسالته بالإنكليزية: ”إنني أعاني من أزمة خطيرة سببها [الضابط تشين] الرجل الذي يدين لي بكل شيء“. استجابت روسيا لطلبه بكل سرور. هي بحاجة إليه في هذه الفترة بالذات. كانت تتفاوض مع بيجينغ لإقامة علاقات ديبلوماسية معها، وبرزت قضية عالقة: منغوليا. هذه الأرض الشاسعة مقاطعة صينية لكن الجنود الروس يحتلونها. شجبت بيجينغ محاولة روسيا ضمّها وطالبت موسكو بسحب قواتها. موسكو تستطيع الآن أن تلعب ورقة سون.

المفاوض الروسي، أدولف جوف، أرسل شيوعياً هولندياً يعرف باسم ”مارينغ“ كي يتحدث إلى سون في شانغهاي. بعد لقائهما في ٢٥ آب/ أغسطس، كتب سون إلى جوف ليقول إنه يوافق على بقاء الجيش الروسي في منغوليا. واقترح، أكثر من ذلك، أن يستولي الجيش الروسي على ”الطريق التاريخية“ للغزوات ويقتحم بيجينغ. أرسل جوف تقريراً إلى موسكو يشير فيه إلى أن سون ينصح موسكو بأن ”تحتلّ في البداية زينجيانغ، وتعدّ له جيشاً هناك“. وهو لاحقاً ”سوف يذهب بنفسه إلى زينجيانغ حيث يؤسس نظاماً سياسياً يتم التوافق عليه، حتى لو كان نظاماً سوفياتياً“. ولمساعدة الروس على المضيّ قدماً، أخبرهم سون أنه في زينجيانغ ثمة أربعة آلاف جندي صيني فقط، ولذلك لن تكون هناك مقاومة تذكر. للمزيد من الترغيب، ذكّر الروس بأن الإقليم ”غني بالمعادن“ التي يستطيعون استخراجها. المبلغ الذي طلبه سون من أجل العملية كلها كان ”مليوني دولار مكسيكي كحد أقصى“ (ما يعادل نحو مليونين من الروبلات الذهبية).

وجدت موسكو سون مفيداً جداً وصارت ملتزمة به خاصة بعد رفض الحكومة الصينية طلبها لضم منغوليا. جوف قصد شانغهاي بعد فشل مهمته الديبلوماسية في العاصمة، وعقد هناك اتفاقية مع سون، وصدر تصريح في ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٣. كانت تقارير جوف يناقشها القادة السوفيات، وعلى رأسهم لينين وتروتسكي وستالين. قال جوف لرؤسائه: سون يات–سين ''هو رجلنا'' (بالخط المائل في النص الأصلي)، ''ألا يستحق كل هذا مليونين من الروبلات الذهبية؟''

اجتمع المكتب السياسي للحزب ووافق على إعطاء سون مليونين من الروبلات الذهبية كل سنة. كانت هذه المرة الثانية التي يحصل فيها سون على مبلغ ضخم من راعٍ خارجي بعد المبلغ الألماني الذي تقاضاه في ١٩٠٧. لكن الراعي الحالي لن يكتفي بإعطائه مبلغاً واحداً فقط. موسكو قررت دعم سون بإمكانات معقولة وحتى إلى مدة مستقبلية معقولة.

بواسطة هذا الدخل الكبير والمضمون، أقنع سون قيادات الأقاليم المجاورة الطامعين بكانتون أن يهاجموا المدينة. الضابط تشين لم يشأ المشاركة في حرب قد تسفر عن تدمير كانتون، فقدم استقالته ورحل. عاد الأب المستقبلي للصين إلى كانتون منتصراً في شباط/ فبراير ليعلن تشكيل حكومة منشقة مجدداً. وفي هذه المرة، كانت الظروف واعدة أكثر من أي وقت مضى.

عيّن ستالين ميخائيل بورودين – بيلّاروسي مناضل سوفياتي متمرّس تولّى مهمات سرية في أميركا وبريطانيا والمكسيك – مستشاراً سياسياً لسون. طويل القامة، وكما وصفته ماي–لينغ (التي التقته في ما بعد): ''له رأس كالأسد، وعنده كتلة كثّة من الشعر الموضّب بعناية، طويلة ومتماوجة قليلاً ولونها بني داكن، تتدلى مثل العرف على مؤخرة عنقه''. مظهر بورودين كان مهيباً. كان يتكلم ''بصوت عميق، وواضح ومتأنٍ وجهير''، و''يعطي انطباعاً بانضباطية عالية وشخصية آسرة''. عندما وصل إلى كانتون، استقبله سون استقبالاً حافلاً. كتب بورودين إلى موسكو يقول إن سون ''حدّق فيّ لثوانٍ دون أن ترفّ عيناه''، و''سألني بالتفصيل عن لينين مستفسراً عن صمته كأنه طبيب''.

بورودين بارع في التنظيم. علّم سون الطريقة اللينينية لتحقيق حلمه. أعاد تنظيم الحزب القومي على النمط البلشفي، وأشرف على عقد أول مؤتمر حزبي على النسق السوفياتي، وذلك في كانتون، في كانون الثاني/ يناير ١٩٢٤. موسكو موّلت ودرّبت جيشاً لسون، وأسست أكاديمية عسكرية ''وامبووا''، على جزيرة جميلة في نهر بيرل على بعد نحو عشرة كيلومترات عن كانتون.

كان الروس رغم التزامهم مع سون يعرفون أنه ليس مؤمناً بالشيوعية، وأنه يركن إليه. أمرت موسكو أعضاء في ''الحزب الشيوعي الصيني'' (CCP)، وهي كتلة صغيرة أسستها في ١٩٢٠

وتدعمها باستمرار، كي ينضموا إلى الحزب القومي للمساعدة على توجيهه بما يتناسب مع توصيات موسكو. كان بين الشيوعيين الذين انضموا إلى القوميين ماو تسي–تونغ الذي انطلق في عمله السياسي من داخل ’’القومي‘‘ قبل أن يصبح قائداً لـCCP.

مستقبل الصين، ومسألة الأيديولوجية، ومن هم هؤلاء الشركاء... لم يكن سون معنياً بأي من هذه الأمور في الوقت الراهن. وكما قال في مقابلة مع الأميركي فلتشر س. بروكمان، وهو أحد معارفه، ’’لا يهمني مَنْ هم هؤلاء ما داموا مستعدون لدعمي في مواجهة بكين [بيجينغ]‘‘.

كانت الحكومة الصينية التي يسعى سون إلى توفير الدعم من قوى أجنبية متعدّدة من أجل إسقاطها تعمل بثبات من أجل حماية مصالح الصين. وبعد استرجاع شانغدونغ من اليابان في ١٩٢٢، أجبرت روسيا على الاعتراف بمنغوليا كجزء من الصين في ١٩٢٤ (على أن تبدأ التأسيس لعلاقات ديبلوماسية مع موسكو بعد ذلك فقط). إنها فوق كل اعتبار أول حكومة ديموقراطية منتخبة في تاريخ الصين. تمت الانتخابات رغم الشوائب، والبرلمان يؤدي مهماته. إنّ العمل التخريبي ليوان تشي–كاي وسواه من العوائق لم تغيّر التوجّه الديموقراطي في البلاد. الفضيحة الأكثر شهرة كان بطلها كاو كون الطموح جداً، وقد اشترى أصوات بعض أعضاء البرلمان ونجح في الانتخابات الرئاسية في ١٩٢٣. لكن المئات من الأعضاء الآخرين، إلى جانب الرأي العام، وجّهوا إليه أصابع الاتهام، وبقي في منصبه أقل من سنة. تحت سلطة الحكومة الصينية عرف الناس الخطاب الحرّ وكذلك الصحافة الحرة ووجود أحزاب سياسية متنافسة، فعرفت البلاد نظاماً قضائياً مستقلاً، كما ازدهرت الشركات الخاصة، واشتهر العديد من عمالقة الأدب والفن. وصل الإبداع إلى مستويات لا مثيل لها حتى في أيامنا، وشهدت هذه المرحلة ولادة اللغة الصينية الحديثة التي تفسح في المجال أمام الرجال والنساء العاديين لتعلّم القراءة والكتابة.[17] الرئيس هسو شيه–تشانغ، وهو باحث في الفن الكلاسيكي، لعب دوراً فعالاً في نشر اللغة الحديثة عندما أصدر قانوناً يلزم المدارس الابتدائية التركيز على تعليمها. وحركة تحرير المرأة التي أطلقتها الإمبراطورة دوايغر سيزي (بدأت بإصدارها لمرسوم في ١٩٠٢ يمنع ربط القدمين) تطورت بسرعة مذهلة. وفي غضون جيلين، انتقلت النساء من كونهن سجينات في منازلهن إلى الظهور العلني وهنّ يمسكنَ أيدي الرجال. ومن الأمية المنتشرة بنسبة عالية بينهنّ، أصبحنَ يملكنَ حق التعلّم بالمساواة مع الرجال. الأخوات سونغ من فتيات الجيل الأول اللواتي استفدنَ من هذه الإصلاحات: تشينغ–لينغ سافرت إلى أميركا بعد الحصول على منحة حكومية للدراسة، وقد رافق مندوبٌ من الحكومة الفتيات اللواتي حصلنَ على المنح الدراسية معها،

وبرفقتهنّ ماي–لينغ أيضاً. عندما عادت الأخوات إلى الصين، الجمهورية الجديدة، لم يجدنَ أن ثقافتهنّ الغربية غير مألوفة لدى الناس.

17 تُنسب الإبداعات الفنية في هذه المرحلة إلى "حركة الرابع من أيار/ مايو". وهي في الحقيقة ليس لها علاقة تُذكر بالمظاهرة القومية في ٤ أيار/ مايو ١٩١٩.

تميزت هذه المرحلة بالتسامح مع المعارضة والانشقاق لدرجة مذهلة: كان الناس يجاملون سون يات–سين الذي يترأس حكومة منشقة ويعاملونه باحترام، فقبضة الحكومة المركزية على السلطة كانت رخوة وفضفاضة، والأقاليم نعمت باستقلالية أكثر من ذي قبل. صار زعماء الأقاليم أكثر قوة ونفوذاً، وبعضهم لجأ إلى السلاح لحلّ نزاعه مع جيرانه. قلّة منهم خاضت حروباً من أجل السيطرة على بيجينغ. وهؤلاء أُطلق عليهم لاحقاً لقب "أمراء الحرب". لم يكن سون أمير حرب مع أن لديه جيشاً واحتلّ كانتون. اعترف أمراء الحرب كافة بحكومة بيجينغ المنتخبة. وانشغلت الصحف بنقل نزاعاتهم بكل تفاصيلها، ما أعطى انطباعاً بأن البلاد تعيش حالة إرباك وفوضى. والواقع أن القتال ظلّ متقطعاً وضيق النطاق، ولم يكن يتجاوز بضعة أيام. المراقبون الغربيون وصفوا أسلوب القتال بأنه فاتر. كان الجنود، ببذلاتهم الرمادية، يزحفون إلى الميدان، وينتظرون، ثم يطلقون بضع طلقات عشوائية. وفي ما بعد، يعلو صخب المدافع التي كانت نادراً ما تصيب أهدافها. عدد القتلى كان قليلاً. بعض الجيوش استأجروا حمّالين لنقل التوابيت كي يؤكدوا لجنودهم أنّ مَنْ يُقتل منهم سوف يدفن كما يليق به (هذا مهم جداً عند الصينيين). كان الجنود يحملون معهم، إلى جانب الأغراض الضرورية، أباريق شاي صغيرة ومظلات من الورق المشمّع. ومع تساقط المطر، حتى لو كان خفيفاً، يتوقف القتال وتفتح المظلات وتتحول الساحات إلى حقول من الفطر الملوّن. هذه هي الفرق العسكرية التي سوف تواجه القوة العسكرية التي يعدّها سون يات–سين ويدربّها السوفيات.

أمراء الحرب "الملوك" وصانعو الملوك في بيجينغ غير مؤهلين لمنافسة سون، لا في عزيمته وسعيه من أجل السلطة ولا في اندفاعه الذي لا مجال فيه للتردّد. أشهر واحد فيهم كان المارشال وو بيي–فو، القوي البنية، والمثقف المحبّ للشعر، الذي يتمركز جيشه شمالي الصين، ويمتد نفوذه إلى مناطق محيطة ببايجينغ. كان يعدّ "الرجل القوي في الصين" لسنوات، ونشرت صورته على غلاف مجلة *Time* في أيلول/ سبتمبر ١٩٢٤. وكتبت عنه مجلة *Life* مقالة جاء فيها: "لو كان في مقدور أمير حرب من النوع القديم أن يوحّد الصين في ذلك الوقت، لكان وُو سينجح في ذلك حتماً. كان الوحيد الذي لا يهاب شيئاً وهو معروف باستقامته وأنه لم يقبل أي رشوة، ولم يقدمها إلى أحد. هذا الرجل القصير القامة بعينيه العسليتين وطبعه اللطيف لم يكن لديه أي طموح شخصي".

بالفعل، رفض وو رفضاً مطلقاً الاقتراحات بتسميته رئيساً خوفاً من أن تبدو جهوده لتوحيد البلاد في سبيل مصلحة شخصية. للمارشال سمعة جيدة، وهو يعتزّ بها. لم تكن لديه محظيات، ويعيش ببساطة، وجنوده منضبطون. الغرب يحترمه ويرى فيه "أمير الحرب الشريف في الصين" ورجلاً "ديموقراطياً". الصينيون يحبونه من أجل وطنيّته الأسطورية: مع أنه لا يكره الأجانب ويتعامل معهم بلباقة، لكنه في المبدأ يرفض طلب اللجوء إلى مستوطنة تحت الوصاية الأجنبية والإقامة في مدن مثل شانغهاي، حتى لو كانت حياته في خطر، لأن هذه المستوطنات فُرضت على الصين بعد حرب الأفيون في القرن التاسع عشر.[18] مبادئ المارشال التي يعتزّ بها قيدت يديه عندما واجه حرب سون. كانت حكومة بيجينغ بحاجة إلى موارد مالية، لكنه كان يرفض طلب المساعدة من الأجانب في حرب أهلية ويرى ذلك محرّماً. حاول الروس إبداء حسن نيتهم نحوه، لكنه صدّهم بسبب مطامحهم في منغوليا وبسبب أيديولوجيتهم. تقرّب اليابانيون منه بدورهم وعرضوا عليه المساعدة ليتغلّب على سون لكنه رفض عروضهم أيضاً لأنه يعرف أنها تتضمن قيوداً وشروطاً.

[18] لاحقاً، في ١٩٣٩، في بايجينغ التي يحتلّها اليابانيون، رفض مساعي اليابان للتعاون، وحين مات ساد الاعتقاد أنه مات مسموماً بيد اليابانيين.

لم يكن لدى سون يات–سين مخاوف المارشال. قَبِل بسرور المال والسلاح من الروس ونفذ أوامرهم أيضاً. كان منهمكاً ببناء قوة عسكرية في كانتون، قوة سوف تتمكن من التغلب على المارشال وو وإسقاط حكومة بيجينغ.

كانت تشينغ–لينغ تحضر اجتماعاته كافة مع رجال موسكو، وكانت تأتي بسبب تأثرها ببورودين. هذا الرجل البلّاروسيّ وزوجته فانّي أمضيا مدة من حياتهما في أميركا، وتعلّما هناك الإنكليزية بلهجة الغرب الأوسط الأميركي. شعرت تشينغ–لينغ أنها قريبة منهما وأحست بالراحة عند لقائهما. وبما أن المجموعة الصغيرة استخدمت الإنكليزية كلغة مشتركة، رأى سون أن الأمر مثير للسخرية، فقال: "لغة المستعمرين... أثبتت أنها وسيلة ممتازة لنشر تجربة الثوار الروس بين رفاقهم الصينيين".

اهتمت تشينغ–لينغ بالقضايا السياسية منذ أيام الدراسة، وهي الآن مستغرقة في هذا النشاط الذي تحبه. سحرتها اللينينية وأيقظت ما لديها من قوة وصلابة. اعتنقت "الأخت الحمراء" اللينينية وآمنت بها على عكس زوجها الذي كان أكثر اهتماماً باستغلال الروس من أجل تحقيق غاياته.

في ١٩٢٤، ثار التجار في كانتون ضد سون. كانت الحرب التي يخوضها تشكل عبئاً كبيراً عليهم وشعروا أنها تستنزف مواردهم. نفذ أصحاب المتاجر إضرابات متعدّدة تطورت إلى إضراب عام

في آب/ أغسطس. قرر سون استخدام القوة لقمع المضربين الذين لديهم فريق مسلح خاص ويتمتعون بتعاطف وحدات الجيش الذي أحضره سون. كتبت تشينغ–لينغ إلى بورودين في ١٣ تشرين الأول/ أكتوبر تقول: ''قرّر الدكتور سون التدخل في الحال... (قوات سون) بحاجة إلى مزيد من التدريب على قتال الشوارع، والدكتور سون يأمل أن يعطيهم ذوو الخبرة لديك ما يحتاجون إليه من تدريب في هذا المجال... الهدف من هذا القتال هو سحق الجيش الخائن والمتطوعين لدى التجار المتمردين''. ومستخدمة لغة لينين تابعت: ''الناس في كانتون عدائيون معنا''، ولذلك ''زرْع الخوف واللجوء إلى الترهيب فقط'' يستطيعان إنقاذ كانتون.

في هذا الوقت، صار الطلاب العسكريون الذين درّبهم السوفيات في أكاديمية ''وامبووا'' جاهزين للتدخل. وقد أثبتوا جدارتهم في سحق التجار المسلحين ومصادرة متاجرهم وبضائعهم وبيوتهم. أما أصحاب المتاجر من غير المتورطين في هذا النزاع، فأُجبروا على فتح متاجرهم في الحال، أو يعمدون إلى تصفيتهم. هذه الإجراءات الصارمة أدت إلى مقتل المئات، وإلى حرق آلاف المنازل. وجوبهت بحملة استنكار واسعة، لكنها ساهمت في تعزيز قاعدة سون.

تلقّى سون المزيد من الأخبار الجيدة، من بيجينغ في هذه المرة. في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر، أطاح انقلاب بالرئيس كاوكون بعدما تشوهت سمعته وفقد شرعيته بسبب شراء الأصوات. قائد الانقلاب المعروف باسم ''الجنرال المسيحي''، فنغ يو–زيانغ، هو الذي عمّد جنوده بأسلوب أسطوري في مجموعة واحدة بواسطة خرطوم مياه لإطفاء الحريق. الجنرال الذي تلقّى مساعدات عسكرية هائلة من السوفيات مثل سون وجّه دعوة إلى الأخير للحضور إلى بيجينغ كي ''يتولّى رئاسة البلاد''. صار الحلم الذي ظل سون يات–سين يلاحقه سنوات طويلة قريب المنال. ردّ سون في الحال بأنه سوف يأتي.

بورودين، مندوب موسكو، وضع الشروط لهذه الخطوة. قبل مغادرة كانتون، كان على سون أن يصدر بياناً يحمل شعارات مثل ''فليسقط الإمبرياليون!'' (أي القوى الغربية) ويدين الغرب علانية حيث يكون، وبنحو خاص في العاصمة. كان على سون أن يذهب إلى بيجينغ بوصفه تحت حماية موسكو.

أصدر سون بياناً بهذه المواصفات. وبعد ترداد شعارات موسكو غادر كانتون في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ووصل إلى شانغهاي في السابع عشر من الشهر نفسه برفقة بورودين. تستغرق الرحلة إلى تيانجين بالقطار أربعين ساعة، وهي المرفأ الأساسي والمركز التجاري شماليّ الصين،

وتقع على مشارف العاصمة. في غضون أيام، سيصير حلمه حقيقة. لكن سون تريث، وغادر إلى اليابان لثلاثة عشر يوماً.

كان سون يفكر بروية. بورودين أراد أن يتأكد من أنه يتمسك بإصرار بالخطاب "المعادي للإمبريالية". في شانغهاي، حيث هدد بإزالة المستوطنات عندما يتولى السلطة (رغم أنه طوال حياته كان قادراً على الإقامة في شانغهاي وممارسة نشاطه فيها من أجل ما توفره له القوانين الغربية من حماية)، رحبت به حشود كانت تردد بحماسة شعارات معادية للغرب. من الواضح أنه كان يستعدي كل القوى الغربية ويحاول أن يبني صلة وثيقة بروسيا وحدها.

كان شبح الشيوعية يخيف الرأي العام ومعظم القوميين أيضاً. من المؤكد أن سون يات–سين بوصفه الرجل الذي تعتمد عليه موسكو سوف يعزلهم والأجانب على حدّ سواء. لن يكون وصول سون إلى كرسي الرئاسة أمراً محسوماً في حال بقي تحت سيطرة بورودين (رغم الجهود التي يبذلها الجنرال المسيحي فنغ الذي تموّله موسكو). حتى لو تمكّن من تحقيق غايته، لن يحتفظ بمنصبه مدة طويلة. لكن تجاوز ما يريده بورودين كان غير وارد. الروس يمدونه بالأموال والسلاح ويتحكمون في جيشه، وهو مدين لهم. الحل الوحيد أمامه أن يجد راعياً آخر قوياً، ولذلك حملته أفكاره إلى اليابان مجدداً.

بورودين خمّن ما يرمي إليه سون وكان يستطيع منعه من هذه الرحلة، كما قال للكرملين. لكنه قرّر أن يترك سون يفعل ما يريد. كان واثقاً أن سون ملتزم بنهج روسيا لدرجة أنه لن يستطيع إحراز أي تقدم في العلاقة مع اليابان؛ هذه الرحلة سوف تضع حداً لأوهام سون وتجعل ولاءه لموسكو أكثر صلابة. وبالفعل، رفضت الحكومة اليابانية تحقيق ما تمناه سون من زيارته المستعجلة إلى طوكيو ولقاء المسؤولين فيها. قال ديبلوماسي رفيع لمبعوث سون إن اليابان سوف تساعد سون في حال تخليه عن الخط السوفياتي فقط. عاد سون من اليابان صفر اليدين. كان مكتئباً "ولا يرغب في التحدث عن رحلته"، وبورودين أبلغ موسكو بما جرى.

وصل سون إلى تيانجين، وأقام في مستوطنة المدينة التي تشبه مدينة أوروبية ورجال الشرطة فيها من السيخ المعمّمين من الهند البريطانية. كان قد مضى أكثر من أربعين يوماً على انقلاب الجنرال المسيحي فنغ. قبل حضور سون، كان واضحاً أن الجنرال غير قادر على إدارة الوضع الحالي فتجاوزه رئيس الوزراء السابق الرفيع المقام ديوان كي–روي، وهو الذي رفض المبالغ الضخمة التي قدمها الألمان رشوة، وأكّد وقوف الصين إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. شكّل ديوان حكومة انتقالية. لاحظ بورودين انزعاج سون عند تلقيه الخبر. كان ديوان

موضع إعجاب كثيرين، ويحترمه الناس على اختلاف توجهاتهم، وبين هؤلاء زوج الأخت الكبرى هـ. هـ. كونغ الذي رأى أن ديوان "رجل صالح"، وأنه "بذل جهده" من أجل البلاد. كان ديوان وغيره من اللاعبين الأساسيين لا يزالون يحترمون سون ويشيرون إليه بأنه مؤسس الجمهورية. تكرّرت دعواتهم له للحضور إلى بيجينغ لعقد مؤتمر من أجل الوحدة تنتج عنه حكومة جديدة. لا يزال هناك أمل في أن يصبح سون رئيساً.

لكن سون كان يعرف جيداً أن لديه عقبة يصعب تجاوزها. لكي يحظى بتأييد الرأي العام واللاعبين الأقوياء، إضافة إلى الحلفاء الغربيين للصين، عليه أن يبتعد عن موسكو. وهذا أمر كان عاجزاً عنه. موسكو تفرض سيطرتها الفعلية على جيش سون ولديها نحو الألف من المخبرين في كانتون، وسون محاط ببورودين ورجاله، حتى صارت موسكو، كما وصفها بورودين، هي من يتحكم في القائد سون.

عند وصوله إلى تيانجين في ٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٤، كان لدى سون اجتماع انتظره طويلاً مع أحد أهم اللاعبين، زانغ زيو–لين، الرجل القوي في منشوريا المعروف بـ"المارشال القائد". بدأ حياته المهنية جندياً عادياً، ثم تحول إلى قاطع طريق، وأصبح بعد قائداً لهذا الإقليم الشاسع الذي يطمع فيه كثيرون، والمارشال القائد كان رجلاً يثير الإعجاب بدهائه وذهنيّته الذرائعية وخياله الواسع في آن (طلب من بعض المفكرين مرة وضع أيديولوجية سياسية خاصة به). حقق نجاحاً عظيماً في إدارة منشوريا، وصار الآن من صانعي الملوك في الصين. قال لسون إنه موافق على دعمه، ولكن عندما يقطع علاقته بموسكو. كانت الصدمة كبيرة، وسون انهار في تلك الليلة. أخذ يتلوى من الألم في محيط الكبد ويتقيأ باستمرار، ويتعرّق حتى انتقعت منشفتان كبيرتان من تجفيف عرقه. صباح اليوم التالي لم يتراجع الألم وكان مضطراً إلى التغيب عن الاحتفال الحاشد الذي أعدّ بعناية منذ أسابيع للترحيب به، والذي كان يمنّي نفسه به. تشخيص الأطباء، الذي نقله بورودين إلى موسكو، كان واضحاً: سون يعاني من مرض خطير في الكبد. انتشر خبر مرض سون وأخذ كثيرون يقولون إن أيامه معدودة.

فيما لزم سون الفراش وكان يعاني يومياً من آلام مبرحة، في ١٠ كانون الأول/ ديسمبر، كتبت تشينغ–لينغ رسالة إلى صديقتها الأميركية آلي سليب حافلة بالهذر والمرح:

إلى العزيزة آلي،

منذ رسالتي الأخيرة لك وأنا أتنقل في أرجاء البلاد. كنت سعيدة جداً حين وصلت ووجدت رسالتك... فرحت كثيراً لأن صحتك تتحسن على نحوٍ جيد ولأن وزنك يزداد.

بالتأكيد، لم تكن تشينغ–لينغ غير مبالية بالحالة الصحية. لكن يبدو أن معاناة زوجها الكبيرة لم تترك تأثيراً فيها. ذكرته فقط في إطار الإعجاب الذي أحيطت به والأيام الجميلة التي عاشتها نتيجة لذلك:

> استقبلونا استقبالاً رائعاً في اليابان وتيانجين. أكثر من عشرة آلاف وقفوا عند رصيف الميناء للترحيب بزوجي بالهتافات واليافطات. نقيم الآن في بيت ملكيّ قديم أعدته الحكومة ليكون مقراً لنا. المكان رائع وفيه أشياء كثيرة مهمة. كانت كلفة تجديد الديكور عشرين ألف دولار وصار المكان جميلاً وجديداً. إنني أتساءل كيف ستكون الحياة في قصر مماثل في بكين! أعتقد أنني سوف أشعر بالدلال والتواضع.
>
> منذ يومين كنت ضيفة الشرف في منزل الرئيس السابق لي يوان–هونغ، وزوجي كان حاضراً أيضاً. تناولنا العشاء في قاعة الرقص في مسرحه الخاص، في مبنى رائع كلفة بنائه ثمانمئة ألف دولار. واستمتعنا أثناء العشاء بعزف أوركسترا من خمسين عازفاً يرتدون بذلات مخملية. كانت المرة الأولى في حياتي التي أستخدم فيها سكاكين وملاعق وشوكاً من الذهب، وأخبرني الرئيس السابق أنه طلبها من إنكلترا. وزينت المكان مزهريات ذهبية مُلئت بأزهار غريبة، وأوانٍ من الفاكهة الغريبة أيضاً.

استمرت في وصف تفاصيل الوليمة التي كانت بلا شك محنة وعذاباً لسون، ففي ذلك الصباح، ازداد ألمه ووصل إلى حدّ لا يحتمل، فاضطر إلى إلغاء الاحتفال الذي أعدّ لاستقباله. خلال هذه المرحلة، وفيما كان سون يعاني، بدت تشينغ–لينغ كأنها غير مدركة لخطورة وضعه الصحي. وصفت لآلي "حالة الفرح" و"المفاجأة السارّة" عندما زارها بعض الأصدقاء القدامى: "لم نملّ من الأحاديث في تلك الزيارة". واحد منهم "أتى من مدينة أخرى فقط من أجل لقائي. عرفت أموراً كثيرة عن والدي، وأقواله، وهو صبي، التي تدل على ظرفه وسرعة خاطره، والحيل التي كان يورّط بها أساتذته في ناشڤيل وتنيسي، والنقاش الذي يفبركه من أجل تعذيب الأستاذ الذي يدرس مادة الفلسفة". وتابعت رسالتها لآلي: "سوف نذهب جميعاً إلى بكين بعد أسبوع. إنهم يعدّون استقبالاً رائعاً للترحيب بزوجي. سوف يشارك أكثر من مئة وخمسين ألف شاب في الاستعراض في هذه المناسبة".

نُقل سون إلى بيجينغ في اليوم الأخير من سنة ١٩٢٤، وذلك إلى حدّ ما بسبب مرضه. كان الأطباء في تيانجين قد وصفوا حالته بأنها لا شفاء منها. وفي العاصمة، أجرى له طبيب جراح عملية في الكبد ووجد أنه يعاني من ورم سرطاني في مرحلة متقدمة. جميع رفاقه استغرقوا في حزن شديد عليه. وتشينغ–لينغ أيضاً. ربما أدركت في هذه اللحظة أن سون يموت. هذا هو الرجل الذي أحبته لدرجة أنها كانت مستعدة لتفديه بحياتها، لكنه خيّب أملها. من المؤكد أنها في هذه المرحلة عاشت أحاسيس معقدة. في الأيام الأخيرة التي سبقت وفاته في آذار/ مارس ١٩٢٥، كانت

تبكي وهي منهمكة في العناية به. لكن الحديث الأخير بينهما الذي سجّله خادم سون لي يونغ، الذي كان حاضراً، يدل على أن سون كان يدرك أن تشينغ–لينغ لم تعد تحتفظ له في قلبها إلّا بقليل من الحب. قال لها وهو يرى الدموع في عينيها: ״لا تحزني، يا حبيبتي. كلّ ما أملك سيصبح لك״. ظن أن تشينغ–لينغ تعيسة لأنها تخاف ألّا يترك شيئاً لها. عندما سمعته، ارتجفت شفتاها، وضربت الأرض بقدميها، وقالت وهي تنتحب بصوت عالٍ: ״أنا لا أحب أياً من هذه الأشياء. أنا أحبّك. هذا كلام في غاية القسوة״. واسترسلت في بكاء لم تستطع التحكّم فيه. ناداها سون وهو يودّع الحياة: ״حبيبتي״. وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بكت تشينغ–لينغ حتى فقدت وعيها. وفي ما بعد، أغمضت عينيه برقّة وحنان.

عندما عرفت تشينغ–لينغ أن سون يعيش أيامه الأخيرة، أبلغت أختيها في شانغهاي، فقررتا التوجه في الحال إلى بيجينغ. خط السكة الحديدية الذي يربط المدينتين كان مقطوعاً في تلك المدة بسبب حوادث شغب أثارها اللصوص (إحدى المجموعات هاجمت قطاراً وأخذت أكثر من مئة رهينة من ركابه الصينيين والأجانب). والذهاب بالسفينة عبر تيانجين كان مستحيلاً لأن المرفأ في المدينة الشمالية يكسوه الجليد. لكن الأختين كانتا مصممتين على الحضور، وانطلقتا في رحلة على امتداد ألف ميل دون أن تعرفا بالتحديد بأي وسيلة ستسافران أو هل ستصلان إلى هناك. خلال الرحلة استخدمتا وسائل متعدّدة للنقل، ولم يكن الطعام متوفراً ولا حتى وسائل التدفئة في العربات، والشتاء كان قاسياً جداً لدرجة أن المياه تجمدت في الأنابيب. لم تعرفا من قبل هذا المستوى من الحرمان والمشقة في حياتهما. وفي النهاية، وصلتا إلى بيجينغ وغادرتا المحطة وهما متجمدتان من الصقيع والتعب.

كانت تشينغ–لينغ بحاجة إليهما وإلى أفراد آخرين من عائلتها ليكونوا بجانبها في محنتها، من أجل مساندتهم المعنوية لها، ومن أجل حماية مصالحها. وكيل بورودين ووريث سون على ما يبدو، وانغ جينغ–واي، كانت تسميه ״الثعبان״ ولم تثق به. وانغ تجاوز شركاء قدماء لسون وساعده على ذلك ولاؤه للجمهورية. بملامحه الناعمة واللافتة في أنوثتها، بدأ حياته العملية قاتلاً مأجوراً ذائع الصيت، وأمضى وقتاً في سجن منشوي بعد الحكم عليه بالسجن مدى الحياة لمحاولة اغتيال والد الإمبراطور الأخير. أيضاً كان ذكياً ويسهل التواصل معه. لكن الحجة المفحمة تكمن في أن بورودين أعطاه بركته. تشكلت لجنة كان بورودين المهيمن على قراراتها وأعدت ״وصية״ لسون عند تشخيص حالته بأنها ميؤوس منها. وانغ كتب نصّ الوصية.

بالإضافة إلى الوصية السياسية، كتب وانغ وصية ثانية خاصة بسون. سون ترك كل ممتلكاته لتشينغ–لينغ، وكان أولاده حاضرين ولم يعترضوا. لم يستفيدوا من والدهم أبداً، ولا يريدون الآن النزاع على إرثه (قدّرت تشينغ–لينغ ما أظهره أفراد عائلته من كرم وحافظت على علاقة وثيقة وطيبة بهم طوال حياتها).

في ١٤ شباط/ فبراير ١٩٢٥، قرأ وانغ أمام سون ما ورد في الوصيتين، وبحضور أربعة من أقربائه (ابنه فو، وابنته وان، ونسيبه ت. ڤ. سونغ، وعديله هـ. هـ. كونغ) وطلب منه بابتسامة متردّدة أن يوقّع عليهما. أومأ سون برأسه تعبيراً عن موافقته على ما ورد في الوصيتين لكنه تريث في التوقيع عليها قائلاً لوانغ: ”عُدْ بعد بضعة أيام“. كان لا يزال لديه أمل في أن حالته الصحية سوف تتحسن.

أعادت الوصية تأكيد السياسة الخاضعة لتوجيهات بورودين. كان سون يات–سين وهو على فراش الموت لا يزال يتمتع بذهن صافٍ فأصغى جيداً إلى ما ورد وقال لوانغ: ”أنت جعلت الأمر يبدو واضحاً للغاية. وهذا خطير. أعدائي السياسيون ينتظرون وفاتي للضغط عليك لتليين مواقفك. لكنك تبدو صلباً وغير مهادن إلى هذه الدرجة، وهذا سيكون خطراً عليك“. أجابه وانغ: ”نحن لا نخاف الخطر. سوف نواصل السعي لتحقيق أهدافنا المعلنة“. أومأ سون برأسه: ”أنا موافق“.

انتبه بورودين إلى ولاء سون لروسيا السوفياتية، وبادر لتعزيز موقفه فطلب من سكرتيره للغة الإنكليزية، أوجين تشين، أن يكتب رسالة باسم سون: ”رسالة من فراش الاحتضار إلى الحكومة السوفياتية“. أوجين بريطاني من ترنيداد يتحدّر من أسلاف كانتونيين وأفارقة، ولا يعرف الصينية، لكن هذا لم يحل دون تعيينه وزيراً للخارجية في حكومة سون. تدرب في لندن ليصبح محامياً في المحكمة العليا، وعانى كثيراً من العنصرية السائدة في تلك الفترة. مشاعره المجروحة وجدت متنفساً في الثورة. الترجمة الصينية للرسالة بدت غريبة على صينيّ: جمل طويلة ومعقدة (القاعدة الذهبية في الكتابة الصينية هي الإيجاز)، والمفردات الأجنبية، وهيمنة الأسلوب السوفياتي. حتى عنوان الرسالة جملة طويلة جداً: ”إلى اللجنة المركزية التنفيذية في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية“. ونهايتها وصلت إلى أبعد مما كان سون يفكر في قوله: ”وأنا أودعكم، أيها الرفاق الأعزاء، أعبّر لكم عن أملي العميق في أن اليوم الذي سيستقبل فيه اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية الصين القوية والمستقلّة، كصديقة وحليفة، صار قريباً، وأن الحليفين سوف يتقدمان معاً لإحراز النصر في الصراع من أجل تحرير الشعوب المضطهدة في العالم“. هذا النص لا يختلف في أسلوبه عن النصوص التي تُحفظ في الملفّات في موسكو.

في ١١ آذار/ مارس، كان سون يصارع الموت وتحلّق المزيد من الشهود العيان حول سريره. أمسكت تشينغ–لينغ بيده اليمنى وساعدته في التوقيع على الوصيتين. ثم قرأ ت. ڤ. سونغ، الذي درس في أميركا، الرسالة إلى موسكو بالإنكليزية، ووقعها سون أيضاً بالإنكليزية. إلى أي مدى استطاع سون متابعة الرسالة الطويلة ليس أمراً يمكن تحديده. لكنه دون شك فهم محتواها وصدّق عليه. فارق الحياة صباح اليوم التالي في ١٢ آذار/ مارس ١٩٢٥، وكان في الثامنة والخمسين.

إي–لينغ وزوجها هـ. هـ. لم يكونا يحبان الشيوعية وفَعَلا ما في وسعهما كي لا تنسب هذه الصفة إلى سون. أقنعا تشينغ–لينغ بإقامة قدّاس مسيحي من أجله في الكنيسة الصغيرة في المستشفى. علقت تشينغ–لينغ باستياء على ذلك بقولها: ''من أجل إثبات أنه ليس بلشفياً''.

لم يكن سون بلشفياً لكنه صار بحاجة إلى الروس في موته كما في حياته. هم الوحيدون الذين يستطيعون تخليده كما كان يتمنى. لن يضعوا حزبه في السلطة فقط بل سوف يوجّهون القوميين لترسيخ الإعجاب بشخصه، إعجاب يصل إلى حدّ العبادة. كان قد أبلغ الحزب بواسطة تشينغ–لينغ: ''أتمنى لو يكون مصيري مثل صديقي لينين، أن يُحنّط جسدي ويسجّى في تابوت مماثل''.

لينين مات في السنة السابقة، وسُجّي جسده بعد تحنيطه في تابوت من الكريستال الشفاف صنع خصيصاً له، ووضع في ضريح فخم وضخم. في غضون بضعة أسابيع وقف مئات الآلاف في الصف ينتظرون دورهم لوداعه. رُفع مقام لينين إلى حدّ القداسة وانتشرت في روسيا عبادة شخصه. وصار إلزامياً تعليق صور وملصقات له، كما وُضعت له تماثيل نصفية أيضاً، في الأماكن العامة كافة من المكاتب إلى قاعات التدريس ومن الشوارع إلى الحدائق العامة، مع التوجّه إلى الناس دائماً بأنه هو مخلصهم الكلّي القدرة.

قرّر سون أن هذا ما يريد تحقيقه في موته. وبعد موته صنع الروس بالفعل تابوتاً له يشبه تابوت لينين. لكن برزت مشكلة جعلته غير صالح للاستخدام. كان الغطاء الزجاجي على ما يبدو غير مناسب للحرارة في نانجينغ في الصيف. لذلك لم تتم تسجية جسده كي يراه الناس مثل لينين.

لكن سائر أمنياته تحققت كما أراد. بدأ القوميون إنشاء عبادة شخصية له مثل لينين. وانتشر اللقب ''أبو الصين'' للمرة الأولى. في السنوات التالية، خاصة عندما استلم القوميون السلطة في الصين سنة ١٩٢٨ واحتاجوا إلى اسم سون لتعزيز شرعيتهم، وصلت عبادة سون إلى مستويات مذهلة. نُصّبت له تماثيل في المدن والبلدات. وأقواله، مهما كانت عادية، صارت كأنها مقدسة، ولم يكن مسموحاً أن يقال أي كلام غير موقّر في الإشارة إليه. الدعاة القوميون الذين درّبهم الروس أطلقوا على سون لقب ''محرّر الأمة الصينية''، ''أعظم رجل خلال خمسة آلاف سنة من تاريخ الصين''،

وحتى ''مخلّص كل الأمم المضطهدة''. هذه التعابير اقتبسها ماو من أجل تبجيله وترسيخ عبادة خاصة به.

الرمز الأعظم لهذه العبادة كان ضريح سون يات–سين. قبل وفاته، حدّد سون أن مرقده سيكون ''على جبل الذهب الأرجواني في نانجينغ لأن الحكومة المؤقتة تشكلت في نانجينغ''. إنها الحكومة الوحيدة التي حاز فيها لقب ''الرئيس المؤقت'' حتى لو لم يدم ذلك أكثر من أربعين يوماً. على جبل الذهب الأرجوان، يوجد أيضاً مدفن الإمبراطور المؤسس لآخر مملكة للهان، المينغ. سون يات–سين كان يخفي إحساسه بالتنافس مع هذا الإمبراطور، زو يوان–زانغ، فألحّ على أن يكون ضريحه بجانب ضريح الإمبراطور، وأن يتفوق عليه في المساحة والارتفاع، وفي موقع عالٍ ''كي لا يستطيع أحد تشييد بناء أعلى منه''.

يمتد ضريح المينغ على مساحة ١.٧ مليون متر مربع، وكان الأكثر ضخامة بين أضرحة الأباطرة الصينيين. ضريح سون الذي شيده القوميون يرتفع أعلى منه بتسعين متراً، ويجري الصعود إليه على ٣٩٢ درجة، ويمتد على مساحة ثلاثين مليون متر مربع، فيضم بذلك جزءاً كبيراً من جبل الذهب الأرجواني. ومن أجل تأمين هذه المساحة دُمّرت قرى عدة وأُجبر السكان وهم بضعة آلاف على بيع أرضهم ومنازلهم للحكومة. رفع السكان المحليون شكاوى لإنصافهم لكن دون جدوى؛ لقد ''خسر الواحد منهم السقف الذي يحميه وصار شريداً يعيش حياة تتقدم فيها أسباب الراحة. البعض فضّل الانتحار كي يموت مع بيته''. كل إعلان لمزيد من التوسع في الموقع كان ''يثير الرعب في نفوس المئات أو الآلاف من السكان الذين صاروا على وشك فقدان بيوتهم، كأنهم سوف يخسرون أهلهم. توسّلوا إلى السماء والأرض، وفعلوا ما في وسعهم''. قال مقدمو العرائض إن النكبة التي حلّت بهم تتناقض مع ما يعرف بأنه شعار سون: ''كل ما هو تحت السماء ملك للشعب'' (gong–wei–xia–tian). اكتفى القوميون بالردّ عليهم: ''يجب أن يكون هدف حياتكم التضحية بكل ما لديكم'' من أجل ''أبو الصين''.

الجزء الثالث

الأخوات وشيانغ كاي_شيك

(١٩٢٦_١٩٣٦)

٨

سيدات شانغهاي

قبل عودتها إلى الصين في تموز/ يوليو ١٩١٧ وهي في التاسعة عشرة، كانت الأخت الصغرى ماي–لينغ قد أمضت عقداً في أميركا وصارت سيدة شابة مرحة ومرتاحة البال وقليلة الاهتمام بالسياسة. بعد أن أنهت دراستها الثانوية في Wesleyan في ماكون بجورجيا، انتقلت إلى الساحل الشرقي، إلى Wellesley College، في ماساتشوستس. تابعت دراستها هناك في الإنكليزية والفلسفة، وأخذت دروساً في مواد متنوعة بينها تاريخ **العهد القديم**. ماي–لينغ المنفتحة والاجتماعية كانت أكثر اندماجاً في نمط الحياة الأميركية من أختيها. اتفقت زميلاتها في Wesleyan على أنها "تتصرف بمودّة كأنها تحب الجميع وتهتم بكل شيء وهي دائماً مرحة وتتحدث مع الآخرين". "كانت ماي–لينغ تأتي إلى غرفتي وتستلقي على سريري وتضع رأسها على وسادتي الصغيرة ولا تتوقف عن الكلام". وُصفت بأنها "ممتلئة" و"بدينة"، لكنها كانت "ممتلئة وحيوية وعابثة في كل لحظة". كانت نشيطة ومندفعة؛ "طلبت الإذن للخروج من الصف لتركض في الحرم أثناء درس الفرنسية لأن جسمها الصغير القلق لا يستطيع أن يبقى هادئاً مدة طويلة".

في Wesleyan، احتفظت "بدفتر اعترافات" مثل سائر الفتيات، وكانت تترك البعض يطلعن عليه كما تفعل رفيقاتها. كتبت مرة: "أنا مبذرة، في ملابسي... والسر الذي يحزنني هو أنني بدينة". وقد اضطرت إلى مراقبة وزنها طوال حياتها.

بعد التخرج عادت إلى أرض الوطن مع أخيها ت. ف. الذي كان يدرس الاقتصاد في جامعتي هارفرد وكولومبيا. على عكس أخته، كان ت. ف. خجولاً وملامحه باردة ومتحفظة، وهذا ساهم في تكوين فكرة عنه بأنه متعجرف. كان وماي–لينغ قريبين جداً من بعضهما بعضاً. في ما بعد، تذكرت ماي–لينغ ذلك بحب: "كيف كنت أعدّ لك الكاكاو لتشربه في الصباح الباكر قبل الذهاب إلى الصف".

سافرا معاً في صيف ١٩١٧ في القطار عبر كندا حتى فانكوفر ليركبا هناك سفينة بخارية إلى الصين. في فانكوفر، كتبت لصديقتها إيما ميلز: "ذهبت مع أخي إلى متجر فخم كي نشتري بعض الأغراض لكن خاب أملنا لأنه كان سيئاً جداً. قال لي أحدهم إنه لا توجد امرأة كندية أنيقة في المنطقة. اعتقدت أنه يبالغ. لكنني أجد الآن أن هذا الكلام لا يخلو من الحقيقة. النساء هنا بعيدات عن الذوق والأناقة!"

لم تشغل بالها بقضايا الصينيين. حين كانت تواجه مشكلة تخصّ بلادها كانت تتعامل معها بعفوية على نحو غير متوقع إلى حد ما: "رأينا قطاراً ينقل مجموعة من الرجال الصينيين الذين سيجري ترحيلهم بحراً إلى فرنسا للعمل هناك. إذا مات أحدهم، تحصل عائلته على ١٥٠ دولاراً! هذا هو ثمن الحياة بالنسبة إليهم! إذا صار لديّ نفوذ يوماً، سوف أسعى إلى منع ترحيل العمال بهذه الطريقة، لأن الصين بحاجة إلى كل رجالها لتطوير العمل في المناجم".

كتبت رسالتها الأولى من شانغهاي إلى إيمّا بعد ثلاثة أسابيع من وصولها. وتباهت بحماسة بمنزلها:

نعيش بعيداً من صخب المدينة. كلما بعدت المسافة، يزداد الموقع قيمة ومنزلة. المكان رائع جداً هنا: لكنه بعيد من الوسط التجاري والمسارح والمطاعم! لدينا عربة جميلة وحوذيان... إلخ. الأحصنة مزعجة بجلبتها. لكننا بحاجة إليها. في الأسبوع المقبل، سنشتري سيارة لتقلّنا إلى المدينة، وسنترك العربة لوالدتي كي تستخدمها في تنقلاتها. لدينا حديقة ممتعة، وملعب تنس، وملعب كروكي. المنزل من أجمل المنازل في شانغهاي... فيه شرفات وأروقة للراحة وأشياء أخرى. يتألف من ثلاثة طوابق وفيه ١٦ غرفة كبيرة إلى جانب المطبخ والحمامات وغيرها... بالمناسبة، صرت المسؤولة عن المنزل الآن. لدينا خمس خادمات وسبعة من الخدم الرجال. سوف أصف لك حالتي وأنا لا أمزح! أنا متعبة جداً من الصعود والنزول لمراقبة كل شيء... والدتي لا تزال المسؤولة عن الأمور المالية وأنا ممتنّة لذلك!

يزعجني أحياناً أنني أنسى نفسي وأتحدث بالإنكليزية مع الخدم... لا أستطيع أحياناً التعبير عما أريد بالصينية، وعندئذ ألجأ إلى استدعاء السّاقي كي يترجم! منذ عودتي إلى المنزل أشعر كأنني لا أتوقف عن شراء الملابس... حضرت مناسبات كثيرة لتناول العشاء وشرب الشاي وأمور أخرى.

وجدت نفسها محاطة بحب ودفء عائلتها. تشينغ–لينغ تنتظرها في شانغهاي (سون يات–سين كان في كانتون)، وإي–لينغ أتت مع أولادها من منزلها في شانزي في الشمال الغربي. الأختان الكبيرتان غمرتا أختهما الصغرى بعطفهما ومودتهما. ماي–لينغ أخبرت إيما أنهما قالتا لها: "رأينا فستاناً رائعاً في أحد المحلات. يجب أن تشتري واحداً مثله... هما تهتمان بأناقتي، لأنني الصغرى التي لم تتزوج بعد". كنّ سعيدات بهذا اللقاء حتى فكّرت إي–لينغ في الانتقال إلى شانغهاي، وفكّرنَ

في الإقامة معاً تحت سقف واحد. توجهنَ معاً لرؤية أحد المنازل. إنه يتألف من ”ثلاثين غرفة (الغرف المخصصة للخدم ليست ضمنها). هو في الواقع قصر ضخم من خمسة طوابق وحديقة على السطح. الحقيقة أنه لم يعجبني: إنه كبير جداً، والسقف عالٍ للغاية وأنا أشعر أنني تائهة فيه. يشبه فندقاً كبيراً مترفاً وفخماً في آن. هذا 'كثير جداً' كمكان تسكن فيه فتاة تخرجت للتو من وود بارن!... أتمنى ألّا نقرّر الانتقال إليه. من المؤكد أنني أتمنى أن تعيش أختي (إي–لينغ) معنا لكن وجود ثلاثين غرفة ليس أمراً سهلاً! أنا أميل دائماً إلى البساطة؛ عائلتي على الأقل تعتقد ذلك!“ لم تشترِ الأخوات القصر، والإقامة في منزلين مختلفين لم تكن عقبة أمام إي–لينغ وماي–لينغ اللتين كانتا تلتقيان باستمرار.

انضم إلى ماي–لينغ أيضاً أخواها الأصغر سناً، ت. ل. و ت. أ.، وظهر ولعها بهما من حديثها عن التعاطي معهما على نحو صارم:

> أخواي الصغيران رسبا العام الماضي، والعائلة مستاءة جداً. لديهما أستاذان يأتيان إلى المنزل كل يوم (واحد للإنكليزية والثاني للصينية). صدقيني، إنهما يعملان بجهد! وأنا بدوري أدرسهما قواعد الإنكليزية. واحد من الولدين المسكينين بدأ يتعلم علامات الترقيم، والثاني يتعلّم التهجئة وأنا الآن أشرف على تدريسهما... والدتي منزعجة جداً وسلمتني الاثنين معاً... من الصعب التعاطي معهما لأنهما مشاغبان للغاية وكسولان في الوقت نفسه. ضربت الصغير مرات عدة. هما يخافاني. لا تعرفين إلى أي مدى أستطيع أن أكون صارمة في فرض الانضباط!

ماي–لينغ تحب عائلتها كثيراً. ”يبدو الإحساس بالعائلة غريباً بالنسبة إليّ. تعوّدت أن أفعل ما أريد دون استشارة أحد والآن عليّ أن أنتبه باستمرار أنني لم أعد في الكلية ولم يعد في إمكاني أن أفعل ما يسرّني أو أفكر بحرية. لكنني بالطبع سعيدة جداً معهم“.

خلال مدة قصيرة أخذ رجلان يودان الارتباط بها يترددان على المنزل:

> هـ. ك. من بكين ويقيم هنا، وكذلك السيد يانغ. أنا معجبة بهما. لكن هذا كل ما في الأمر. آه، إيما، يجب أن أخبرك أنني في السفينة كنت مأخوذة بشاب والده دنماركي ووالدته فرنسية. هو مهندس كان في طريقه إلى سومطرة. طلب يدي للزواج والعائلة هنا منهمكة للغاية! لم أعرف الراحة في هذه المدة. تذكري: هذا سرّ، لا تخبري أحداً به، بحق السماء! في هذه الليلة، سوف يأتي لزيارتي شاب فرنسي التقيته على السفينة. نتحدث معاً بالفرنسية فقط... أحلّفك بحبك لبيت ألّا تخبري أحداً بذلك...

في نهاية هذه الرسالة المرحة وما فيها من كلام عذب وأخبار لا تنتهي، أضافت: ”بالمناسبة هل تستطيعين طلب اشتراك لي في مجلتي *The Literary Digest*، و*The Scribner's* وفي مجلة متخصصة في سيكولوجية الأطفال وكيفية العناية بهم. المجلة الأخيرة للسيدة كونغ (إي–لينغ) لطفليها اللذين صارا في السنتين الثانية والأولى. لكن أرسلي المجلات كلها باسمي، وأخبريني كم

يكلف الاشتراك وسوف أرسل إليك المبلغ". طلبات الحصول على مجلات أميركية وأشياء صغيرة غيرها صارت تتكرر باستمرار في رسائلها إلى إيما.

كل صباح كانت ماي–لينغ تأخذ دروساً في الصينية. "المعلم العجوز علمني وأنا في الثامنة من عمري، وعلى ما أذكر، ضربني مرة بالعصا على يدي عندما اكتشف أنني أتناول حبات البونبون طوال الوقت وأدعي أنها 'أقراص أجنبية' للسعال. لكنه الآن مهذب للغاية معي". تعلمت اللغة بسرعة ووجدت الأنماط الكلاسيكية المعقدة في الكتابة سهلة. كانت تُمضي بقية ساعات الصباح وهي تتنقل في البيت، "وتفقّد الغرف والاهتمام بالأزهار، واختيار كتاب من هنا أو هناك".

في وقت الظهيرة، تقرع جرساً. فيأتي الخادم الذي يهتم بالطابق الذي تشغله مع ت. ڤ.، ومهمته فقط تنظيف وترتيب هذه الغرف، والردّ على الجرس الذي أقرعه. "يجلب إليّ أحياناً طعام الغداء لأتناوله عن الشرفة. لقد تخليت عن خادمتي. وجدت أنني ببساطة لست بحاجة إليها، لأن خادمة والدتي تعتني بملابسي وتحملها إليّ، وكنت أتضايق من خادمتي لأنني أستطيع تلبية طلباتي في وقت أقل من الوقت الذي أحتاجه لأشرح لها ما أريده. يبدو أن السنوات التي عشتها في أميركا الديموقراطية تركت تأثيراً كبيراً فيّ. أنا مكتفية بخادم واحد الآن يلبي طلباتي وطلبات أخي. إنه ينظف أحذيتنا ويمسح الغبار وينظف البلاط ويرتب سريرينا... إلخ. وبعد الظهر أتناول الشاي في مكان ما أو في البيت".

بالنسبة إلى العشاء، "كنت مشغولة جداً. خلال الأسبوعين الماضيين مضت ليلة واحدة فقط لم نكن فيها مدعوّين لتناول العشاء أو لم نعدّ وليمة في المنزل!" وبعد العشاء "نجري جولة في السيارة أو العربة، أو نتمشى، أو نذهب إلى المسرح". "صار لدينا هنا دار الأوبرا الروسية، وشاهدت فيها ستة عروض مختلفة أو سبعة". المسرح الصيني ليس راقياً في ذوقه، وتصفه بأنه "عويل وصراخ في قتال ضارٍ". والجولات بعد منتصف الليل كانت تتكرر. "بالطبع، لا نعود إلى المنزل إلّا في وقت متأخر. وأنا أستغرب أنني متعبة!"

في هذه الحياة المدلّلة، اقتصرت مشكلاتها على أمور مثل "طلبنا سيارة Buick، لكن لسوء الحظ لن تصل الشحنة التالية إلّا بعد أسبوع". ذات يوم اكتشفت وجود التهاب على بشرة وجهها، كأن كارثة كبرى حلّت، فكتبت لصديقتها: "لا تستطيعين أن تتخيلي كم بكيت من شدة توتري... لكنني أستطيع الآن في نهاية الأسبوع تلبية الدعوة لحضور حفلة!" "منذ سجنت نفسي في البيت صارت الحياة مملّة، مملّة، مملّة! وعرفت نوبات حادة وغير معقولة من الانفعال لدرجة أنني أحياناً كنت أظن أنني أصبت بالجنون".

حفلات شانغهاي كانت كبيرة: استقبال لأكثر من ألف شخص، أو زفاف لأربعة آلاف. "إنني أمضي وقتاً ممتعاً للغاية... في بعض الأحيان فقط، أشعر بالذنب حين أفكر أنني لا أمضي وقتاً كافياً مع والدتي... أعتقد أنني دائمة التنقل مثل الفراشة".

لكن المأساة لطخت هذه الصورة المرحة، وذلك عندما توفّي تشارلي في أيار/ مايو ١٩١٨، بعد أقل من عشرة أشهر على رجوعها إلى البيت. كان يعاني من مرض في الكليتين. في الأسابيع الأخيرة من حياته، تولّت ماي–لينغ العناية به، مع ممرضة مختصة، بكثير من الحب. كانت تدلك جسمه بزيت الزيتون كل ليلة لأن جلده صار ناشفاً مثل البرشمان. وفي المستشفى، بعد أن تكون والدتها قد أمضت النهار معه أو أي فرد آخر من العائلة، تبقى طوال الليل بجانبه وهي تحدق في وجهه المنتفخ وهو نائم، وتصف حالتها: "أكاد لا أحتمل ما يعانيه".

عندما أعلن الأطباء أن إمكانية شفائه لا تتعدى ٢٠%، قررت السيدة سونغ نقله إلى المنزل رغم اعتراض الأطباء. كانت من أتباع المذهب الرسولي التبشيري الذين يؤمنون بقوة الصلاة. امتلأ المنزل بالمريدين الذين يتبعونها وأخذوا يصلّون من أجله في الليل والنهار.

بعد وفاة تشارلي أعدت له زوجته جنازة هادئة وبسيطة دعت لحضورها أصدقاءه المقربين فقط. دُفن في المقبرة الدولية الجديدة، وكانت العائلة قد اشترت أرضاً تكفي لكل أفرادها. كان أول من دفن في هذه الأرض التي أصبحت جبّانة لها مقامها وهيبتها. ارتاحت ماي–لينغ "لأنه كان يحب أن يكون السبّاق في أي نوع من المنافسة. لذلك أنا أعرف أنه لو أدرك ذلك، سيعجبه".

ظلت ماي–لينغ في حداد على والدها مدة طويلة: "بعد وفاة والدي لم تعد العائلة كما كانت. كلنا نفتقده بحزن شديد. كان والداً حلو المعشر". "كان والداً رائعاً لنا جميعاً! ولا نزال نحبه مع أنه لم يعد بيننا".

بعد غيابها لعشر سنوات لم تمضِ بجانب أبيها سوى أشهر قليلة وهذا أمر ظلت ماي–لينغ تتحسّر عليه طوال حياتها. إلى جانب هذا الإحساس بالحسرة، عانت من اشتياقها إلى البيت والأسرة في سنوات مراهقتها، وهذه المشاعر أعطت حبها لعائلتها عمقاً خاصاً. كانت في مستهل العشرينات عندما استنتجت: "الأصدقاء لطيفون جداً، لكن تذكري أنك عندما تواجهين عقبة صعبة، عائلتك هي التي تساندك. عندما يصدر عني مثل هذا الكلام، أنا التي أمضيت معظم حياتي على بُعد آلاف الأميال من عائلتي، قد يبدو ساذجاً. لكنني بصدق أقول لك إنك سوف تجدين ما أقوله صحيحاً".

إحدى قريباتها عادت من أميركا ووجدت أن الحياة لا تحتمل مع العائلة. ماي–لينغ وصفت هذه العلاقة بنضج غير متوقع، فقالت: "أعتقد أن أساس المشكلة أنها وعائلتها كانتا تتوقعان الكثير من

بعضهما بعضاً... رجوعها إلى البيت يختلف كلياً عمّا عشته بعد رجوعي. عائلتي تقبلتني كما أنا، بحسناتي وسيئاتي. ومع أننا لم نكن نتفق دائماً، لكننا كنا نتبادل الاحترام ونحاول أن نتفاهم".

رأت أن والدتها هي التي أوصلت العائلة إلى ما هي عليه: "قد لا يكون الجميع محظوظين بأن لديهم والدة عظيمة مثلي. حقاً إن والدتي تراعي مشاعري لدرجة أنني كل يوم أخجل من نفسي ومن سلوكي".

حب السيدة سونغ لأولادها كان حب والدة استثنائية في قوتها. كانت قادرة على أن تصبح امرأة فولاذية وترسل ابنتها وهي في التاسعة عبر المحيط لتغيب عنها عقداً من أجل تحصيل التعليم العالي. وهي خلال كل تلك السنوات في غاية الشوق لرؤيتها. عندما زارت ماي–لينغ أختها إي–لينغ في شانزي، كتبت إلى إي: "والدتي داخلها لم تكن تريدني أن أبتعد لكنها لم تحاول الوقوف في طريقي ومنعي من السفر". "والدتي تخاف أن تسعى أختي أن أطيل إقامتي عندها. حبيبتي! إنها تشعر بالوحدة دوني". "والدتي طيبة جداً معي، وهي تتّكل عليّ لدرجة أنني لا أفكر في تركها وحدها". عندما صارت نحيلة، تصرّفت السيدة سونغ كأي أمّ تقليدية (تريد أن يكون أولادها دائماً ممتلئين صحة وعافية): "بكت أمي في تلك الليلة. قالت إنها تتألم لرؤيتي شاحبة وضعيفة". كان فقدان الوزن في الواقع ناتجاً عن خطة مدروسة. الأخت الصغرى التي كانت منزعجة من شكلها استطاعت خفض وزنها من ١٣٠ باونداً إلى ١٠٧ في غضون بضعة أشهر، وصارت امرأة نحيلة (طولها نحو ٥.٣ قدم وبدت أطول من ذلك).

ماي–لينغ الشديدة التعلق بوالدتها انصاعت بسرور لما أرادته منها. توقفت عن الرقص لأن السيدة سونغ اعترضت عليه، مع أنها كانت تحبه في المدرسة. السيدة سونغ كانت تبذل الكثير من الوقت والمال من أجل الأعمال الخيرية. وماي–لينغ التي تريد إرضاءها صارت تشارك في هذه الأعمال أيضاً. تبرعت بالتدريس في مدرسة الأحد: "سعادة والدتي كانت لا توصف لأنني وافقت على هذا العمل. لا أستطيع فعل إلّا القليل من أجلها ولذلك أنا مستعدة لأي شيء إرضاءً لها". جمعت التبرعات لـ"جمعية الشابات المسيحيات" في شانغهاي. وزارت الأحياء الفقيرة: "أنا أكره الروائح المنفّرة والمناظر الوسخة. لكنني أعتقد أنه لا بد من رؤية الوسخ إذا رغبنا حقاً في إزالته". مجتمع شانغهاي رأى فيها شابة قديرة وناشطة اجتماعية، وشخصية مناسبة لكي تتولى مهمات تنفيذية في منظمة خيرية كبرى.

إلى جانب والدتها، كانت أختها الكبرى أكثر من تُجلّ وتُحترم. قالت لإيمّا: "ليتك عرفتها. إنها بلا شك الأكثر براعة في العائلة، وهي مذهلة في ذكائها وسرعة بديهتها وحيويتها واندفاعها وإرادتها.

لا أستطيع بالتأكيد وصفها بالتعصّب، مع أنها متدينة جداً".

بعد ١٩١٤، عاشت إي–لينغ في حالة اكتئاب لبضع سنوات. العمل من أجل سون يات–سين الذي رأته هدف حياتها تحول إلى إحباط. كانت مستاءة في تلك المدة من حياتها الزوجية في بلدة ريفية. بعد نجاحها في العمل الناشط، شعرت بأنها غير راضية عن تحولها إلى معلمة مدرَسة وزوجة وأم. عند ولادة أول طفلين لها، روزاموند في ١٩١٥، ودايفيد في ١٩١٦، كانت متوترة وتعيسة. كما كتبت ماي–لينغ إلى إيما.

"مرت بأوقات من العذاب... والبؤس والمعاناة". حتى أنها فقدت الإيمان بالله، "وأنكرت وجود إله، وحين يأتي أحدهم على ذكر الدين أمامها كانت تغير الحديث أو تقول بصراحة إنها أحاديث نساء عجائز". ومع أنها ساعدت زوجها في تحصيل ثروة – اكتشفت أن لديها موهبة في عالم المال – لكنها لم تعرف الرضا، وبدا لها أن كل هذا بلا معنى.

عودة الأخت أدخلت شعاعاً من ضوء الشمس إلى حياة إي–لينغ: صار لديها الآن صديقة حميمة تأتمنها على أسرارها، وهذا ساعدها على استرجاع صفاء ذهنها وتوازنها النفسي. أدركت أنها بحاجة إلى إيمانها. عندما أنجبت ثالث أطفالها، ابنتها جانيت في ١٩١٩، كانت الأخت الكبرى قد عادت إلى إيمانها بالله وطلبت منه الغفران بسبب الشكوك التي ساورتها حول وجوده. وحين أنجبت ابنها الأصغر لويس في ١٩٢١، قالت لأختها الصغرى إنها "وجدت أخيراً السكون واستعادت نور الهداية في حياتها". ورد في رسالة من ماي–لينغ إلى إيما: "إنها الآن تدعو الله ليساعدها على حل مشكلاتها. وبالإضافة إلى ذلك وجدت السلام كما لم تعرفه من قبل". إنها "مرحة كما كانت، وتحضر الحفلات وغيرها"؛ لكن "لسبب أو لآخر، تبدو مختلفة. تراجع بنحو لافت ميلها إلى الانتقاد، وصارت تستغرق أكثر في التفكير، ولم يعد يضيق صدرها بهفوات الآخرين".

حاولت إي–لينغ إقناع الأخت الصغرى بأن تصبح أكثر تديناً. في هذه المرحلة، لم تستجب ماي–لينغ، وكتبت لإيما: "تعرفين يا دادا (الاسم الذي تناديها به ماي–لينغ) أنا لا أميل إلى التدين. أنا مستقلّة وممتلئة بالحياة وبعيدة من الاعتدال أو التواضع أو الطاعة". فكرت أن إي–لينغ "تتعمد السيطرة على تفكيرها"، فانزعجت من محاولاتها وطلبت منها "أن تهدأ".

هذا النقاش بينهما جعل حياة كل واحدة منهما أكثر ارتباطاً بالأخرى. صارت الأخت الصغرى تمضي وقتاً أطول في رعاية أولاد إي–لينغ، وازداد شغفها بهم. كتبت إلى إيما: "الاهتمام بهم عمل بكل معنى الكلمة. إنهم في حالة جوع مستمرة منذ الصباح حتى المساء رغم كمية الطعام التي يتناولونها. أختي صارمة في منعهم من تناول طعام دسم، وهذا في رأيي سبب إحساسهم دائماً

بالرغبة الملحّة في تناول الحلوى وغيرها طوال الوقت. بدأت منذ مدة أعطيهم قطعة واحدة من الحلوى في اليوم ويبدو أن هذا خفف من حدة طلبهم المزيد من الطعام بين الوجبات الرئيسية".

تشينغ–لينغ كانت بعيدة من أختيها سواء في المسافة أو في ما كان يدور بينهما. لكن عندما يجتمعن يمضينَ وقتاً ممتعاً مع بعضهنّ. كتبت ماي–لينغ لصديقتها: "أختي السيدة س. أتت من كانتون لتمضية أسبوعين في شانغهاي. خلال هذه المدة دخلنا في دوامة لا تهدأ من المناسبات الاجتماعية". "أختي السيدة سون تعدّ حفل استقبال كبير في العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر وهو يوم عطلة وطنية للاحتفال بالجمهورية. سأساعدها في استقبال ضيوفها. وأنا متعبة قليلاً. زارت تشينغ–لينغ في كانتون، ووجدت أن المشي في الشوارع التي تصعد على جوانب التلة بحذاء عالي الكعبين أمر مزعج".

في تلك السنوات في شانغهاي، كان الشغل الشاغل لماي–لينغ تلك المحاولات الرومانسية لطلب ودّها والتغزل بها، وقد عمدت إلى توثيقها بتفاصيلها في رسائلها إلى إيما. بدءاً من الرجل الدنماركي الذي التقته على السفينة التي حملتها إلى بلادها، ومن تلاه من طالبي الزواج، وابتعادهم بعد ذلك. اعترضت العائلة على ارتباطها بأي رجل أجنبي، وماي–لينغ انصاعت لرغبتها بلا تردّد. التقت السيد بيرمايل لمدة قصيرة: "التقيته قبل ليلة من الإبحار من هونغ كونغ، في منزل صديقة لي، ومع أننا أمضينا ثلاثة أيام فقط على متن السفينة لكننا أصبحنا صديقين. يوم وصلنا إلى شانغهاي كان عيد ميلاده، فاخترت البقاء معه هذا اليوم رغم أنني كنت غائبة عن البيت لأشهر... أمضينا معاً وقتاً ممتعاً وأنا كنت سعيدة للغاية لأنني تسرّعت لمرة في حياتي". أفراد عائلتي اغتاظوا مما جرى وكانوا مصدومين... كما أنهم غضبوا لأنه أجنبي. وقد اتهموني بأنني تعمّدت اختياره على متن السفينة... منذ رحيله بعد ظهر السبت وصلتني منه رسالتان لاسلكيتان يقول فيهما إنه مشتاق لرؤيتي. حاولت العائلة إخفاء أمر الرسالتين عني لكنها لم تنجح... إلى حد ما أنا سعيدة لأنه ليس هنا، لأنني لا أعرف كيف سيؤثر وجوده فيّ". واستطاعت نسيانه بسرعة، مثل الدنماركي، ودون معاناة.

هناك رجل آخر اعترفت بأنها اهتمت به "أكثر مما تستطيع وصفه" بالكلمات ولم يكن أجنبياً لكنه كان متزوجاً. "في الأشهر القليلة الماضية، كنا تعيسيْن للغاية... تعرفين موقف عائلتي من الطلاق، بالإضافة إلى أنه ليس هناك ما يعيب زوجته سوى أنه لا يهتم لأمرها... الاهتمام مؤلم فعلاً. لم أعرف من قبل ماذا يعني... لكن كل هذه المعاناة بلا أمل". ومرة أخرى تخلت عنه بسهولة.

كانت الأخت الصغرى تستمتع بما تنتزعه من حب وإعجاب. قال لها أحدهم مرة إنه لم يلتقِها منذ مدة طويلة وإنه ''كاد يموت من شدة القلق''، فكتبت إلى إيما لتسخر منه: ''الحرب (العالمية الأولى) تقتل أعداداً هائلة من البشر فإذا أضيف إليهم واحد أو نقصوا واحداً لن يحدث ذلك فرقاً في الحالتين؛ أليس كذلك؟'' وتضيف معبّرة عن ضيقها: ''آه، ليتني أتخلص من هذه المشكلة! أتمنى لو أن لديه إحساساً فيرتكني أو يشنق نفسه''. وتقول ساخطة إن أحدهم ''اعتمد أسلوباً مزعجاً ومستفزاً للوقوع في حبي ومضايقتي''، وآخر ''كانت تصرفاته تدل على أنه سوف يتقدم لطلب يدي للزواج''، ''لكنني أعتقد أنني نجحت في إبعاده''. ''شانغهاي منشغلة حالياً بالشائعات حول خطبتي وهناك أسماء كثيرة مطروحة... المضحك في الأمر أن أحداً من هؤلاء الرجال لم ينفِ أو يؤكد هذه الشائعات وأنا حائرة''.

لم تكن الأخت الصغرى ذات جمال أخّاذ، لكنها تميزت بفتنتها وجاذبيتها. كما أن لديها صفات أخرى لافتة هي أكثر واقعية وفائدة، ومنها ما تتمتع به من صراحة مطلقة: ''يقال عني أيضاً أنني 'بارعة' و'ذكية'، وأنني متكبرة إلى حد ما، لكنني لطيفة... منفتحة، رغم أنني بعيدة إلى حد ما من 'عامة الناس'، بسبب مكانة عائلتي، ولأنني في الواقع أنيقة وملابسي أجنبية، وأتجوّل بسيارة، ولست بحاجة إلى التعليم كي أعيل نفسي''.

مع مرور الوقت فقدت هذه الحياة الاجتماعية والرومانسية الصاخبة جاذبيتها. وماي-لينغ بدت ساخطة: ''أنا منشغلة طوال اليوم، ولكن لا يبدو أنني أحقق شيئاً''. ''أشعر بالملل لدرجة مخيفة لا أستطيع وصفها''. بدأت ترى أن ''الصين موبوءة بالأمراض... هناك بؤس في كل مكان! أحياناً عندما أرى القذارة في الأحياء الشعبية والناس بملابسهم الرثة، أشعر بمرارة باللّاجدوى من توقع تحوّل الصين إلى بلاد عظيمة وجديدة، ويتملكني الإحساس بأنني ضعيفة. دادا، لا تستطيعين أن تتخيلي إلى أي مدى يشعر المرء بضآلته في مثل هذه البيئة. نسبة الفقر هنا أكثر ارتفاعاً من أي نسبة قد تتصورين أنها موجودة في أميركا''.

عملها التطوعي لم يكن كافياً لإرضائها. إنه ''ليس عملاً فعلياً، بل أقرب إلى أن يكون بديلاً مؤقتاً... لم أشعر ببساطة أنني أنجز شيئاً''. ''نتكلم كثيراً، لكنني لا أرى نتائج عملية. آه، أعتقد أن ما نعمله جيد، لكننا لم نحصل على نتائج ملموسة''. وأضافت أنها تتوق إلى ''عمل فعلي ومحاولة الوصول إلى إحساس بالرضا من طريقة العيش''، وتمنت ''أن ترقى إلى مقام ما''.

راودتها مرة فكرة الرجوع إلى أميركا لدراسة الطب، لكنها سرعان ما تخلّت عنها. إنها لا تريد الابتعاد عن والدتها، كما أن عائلتها لم تعد قادرة على تمويل دراستها. في ١٩٢١، خسرت والدتها

مبلغاً كبيراً في بورصة الذهب، وهذا ترك آثاره في أسلوب عيش عائلة سونغ.

ماي–لينغ أرادت أن تتزوج وتنجب أولاداً. "أعتقد أن المرأة تفقد الاهتمام بالحياة... إذا لم تتزوج... إلى جانب ذلك، ما الذي يمكنها أن تتطلّع إليه إذا لم يكن عندها أولاد؟" لكنها لم تحسد أي امرأة متزوجة تعرفها: "لم أرَ... أي واحدة منهن أكثر إحساساً بالرضا، أو أنها حققت شيئاً أكثر أهمية في حياتها. تبدو الواحدة منهنّ ضيقة الأفق، إما لامبالية أو مسترخية أو مستاءة. وحياتها تبدو فارغة... فارغة".

تعذّبت كثيراً من نوبات "قلق" ألمّت بها. طلبت منها إي–لينغ أن تلجأ إلى الدين مجدداً. كتبت ماي–لينغ إلى إيما: "قالت لي إن الطريقة الوحيدة للتغلّب على هذا الكسل في التفكير هي التديّن، والتواصل الفعلي مع الله". ماي–لينغ صارحت إيما: "إنني أحاول الآن الأخذ بنصيحتها، وحتى الآن لا أعرف كيفية تأثيرها في حالتي. لكنني أستطيع أن أقول لك إنني منذ بدأت تنفيذ ما نصحتني به صرت أكثر سعادة... كأنني لم أعد أحمل وحدي هذا العبء الثقيل. إنني أصلّي الآن وأنا في حالة من الرجاء والرضى، إذا جاز التعبير".

لكن إحساسها بقلة الرضى ظلّ مسيطراً عليها. كانت "متعبة جداً من الحياة"، وشعرت "بحدة باللّاجدوى". صارت تتمنى "ذلك الفرح العارم بالحياة وبأسلوب العيش". اعتقدت إي–لينغ أن أختها الصغرى بحاجة إلى رجل مناسب؛ وجود الرجل سوف يجعل لحياتها هدفاً ويمنحها الإحساس بالاكتفاء.

هكذا بدأت تبحث عن هذا الرجل. في ١٩٢٦، عرّفت إي–لينغ أختها التي بلغت الثامنة والعشرين إلى شيانغ كاي–شيك الذي عُيّن وهو في الثامنة والثلاثين القائد الأعلى للجيش القومي. انفتح أمام الأخت الصغرى عالمٌ جديد لم تعرفه من قبل.

٩

ماي–لينغ تلتقي القائد الأعلى

وُلد شيانغ كاي–شيك، المعروف أيضاً بالقائد الأعلى، في بلدة تقع على تلّة وتدعى زيكو في إقليم زيجيانغ بالقرب من شانغهاي سنة ١٨٨٧. ظروف عائلته كانت مختلفة للغاية عن تلك التي عرفتها ماي–لينغ. والده بائع ملح متواضع في بلدة صغيرة، مات وهو في الثامنة، ووالدته الأرملة بذلت ما في وسعها لتربيته مع أخته. طفولة شيانغ كانت مثقلة بدموع والدته التي ذرفتها على: موت ابنها الأصغر في بداية حياته، وقلة اكتراث الناس لمساعدتها حين كادت السيول تدمر منزلها، وخسارتها قضية إرث في المحكمة... ومصائب أخرى كثيرة. هذه المرأة التي انهالت عليها الأحزان صارت شديدة التعلّق بابنها لدرجة أنه في سن المراهقة كان يضطرب عندما يريد مغادرة المنزل، ووالدته كانت تحتاج إلى دفعه للخروج من الباب بكلمات صارمة، وأحياناً تلجأ إلى ضربه بالعصا.

حين صار في الرابعة عشرة، زوّجته والدته تماشياً مع التقاليد بصبية تكبره بخمس سنوات تدعى فو–مي. في ليلة الزفاف، بعد نهاية الحفلة، قصد العروسان غرفة نوم السيدة شيانغ لتقديم الشاي إليها. كانت مستلقية على سريرها تدير لهما ظهرها وتبكي رافضة قبول الشاي. شيانغ ركع بجوار السرير وأخذ يبكي بحرقة. نوبة البكاء هذه كانت واحدة من ثلاث نوبات بكاء هي الأشد في حياته، كما تذكر لاحقاً. لم تشفق الوالدة ولا ابنها على العروس التي بدأت حياتها الزوجية بهذه الطريقة السيئة. زواجهما تخلله الشجار العنيف، وشيانغ لجأ في حالات الغضب الشديد إلى ضرب زوجته ضرباً مبرحاً. كان يعمد أحياناً إلى جرّها من شعرها على درجات سلّم المنزل.

لم تجد السيدة شيانغ كلمات لطيفة لتقولها عن كنتها لكنها رفضت طلاقهما. اتخذ شيانغ خليلة، زي–تشنغ، وعلاقته بها كانت أفضل بقليل، لكن الشغف تحول بسرعة إلى جفاء، وشكاوى والدته المستمرة منها كانت من الأسباب التي أدت إلى هذا التحول. في ١٩٢١، توفّيت والدته وهي في الرابعة والثلاثين (فُجع شيانغ بخسارتها، وظل يبكيها طوال حياته. شيّد هياكل في مواقع جميلة إحياء لذكراها، وحوّل تلّة بكاملها إلى ضريح لها). بعد وفاتها تحرّرت فو–مي من زواجها التعيس

لأن شيانغ طلّقها. شيانغ جمع عدداً من الأقارب، بينهم شقيق فو–مي، وطلب موافقتهم. وافق الجميع على الطلاق. تزوج شيانغ بشابة تدعى جني التي كان يتوق إليها بشدة منذ بضع سنوات عندما كانت في الثالثة عشرة. شيانغ عدّها خليلة، مع أن الناس عرفوها باسم السيدة شيانغ.

عُرف شيانغ دائماً بأنه فاسق سيئ السمعة، وحتى هو يعترف بذلك. كان في صباه يتردد على بيوت الدعارة ويتشاجر مع سكارى مثله. الجيران يتحاشونه، والأقارب يخجلون منه ويرون أنه يجلب العار إلى العائلة. هذه النظرة السيئة له التي أحاطت به من كل جانب تركت تأثيراً عميقاً فيه، فقرّر أن ينجح في حياته واختار أن ينضم إلى صفوف الجيش. في ١٩٠٧، حاز من وزارة الدفاع في الحكومة المنشوية منحة للدراسة في اليابان ليصبح ضابطاً مبتدئاً. التقى هناك "العراب" تشين ولحق به في الانضمام إلى "عصابة الخضر" وصفوف الجمهوريين. عندما بدأت ثورة الجمهوريين في ١٩١١، عاد شيانغ إلى الصين ليشارك فيها. من المهمات التي نفذها بنجاح اغتيال تاو تشينغ–زانغ بناءً على طلب "العراب" وقد كان خصماً لسون يات–سين، واغتياله ساعد سون على تعزيز موقعه رئيساً مؤقتاً. شعر شيانغ أنه بعد ذلك صار يحظى باهتمام سون.

بعد اغتيال "العراب" تشين في ١٩١٦، حزن شيانغ حزناً شديداً على عرابه واستنكر الطريقة التي عامله بها سون، فابتعد عن الأخير رغم أنه طلب مساعدته مراراً، لكن شيانغ رفض مع أنه لم يكن لديه في تلك المدة عمل مهم (كان يعمل سمساراً في البورصة، ولم يحرز نجاحاً يذكر في عمله). وهو أيضاً فشل في ما بعد في التعاطي مع الأشخاص الذين يحيطون بسون. كانت نوبات الغضب التي تصيبه مخيفة: يضرب الذين يجرّون العربات والحرّاس والمعاونين، ويكيل الشتائم لزملائه (لكنه انتبه إلى أن يبوح بسخطه على رؤسائه على صفحات دفتر مذكراته فقط). أثار سلوكه اشمئزاز كل من عرفه.

شيانغ ترك احتمال العمل مع سون وارداً. بعد طرد سون من كانتون في حزيران/ يونيو ١٩٢٢، سادت الفوضى على السفينة الحربية التي كان على متنها، وصار يائساً من هذه الحالة. عندما عرف بأزمة سون، أسرع شيانغ إليه، فأثبت أنه صديق يمكن الاعتماد عليه. ارتاح سون لرؤية تشانغ لدرجة أنه بكى ولم يعرف ماذا يقول لبضع دقائق.

رافق شيانغ سون إلى شانغهاي في آب/ أغسطس. في ذلك الشهر، أبرم سون اتفاقية مع موسكو تنصّ على رعاية شاملة منها تتضمن تشكيل جيش بدا أمام سون مستقبلاً واعداً. قرر شيانغ المضي في مساندته بعد حصوله على وعد منه بتوليته قيادة الجيش. وفي خطوة تمهيدية، عيّنه مسؤولاً عن بعثة عسكرية إلى روسيا سنة ١٩٢٣.

كان شيانغ مراقباً بارعاً ورجلاً له مبادئه الخاصة، وخلال رحلته أحسّ بنفور من عقيدة السوفيات المتعلقة بـ"الصراع الطبقي" وخاف من محاولة روسيا الحمراء تحويل الصين إلى بلد شيوعي. قرّر أنه لن يتعاون. فكر في ترك سون وتريث في المجيء إلى كانتون بعد عودته إلى الصين رغم دعوات سون المتكررة له. أخيراً باح بما يثير قلقه لمساعد سون والمقرّب منه، لياو زونغ-كاي الذي كان يفاوضه بتوكيل من سون: "تكوّنت لديّ قناعة من مراقبتي الدقيقة أن الفريق الروسي ليس صادقاً على الإطلاق في التعاطي معنا... هدفه الوحيد في الصين هو تسليم السلطة للحزب الشيوعي الصيني، وليست لديه أي نية لحثّ هذا الحزب على التعاون مع حزبنا على المدى الطويل... سياسة روسيا في الصين هي جعل منشوريا ومنغوليا والمنطقة المسلمة والتيبت كلها أجزاء من الاتحاد السوفياتي؛ قد تكون لديها نية في ضمّ الصين نفسها أيضاً... إن ما يسمونه الأممية والثورة العالمية ليست سوى أسماء مختلفة للنمط القيصري الإمبريالي".

في رده على هذا الكلام، لم يعلق لياو على آراء شيانغ المتعلّقة بروسيا، بل ألحّ عليه في الاستعجال بالرجوع إلى كانتون، مشدّداً على أن تأخيره يؤلم سون كثيراً. الرسالة بدت واضحة: رغم معارضة شيانغ للتعاون مع روسيا، لا يزال سون يريده إلى جانبه، وربما من أجل ذلك بالتحديد. توجّه شيانغ إلى كانتون وأجرى هناك محادثات سرية مع سون (لم يُعرف أبداً أي شيء من محتواها). اطمأن شيانغ بالتأكيد إلى أن سون ليس معارضاً لرأيه. سون، على ما يبدو، يريد استخدام الروس لمصلحته. بقي شيانغ في كانتون، وسنة ١٩٢٤ عندما أنشأ الروس أكاديمية "وامبووا" للتدريب العسكري، عُين مديراً لها. سون أراد أن يتولى شيانغ المعادي للروس قيادة جيشه.

على امتداد ثلاث سنوات، تكتم شيانغ على آرائه واستغل الروس لإعداد جيش للقوميين. طوال هذه المدة كان ينمّي قدراته ويتقن التخطيط في انتظار اليوم الذي ينفصل فيه عن موسكو ويتولّى قيادة حزبه. ونجح في المقابل في إخفاء ميوله السياسية، مقدماً نفسه كجندي لا علاقة له بالسياسة. في "القومي"، كان هناك فريق قوي معارض للروس، لكن شيانغ ابتعد عنهم. بورودين بالتأكيد كان يراقب تحركاته. كتب الشيوعيون الصينيون في أحد تقاريرهم عنه: "شيانغ جندي عادي وليست لديه ميول سياسية على الإطلاق". ولياو، الذي نقل رسالة شيانغ التي تكشف حقيقة أفكاره السياسية، أخبر بورودين أن شيانغ متعاطف مع روسيا وأنه بدا متحمساً بعد رجوعه من زيارته إلى الاتحاد السوفياتي.[19] وهكذا، أعطى الروس ثقتهم لشيانغ (لياو اغتيل في كانتون في ١٩٢٥. ولم يُكشف عن

هوية القاتل. أرملته اعتقدت أن شيانغ هو المسؤول. هل كان الأمر صحيحاً أم لا؟ الرجل الذي عرف توجّهات شيانغ الحقيقية رحل إلى الأبد).

19 قدم لياو إلى الروس هذه المعلومات المغلوطة قبل أن يستلم رسالة شيانغ. ولم يصحّح معلوماته بعدها.

بورودين خُدع، كما اعترف لاحقاً. بدا شيانغ ''سهل الانقياد ومطيعاً ومتواضعاً''. وأخبر موسكو أنه ''بالإمكان أن نثق به ثقة تامة''. أغرقت روسيا في إرسال المال والخبراء إلى ''وامپووا'' إضافة إلى الأسلحة التي شملت المدافع والطائرات. في شحنة سفينة واحدة، وصلت أسلحة بقيمة أربعة ملايين روبل.

في كانون الثاني/ يناير ١٩٢٦، اختطفت موسكو فعلياً الحزب القومي في مؤتمره الثاني، فتشكلت قيادة يسيطر عليها أعضاء ''الشيوعي'' الصيني والقوميون الموالون لروسيا. ''الأخت الحمراء'' تشينغ–لينغ صارت واحدة من القادة، عضواً في اللجنة المركزية التنفيذية (ماو كان ''عُضواً مناوباً'' في اللجنة). بعد وضع الروس أيديهم بالكامل تقريباً على حزبه، قرّر شيانغ أنه آن الأوان للتحرك. في البداية، نفّذ خطوات تجعل عدوه يخفف الرقابة عليه. تقدم بطلب للذهاب إلى موسكو من أجل ''دراسة كيفية الإعداد للثورة''. ودوّن هذا الطلب في دفتر مذكراته. شيانغ واظب على كتابة مذكراته لسبع وخمسين سنة منتبهاً دائماً إلى أنها قد تقع في أيدي من يريدون معرفة المزيد عنه. كما أنه كتب رسالة خاصة غير حقيقية لأنه يعرف أن الروس سوف يقرؤونها، وهو يعدّ نفسه فيها شيوعياً. بعد وضع هذا الستار الدخاني، شنّ شيانغ هجوماً مفاجئاً في ٢٠ آذار/ مارس. ابتدع حجة وألقى القبض على العشرات من الشيوعيين وجرّد حراس المستشارين السوفيات من أسلحتهم ووضعهم أيضاً تحت الرقابة. بضربة واحدة، تمكن شيانغ من استرجاع السيطرة على ''القومي'' وانتزاعه من أيدي الروس.

بعد نجاح ضربته التي تشبه الانقلاب تمكن شيانغ من جرّ الروس إلى صعوبة فهم ما يجري. اعتقدوا أن ما فعله ليس إلّا نوبة غضب قائد صيني معتدّ بذاته انزعج من المستشارين الروس المتسلطين الذين يريدون فرض نظام سوفياتي غريب على جيشه. وقرروا أنه من الأفضل تهدئة شيانغ وسحب المستشارين الكبار. كانوا مقتنعين أن ''شيانغ كاي–شيك يستطيع العمل معنا، وسوف يعمل معنا''، مع أنهم يعدّون في الوقت نفسه ''للتخلص من هذا الجنرال'' في الوقت المناسب. فوق كل ذلك، حملهم شيانغ على الاعتقاد أن بورودين، الذي لم يكن في كانتون في تلك المدة، يستطيع تسوية الأمور، لأن المندوب السوفياتي له ''تأثير شخصي قوي وفعّال'' فيه. لم يشك الروس في أن

الانقلاب أُعِدّ ليكون جزءاً من المكيدة التي خطط لها شيانغ. في النهاية شيانغ الذي كان بعيداً من المحاسبة والعقاب تمت ترقيته إلى رتبة القائد الأعلى للجيش القومي.

وانغ جينغ–واي، رئيس ”القومي“، وقف جانباً وشاهد شيانغ وهو ينجح في تحقيق مساعيه. خاف على حياته، فتوارى عن الأنظار وغادر البلاد سريعاً. هكذا، صار شيانغ، المخطط الماكر، الرجل الأقوى في الحزب.

هناك سيدة راقبت بهدوء هذا التحول الدرامي في الأحداث وما لها من دلالة محتملة. إي–لينغ كان لديها حسّ سياسي قوي، وكما وصفتها الأخت الصغرى، ”إنها تتفوق عليّ في براعتها؛ إنها سيدة ذكية بالفعل“. كانت الأخت الكبرى متحمسة في عدائها للشيوعية، ومعارضة لسياسة سون مع السوفيات. بعد وفاة سون أصرّت مع زوجها على إقامة جنازة مسيحية تناقض صورته البلشفية. تابعت إي–لينغ كيف طرد شيانغ مجموعة من المستشارين العسكريين الروس، وأحست بأن القائد الأعلى الجديد بصدد إجراء تعديلات في ”القومي“، وهذا غمرها بالسعادة. أختها تشينغ–لينغ وأخوها ت. ڤ. في الحكومة القومية، و ت. ڤ. يشغل منصب وزير المالية (تمكن ت. ڤ. من تهدئة السكان المحليين الممتعضين بتخفيض الضرائب الباهظة، وذلك بفضل المبالغ الطائلة التي أغدقتها روسيا، وبفضل قدراته في الوقت نفسه). الأخت الكبرى كانت منزعجة من عملهما تحت إمرة موسكو. لكن مبادرة شيانغ كاي–شيك أعادت إليها الأمل والحماسة.

في هذه الأثناء، خطر لها أن هذا القائد الأعلى الشاب زوج مستقبلي مناسب لأختها الصغرى التي استنفدت الشباب المحتملين في شانغهاي. ورغم وجود ”السيدة شيانغ“، فإن إي–لينغ المصممة على تدبير زوج لأختها الصغرى رأتها مجرد خليلة وليست زوجة شرعية، ومن الممكن إبعادها بسهولة. من أجل التعرّف أكثر إلى شيانغ، اصطحبت إي–لينغ أختها الصغرى إلى كانتون في حزيران/ يونيو ١٩٢٦. كانت موجة حرّ شديد تجتاح المدينة المجاورة لخط الاستواء. لكن كان لدى الأختين هدف من هذه الزيارة. أقامتا في منزل مدير Standard Oil، الذي سافر إلى نيويورك لتمضية عطلته. المنزل فيلّا بيضاء مستقلة من طابقين تظلّلها أشجار الأرز وتحيط بها حديقة استوائية. في ٣٠ حزيران/ يونيو، أقامت إي–لينغ حفل عشاء لشيانغ وجني التي كانت السيدة شيانغ آنذاك، وأحست في أعماقها أن هذه الدعوة سوف تغير حياتها.

شيانغ تحمس جداً للدعوة. قال لجني: ”لديّ مركز، لكن ينقصني المقام“، و”التقرب من عائلة سونغ بالغ الأهمية لتحقيق غايتي“. كما كتبت جني: ”كان يتحدث وهو يمشي جيئة وذهاباً في الغرفة بحماسة عارمة، كأن حنجرته تقلّصت من شدة توتره. وراح يردّد كلمة: ’دعوة!‘... أخيراً، بعد كل

هذا الوقت، سنحت لنا الفرصة للعشاء مع هذه الشخصية المرموقة". شيانغ قصد إي–لينغ التي كانت تعدّ سيدة عظيمة في مجتمع شانغهاي. وتابع يقول لجني: "هذا رائع لدرجة أنني أكاد لا أصدقه". وصفت جني ما حدث بقولها: "كان يجوب الغرفة مثل طاووس ويرفض أن يجلس بهدوء. لم يسبق له أن تصرف بهذه الطريقة المتوترة من قبل".

وصلت جني قبل زوجها الذي تأخر بسبب عمله. كانت المأدبة صغيرة لستة أشخاص فقط، والضيفان الآخران كانا السيدة لياو زونغ–كاي التي اغتيل زوجها قبل بضعة أشهر، وقد حمّلت بينها وبين نفسها شيانغ المسؤولية عن اغتياله، وأوجين تشن الترينيدادي، وزير الخارجية في حكومة كانتون. تناولت الأوساط الاجتماعية احتمال ارتباط أوجين وماي–لينغ، لكن جني استنتجت: "عند رؤيتهما معاً في غرفة الجلوس وسلوك كل واحد منهما تجاه الآخر... الأمر مجرد شائعة لا أساس لها من الصحة". بالفعل، كانت ماي–لينغ لا تتحمل وجود أوجين. وفي رسالة إلى إيما، قالت: "جلس بجواري في إحدى المآدب. إنه نجاح جداً، وذكي، لكنه متكبر وتافه لدرجة لا تطاق. يهز كتفيه استهجاناً بطريقة منفّرة وهذا يكاد يخرجني عن طوعي! سوف يأتي لزيارتي هذا الأسبوع وأتمنى ألّا أكون وقحة معه".

جني شابة بسيطة، ابنة عائلة متوسطة الحال، تربيتها محلية عادية وليست كوزموبوليتانية. أخذت تراقب الأختين ولم تخلُ نظراتها من الحسد. كل واحدة منهما ترتدي ثوب الشيونغسام من الحرير البرّاق، وتسريحة شعرها على موضة ١٩٢٠، بعد إحداث تموّجات فيه، فيُشدّ إلى الخلف بشينيون عند قاعدة الرقبة. كانتا تشبهان عارضتيْ أزياء على صفحات مجلة في شانغهاي.

ارتفاع الحرارة والرطوبة أرهق الجميع. في الغرفة ثلاث مراوح كهربائية تعمل بأقصى سرعتها، وماي–لينغ حملت مروحة كبيرة من الحرير والعاج المنقوش وأخذت تلوّح بها أمام وجهها، وإي–لينغ "مسحت حبيبات العرق عن جبينها بمحرمتها المخرّمة". وفيما أخذت الأخت الصغرى تتأفف من "الجو الدبق والتعيس" وتتطلع إلى العودة "إلى شانغهاي على متن RMS Empress of Japan في الأسبوع المقبل". اقتربت الأخت الكبرى من جني لتسألها عن علاقتها بزوجها. "كاي–شيك معروف بطبعه الصعب. ألا ينهرك أبداً؟ لا؟ يبدو أن لديك القدرة على الصبر... يقول الدكتور سون إن كاي–شيك ينفجر غضباً عند أدنى استفزاز. هل هذا صحيح؟ أخبريني عن زوجته الأولى... وماذا عن الثانية؟ كيف هي؟" قد تبدو الأسئلة غير لبقة. لكنها رأت أن جني شابة بسيطة للغاية لا تحتاج إلى اللباقة... وماي–لينغ لم تُعرف برقّتها.

وصل شيانغ كاي–شيك وأُفسح له مجال بالجلوس بين الأختين. مأدبة العشاء زوّدت الأخت الكبرى بقدر وافر من المعلومات عن القائد الأعلى الجديد. والأهم من ذلك أن ماي–لينغ بدت معجبة به. يقف ويمشي ويجلس كرجل عسكري، وملامح وجهه الأسمر تدلّ على أنه حساس ويقظ. سَحر الأخت الصغرى بحديثه لأنه يختلف كلياً عما اعتادت سماعه من المقربين إليها في شانغهاي. في نهاية الأمسية، أعطته عنوانها في شانغهاي.

انتبه شيانغ إلى اهتمام ماي–لينغ وغمرته البهجة. علاقته مع جني تتعلّق بالجنس أكثر مما هي علاقة حب عميق، وهو لن يتردّد في التخلّي عنها. الآن سنحت له فرصة ربط اسمه باسم سون يات–سين، ولا يقلّ عن ذلك أهمية "الزواج المشرّف" بسيدة جميلة وراقية لا تستطيع جني بأي حال منافستها. هذا الحظ السعيد أتى في وقت مناسب وهو على عتبة تحقيق طموحه السياسي. كان شيانغ على وشك الانطلاق بالحملة الشمالية، أي حملته العسكرية في مواجهة حكومة بيجينغ، وكله ثقة بأنه سينتصر ويبني نظامه الخاص. وجود امرأة مثل ماي–لينغ إلى جانبه سيضيف الكثير من التألّق إلى مكانة زعيم الصين الآتي. وربما تساعده أيضاً في التقرب من القوى الغربية عندما ينوي التخلص من السوفيات.

قبل عودة ماي–لينغ إلى شانغهاي، كتب شيانغ في مذكراته أنه بدأ يشتاق إليها. وبعد رحيلها بوقت قصير بعث برسالتين إلى أختها الكبرى إي–لينغ وأخيها الأكبر ت. ڤ. (كان يعرفه من قبل) يعبّر فيهما عن مشاعر الحب التي تربطه بها. ت. ڤ. رفض طلب شيانغ للزواج. لكن الأخت الكبرى فرضت نفوذها عليه. إي–لينغ قررت أن القيادي الجديد الأعلى نفوذاً في الحزب يستحق الأخذ بالاعتبار. لكن الالتزام بالنسبة إليها يجب تأجيله.

لا يزال شيانغ يظهر بمظهره المخادع في موالاته للروس، ويلقي بتصريحات متضاربة. لم تعد إي–لينغ واثقة بحقيقة موقفه. أيّ ميل نحو الحُمر لن يكون في مصلحته. إلى جانب ذلك، كانت الأخت الكبرى وزوجها هـ. هـ. كونغ معارضين شرسين لكانتون سون يات–سين، النظام الانفصالي الذي أسسه سون لمواجهة بيجينغ، لأنه يريد أن يصبح رئيساً. حكومة بيجينغ منتخبة وفق الأصول الديموقراطية ومعترف بها دولياً، والزوجان كونغ مواليان لها. عندما أعلن سون نفسه الرئيس الأعلى للصين في كانتون في ١٩٢١، كانت الأخت الصغرى هناك تقيم عند العائلة، وأرادت حضور حفل توليه منصبه. لكن إي–لينغ ووالدتها أرسلتا ثلاث برقيات مستعجلة تأمرانها بالعدول عن رأيها والرجوع في الحال إلى شانغهاي. قالت ماي–لينغ لإيما إنهما أرسلتا أخاها الأصغر إلى كانتون "وجرّني جرّاً إلى المنزل".

هـ. هـ. شعر دائماً أنه ''مثل سمكة خارج الماء'' في كانتون، ورفض وظائف عرضها عليه سون، قائلاً إنه ''يؤيد الوحدة الوطنية''. ظلّ معجباً بالقياديين في بيجينغ. وصف المارشال وُو بيي–فو بقوله: ''كان بالفعل رجلاً صالحاً. كان وطنياً ومتمسكاً بمبادئه''. والرئيس هسو شيه–تشانغ ربطته بالزوجين كونغ علاقة طيبة، وكان يدعوهما إلى حفلات الاستقبال التي تقام في قصر الرئاسة، واعتاد استشارة هـ. هـ. في شؤون الدولة. معظم حياة عائلة كونغ كانت في بيجينغ. بعد دعوتها شيانغ، عادت إي–لينغ إلى العاصمة، وليس إلى شانغهاي، لتسجيل أولادها في المدرسة الأميركية هناك.

صار الجيش القومي الآن قادراً على هزيمة حكومة بيجينغ. اضطرت الأخت الكبرى بميولها الواقعية النفعية إلى تقبّل هذه الحقيقة. لكنها أرادت أيضاً رؤية كيف سيعامل شيانغ قادة بيجينغ. كان شيانغ على حق في تخمينه أن تحفّظ الأخت الكبرى نحوه له علاقة بالسياسة. وضع سعيه إلى الارتباط بماي–لينغ في الانتظار حتى تظهر نياته – وقدراته – الفعلية.

في هذه المرحلة، قاد الحملة الشمالية وحقق انتصارات عدة في مواجهة بيجينغ واحتل مجموعة من الأقاليم. وفي عددها الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر، نشرت *The New York Times* مقالة على امتداد صفحة بأكملها عن شيانغ، تحت عنوان: ''رجل قوي جديد يسيطر على نصف الصين''. في ٢١ آذار/ مارس ١٩٢٧، احتل جيش شيانغ شانغهاي. وفي نيسان/ أبريل، أعلن انفصاله عن الشيوعيين والتحكّم الروسي، وأصدر لائحة بأسماء مطلوبين للمثول أمام العدالة على رأسها بورودين (وشملت ماو). بورودين هرب عائداً إلى روسيا عبر صحراء غوبي. أمضى ليلته في الصحراء في خيمة وهو يفكر في غلطته لأنه اعتمد على شيانغ وجعله موضع ثقته. أعطى القائد الأعلى أوامره بقمع الانتفاضات التي يقودها الشيوعيون. بات من الواضح أن الشيوعيين هم عدوه الفعلي لا بيجينغ. مجتمع التجار في شانغهاي وسكانها من الغربيين الذين كانوا يعيشون في هلع خوفاً من حكم الرعاع والقتل التعسّفي تنفسّوا بعمق وارتياح أخيراً. بدأ الجميع يشعرون بالتعاطف مع شيانغ، مرحبين، بل معجبين، بما يفعله. الآن فقط، عندما كشف عن موقفه السياسي الفعلي، وأثبت وجوده، وصار موضع إعجاب وتقدير أصدقاء ماي–لينغ، صار بإمكانه مواصلة طلب ودها والتغزّل بها.

رغم ذكائها الحاد، كانت لدى الأخت الصغرى في البداية آراء سياسية مبهمة بالمقارنة مع أختيها الكبيرتين. لكن هذا الوعي السياسي الخجول تغير في شتاء ١٩٢٦–١٩٢٧ قبل انفصال شيانغ كاي–شيك عن الشيوعيين في نيسان/ أبريل ١٩٢٧. كان جيش شيانغ قد فرض سيطرته على وُوهان،

المدينة ذات الموقع الإستراتيجي على نهر يانغتزي، ونقلت حكومة كانتون مقرها إليها. ''الأخت الحمراء''، القيادية في ''القومي''، وت. ف. وزير المالية، انتقلا إلى عاصمة القوميين المؤقتة. ذهبت ماي–لينغ لزيارتهما برفقة والدتها والأخت الكبرى، ومكثنَ هناك ثلاثة أشهر. رأينَ أمامهنّ مدينة ''حمراء''. والدليل الواضح الملصقات الجدارية العملاقة الموزعة في كل مكان، التي تصور مشاهد لمجموعات من الصينيين من عامة الشعب تطعن بالحراب رأسماليين أجانب بشعين وبدينين يزحفون على الأرض التي غسلتها دماؤهم، إلى جانب دلائل أخرى تفرض نفسها مثل: الإضرابات المتكررة، والحشود الشعبية والمظاهرات، وأنشطة الطلاب ونقابات العمال، وهذه كما وصفها الشاهد العيان والصحافي الذي ينتمي إلى الجناح اليساري فنسنت شِيان ''حركة ثورية اجتماعية منظمة للغاية، قادرة في أي لحظة على وضع يدها على وسائل الإنتاج وإعلان ديكتاتورية البروليتاريا''. و''زبدة هذا الحراك'' تكمن في وجود أعداد كبيرة من الثوار الأجانب في الشوارع، ووفود من أوروبا وأميركا وسائر أرجاء آسيا أتوا لزيارة وُوهان الحمراء والتعلّم من تجربتها.

في ووهان الحمراء، عاشت ''الأخت الحمراء'' أكثر السنوات راديكالية ونشاطاً في الترويج للعنف الذي كان متفشياً داخل المدينة وجوارها. لكن ماي–لينغ صُدمت بما شاهدت كوالدتها وأختها الكبرى. كنّ يشاهدنَ من النافذة ما يجري في الشارع: ''لا يمر أسبوع من دون مظاهرة يشارك فيها آلاف العمال الشيوعيين الذين يتحركون بتوجيهات نقابة العمال، ويهتفون بشعارات لإسقاط هذا الشخص أو ذاك، أو رفض تقليد معين أو تقاليد عدة، أو إعلان العداء لدولة إمبريالية... تمضي ساعات لا يُسمع فيها سوى الصراع الذي يصمّ الآذان والذي يصل إلى ذروته عند عبور كل مجموعة... وتنافر الأصوات التي تصدر عن الأبواق والطبول والنواقيس والصنوج النحاسية هو الأكثر فظاعة''. إنها تمقت ''الاعتقالات غير الشرعية، والجلد العلني، ومطاردة أشخاص وإلقاء القبض عليهم دون مبرر قانوني، والمحاكم الكنغرية[20] والتصفيات''. تملّكها الغضب لأن ''البعض يتعرضون للتعذيب ويقتلون لأنهم تجرؤوا على انتقاد الشيوعيين''، كما روّعتها ''المحاكمات العلنية لملاكي الأراضي والمسؤولين الرسميين وأصدقائهم وجيرانهم وأقربائهم، وحتى أمهاتهم''.

20 المحاكم التي لا تراعى فيها مبادئ القانون والعدالة. (م.)

كان بورودين، مهندس النمط السوفياتي من ''الرعب الأحمر''، في ووهان قبل فراره وعودته إلى موسكو عن طريق صحراء غوبي. سألته ماي–لينغ عن تبريره لكل ما يحدث. بورودين على ما يبدو كان مولعاً بماي–لينغ. وجد الخادم في غرفته ورقة من النشّافة ظهرت عليها مرات عدة:

"ماي–لينغ حبيبتي، حبيبتي ماي–لينغ". أراد إبهارها وتمنى تغيير ميولها الفكرية، فتسلّح بأفضل ما لديه من أساليب التعبير كمفكر وخطيب واستعرض أمامها قدراته في أحاديث طويلة يتحدث فيها وحده. كان يروح ويجيء في غرفة جلوس ت. ڤ.، بخطوات متأنية أو متسارعة تنسجم مع البعد الانفعالي الذي يمليه خطابه، ومن حين إلى آخر، كان يرفع يده بعد أن يطبق أصابعها بإحكام ويتركها وقتاً كأنها علامة وقف، قبل أن ينزلها ويضرب بها راحة يده اليسرى من أجل تأكيد ما يقول. والأخت الصغرى عبّرت عن شعورها: "أنا بطبيعتي وغريزتي، وبكل كياني وقناعاتي، كنت مشمئزة مما يدعيه السيد بورودين ورافضة له".

عند عودتها إلى شانغهاي في نيسان/ أبريل أعلنت ماي–لينغ موافقتها الكلية على ما فعله شيانغ كاي–شيك لإبعاد الحمر عن "القومي". وبتشجيع من الأخت الكبرى، صارت مستعدة للارتباط بشيانغ. في أيار/ مايو، كتب لها القائد الأعلى رسالة ضمّنها صورة له، وكان جوابها إيجابياً. جمعتهما لقاءات عدة، وتبادلا أطراف الحديث حتى ساعة متأخرة، وقصدا الريف للنزهة، وتناولا الطعام في مطاعم صغيرة هادئة، وتجولا بالسيارة عند منتصف الليل. أحب الواحد منهما الآخر! ربما لم يكونا متيّمين لكن حبهما كان كحب اثنين ناضجين تجمعهما آراء مشتركة، ويعرفان ماذا يريدان من الحياة، وتملكتهما السعادة لأنهما مرتاحان لما يجمع بينهما. أحست ماي–لينغ التي ستصير زوجة الزعيم الصيني الجديد بأنها ستتمكن أخيراً من فعل أعمال كثيرة تستخدم فيها ما لديها من طاقة لا حدود لها.

كان شيانغ قد طلّق زوجته فيو–ماي. وبدأ الآن يعدّ ترتيبات من أجل خليلتيه اللتين لم يكن أمامهما من خيار سوى الموافقة على تركه. تعهّد لهما إعالتَهما مدى الحياة. جني وُضعت على سفينة تبحر إلى أميركا. وعلى متن السفينة، شوهدت "ترتدي ملابس أنيقة" لكنها تبكي. وطلب شيانغ نشر خبر في الصحيفة الرئيسية في شانغهاي لثلاثة أيام يؤكد فيه أنه لم يعد مرتبطاً.

في ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٧، أعلن شيانغ كاي–شيك وماي–لينغ خطوبتهما في منزل الأخت الكبرى، وهناك أُخذت لهما صورة الخطبة. في اليوم التالي، توجّه شيانغ ليلتقي والدة ماي–لينغ التي كانت في اليابان آنذاك. من الواضح أن السيدة سونغ فوّضت إي–لينغ لكل الترتيبات. مع ذلك، كانت تريد التعرف إلى صهرها الجديد. أعجبتها إطلالة القائد الأعلى وسرّها مظهره وسلوكه وأعلنت أمامه موافقتها على ارتباطه بابنتها. كان شيانغ مبتهجاً. حين عاد إلى مقره أخذ فرشاة كبيرة رسم بها أربع مفردات ضخمة jun–qian–sao–heng [ضربة واحدة سحقت ألف جيش].

عادت السيدة سونغ إلى شانغهاي لتشرف على التحضيرات للزفاف الذي جرى في الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٧. في هذا اليوم، نشر العريس مقالة في صحيفة القوميين يعبر فيها عن فرحه. أخبرت العروس صديقاتها أنها منبهرة. في المنزل، عُقدت مراسم زواج وفق أصول الديانة المسيحية، وأقيم بعد ذلك حفل حضره أكثر من ألف من المدعوّين، وذلك في Majestic Hotel، وهو صرح رائع يشبه قصراً إقطاعياً تحيط به حديقة كبيرة. كان أرقى مكان تقام فيه الاحتفالات في المدينة، ''وكل المجتمع الراقي في المدينة كان مدعواً''. كتبت ماي–لينغ إلى إيما بحماسة: ''إنه حفل الزفاف الأكثر ضخامة ولم تشهد شانغهاي مثيلاً له من قبل''. ونقلت الصحافة كل التفاصيل. ''العروس بدت ساحرة في ثوبها الفضي والأبيض من الكريب جورجيت الحريري، الذي يتثنى قليلاً على الجنب حيث تمسك بالثنيات مجموعة من أزهار الليمون. وزيّنت شعرها بإكليل صغير من براعم الليمون، وقد وضعته فوق طرحة جميلة من الدنتيل النادر انسابت لتشكل ذيلاً ثانياً مع الوشاح الأبيض المخرم بالفضة الذي تدلّى عن كتفيها. انتعلت جورباً فضياً وحذاءً فضياً، وحملت باقة من القرنفل الوردي الفاتح وأوراق السرخس''. الأبيض الصافي لون الحداد في الصين، ولذلك أدخلت ماي–لينغ الكثير من الفضي على ثوبها.

بعد الزفاف، اعتاد شيانغ أن يتحدث مطولاً إلى الأخت الكبرى – لا إلى زوجته – عن الوضع السائد وعمّا ينوي فعله. إن تعاطف إي–لينغ مع حكومة بيجينغ ترك تأثيراً لا شك فيه في موقف شيانغ منها. بعد فرض سيطرته ونفوذه على الحكومة، أظهر شيانغ احترامه وحسن نيته تجاه المسؤولين فيها الذين سمح لمعظمهم بالاحتفاظ بوظائفهم. كان يشير إلى رئيس الوزراء السابق دوان كي–روي بأنه ''مرشده''، ويمدح دوان لأنه ''قدم الكثير الذي لا يمكن إنكاره'' من أجل بلاده. وأجرى مراسم جنائزية مهيبة لأمير الحرب وُو بيي–فو.

صارت الأخت الكبرى في موقع مستشارة لشيانغ. وشعرت أنها يجب أن تساهم في تصويب مسار العريس... الجديد. ذات يوم كان شيانغ مع ماي–لينغ في نزهة على حصانيهما طوال ما بعد الظهر. في ذلك المساء، عندما زار إي–لينغ، لم تكن راضية لأنه يمضي وقتاً طويلاً لإشباع ملذاته ولا يأخذ مسؤوليته السياسية على محمل الجد. تألّم شيانغ من موقفها وكتب في مذكراته أن الأخت الكبرى لا تعطيه حقه ولا تثني على ما لديه من إمكانات. قرّر أن يثبت لها أنه يستحق التقدير. ومنذ ذلك الحين، وفق شهادة مقربين منهما، صار لإي–لينغ تأثير أكثر من أي شخص آخر في القائد الأعلى.

١٠

متزوجة بديكتاتور تحت الحصار

بدأ الخلاف بين ماي–لينغ وزوجها مبكراً. في نهاية كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٧، الشهر الذي تزوجا فيه، جرت بين العروسين مشادة حادة في شانغهاي. شيانغ أتى إلى المنزل خلال النهار وعرف أن ماي–لينغ في الخارج. كان معتاداً نساء دائماً ينتظرنَ حضوره ويكنّ دائماً على أهبة الاستعداد. أزعجه خروجها في غيابه. عندما عادت ماي–لينغ ولم تقدم أي اعتذار، احتدم غضبه. فوجئت من ردّ فعله وردّت عليه. وجد في سلوكها غطرسة لا تُحتمل، وتوجه إلى السرير بحجة تعبه وإصابته "بمرض" لم يحدّده. تجاهلته وخرجت مسرعة لتتوجه إلى منزل عائلة سونغ، وأعلمت الخدم أنها مريضة أيضاً. في النهاية، هدأ شيانغ. أتى إلى ماي–لينغ في المساء، "رغم أنني مريض". قالت له ماي–لينغ إنها "تعيسة لأنها خسرت حريتها"، وأضافت تنصح أنّ عليه تحسين طباعه. وتصالحا. في تلك الليلة، كان منفعلاً لدرجة أنه وجد صعوبة في النوم، وأحس أن "قلبه يرتعش وجسمه ينتفض".

شيانغ كاي–شيك تزوج بامرأة تشبه النمرة في مزاجها، مستقلة وذات إرادة صلبة. أثناء تلك الليلة المؤرقة أدرك أنه ليس أمامه سوى أن يستوعب ماي–لينغ. إنه بحاجة إليها في أمور عدة، ليس أقلّها علاقتها بسون يات–سين، وهو يرى نفسه وريثه. لكن شيانغ وجد أيضاً أنه "على وفاق معها"، وأنه عليه أن يغيّر طباعها. في ذلك الصباح، بدلاً من أن ينهض من السرير عند الفجر، كما يفعل عادة، بقي في السرير وضاجعها بحبّ حتى العاشرة.

ماي–لينغ استجابت بسرعة لأسلوب المصالحة. أحست، بحماسة كبيرة، أنها صارت السيدة شيانغ، وفكّرت، كما ذكرت لاحقاً، "هذه فرصتي. سوف أعمل بكل جهدي إلى جانب زوجي من أجل تعزيز قوة الصين".

كانت ماي–لينغ تؤمن أن انتصار شيانغ سوف يضع حداً للاقتتال الداخلي ويجلب السلام إلى البلاد. قررت مساعدته لفرض نفوذه ولكي تصير السيدة الأولى. وضعت جانباً ملابسها الغربية، واستبدلتها بزيّ الشيونغسام الحريري التقليدي المطرّز بالزهور وتفتح تنورته على الجانبين حتى

الركبتين، وصار زيّاً دائماً لها. سرّحت شعرها على طريقة السيدات الصينيات في تلك الفترة، فقصّت غرة وتركته ينسدل على كتفيها. عندما أراد أخوها ت. ف.، الذي صار وزير المالية عند شيانغ، تقديم استقالته، أقنعته بالاحتفاظ بمنصبه... وفيما كان شيانغ على الجبهة يواصل الحملة الشمالية، أخذت تجلب الأدوية للجنود المصابين، وتجمع كميات كبيرة من الملابس والشراشف والأغطية، واستطاعت تأمين أطباء وممرضات من "الصليب الأحمر". حملت رسالته إلى القناصة الغربيين مؤكدة لهم أن الجيش القومي سوف يحمي رعاياهم في مناطق القتال. كانت تتصرف كأنها الممثل الشخصي لشيانغ، وتقوم على مهمات يعجز غيرها عنها. على المستوى نفسه من الأهمية، تمكنت ماي–لينغ من إدخال أبعاد إنسانية على جيش شيانغ، وكانت في كل ما فعلته ذات تأثير حضاري في القائد الأعلى. هي التي أنشأت مدرسة لأولاد الجنود والضباط الذين يلاقون حتفهم وهذا لم يكن معروفاً من قبل في الصين. وكرست نفسها لخدمة هؤلاء على مرّ السنين وظلّت تهتم بهم كأنهم "أولادها" حتى نهاية حياتها.

شيانغ كاي–شيك هزم حكومة بيجينغ ودخل إلى العاصمة الشمالية في ٣ حزيران/ يونيو ١٩٢٨. وأعلن تأسيس النظام القومي وعاصمته نانجينغ. القائد الأعلى نصّب نفسه رئيساً.

مرحلة البحث عن الديموقراطية في الصين انتهت. هذه المرحلة التي تمتد من ١٩١٣ إلى ١٩٢٨ تصفها كتب التاريخ بطريقة سلبية غالباً أنها مرحلة "الاقتتال بين أمراء الحرب". وفي الواقع إن الحروب الطويلة والأكثر أهمية في هذه السنوات، حتى لو كانت متقطعة، لم يشنها أمراء الحرب بل سون يات–سين، ومن بعده شيانغ كاي–شيك. الحروب بين أمراء الحرب كانت أقصر ومحدودة، وتتسبب في اضطرابات أقل. استمرت الحياة كالمعتاد لدى المدنيين ما داموا بعيدين من مرمى النيران. وعلى كل حال، انتهت النزاعات بين أمراء الحرب مع تجدّد محاولات الوصول إلى ديموقراطية برلمانية. آخر أهداف شيانغ، المارشال وو بي–فو، على سبيل المثال، اشتهر بالتزامه الديموقراطية، وكان آخر ما فعله قبل مغادرة حلبة السياسة أنه دفع أجرة العودة لمئات من أعضاء البرلمان الذين يقيمون في بيجينغ متأملاً أن ينجح ويعود البرلمان إلى سابق عهده. لكن انتصار شيانغ أوقف مسيرة الصين على هذه الطريق ووضعها على طريق ديكتاتورية لا مبرّر لها.

مع ذلك، ومع أن شيانغ تبنى الديكتاتورية وورث عن اللينينية "بعض أساليب النضال، التنظيم على الطريقة السوفياتية، وأساليب السيطرة كما يحددها بورودين"، فإنه كان يرفض الشيوعية، ولم يسعَ إلى بناء دولة توتاليتارية، على عكس ماو الذي أسقطه في ما بعد. نظام حكم القائد الأعلى حافظ

على عدد من الحريات في البلاد. وماي–لينغ التي لم تشارك في وضع الخطط السياسية كان تأثيرها بارزاً في قرارات الديكتاتور الأكثر إنسانية.

المشكلة الأهم أمام شيانغ كانت الشرعية. كل الذين سبقوه إلى الرئاسة كانوا منتخبين، حتى لو كانت بعض هذه العمليات الانتخابية مثيرة للجدل. لم يدخل شيانغ بانتصاره إلى عقول السكان وقلوبهم، ولم يروه المنقذ. وكما أورد أحد المراقبين، حين بدأ جيشه مسيرته في شوارع بيجينغ استقبله المتفرجون "بصمت مدوٍ" ووجوه بلا تعابير. زعماء بيجينغ بالإجمال لديهم سمعة أفضل بكثير من سمعته. كما أن انتصاره لم يقنع الناس بعبقريّته العسكرية. كثيرون اعتقدوا أن القوة المسلحة السوفياتية هي التي هزمت بيجينغ وليس هو. وعندما أقدم شيانغ على كسر القيد الروسي، لم تقابل خطوته إلّا بتأييد متحفظ. قوميون آخرون ناضلوا ضد سيطرة موسكو حين كان تشانغ يعلن ولاءه للروس. بالنسبة إلى هؤلاء، كان القائد الأعلى انتهازياً.

ادعى شيانغ أنه وريث أبي الصين، وروّج لإيصال سون إلى رتبة القداسة. وفي حفل زفافه، عُلّقت صورة كبيرة لسون على المنصة، وبجانبها علم "القومي"، وعلم البلاد التي يسعى إلى رئاستها. علم الصين نسخة عن علم الحزب على خلفية بالأحمر، وهو يرمز لرؤية سون بأن حزبه سوف يسيطر على البلاد. العروسان والمدعوّون الذين فاق عددهم الألف انحنوا جميعاً ثلاث مرات أمام صورة سون، وتكرّس هذا تقليداً معتمداً في الاحتفالات كافة في أرجاء الصين.

في الواقع إن سون كان بعيداً من القداسة في أفكار القائد الأعلى الخاصة. ذات مرة تحدث إلى ماي–لينغ والأخت الكبرى عن سياسة سون في موالاة الروس، وكيف أنها كادت تؤدي إلى استيلاء الشيوعيين على حزبه والبلاد، وإلى خسارته لكليهما لولاه، أي شيانغ، لأنه أنقذ الوضع بالمكيدة التي دبرها. لكنه لأسباب سياسية كان يحتاج إلى تقديس سون.

إنه بحاجة أيضاً إلى أيديولوجية تهيمن عليها صورة سون لتكون عقيدة نظامه السياسي. سون أعلن ما يشبه الأيديولوجية في: مبادئ ثلاثية الشعب (yi–zhu–min–sna) وفي هذا تقليد لمقولة لنكولن: "حكومة الشعب، من قبل الشعب، من أجل الشعب". ويمكن اختصار المبادئ بالقومية، وسيادة الشعب، ورفاهية الشعب. وهي ضبابية وزئبقية مثل معتقدات سون في حياته. تحدث كل من شيانغ، بواسطة المترجم وماي–لينغ، أمام الكاميرا في عرض إخباري قصير بالإنكليزية، وكل واحد منهما قدم تعريفاً مختلفاً لهذه المبادئ. كان من المفروض أن تتحدث السيدة الأولى عن مساهمة مبادئ سون في تحرير المرأة في الصين. وهذا أمر بالغ التعقيد لدرجة أنها اضطرت إلى حفظ الكلام المكتوب غيباً. في النهاية، بعد حديثها بطلاقة عن دور المرأة في الصين كما تراه، وصلت

إلى ما يجب قوله عن مساهمة سون العظيمة المفترضة... ولم تستطع أن تتذكر الكلام. تابعت بجمل متردّدة ومتقطعة: ''الدكتور سون أعطى النساء... اقتصادية... و... اقتصادية... و...'' وتوقفت. ضحكت محرجة لكن بطريقة حلوة، والتفتت نحو زوجها الذي كان ينظر إليها بتوتر ملحوظ، فهمس في أذنها. فأنهت جملتها: ''... أعطى النساء الاستقلالية والاقتصادية والسياسية''.

مع أن الأيديولوجية ضبابية وتفتح مجالات عدة للتأويل، لم يؤثر هذا بالفعل في المسار العام للعمل. الخطوة كانت ضرورية وقيّمة. لكن المشكلات بدأت عندما أراد شيانغ أن يجد تعبيراً مجدداً وأعلن أن النظام السياسي الذي يترأسه هو نظام وصاية سياسية (zheng–xun)، وهذا ليس الاسم الملطّف الذي أطلقه سون على الديكتاتورية التي أرادها. إن xun توحي بصورة من هو أعلى مقاماً يرشد من هم أدنى منه. قال سون إن هذه سوف تكون طريقة تعامله هو وحزبه مع الشعب الصيني. الصينيون كانوا مستعبدين ولا يصلحون ليكونوا أسياد البلاد؛ ''لذلك يجب علينا نحن الثوريين أن نعلمهم''، و''نرشدهم''، ''ونستخدم أساليب القمع إذا لزم الأمر''. وعلى ملصق دعائي كبير، رُسمت كلمات سون: الصين بصورة طفل يبدأ المشي في ما يرفعه سون إلى مرتبة أعلى في الوجود. كان هذا بمنزلة تحوّل عنيف عن الثقافة الصينية التي لا تقبل احتقار الناس العاديين بهذه الوقاحة.

أصدر القائد الأعلى أوامره بأنه من غير المسموح لأحد ألّا يوقّر سون. في مؤسسات مثل المدارس والشركات، كان يجب على العاملين فيها الاجتماع مرة كل أسبوع لإحياء ذكرى سون. بعد الوقوف ثلاث دقائق صمت، تُقرأ وصية سون وهو على فراش الموت، ويستمعون لإرشادات رؤسائهم. كل هذا كان غريباً ومنفراً للشعب. لم يكن أي شيء من هذا القبيل مطلوباً منهم في ظل حكم الأباطرة. وفي العقدين الأخيرين، عاش الناس في مجتمع مدني يعتمد في توجهه السياسي تعدّد الأحزاب، ونظاماً قضائياً منصفاً، وصحافة حرة. كان في مقدورهم انتقاد حكومة بيجينغ علناً ودون خوف من العقاب. في ١٩٢٩، كتب ليبراليون بارزون مجموعة مقالات حول حقوق الإنسان. وهيو شيه، الليبرالي الأكثر شهرة في تلك الفترة، كتب أن أبناء وطنه عاشوا تجربة ''التحرر الفكري''، لكن ''تعاون الشيوعيين والقوميين خلق حالة ديكتاتورية مهيمنة سلبتنا حقنا في حرية التفكير والتعبير. يسمحون لنا اليوم بالتجديف على الله لكن لا يسمحون لنا بانتقاد سون يات–سين. حتى القدير يمكننا مساءلته، فلماذا هذا محرم للقوميين وسون يات–سين؟'' و''الحكومة القومية لا تحظى بتأييد الشعب، ومن أسباب ذلك أن نظامها السياسي لم يكن على قدر توقعات الشعب، ولأن أيديولوجيتها التي تشبه الجثة أخفقت في جذب المفكرين للتعاطف معها''. هذه المنشورات صودرت وأحرقت، وأجبر هيو شيه على الاستقالة من منصبه عميداً في إحدى الجامعات.

لاحظ هيو شيه أن الأمور قد تصل إلى ما هو أسوأ. أي شخص معرّض أن يخسر حريته وملكيته بتوجيه تهم إليه بأنه ”رجعي“ أو ”عدو للثورة“ أو ”شيوعي مشبوه“. لم يكن هناك احترام للملكية الخاصة. ولنغتون كُو، الذي كان رئيساً لوزراء حكومة بيجينغ، لديه قصر رائع في بيجينغ، اشتراه والد زوجته، وهو رجل أعمال صيني لديه تجارة عبر البحار. عائلة كو أحبت منزلها. خلال رحلة سون يات–سين الأخيرة إلى بيجينغ، أجّرته العائلة المنزل، وهناك فارق الحياة. بعد الاستيلاء على المدينة عمد القوميون ببساطة إلى وضع يدهم على المنزل وحوّلوه إلى مقام لتخليد ذكرى سون، وهذا تسبب في كثير من الحزن لعائلة كون. وما زاد في معاناة العائلة أن الملاكين الجدد يريدون تغطية لونه الأصلي، الأحمر العتيق الجميل المعروف في بيجينغ، بطبقة من الأزرق الرمادي الكئيب، لإظهار أنه موقع حزين.[21]

21 شيانغ وظف كو في ما بعد. والأخير أثبت أنه ديبلوماسي بارع وحريص. بعد هذه الحادثة بعقود، عندما كان يتحدث عن تلك الفترة في إطار مشروع التاريخ الشفوي الذي تشرف عليه جامعة كولومبيا بنيويورك، ارتبك كو وأوقف المقابلة المسجّلة وطلب من محاوره أن يوقف جهاز التسجيل. ”هذا موضوع يجب أن يُقفل. إنه يعيد إلى الأذهان ’الكيومنتانغ‘“. ثم غيّر الموضوع. من الواضح أنه انتبه إلى ضرورة لجم مشاعره.

شيانغ رأى أن كل ما تملكه الدولة ملك له. أنشأ مصرفاً كبيراً، بنك المزارعين، بتمويل من المخزون الضريبي. وعندما كتب وصيته (١٩٣٤) أدرج أصول المصرف تحت عنوان ”أمور عائلية“، تحت البند الذي يوصي فيه أبناءه بالتعامل مع ماي–لينغ كأنها أمّهم الفعلية.

القائد الأعلى، بحكمه الديكتاتوري، صار له أعداء في كل مكان. حكام الأقاليم في الشرق والغرب والشمال والجنوب بدؤوا يثورون ضده. كذلك فعل عدد كبير من رفاقه القوميين من اليسار واليمين والوسط. كان بين هؤلاء بأجمعهم عامل مشترك واحد: إنهم يرفضون الاعتراف بسلطة شيانغ. وصل البعض إلى اتخاذ إجراءات متطرفة. الاغتيالات، التي كانت نادرة في حكم المنشويين، صارت أسلوباً متوقعاً لحلّ المشكلات عند الجمهوريين، وسون وشيانغ كلاهما من الجيل القديم. الآن صار السيف مسلطاً على القائد الأعلى... وماي–لينغ.

في إحدى الليالي، في آب/ أغسطس ١٩٢٩، كانت ماي–لينغ نائمة في منزلها في شانغهاي حين استيقظت لأنها رأت كابوساً. وصفت ما رأت لاحقاً، فقالت إن طيفاً مرعباً زارها في الحلم، رجل ”وجهه قاسٍ وعنيف“، و”بدت نية الشرّ في ملامحه“. رفع يديه، وكان يحمل في كل واحدة منهما مسدساً. عندما صرخت نهض شيانغ بسرعة وركض إلى غرفتها. قالت له إنه ربما كان هناك لصوص في الطابق الأرضي. خرج شيانغ من غرفة النوم وهو ينادي على الحراس. ردّ عليه اثنان،

وعاد إلى سريرها ليطمئنها، مع أنه استغرب وجود حارسين في الوقت الذي كان من المفترض أن يتولى الحراسة فيه واحد فقط.

بعد بضعة أيام، تسلّل الحارسان إلى غرفة النوم وكانا على وشك إطلاق النار عندما استدار شيانغ وهو نائم وسعل بصوت مرتفع. أجفلا وخرجا بحذر. في هذه الأثناء، كان الحارس الذي لم يكن من المفترض أن يكون لديه دوام في تلك الليلة قد أثار شكوك سائق التاكسي الذي أوصله إلى المنزل. انتبه السائق إلى أنه يحاول إخفاء بذلته العسكرية بقبعة جلدية ومعطف للمطر، كما أن الطريقة التي استقبل بها عند البوابة مثيرة للريبة. اتصل السائق بالشرطة التي وصلت في الحال وألقت القبض على الحارسين. كانا اثنين من أقرب الحراس إلى شيانغ وثقته بهما لا حدود لها، ومع ذلك، قبلا عمولة من مجموعة من أعدائه الكثيرين.

نتيجة لخوفها من محاولات الاغتيال تعرّضت ماي–لينغ لحالة إجهاض. كانت "مضطربة لدرجة لا تُحتمل"، وفي "حالة حزن شديد"، كما وصفها شيانغ في مذكراته. لم يفارقها شيانغ طوال سبعة عشر يوماً. لم يكترث لعمله، وهذا أمر لم يكن متوقعاً منه. بعد حادثة الإجهاض أخبرها الطبيب أنها لا تستطيع الحمل ثانية. السيدة شيانغ، مثل أختها السيدة سون، لن تنجب أطفالاً.

كانت ماي–لينغ في حالة هلع دائمة وتعاني من توتر عصبي حاد. وفي كابوس آخر، رأت حجراً وسط جدول وتجري الدماء من حوله. وفي اسم شيانغ كاي–شيك، كلمة تعني حجر (تشيك)، ولذلك ظلّت تتوقع حدوث شيء مرعب لأيام. ثم حدث أن حاكم إقليم آنهوي المجاور انفصل عن شيانغ وقصف العاصمة نانجينغ بالمدافع.

لكن الأخت الصغرى ساندت زوجها رغم المخاطر وتحفظاتها حول الأساليب التي اعتمدها. في ١٩٣٠، أعلن عدد من القوميين البارزين، من جنرالات وسياسيين (بين هؤلاء الرجل الذي كتب وصية سون وهو على فراش الموت، وانغ جينغ–واي)، تشكيل حكومة ضد حكومة بيجينغ. شيانغ أعلن الحرب عليهم. هذه الحرب عُرفت بالحرب الكبرى في الصين الوسطى، واستمرت أشهراً. خلال هذه المدة كانت ماي–لينغ تتواصل مع زوجها كل يوم تقريباً بواسطة البرقيات التي حمّلتها حبها ودعمها له. خافت أن شيانغ على الجبهة قد لا يأكل جيداً، فعرضت عليه إرسال طبّاخها ليعدّ له طعامه. وعندما ارتفعت درجة الحرارة سألته بلهفة عن صحته وقدرته على احتمال الحر. وخوفاً عليه من الوحدة أرسلت أخاها ت. ف. ليحمل له الرسائل والهدايا. صارت مجدداً المسؤولة اللوجستية التي لا غنى لشيانغ عنها. إحدى الشحنات التي أرسلتها احتوت على ثلاثمئة ألف علبة من اللحوم، وبراعم الخيزران، والحلوى، ومئة وخمسين ألفاً من المحارم لليدين، وكميات كبيرة من

الدواء للجنود، وقد استأجرت عربة خاصة في القطار لنقلها إليه. وعندما لم يعد ت. ڤ. يحتمل المبالغ الطائلة التي يطلبها شيانغ باستمرار وقرر تقديم استقالته، استطاعت مجدداً تغيير رأيه.

بعض هذا المال كان يصل إليها شخصياً ودون ضجيج. فالرجل القوي في منشوريا في تلك المدة زانغ زو–ليانغ، المارشال الشاب، ابن المارشال العجوز زانغ زو–لين[22]، قرر في هذا القتال مدّ يد المساعدة إلى شيانغ، بمقابل مالي. بعد مباحثات سرية اتفق الطرفان على مبلغ ضخم بحدود ١٥ مليون دولار. كان المبلغ ضخماً لدرجة أنه سُحب على دفعات خلال سنوات، وطوال هذه المدة كان المارشال الشاب يجري زيارات إلى شانغهاي ونانجينغ لسحب الأموال. في ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٠، أرسلت برقية بحوالة قيمتها مليون دولار إلى المارشال الشاب، وأرفقتها بتعهّد إرسال الملايين الأربعة المتبقية من الدفعة الأولى في الأيام التالية. في ذلك اليوم، أرسل أمير الحرب الشاب قواته إلى جنوب منشوريا لهجوم على شكل كمّاشة مع شيانغ ضد المتمردين. هذه الخطة قضت على الجيش المتمرد.

22 كان رئيساً لحكومة بايجينغ في حزيران/ يونيو ١٩٢٧، حين وصلت حملة الشمال التي قادها شيانغ إلى مرحلتها الأخيرة. عرض عليه اليابانيون مساعدته لوقف تقدم شيانغ مقابل امتيازات أساسية في منشوريا. لكن المارشال العجوز ردّ بجملة واضحة: "أنا لست بصدد بيع البلد". زرع اليابانيون عبوة من الديناميت على خط السكة الحديدية، فقتلوه في قطاره في ٤ حزيران/ يونيو ١٩٢٨ (ساعد موته في انتصار شيانغ على حكومة بايجينغ).

في هذه المدة، أقامت ماي–لينغ مع والدتها ومع أختها إي–لينغ. وفيما قدمت إليها السيدة سونغ دعمها المعنوي، قدمت الأخت الكبرى نصائح تفصيلية لتتجاوز محنتها. كان شيانغ شاكراً لجميل السيدتين، وأخذ يسأل عن أحوالهما كل يوم تقريباً. والمعروف عنه أنه كان ميالاً أكثر إلى إي–لينغ، ويناديها دائماً باحترام بالأخت الكبرى، رغم أنه أكبر منها سنّاً. عندما علم بمرض السيدة سونغ، أراد معرفة تفاصيل حالتها الصحية وطلب من ماي–لينغ أن تنقل تعهده لها: "أرجو أن تكوني مطمئنة أن صهرك يتبع تعليماتك ويتصرف بمسؤولية".

وفي تعبير عن عرفانه بالجميل للسيدة سونغ والأخت الكبرى، تعمّد شيانغ بعد نهاية الحرب في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٠، وأقيمت مراسم العمادة في منزل عائلة سونغ في شانغهاي. ومنذ ذلك الحين ازداد تأثراً والتزاماً بالديانة المسيحية.

الحرب انتهت، لكن الذين انتفضوا في مواجهة القائد الأعلى لم ينتهوا. نقلوا قاعدتهم إلى كانتون وشكلوا حكومة ثانية منافسة في السنة التالية ١٩٣١. أحد الأعضاء فيها كان فو، ابن سون يات–سين. في نانجينغ، ظل شركاء سون القدامى يحتقرون شيانغ ويرفضونه علناً وبوضوح. أمر شيانغ بسجن بعضهم، لكنه كان مضطراً إلى ادعاء بأنه يحجزهم من أجل الاستماع لنصائحهم فقط.

شعر شيانغ أنه محاصر بذوي النيات السيئة كما كان في شبابه، ففجّر غضبه وسخطه في كل المحيطين به تقريباً. وامتلأت مذكراته بتعابير مثل: ''لا توجد على الأرض صداقات فعلية ولا عطف ولا حب، وعلاقة الأم بولدها هي الاستثناء الوحيد''، ''لا أستطيع التغلب على سخطي وغضبي... معظم الناس أصدقاء مزيفون... وأنانيون... أريد الابتعاد عنهم جميعاً''، ''قلوب الناس تنضح بالخداع والبشاعة. الذين يخافون مني هم أعداء لي، والذين يحبونني أيضاً هم أعداء لي، لأنهم لا يريدون سوى استغلالي لمصالحهم... زوجتي فقط تحبني وتدعمني بإخلاص''، ''من طبيعة البشر ألا يعامل الواحد منهم الآخرين بنيّة طيبة، باستثناء والديه وزوجته وأولاده''.

القائد الأعلى الذي تحكّمت فيه هذه الأفكار السوداوية صار وحدانياً يفضل العمل بمفرده. بالنسبة إليه ''عدد الموهوبين في الصين قليل جداً، وإن حمّلت أحدهم مسؤولية ما، فإنه، ببساطة، يفشل''، ''جميع الموظفين عندي، في المنظمات كافة، لا يكادون ينجزون أعمالاً ترضيني''، ''باستثناء زوجتي، لا أجد من أستطيع الاعتماد عليه في تحمّل مسؤولية صغيرة أو يشاركني في عمل بسيط''، ''يجب أن أبادر إلى فعل كل شيء بنفسي، الشؤون الداخلية والخارجية... والقضايا المدنية والعسكرية''. بالفعل، وفي أوقات حرجة عندما احتاجت الصين إلى دعم دولي مثل المدة التي مهّدت للاجتياح الياباني في ١٩٣١، لم يكن لديه سفراء في الدول الغربية.

دائرة شيانغ الصغيرة والقريبة منه كادت تقتصر على أفراد عائلة سونغ. وبالنسبة إلى عائلته هو كان دائماً ينفز من أخيه غير الشقيق؛ ''كم أكرهه وأحتقره''. كما كان يشمئز من أخته أيضاً. زارها في أحد الأيام مع ماي–لينغ ورأى ضيوفها يلعبون الورق ويرفعون أصواتهم. كتب شيانغ: ''شعرت بالخجل''، فقد كان يخاف أن تكرهه حبيبته بسبب أقربائه.

علاقته الروحية العميقة مع مرشده ''العرّاب'' تشين شكلت عائلة ثانية بالنسبة إليه. ابنا أخي العراب غيو–فو ولي–فو أسّسا وأدارا جهاز مخابراته. لكنه لم يعطهما ثقته الكاملة أيضاً. القائد الأعلى حذّر من تنامي سلطتهما وخاف منهما، ولذلك أسس وكالة استخبارات ثانية للحدّ من نفوذهما.

أعطى شاينغ ثقته الكاملة لأفراد عائلة سونغ فقط. كان متأكداً أنهم لا يخونونه، وأنه يستطيع الاعتماد عليهم في إدارة الشريان الحيوي في نظامه: المال. أسس هيئة للإشراف على المصارف الكبرى في الصين – الهيئة الموحّدة للمصارف الأربعة – وعيّن زوج إي–لينغ، هـ. هـ. كونغ، رئيساً عليها. كان يترك أعلى المناصب وأهمها لديه: وزارة المالية، وزارة الخارجية، رئاسة مجلس

الوزراء، لـ هـ. هـ. خادمه المخلص والمطيع، ونسيبه ت. ڤ. أيضاً. تولّى هـ. هـ. مركزين بارزين لأكثر من عقد، وذلك في نهاية حكم شيانغ.[23]

[23] في سجل عشيرة كونفوشيوس، طبعة ١٩٣٠، ورد اسم هـ. هـ. كونغ على أنه من سلالة كونفوشيوس الذي يشاركه في اللقب. ولأنه كان في تلك المدة في السلطة وأشرف على كتابة السجل، تساءل البعض عن مدى مصداقية هذا الادعاء. تشينغ–لينغ كانت تلقبه ساخرة بـ"الحكيم".

كان شيانغ يهاب الأخت الكبرى إي–لينغ أكثر من كل المحيطين به. أفكارها السياسية وأعمالها التجارية، التي عرفها شيانغ منها مباشرة أو عبر ماي–لينغ، وهـ. هـ.، كانت دائماً عند القائد الأعلى تستحق اهتمامه. إن تولي زوجها مناصب حساسة لمدد طويلة يعود بالدرجة الأولى إلى اعتماد شيانغ عليها.

خارج إطار العائلة الضيّق لم يكن القائد الأعلى يثق أو يصغي إلّا إلى عدد قليل من الأشخاص. لم تكن هناك مناقشات بالمعنى الصحيح للكلمة مع ذوي الرتب العالية. اجتماعاته معهم كانت تخلو من الحماسة، فشيانغ يتخذ وضعية متعالية ويخطب في الموظفين والرفاق. الأعضاء الأكثر تمدناً بين الحضور وجدوا صعوبة في احتمال هذا السلوك واختاروا تجنب الرد بدافع الخوف، والأقل ثقافة تبعوا توجيهاته وتعاملوا مع الأدنى منهم بهذه الطريقة السيئة أيضاً، فعمّ الاستياء جميع العاملين في السلطة.

تحت إمرة رئيس مثله لم يبدِ الموظفون اهتماماً للمشاركة في وضع المخططات. والموظفون في المراتب العليا أيضاً لم يبادروا إلّا في ما ندر لتقديم اقتراحاتهم. إي–لينغ التي لها تأثير كبير فيه، سيدة ذكية، ولكن لم يكن لديها وعي القائد السياسي. ومشكلتها أيضاً أنها لم تكن تتعاطف مع الناس العاديين. ونتيجة لذلك أخفق نظام شيانغ في تقديم برنامج عمل يحفز أبناء الشعب عامة أو يعطيهم أملاً. غياب السياسات الحكيمة ترك فراغاً كبيراً ودفع هيو شيه، الزعيم الليبرالي، إلى مناشدة شيانغ أن "يبادر إلى إنجاز الحدّ الأدنى ويتعلّم من الأباطرة المستبدين، وأن يتخذ خطوات من حين إلى آخر ويطلب من الشعب تقديم اقتراحات علنية!"

بالنسبة إلى شيانغ، لم يكن هذا مجدياً وبدا له كمن يريد جمع الماء عن ظهر البطة الزّلق. والأسوأ من ذلك أنه أظهر بالفعل احتقاره للناس. قال علانية إن الصينيين "بلا خجل، وبلا أخلاق"، وإنهم "كسلانون وغير مبالين، ومتكبرون ويحبون الرفاهية، وعاجزون عن تحمل الصعاب وعن التقيد بالنظام، ولا يحترمون القانون، ولا يخجلون، ولا فكرة لديهم عن الفضيلة ومعانيها... 'معظمهم نصف ميت، ونصف حي'، أي أنهم ليسوا أمواتاً ولا أحياء... جثث تمشي".

إنقاذ الناس من براثن الفقر لم يكن على جدول أعماله، وهذا تقصير كارثي ندم عليه بعد فوات الأوان عندما أُبعد عن الأراضي الصينية. كان هناك اقتراح بخفض قيمة استئجار الأرض التي يدفعها الفلاحون لملاكي الأراضي، لكنه لم يطبّق إلّا في عدد قليل من الأقاليم مدة قصيرة وجرى التخلّي عنه لأنه واجه معارضة شرسة. كان الشيوعيون مستعدين لاستغلال الفرصة، وادعوا أن هدفهم توفير حياة أفضل للشعب. ازداد نفوذ الحمر وتوسعت رقعة الأرض التي يسيطرون عليها. وبمؤازرة موسكو، شكلوا ''جمهورية سوفياتية'' في ١٩٣١ جنوب شرقي الصين، وهذا جزء غني من البلاد ليس بعيداً جداً من شانغهاي. هذه الولاية المنشقة امتدت على مساحة مئة وخمسين ألف كلم مربع وتخطى عدد سكانها الملايين العشرة. وهكذا، ظهر أمام عيني شيانغ مباشرة خطر كبير لا يستهان به.

بعد مواجهتها مجموعة كبيرة من المشكلات المريعة، فقدت ماي–لينغ تفاؤلها الذي تحلّت به في البداية بأنها سوف تحقق إنجازات كبيرة بوصفها السيدة شيانغ. كتبت لاحقاً عن هذه الفترة في ١٩٣٤: ''عانيت الكثير خلال السنوات السبع الأخيرة. خضت في مياه عميقة بسبب حالة الفوضى في الصين''. بالإضافة إلى الصراع الداخلي الذي لا ينتهي، كانت هناك كوارث أخرى: ضرب الجفاف شانزي في الشمال الغربي في ١٩٢٩ وتسبب في مجاعة ذهب ضحيتها مئات الآلاف، والعواصف المتواصلة في الشمال الشرقي في ١٩٣٠ تسببت في تهجير الملايين وتشريدهم، وفي ١٩٣١، لاقى أربعمئة ألف حتفهم من السيول في وادي ينغتزي وغيره من الأقاليم، واليابان تستعرض عضلاتها بعدوانية على الحدود. ''كل هذه الأمور جعلتني أرى أنني غير مؤهلة... إن محاولة فعل أي مبادرة في سبيل البلد بدت كمحاولة إخماد حريق هائل بكأس من الماء... غرقت في يأس مظلم. وسيطرت عليّ كآبة رهيبة''.

وصلت السوداوية إلى ذروتها مع وفاة السيدة سونغ بسبب سرطان الأمعاء في ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٣١. كانت ماي–لينغ تعتني بها طوال مرضها، وبقيت بجانبها في أيامها الأخيرة في كنغداو، وهو منتجع على شاطئ البحر قصدته العائلة للهرب من حرارة الصيف الخانقة في شانغهاي. استغرقت الأخت الصغرى في حزن لا عزاء له. قالت إن موت والدتها ''صدمة قاسية لكل أولادها، لكنها ربما أصابتني أكثر من سائر العائلة، لأنني ابنتها الصغرى، وكنت أتكل عليها إلى درجة لم أكن أعرفها''. وتذكرت خاصة ما جرى قبل مدة قصيرة من وفاة السيدة سونغ: ''ذات يوم، وأنا أتحدث إليها، خطرت لي فكرة بدت حينذاك جيدة. أمي، أنت قديرة في الصلاة، لماذا لا تصلين إلى الله ليدمر اليابان بزلزال حتى لا يعود في مقدورها تهديد الصين؟'' وتذكر أن والدتها

''أشاحت بوجهها بعيداً'' ورفضت قائلة لماي–لينغ إنه لا يليق بها حتى أن تخطر لها هذه الفكرة. هذا الموقف ترك تأثيراً كبيراً في ماي–لينغ طوال حياتها وزاد في مضاعفة إعجابها بوالدتها. عندما ماتت السيدة سونغ، شعرت أنها في ضياع؛ ''لم تعد والدتي موجودة لترافقني بصلاتها خلال مشكلاتي الشخصية وسائر المشكلات. أمامي حياة عليّ مواجهتها دونها. ماذا سأفعل؟''

يوم وفاة والدته نجا أخوها ت. ڤ. بأعجوبة من محاولة لاغتياله على يد مجموعة من القوميين الشبان من الجناح اليساري. كان هدفهم في الواقع اغتيال شيانغ كاي–شيك لكنهم اختاروا البدء بـ''رجل المال'' عند شيانغ كتدريب أولي. درسوا تحركات ت. ڤ. وعرفوا أنه يأتي بانتظام إلى شانغهاي من نانيجنغ، العاصمة، في قطار الليل السريع أيام الخميس من أجل تمضية عطلة نهاية أسبوع طويلة هناك. في هذا الخميس بالذات، كانوا في انتظاره في محطة شانغهاي الشمالية للقطارات. كان يرتدي بذلة أنيقة، وعلى رأسه توبيّة بيضاء من الفلّين، ويتقدم بقامته التي تزيد عن ستة أقدام، فبدا بوضوح أنه رجل جذاب يلفت الأنظار. كان يشق طريقه في الزحمة، ويتبعه سكرتيره وحارسه، حين صرخ الرجال: ''فلتسقط عائلة سونغ!'' وبدؤوا إطلاق النار. اخترق الرصاص الجدران واجتاز النوافذ. سكرتير ت. ڤ. الذي يمشي بجانبه قُتل. شاهد عيان، تاجر كشك للبيع على مقربة من مكان الحادثة، أخبر الصحف لاحقاً أن القتلة ''كانوا يرتدون بذلات سون يات–سين باللون الأخضر الرمادي'' (هذا الزيّ الذي عرف في ما بعد باسم ''بذلة ماو''، وكان تقليداً لزي الطلاب العسكريين في اليابان وسون أول من اختاره. في تلك المدة، صار زيّاً مفروضاً على الموظفين المدنيين في الحكومة القومية).

أثناء إطلاق النار انفجرت قنبلتان. وفق الشاهد ''الدخان الأبيض انتشر ولم أكد أرى السيد سونغ، فاختبأت تحت طاولتي''. تحت غطاء الدخان اختبأ ت. ڤ. وراء عمود وسحب مسدسه في الحال. شرطي في المحطة أسرع نحوه وقال له: ''اخلع قبعتك سيدي الوزير. وانحنِ قليلاً كي لا يروك واتبعني. سوف أقودك إلى مكان آمن''. تلمّس ت. ڤ. طريقه في الدخان الكثيف، محاولاً ألّا يدوس على الأجساد المرتمية على الأرض، وتبع الشرطي إلى قاعة اجتماعات في الطابق العلوي. حين رأى القتلة أنه صعد إلى طابق علوي ولم يتجه نحو المخرج، تخلوا عن مطاردته. وبعد تبادل النار مع حارسه لوقت رموا أسلحتهم واختفوا بين الناس الذين كانوا في المحطة وهم يحاولون الهرب في كل اتجاه ويصرخون: ''ابتعدوا''، كي يخططوا لاغتيال هدفهم الحقيقي، القائد الأعلى.

حتى قبل وصول أفراد هذه المجموعة إلى منازلهم، كان عدد من المسلحين يطلق النار على شيانغ في حديقة عامة. لكنهم أخطؤوا هدفهم وشيانغ لم يصب بأذى. شيانغ لم يشأ زيادة قلق ماي–لينغ،

فأرسل إليها برقية يقول لها فيها إن الخبر مجرد شائعة. ماي–لينغ عرفت أنه ليس شائعة، وتضاعفت معاناتها. محاولات الاغتيال المتتالية طاردتها طوال حياتها. حتى عندما صارت كبيرة في السن لم تكن تنام بهدوء إلّا بوجود حارس تثق به في الغرفة المجاورة.

فوق كل هذه المآسي حلّت مصيبة وطنية: في أيلول/ سبتمبر ١٩٣١، غزت اليابان منشوريا واحتلت هذا الجزء الكبير والغني من الصين. ماي–لينغ وصفت حالتها بأنها انزلقت إلى "يأس عميق".

١١

تشينغ–لينغ في المنفى: موسكو، برلين، شانغهاي

بينما كانت الأخت الصغرى تفعل ما في وسعها للتغلب على مشكلات حياتها الزوجية، كانت تشينغ–لينغ، "الأخت الحمراء"، تعيش في المنفى الذي فرضته تلقائياً على نفسها، والبداية كانت في موسكو.

توجهت إلى روسيا بعد انفصال شيانغ كاي–شيك عن الشيوعيين في نيسان/ أبريل ١٩٢٧. حاولت والدتها وأختاها بأساليب الإقناع شتى حملها للعدول عن قرارها، كما حاولنَ فعلياً تغيير قناعتها بالاتجاه الأحمر. ماي–لينغ أتت إلى وُوهان مجدداً حاملة رسالة من والدتها. لكن تشينغ–لينغ بقيت تلك المرأة الشابة العنيدة التي هربت لتتزوج سون يات–سين منذ اثنتي عشرة سنة، ورفضت الاستماع لأحد. توجهت من وُوهان إلى شانغهاي في انتظار سفينة تأخذها إلى روسيا. في هذه المدة، جرت مواجهات كثيرة وعنيفة مع أسرتها. أخيراً، وبمساعدة مجموعة من الرفاق، تنكّرت في ملابس امرأة فقيرة وتركت شانغهاي سرّاً وركبت سفينة بخارية روسية لتحملها إلى "عاصمة البروليتاريا العالمية".

أخوها ت. ڤ. الذي كان في الثانية والثلاثين قرر الوقوف بجانب شيانغ كاي–شيك، فكان متردداً بين الاتجاهين الموالي لشيانغ والمعادي له. الصحافي فنسنت شيسان الذي عرفه في تلك المدة وصفه على هذا النحو:

> كان عاجزاً عن تكوين وجهة نظر في ما يخص أهوال الإمبريالية الرأسمالية وأهوال الثورة الشيوعية... في الصين، يصعب على المرء الخروج من بيته دون أن يرى في كل ما يجري حوله دليلاً على الاستغلال العنيف واللّاإنساني للعمال على يد الصينيين والأجانب على حدّ سواء. ت. ڤ. شخص حساس جداً وهذه المشاهد تركت فيه تأثيراً كبيراً. وفي المقابل، كانت تثير مخاوفه أي أساليب ثورية، فيهاب الحشود، ولا يحتمل حراك العمال وإضرابهم، ومجرد التفكير في مصادرة أموال الأثرياء يزرع الرعب في نفسه.

ذات يوم أحاطت مجموعة من المحتجين بسيارته في ووهان وهم يهتفون بشعارات معادية ويحاولون تحطيم النوافذ. هذه الحادثة جعلته ينفر من الحراك الشعبي طوال حياته، مع أنها لم تحمله على التخلي عن تعاطفه مع اليسار.

على غرار ت. ڤ. معظم القوميين في ووهان اختاروا شيانغ. ذلك التحرك السوفياتي النمط الذي بدا كالمدّ الهائل اندثر فجأة كما ظهر فجأة، وتبين أن شعبيته من صنع الخيال. تشينغ–لينغ أحست بالضياع. لم تكن تتوقع سقوط الثورة بهذا العنف وإلى هذا الحد. كرهت الرجل الذي رأته مسؤولاً عما حدث، شيانغ كاي–شيك، وقبل رحيلها إلى موسكو، أصدرت بياناً أدانت فيه شيانغ بلغة قاسية.

وصلت إلى موسكو في ٦ أيلول/ سبتمبر. زارها فنسنت شيان بعد ذلك بمدة قصيرة:

> في الطابق الثاني في وزارة المالية، فتح الباب في آخر غرفة الجلوس المعتمة ودخلت سيدة صينية صغيرة وخجولة ترتدي فستاناً من الحرير الأسود، وفي إحدى يديها المرتعشتين محرمة مخرمة... حين تكلمت كاد صوتها يحملني على الارتعاش: إنه في غاية العذوبة واللطف وحلو إلى درجة غير متوقعة... تساءلت بيني وبين نفسي: من هي؟ هل لدى السيدة سون يات–سين ابنة لم أسمع عنها من قبل؟ لم يخطر في بالي أن هذه المرأة الفاتنة بإطلالتها، وعلى هذه الدرجة من الرقة والخجل، هي السيدة بذاتها، المرأة الثائرة الأكثر شهرة في العالم.

بعد أن تيمته وأحسّ بالصدمة من "التناقض بين مظهرها وقدرها"، صار شيان واحداً من مجموعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين لشينغ–لينغ في موسكو. الحكومة السوفياتية استقبلتها بحفاوة ورأت فيها ضيفة الدولة المميزة. عُيّن عدد من الخدم للعناية بها، وعلى مائدتها وُضع التفاح والعنب من القوقاز وهما في الغالب غير متوفرين. اختاروا لها Metropol مقراً، وهو أكبر فندق في المدينة ويأوي في فراشه عدداً هائلاً من البق. بورودين أيضاً يقيم هناك لكن الصديقين القديمين تحاشيا التلاقي، لأن أيام اللقاءات السعيدة ولّت.

هناك عملية تطهيرية بدأت تلوح في الأفق. ستالين بدأ يتشابك مع تروتسكي ويخوض معه صراعاً على السلطة كان وضع الصين الكارثي مادة أساسية فيه. في المرحلة التي أعدّ فيها ستالين لفرض سيطرته على السلطة، شهدت تشينغ–لينغ المحاولات الأخيرة لتروتسكي وأنصاره لهزيمته. في ذكرى "ثورة أكتوبر"، كانت مدعوة إلى الساحة الحمراء لحضور العرض. كان الاحتفال في أحد تلك الأيام المعروفة ببردها القارس في شتاء روسيا الشهير. وقفت مع القادة السوفيات على الضريح الخشبي القديم الأصلي للينين وهي تنتعل حذاءً جلدياً رقيقاً داخل حذاء من المطاط وترتعد مع تساقط الثلج. لم تكن قد تعلّمت كيفية وضع أوراق الصحف تحت قدميها كي تدفئهما. تحت المنصة وأثناء الاستعراض رفع بعض الطلاب الصينيين يافطات عليها شعارات تحيّي تروتسكي. بعد ذلك مشت تشينغ–لينغ لتعود إلى فندق Metropol الذي يقع بجوار الساحة، ورأت حشوداً تستمع لخطباء. هجم رجال الشرطة من أحد الشوارع، وعمدوا إلى تفرقة الحضور وألقوا القبض على الخطباء. تروتسكي ورفاقه من معارضي ستالين كانوا يحاولون التواصل مع أهل موسكو. بعد

أسبوع، صدر أمر بطرد تروتسكي من الحزب وتلاه مباشرة الأمر بنفيه داخل البلاد أولاً ثم إلى الخارج إلى أن مات مقتولاً في ١٩٤٠ في الفيلا التي كان يقيم فيها في مدينة مكسيكو على يد قاتل محترف أرسله ستالين، وقد نفذ جريمته مستخدماً فأس الجليد.

كل من كان في الصين، أو له علاقة بالثورة الصينية، صار في خطر، ما عدا بورودين الذي كان في أمان لأنه محسوب على ستالين. ومع ذلك، شعر بضرورة الابتعاد عن الصينيين، كل الصينيين، بمن في ذلك تشينغ–لينغ. الآخرون لم يكونوا محظوظين مثله. الرجل الذي عقد الاتفاق الأوليّ مع سون يات–سين قبل أربع سنوات، جوف، كان مخلصاً في ولائه لتروتسكي. أطلق على نفسه النار بعد أيام من طرد صديقه من الحزب وترك رسالة بجانب سريره موجهة إلى تروتسكي: "كنتَ دائماً على صواب في مواقفك السياسة..". وكارل رادك، عميد جامعة سون يات–سين في موسكو، التي أنشئت لتدريب الثوار الصينيين، طُرد مع تروتسكي من الحزب ونُفي إلى سيبيريا. وعميد الجامعة الجديد أجرى عملية تطهير بين الطلاب.

هذا المناخ ساهم في إخافة وإبعاد معظم الذين يقدرون على المغادرة، لكن شينغ–لينغ ليست ضعيفة، واختارت أن تعيش حياة حافلة بمخاطر جدية. لكن إن لم يكن المرء مستهدفاً بإجراءات التطهير، فإن الحياة في موسكو في الشتاء قد تكون رائعة في الواقع. لم تكن النقاشات تدور حول المال أو الوظائف، أو سائر الأمور المعادية التي تشغل بال المجتمع البرجوازي؛ كان الناشطون المتفرغون يعقدون ندوات عن كيفية تغيير العالم، وإعادة تنظيم المجتمع، وإعادة قولبة الناس كما يقولب الطين. استطاعوا خلق أمواج وصلت إلى أرجاء العالم كافة رغم أنهم كانوا يغرقون فيها. شينغ–لينغ كانت في موقع مميز سمح لها بركوب الأمواج والاستمتاع بها مع وجود خطر ضئيل نسبياً لإمكانية الغرق فيها؛ إنها السيدة سون يات–سين، أرملة "أبو الصين"، وهذا وحده يحميها من أي أذى... إذا تصرفت بحنكة. تحاشت كلياً الخوض في صراع ستالين–تروتسكي وأخفت تعاطفها مع الأخير. ناشدها الطلاب من جامعة سون يات–سين للمشاركة في لقاء معهم وإطْلاعهم على أفكارها، لكنها، بعد ندوة واحدة في الأيام الأولى لمجيئها إلى موسكو، تراجعت عن زيارة حرم الجامعة ولزمت الصمت. بهذه الطريقة، حافظت على سلامتها واستمرت في الإقامة في العاصمة الروسية ثمانية أشهر، وأحبت كثيراً الوقت الذي أمضته فيها. عندما عادت ثانية إلى موسكو كتبت لصديق لها: "العودة ممتعة. الحياة هنا ناشطة ومليئة بما يثير الاهتمام... أشعر بالأسى لأنني على وشك المغادرة".

كانت حياتها تستند إلى كونها السيدة سون، ولذلك أي إمكانية لخسارة هذا اللقب كانت ترعبها. أثناء وجودها في موسكو نشرت صحيفة *The New York Times*، وصحف غيرها، معلومات مفادها أنها تزوجت أوجين تشين الترينيدادي، وزير الخارجية السابق في الحكومة القومية: ''وفق معلومات سوفياتية رسمية سوف يمضي الزوجان شهر العسل في الصين ويعدّان لثورة جديدة... يقال أن The Red International قدّمت شيكاً بمبلغ ضخم لتمويل النشاطات السياسية للعروسين''. وأشارت الصحيفة أيضاً إلى أن زوجة أوجين السابقة كانت ''امرأة من أصول سوداء''. قد تكون المقالة قصيرة لكن كان لها ''قوة تدميرية'' على تشينغ-لينغ التي رآها أصدقاؤها في ''حالة انهيار''، فساءت حالتها الصحية ولزمت سريرها ثلاثة أسابيع. خافت أن يكون الخبر جزءاً من خطة تهدف إلى حرمانها اسم سون.

ثم جاءت الصدمة الثانية عندما تزوجت الأخت الصغرى شيانغ كاي-شيك، ما شكل صلة قرابة بين شيانغ والمرحوم زوجها. فالرجل الذي حرمها الانتصار في ثورتها يهددها الآن بانتزاع حقها الحصري باسم سون. قالت بوضوح لأصدقائها إن هذا الزواج ''كان انتهازياً من الطرفين، ولا علاقة للحب فيه''.

ومما زاد كآبتها أن ستالين لم يظهر لها اهتمامه بوجودها، فقد التقاها مرة واحدة فقط، مع أوجين تشين الذي كان منفياً إلى موسكو أيضاً. استمر الاجتماع ساعة وبضع دقائق، وخلاله كان ستالين يحدق في ما يحيط به في الغرفة ويدخن غليونه ولا يكاد يتكلم. وعندما قرر أن يتكلم، قال لها إنها يجب أن تعود إلى الصين في الحال. قدّر حجم تشينغ-لينغ واستنتج أنها لا تصلح لتكون زعيمة سياسية. رفض إعطاءها أي دعم كما أعطى زوجها من قبل. أُبلغت تشينغ-لينغ أن ''الكومينترن'' (الشيوعية العالمية)، ذراع موسكو التي وجّهت الثورات في الخارج، سوف تزودها بالتعليمات عبر ''مندوبيها في الصين''.

عقد أعضاء ''الكومينترن'' اجتماعاً خاصاً لمناقشة دور تشينغ-لينغ المستقبلي. اقتراحهم شمل نقاطاً عدة بدأت بـ''استخدام سونغ تشينغ-لينغ...''، ''الأخت الحمراء'' سوف تعمل على نشر أفكار روسيا لاستمالة القياديين البارزين في ''الحزب القومي''، والضغط على شيانغ ليتقرب أكثر من الاتحاد السوفياتي. إنها قادرة على مساعدة الشيوعيين الصينيين بأساليب متعدّدة.

فكرت تشينغ-لينغ في العودة إلى شانغهاي. هي تريد أيضاً رؤية والدتها. تركت عائلتها بطريقة قاسية، وعندما كتبت لها السيدة سونغ رسالة تطلب منها العودة إلى المنزل، تجاهلتها تشينغ-لينغ. إنها الآن مشتاقة للعودة إلى شانغهاي لتشرح لوالدتها ما جرى وتصالحها.

في الوقت الذي كانت تتساءل فيه عما عليها أن تفعل، وصلتها رسالة في شباط/ فبراير ١٩٢٨ من برلين من صديق يدعى دنغ يان–دا وهو رفيق يساري ومن القياديين القوميين والمسؤول السابق عن التعليم في "وامپووا". هو أيضاً هرب من الصين وأقام مدة في موسكو والتقى تشينغ–لينغ وتحدثا عن تشكيل حزب ثالث يكون بديلاً عن القوميين والشيوعيين. وفي رسالته، دعاها للمجيء إلى برلين لمتابعة النقاش.

هو أصغر منها سناً بقليل، طويل القامة وعريض الكتفين. يان–دا شاب يتفق كل الذين يعرفونه على أنه "متميز بأصالته وانفتاحه وسحره". لديه جاذبية آسرة. حتى ماو أعجب به، وتذكر في ما بعد أن يان–دا "كان رجلاً لطيفاً جداً، وأنا أحببته كثيراً" (لم يستخدم ماو هذه العبارات ولا هذا الأسلوب في وصف أحد آخر). كان يان–دا يشدّ الناس بتعاطفه وشفافيته واهتمامه بالآخرين، وبحيويته وحبه المرح. ولكن تحت كل هذا تظهر أحياناً "إرادته القوية وصلابته الهائلة". جمعت شخصيته الفذة كل هذه المزايا بصورة نادرة وأخّاذة حتى أن العديد من الشبان صاروا يرونه مثلهم الأعلى. كان يوصف غالباً بأنه "قائد بالفطرة".

أثار إعجاب ستالين أيضاً الذي اجتمع به ذات ليلة من الثامنة مساء حتى الثانية فجراً. وفي نهاية اللقاء، رافقه ستالين إلى بوابة الكرملين الخارجية، وهذه دلالة واضحة على التكريم والاحترام. ستالين اعتقد أيضاً أن يان–دا لديه موهبة القيادة واقترح تعيينه رئيساً لـ"الحزب الشيوعي" الصيني. اعترض يان–دا على ذلك بحجة أنه ليس منتسباً إلى الحزب، فردّ عليه ستالين بأن هذه ليست مشكلة و"الكومينترن" ستجد حلاً. لكن يان–دا لم يكن يؤمن بالشيوعية، فهي تعني له "الدمار" و"الديكتاتورية المستبدة"، وسوف "تساهم في جعل المجتمع الصيني أكثر فقراً وفوضوية". الحزب الثالث الذي يريد تشكيله يسعى إلى "النضال السلمي"، و"البناء"، و"العمل الدؤوب لتأسيس مجتمع منظم جديد". وسوف يكون أيضاً "قومياً" ولن يأخذ أوامره من موسكو، كما يحدث مع "الشيوعي" الصيني.

خاف يان–دا على حياته بسبب هذه الأفكار – إضافة إلى رفضه اقتراح ستالين – وغادر موسكو على وجه السرعة قاصداً برلين. في هذه الأثناء، اختار ستالين ماو لقيادة "الشيوعي" الصيني.

من برلين، كتب يان–دا رسائل إلى تشينغ–لينغ تعكس حماسته واندفاعه وشخصيته الحساسة: هل تستطيع "الأخت تشينغ–لينغ"، "الرفيقة العزيزة"، أن تأتي لمناقشة أمور تتعلق بتشكيل الحزب الثالث ما دام لا يستطيع العودة إلى موسكو؟ كان كل شيء بالنسبة إليه ينال تقدير "١٢٠%" ويضع علامات التعجب في نهاية معظم الجمل: "يجب أن أناقش معك هذا الأمر بالتفصيل لأنه مهم بنسبة

١٢٠%‟. ”من الطبيعي أن تكون البرامج والسياسات والشعارات والأمور التنظيمية كافة محددة ١٢٠%‟. ”أريدك أن تشعري بأنك ١٢٠% في أمان وارتياح، وأن تستخدمي إرادتك وشجاعتك لطمأنة والدتك الحبيبة!‟ ”هناك أمور كثيرة أود التحدث إليك عنها وجهاً لوجه؛ ليتني أملك جناحين كي أطير إليك في الحال!‟

وصلت تشينغ–لينغ إلى برلين بداية أيار/ مايو ١٩٢٨، وتلك كانت حقبة العشرينيات الذهبية بإبداعاتها المذهلة في الحقول كافة: الأدب وصناعة الأفلام والمسرح والموسيقا والفلسفة والهندسة والتصميم والأزياء. كان أهل المدينة ودودين، وانتبهت تشينغ–لينغ أنها تستطيع تأمين حياة مريحة بكلفة متدنية. استأجرت شقة جيدة مع أنها لم تكن واسعة. كل يوم كانت تأتي مساعدة تتولى شؤون البيت والمعاملات. تتناول الغداء عادة في مطعم صغير يقدم مجموعة أصناف من اللحم والبطاطا أو الأرز والخضار، والوجبة بمارك واحد. العشاء يُعدّ في البيت. عاشت كمواطنة عادية تحت مراقبة غير مزعجة من الحكومة الألمانية.

بعد شهر تمكن شيانغ كاي–شيك من الانتصار على حكومة بيجينغ، وإعلان إقامة نظام حكمه في نانجينغ. كان من المفروض أن يكون لهذه الأخبار تأثير مدمّر في تشينغ–لينغ، لكنها لم تكد تعكّر مزاجها، أو حتى تفسد ما كانت تنعم به من اطمئنان واستقرار. ثم تلقت صدمة ثانية كان من المحتمل أيضاً أن تدمرها عندما بدا لها أن والدتها ربما تبرأت منها. في رسالة بتاريخ حزيران/ يونيو ١٩٢٨، كتبت لأمها: ”أمي الحبيبة، كتبت لك عداً من الرسائل ولم أتلقَّ منك جواباً. هذه أيضاً رسالة كُتب عليها ’معادة‘...‟.

على الغلاف اسم المرسل إليها ”السيدة كونغ‟ وعليه ختم البريد في كل من برلين وشانغهاي، والرسالة أعيدت من شانغهاي في تموز/ يوليو، دون أن تفتح. كانت السيدة سونغ مستاءة جداً من التزام ابنتها المفضلة – بالشيوعية وقرارها أن تعيش في المنفى الأحمر – ولم تعد ترغب في التواصل معها. خلال حزنها صارت إي–لينغ وماي–لينغ أقرب إليها من أي وقت، والأخت الكبرى صارت محور العائلة.

رغم صدّ عائلتها لها، حافظت تشينغ–لينغ على هدوئها واستقرارها. قالت في ما بعد إنه لم يسبق لها أن شعرت أنها بالفعل في موطنها كما شعرت في برلين في هذه المرحلة؛ بالفعل كانت مرتاحة هنا أكثر من شانغهاي.

وجود دان–يان معها هو الذي أمدّها دون شك براحة البال والسعادة والشجاعة. كانا يلتقيان في برلين كل يوم، ويتحدثان لساعات ويتمشيان مسافات طويلة. كان أستاذها في التاريخ والاقتصاد

والفلسفة، إلى جانب اللغة الصينية. وكانت طالبة مجتهدة تحفزها ثقافة يان–دا وشخصيته.

كانا في الثلاثينات، وهما بطبعهما مندفعان، ويمضيان وقتاً طويلاً وحدهما، ويخططان لمستقبل بلادهما معاً، وكان الواحد منهما مولعاً بالآخر؛ هنا تكمن المكونات كافة لنمو الحب وتجذّره. شينغ–لينغ أرملة، ويان–دا متورط في زواج تقليدي مدبّر وتعيس، ويفعل ما في وسعه من أجل إنهائه. قال في رسالة لصديق له من برلين أواخر ١٩٢٨، إنه رغم اهتمامه بزوجته، فهو منفصل عنها منذ سنوات، وحافظ على الزواج بها لخوفه فقط من أنها قد تنتحر إذا تركها؛ ”أنا مقتنع بأن النساء الصينيات – هي منهنّ بالطبع – يعيشنَ داخل سجون ويحتملنَ آلاماً لا يستطيع غيرهنّ احتمالها. يجب علينا أن نحرّرهن ونساعدهنّ... لذلك أرفض أن يعمد ’الرجل الأنيق‘ إلى ترك زوجته كي يتزوج ’امرأة أنيقة‘. ولهذا احتملت سنوات من اللّاحياة“. بعد كثير من المعاناة، قرر الكتابة لزوجته ليبلّغها بنهاية علاقتهما. حزنت لكنها لم تنتحر، واحتفظ كل منهما بمشاعر المودة نحو الآخر.

أسلوب يان–دا في معاملة زوجته كان غير مألوف، وهو عكس سلوك سون يات–سين. أراد أن يكسب حب تشينغ–لينغ وهذا طبيعي جداً. ومع ذلك لم تستمر علاقتهما لأنها يجب أن تبقى السيدة سون. إذا كانت هي أو يان–دا (الذي وصفها بأنها ”رمز الثورة الصينية“) يسعيان إلى خوض غمار العمل السياسي، عليها أن تحتفظ باسمها. وفي الخط السياسي الذي تريده لقبها له أهمية قصوى وحاسمة.

انتشرت شائعات عن أنهما عاشقان بسرعة، ولذلك قرّرا كما يبدو الابتعاد عن بعضيهما. تشينغ–لينغ غادرت برلين في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٨ ولم تعد حتى تشرين الأول/ أكتوبر التالي. ذهبت إلى موسكو، ثم إلى الصين لتحضر مراسم دفن جثمان سون يات–سين في حزيران/ يونيو ١٩٢٩. صار الضريح الضخم الذي أقيم لسون في نانجينغ جاهزاً ونُقل جثمانه إلى هناك في جنازة مهيبة. قبل عودتها إلى برلين غادر يان–دا المدينة إلى باريس ولندن، ومن هناك تابع معها نقاشهما حول تشكيل الحزب الثالث بالمراسلة. في النهاية، تخلت تشينغ–لينغ عن لعب دور في الحزب الثالث لأن موسكو تدينه. لكنها رفضت أيضاً أوامر موسكو لشجبه.

في ١٩٣٠، عاد يان–دا سرّاً إلى الصين لتأسيس الحزب الثالث. قبل الانطلاق في رحلة العودة قصد برلين ليودّع شينغ–لينغ. قال لها إن هذه الأيام القليلة قد تكون آخر أيام يمضيانها معاً، ورغم المخاطر التي يواجهها واحتمال الموت المحدّق به عاش معها وقتاً رائعاً. يبدو أنهما قصدا السينما لمشاهدة فيلم The Blue Angel [الملاك الأزرق] الذي يحكي قصة حب تراجيدية كوميدية من بطولة مارلين ديتريتش التي تغني فيه أغنيتها الشهيرة Falling in Love Again [الوقوع في

الحبّ مرة أخرى]. بعد مرور أكثر من عقدين، طلبت الأخت الحمراء من صديقتها الألمانية آنا وانغ أن تشتري لها الأسطوانة لأنها تعني الكثير بالنسبة إليها.

شيانغ كاي–شيك هو الذي أعدّ ونظم مراسم دفن سون يات–سين في ١٩٢٩. أراد أن تكون المناسبة استعراضاً لأمجاد القائد الأعلى، وحضور تشينغ–لينغ لم يكن سوى إضافة. شعرت "الأخت الحمراء" أنها مستغلّة، فقاطعت عدداً من اللقاءات الرسمية، لكن غيابها قوبل باللامبالاة. وفيما كان شيانغ يمضي قدماً وبفعالية في تحويل نفسه إلى وريث سون، كانت تعيش في عزلة فعلية في منزلها في شانغهاي في منطقة الامتياز الفرنسي.

المصالحة التي تمنتها مع والدتها لم تحدث. بعد سنتين من الانقطاع، أحست أنها مُبعدة أكثر من أي وقت مضى. عائلتها اليوم صارت في صلب نظام شيانغ. زوج إي–لينغ هـ. هـ. كونغ كان وزير الصناعة والتجارة، و ت. ڤ. وزير المالية. ويُشار إلى السيدة سونغ بأنها "حَماةُ الوطن" (عند وفاتها في ١٩٣١، وُضع علم القوميين على نعشها، وشملت المراسم الجنائزية عرضاً عسكرياً ضخماً). لقاءات تشينغ–لينغ بأفراد عائلتها كانت محدودة. شرطي المنطقة الفرنسية، المكلف مراقبتها، سجّل زيارات معدودة من والدتها وأختيها.

تشينغ–لينغ المحبطة والغاضبة تمنت أن تردّ بعنف. في هذه المدة، غزت روسيا السوفياتية منشوريا في إطار خلاف حول السكة الحديدية الشرقية الصينية التي بناها الروسي. وفيما كانت حماسة القوميين تزداد ارتفاعاً، عمدت تشينغ–لينغ إلى تكرار كلام موسكو وألقت اللوم على عاتق حكومة شيانغ محملة إياها مسؤولية الهجوم. في الأول من آب/ أغسطس ١٩٢٩، نشرت منظمة تابعة لـ"الكومينترن" في برلين مقالة لها تهاجم فيها شيانغ بلهجة قاسية غير مسبوقة: "لم يسبق للطبيعة الخائنة لقادة "الكيومنتاغ" (القوميين) المعادين للثورة الظهور بهذا الأسلوب السافر"؛ لقد "انحدروا ليصبحوا أدوات إمبريالية ويحاولوا افتعال حرب مع روسيا". لم تشأ أي صحيفة صينية نشرها. لم تكن تجرؤ على ذلك لكنها طُبعت على أوراق صغيرة وأُلقيت من على أسطح المباني المرتفعة وسط شانغهاي.

شيانغ كاي–شيك ثار ساخطاً ولجأ في خطوة غير مألوفة إلى كتابة ردّ قاسٍ. أراد قطع العلاقة كلياً مع "الأخت الحمراء"، لكن إي–لينغ نصحته بالتحفظ بناءً على معطيات سياسية وشخصية في الوقت نفسه. شيانغ أخذ بنصيحتها ولم يرسل الرسالة (لكنه احتفظ بها في برواز).

موقع "الأخت الحمراء" السياسي معروف لدى الجميع. والآن حين أعلنت الاصطفاف العلني إلى جانب روسيا ضد بلادها لم تعد موضع ترحيب الناس. أحست بالضغط وقالت لإحدى صديقاتها إنها

تتمنى العيش في بلد لا يوجد فيه صينيون، فتوحّد أفراد عائلتها في انتقادها. ودفعها الضغط العاطفي إلى العودة إلى برلين في تشرين الأول/ أكتوبر.

إقامتها في برلين هذه المرة كانت مختلفة للغاية عن إقامتها السابقة. لم يكن يان–دا هناك لمواساتها والتعاطف معها، وقد أمضيا معاً أياماً قليلة رائعة قبل أن يودّعها. شيوعيّو ألمانيا اعتنوا بها، وأرسلوا إليها ربة منزل وعرّفوها إلى أشخاص مثقفين بارزين بينهم الكاتب المسرحي برتولد بريخت. لكن حقبة العشرينيات الذهبية ولّت. ارتفع معدل البطالة بحدّة، والمتسولون كانوا يقرعون باب بيتها ست مرات أو سبعاً في اليوم؛ وازدادت السرقات. الممثلون المتعطّلون عن العمل يجوبون الشوارع، وعازفو الكمان يعزفون خارج المقاهي في البرد والصّقيع من أجل بضع قطع من Reichspfennig [24]. ومثل رفاقها الألمان كانت تتوجس خيفة من توسّع نفوذ النازيين الذي بات "حتمياً في القريب العاجل". في هذه الأجواء، ازداد التزامها بالشيوعية قوة.

24 عملة ألمانية قديمة. (م.)

في نيسان/ أبريل، وصلتها برقية من عائلتها تقول إن والدتها مريضة جداً. كانت لا تزال ساخطة على الجميع ولم تعد إلى الصين. لن تلتقي والدتها مرة أخرى. في تموز/ يوليو، توفّيت السيدة سونغ. لم تتلقَّ أي رسالة من أختيها، ومن الواضح أنهما كانتا غاضبتين من رفضها الرجوع لزيارة والدتها وهي على فراش الموت. زوج إي–لينغ أرسل إليها برقية، وبعد أيام قليلة أرسل ت. ڤ. برقية يقول فيها: "أرجوك أن تعودي إلى المنزل في الحال". السيدة سونغ سوف تُدفن في شانغهاي في مأتم شعبي، ولا يجوز ألّا تحضر جنازة والدتها. تشينغ–لينغ انطلقت في رحلة العودة يرافقها مساعد صيني كان شيوعياً متخفياً. محطتها الأولى كانت في موسكو حيث أمضت يوماً واحداً عقدت فيه اجتماعاً سرياً مع قياديين سوفيات. عندما وصل القطار إلى الأراضي الصينية استقبلت بحفاوة وانتقلت إلى قطار خاص. موظف في الحكومة، وهو قريب لها، أتى إلى الحدود لمرافقتها في رحلتها إلى الجنوب. أخبرها عن مرض والدتها ووفاتها. أدركت أنها وصلت متأخرة جداً، وبكت طوال الليل. حين رأت المنزل الذي ماتت فيه والدتها أخذت تنتحب بلا توقف. وواصلت البكاء في الجنازة.

لكن إحساسها بأن والدتها كانت غير راضية عنها دفع "الأخت الحمراء" إلى الاستقرار في شانغهاي، والتخلي عن منفاها الطوعي في أوروبا للعيش في منفى اختارته في مدينة في وطنها.

قبل يوم من جنازة والدتها، اعتقلت السلطة الحاكمة يان–دا الذي كان ينشئ سرّاً الحزب الثالث في الصين، فلم يتسنّ له لقاء تشينغ–لينغ. بين أعداء شيانغ، الذي كان فو ابن سون يات–سين واحداً منهم، كان يان–دا الأكثر خطورة لدى القائد الأعلى. ليس فقط لما يتحلّى به من جاذبية ومواصفات قيادية، بل لأن لديه برنامجاً سياسياً متماسكاً فكرياً أيضاً، وهذا ما كان شيانغ يفتقده. تنقّل بين أوروبا وآسيا ليدرس أحوال بلاد مختلفة وأنظمة الحكم فيها، ووضع برنامجاً سياسياً تفصيلياً يتمحور حول تحسين ظروف حياة الفلاحين. أكثر ما أثار قلق شيانغ كان تأثير يان–دا في العسكر، لأن مجموعات بينهم كانت معجبة به. أصدر شيانغ أوامره بإعدام يان–دا سراً في نانجينغ في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣١.

لكن الخبر تسرّب. تمنت تشينغ–لينغ رغم خوفها أن يكون الخبر مجرد شائعة، فذهبت للقاء شيانغ في نانجينغ لتطلب منه إطلاق سراح يان–دا. إنها المرة الأولى التي تطلب فيها شيئاً من صهرها وجهاً لوجه. كانت ودودة ولطيفة إلى أقصى درجة ممكنة، وقالت له: ”أتيت للتوسط في حلّ خلافاتك مع دينغ يان–دا. أحضره إلى هنا وسوف نناقش الإشكالات كافة“. ظلّ صامتاً لوقت قبل أن يقول متمتماً، ”لم يعد الأمر مجدياً...“. انتفضت تشينغ–لينغ وهي تصرخ: ”أيها السفّاح!“ غادر القائد الأعلى الغرفة مسرعاً. غادرت تشينغ–لينغ إلى شانغهاي وقد سيطر عليها اليأس. كتبت مقالة هاجمت فيها ”القومي“، وللمرة الأولى دعت علانية ”لإسقاطه“. وللمرة الأولى أيضاً، أشارت بصراحة إلى أنها قد تغير ولاءها إلى الشيوعيين. المقالة لاقت اهتماماً كبيراً. نُشرت على صفحتين في *The New York Times*، والتعليق تحت صورتها الكئيبة جاء: ”أنا أتحدث باسم الصين الثورية“. نشرت bao–Shen، إحدى الصحف العريقة في شانغهاي، الترجمة الصينية للمقالة. وبسبب هذه المقالة وغيرها من الأعمال التي تحدّى بها القائد الأعلى، اغتيل شي ليانغ–كاي، المدير التنفيذي للصحيفة.

عقب إعدام يان–دا اتصلت تشينغ–لينغ بمندوب ”الكومينترن“ السري في شانغهاي وأبلغته أنها تريد الانتساب إلى ”الشيوعي“. إنها في الأساس تعمل من أجل الشيوعيين، و”الكومينترن“ تستخدمها وفق الخطة المرسومة، ولذلك لا داعي أن تصبح من أفراد الحزب. في حال انضمامها سوف تلتزم أوامر التنظيم الشيوعي وتوجيهاته وتعرّض نفسها لمخاطر شخصية جدية، في مواجهة شيانغ أولاً وفي ما يخصّ الصراعات الحزبية الداخلية ثانياً، وهذا ما شهدته مباشرة.

لكن ”الأخت الحمراء“ كانت مصرّة على رأيها. كل ما تريده هو الانتقام من شيانغ. قالت لمندوب ”الكومينترن“ إنها ”مستعدة للتضحية بكل شيء“، وإنها ”تدرك تماماً“ مخاطر العمل السري في

شانغهاي. تردّد المندوب، ولم تتراجع في إلحاحها. في النهاية، حصلت على مبتغاها. بعد ذلك، أدركت هيئة ''الكومينترن'' أنها ارتكبت ''خطأ كبيراً'': ''عندما تصبح من أعضاء الحزب، ستفقد قيمتها المميزة''، ولذلك عدّت انتسابها سرياً.

كان هذا السرّ من أكثر الأسرار التي حُفظت في تاريخ الصين الحديث، وكَشفه في الثمانينيات، بعد وفاتها، لياو تشينغ–زي، ابن لياو زونغ كاي، مساعد سون المخلص الذي مات اغتيالاً. لياو الابن كان شيوعياً يعمل في السر بدوره، وهو يذكر أن تشينغ–لينغ أتت إلى منزله في أحد أيام أيار/ مايو ١٩٣٣. ابتكرت ذريعة ما لإخراج والدته التي كانت صديقتها الحميمة على وجه السرعة من الغرفة، لتتحدث إليه وحده. بدأت كلامها بالقول: ''أنا هنا من قبل الهيئة العليا''. ردّ عليها بدهشة: ''الهيئة العليا؟'' قالت موضحة: ''الكومينترن''. كاد يصرخ لشدة دهشته. قالت له: ''اهدأ. أريد أن أطرح عليك سؤالين: الأول، هل تستطيع شبكتنا السرية متابعة نشاطها في شانغهاي؟ والثاني، أريد لائحة بأسماء الخونة الذين تعرفهم''. أخبرته أن لديه عشر دقائق ليكتب الأسماء، وتناولت سيجارة من حقيبتها وأشعلتها، ثم نهضت وتوجهت إلى غرفة والدته. بعد عشر دقائق عادت ليسلمها لياو اللائحة. فتحت حقيبتها ثانية وتناولت سيجارة أخرى، وأزالت بعض التبغ منها ولفّت اللائحة على شكل ماسورة دقيقة وأدخلتها في السيجارة. ثم غادرت. كتب لياو في مذكراته: ''رغم مرور أكثر من خمسين عاماً، فإنني لا أزال أتذكر بالتفصيل كل دقيقة في هذا اللقاء القصير الذي دام أقل من نصف ساعة''. تشينغ–لينغ خضعت لدورة تدريبية لتكون عميلة سرية.

في السنوات التالية، سوف تكون ''الأخت الحمراء'' من أبرز المعارضين الذين تحدّوا علانية نظام شيانغ، في أقرب موقع منه، في شانغهاي. قدمت كل المساعدة التي طلبها الشيوعيون الصينيون: تحويل مبالغ ضخمة إلى ''الشيوعي''، أو اختيار المرافقين المناسبين لمواكبة المبعوثين إلى موسكو. عند انقطاع شبكة اللاسلكي مع موسكو، كانت ترسل البرقيات من جهازها اللاسلكي السري الخاص. وإحدى الخدمات الخاصة التي قدمتها كانت إفساح المجال للصحافي الأميركي إدغار سنو ليجري مقابلة مع ماو ورفاقه على الأرض الحمراء. نتج عن ذلك إصدار الكتاب الأكثر رواجاً ونال شهرة عالمية *Red Star Over China* [نجمة حمراء في سماء الصين]، الذي قدم ماو إلى الغرب على أنه رجل جدير بالتقدير وقريب من القلب.

تشينغ–لينغ أنشأت منظمة لتكون واجهة لـ''الكومينترن'' في شانغهاي: ''الجمعية الصينية للحقوق المدنية''. وضمت الجمعية فريقاً من الراديكاليين الذين يتوافقون معها فكرياً. وهم من الأجانب والصينيين الذين كانوا أصدقاء لها في منفاها. عقدت معهم اجتماعات مطوّلة في غرفة الجلوس في

منزلها وشاركت معهم في نقاشات جدية حول مائدة العشاء. الناشطون الشبان كانوا مولعين بها. أحدهم، هارولد إيزاكس، كتب عن تجربته معها بعد سنوات:

> أذهلتني هذه السيدة العظيمة والجميلة، ومن يستطيع منع نفسه من الإعجاب بها، هكذا بدت لي آنذاك ولا تزال تبدو لي في هذه الصورة الآن... كنت في العشرين... وفي غاية الحماسة، وهي كانت في الأربعين تقريباً ولها حضور مؤثر للغاية امرأةً وإنساناً. من أجل جمالها وشجاعتها وتبنيها كملكة لقضية محقة، أحببتها كفارس شاب صادق في أحاسيسه. وهي في المقابل أغدقت عليّ بمشاعرها اللائقة والدافئة في الوقت نفسه. ومهما بدت هذه الصورة، فإن هذا ما حدث.

كانت شوكة في خاصرة شيانغ. مجموعة من جهاز المخابرات التابع لشيانغ أطلقت النار على مقر عملها لإخافتها وإسكاتها. صديق حميم لها يدعى زانغ زنغ–فو، وهو المدير التنفيذي في "جمعية الحقوق المدنية"، أرداه الرصاص مع سائق سيارة بجوار منزلها، ونجا ابنه يانغ وهو في الخامسة عشرة من الموت بأعجوبة. كذلك أعدت خطة لها لتموت في "حادثة سير" وبُحث في التفاصيل كافة كما أُخضع المعنيون بالتنفيذ لتدريب عملي. لكن القائد الأعلى رفض الأمر بالمطلق. فوق كل الاعتبارات هو يعطي أهمية كبرى لرد فعل زوجته، وكذلك الأخت الكبرى. مع كل شيء، لا تزال تربط ماي–لينغ علاقة عميقة بأختها وهي ملتزمة بشراسة بعائلة سونغ في الوقت نفسه. تشينغ–لينغ أخذتها إلى أميركا وهي في التاسعة، وتحتفظ بذكريات كثيرة عذبة عن حبها ورعايتها لها. الأخت الصغرى اشتاقت لطبق أرز ذات مرة، وتشينغ–لينغ اكتشفت طريقة لتعدّه لها في غرفتها. وضعت الأرز في قارورة ملأتها بالمياه التي تغلي، وتركته ينضج ببطء طوال الليل، وتناولته الأختان في اليوم التالي. لن تسمح ماي–لينغ تحت أي ظروف بإلحاق الأذى بأختها، مهما وصلت درجة استيائها منها. والسيدة الأولى كانت تحترم جرأة "الأخت الحمراء" و"وقوفها وحدها" في مواجهة العالم.

كما أن ماي–لينغ تعاطفت مع كراهية أختها لشيانغ لأنه قتل دينغ يان–دا، ولأنها تعرف مدى تعلّق تشينغ–لينغ به، خصوصاً أنها تعرف أن شيانغ سمح بتعذيب يان–دا بطريقة وحشية قبل إعدامه بالرصاص. القائد الأعلى أكّد لزوجته أنه لم يتعرّض للتعذيب وماي–لينغ صدقته. لكنها لم تستطع إقناع أختها التي ترفض رفضاً قاطعاً أن تثق بشيانغ. ماي–لينغ أرادت أن يعرف العالم أن زوجها ليس جلاداً. وقبل وفاتها بوقت قدمت تصريحاً بأن شيانغ لم يأمر بتعذيب يان–دا قبل إعدامه.

بفضل حماية ماي–لينغ – والأخت الكبرى –، عاشت تشينغ في منفاها الداخلي الطوعي ولم تصب بأذى.

١٢

فريق الزوج والزوجة

الاجتياح الياباني في أيلول/ سبتمبر ١٩٣١ أتى بعدو خارجي لشيانغ كاي–شيك وقدم إليه الفرصة كي يكسر طوق عزلته السياسية. دعا لترسيخ الوحدة الوطنية وفتح المجال لمنافسيه للانضمام إلى الحكومة (لكن هذا العرض لم يشمل الشيوعيين الذين يراهم "لصوصاً"). البعض استجاب لدعوته لكن بشرط أن يقدم استقالته من منصب الرئاسة. شيانغ استقال لكن ليس قبل تأكده من اختيار اثنين ضعيفين لمنصبي الرئاسة ورئاسة مجلس الوزراء. والأخير كان ابن سون يات–سين، فو، الذي يفتقد شراسة والده الفطرية. شيانغ سوف يستعيد هذين المنصبين لاحقاً. في هذه المرحلة، كان يتخذ القرارات المهمة بوصفه القائد العسكري، والقائد الأعلى.

شيانغ خفّف تدابير القمع واستمال عدداً من الذين كانوا ينتقدونه. دعا الزعيم الليبرالي هيو شيه أن يتولى منصب وزير التعليم. ومع أنه رفض لكن موقفه تجاه شيانغ تحسّن نحو الأفضل. لاحظ أن القائد الأعلى صار "على نحو ملحوظ أكثر تسامحاً مع المعارضين من قبل". وهنا تمكن رؤية مدى تأثير ماي–لينغ والأخت الكبرى.

"الأخت الحمراء" تشينغ–لينغ ساعدت من دون أن تقصد في دفع هيو إلى حضن شيانغ. انضم هيو إلى جمعيتها للحقوق المدنية لأنه مقتنع بهدفها المزعوم للنضال من أجل حرية الفكر وحقوق الناس. ذات يوم في ١٩٣٣، طلبت منه الجمعية زيارة أحد السجون، وكُتبت بعدها رسالة تحمل اسمه يتهم فيها الحكومة باستخدام أساليب تعذيب وحشية. هيو شيه خاف كثيراً. لم يجد في السجن أي أدلة على التعذيب، ولم يكتب الرسالة. أرسل إلى شينغ–لينغ يطالبها بتعديل ما ورد، وأجرى مقابلات صريحة مع الصحافة. تشينغ–لينغ استنكرت ما فعله وطردته من الجمعية. أدرك هيو شيه أن الجمعية غطاء للشيوعيين الذين حاولوا استغلاله. بدأ يفكر أن شيانغ هو الزعيم الوحيد المقبول بالإضافة إلى أن القوميين قادرون على الانتقال من الديكتاتورية إلى الديموقراطية. تراجعت حدّة انتقاداته لشيانغ على نحو ملحوظ.

لكن بعض المقاومين بعناد استمروا في التآمر ضد القائد الأعلى. في ١٩٣٣، أُعلن تشكيل حكومة انفصالية أخرى في إقليم فوجيان الساحلي. شيانغ انتصر عليها، كما شنّ ''حملات إبادة'' ضد ''الشيوعيين اللصوص'' الذين فرضوا سيطرتهم على مساحات شاسعة من الأرض الغنية في جنوب شرق الصين، وتمكن من طردهم في ١٩٣٤.

عاشت ماي–لينغ في اكتئاب حاد بعد وفاة أمها في ١٩٣١. كان زوجها عازماً على انتشالها منه، وطلب بناء هوية خاصة بها في ١٩٣٢. لم تكن هدية اعتيادية. كانت جزءاً من جبل يبدو من الطائرة على صورة عُقد. الحجر الكريم الذي يتدلى من القلادة هو في الواقع فيلا جميلة سطحها مكسوّ بالآجر المطليّ بالأخضر الزمردي المصقول، ومبنية وسط جبل الذهب الأرجواني. وسلاسل ''العقد'' كناية عن صفوف طويلة من أشجار الدّلب الفرنسية التي تزيّن الطريق من الفيلا إلى البوابة الرئيسية. لون أوراقها مختلف عن أوراق أشجار الغابة المحيطة بالمكان، وفي الخريف، يصير الاختلاف رائعاً خصوصاً عندما تعكس ظلاً من الأحمر المائل إلى الاصفرار. أجرت ماي–لينغ نزهة في طائرة خاصة واستطاعت مشاهدة هديتها الساحرة من الجوّ، ورأت آجر السطح الأخضر الذي يتألّق ويتلألأ كزمردة عملاقة.

جزء كبير من جبل الذهب الأرجواني، موضع فخر نانجينغ، صار ضريحاً لسون يات–سين. شيانغ طلب تشييد الفيلا لتكون مقراً لرئيس الحكومة القومية، عندما كان رئيساً. بعدما تخلّى عن منصبه لم ينتقل المنزل إلى الرئيس التالي، بل احتفظ به القائد الأعلى. عندما قدّمه إلى ماي–لينغ، كان مزيناً بالعشرات من طائر الفقاء، الرمز المناسب لإمبراطورة، وصار معروفاً باسم ''قصر ماي–لينغ''.

من أجل هذا ''العقد''، تمنى شيانغ أن تقيم زوجته مدة أطول معه في نانجينغ. لكن ماي–لينغ كانت متريثة في الحضور، مفضلة البقاء في شانغهاي. العاصمة بالنسبة إليها ''ليست سوى قرية صغيرة فيها شارع واحد عريض''، وبيوتها بدائية وغير مريحة. وشيانغ مضطر إلى الوجود فيها، لكنه يشتاق إليها. قال إنه لا يشعر ''بالطمأنينة'' عندما يستيقظ في الليل إلّا عندما يراها نائمة إلى جانبه.

مع بداية الثلاثينيات صارت ماي–لينغ تمضي المزيد من الوقت مع زوجها. عندما طرد شيانغ الحمر من أرضهم في جنوب شرق الصين في ١٩٣٤، زارت برفقته بعض المواقع التي أُخليت أخيراً. استمر احتلال الحمر سنوات عدة، وبسببهم وبسبب معاركهم ضد جيش شيانغ، صارت الأرض قاحلة. كتبت عن هذه الفترة: ''آلاف 'اللّي' (Li) من حقول الأرز الخصبة أُهملت وصارت خراباً. مئات الآلاف من العائلات تشردت''. في القرى بيوت فارغة ''مشرّعة أبوابها. وفي الداخل

قطع الأثاث المحطم مرمية في كل الأرجاء. الجدران ملطخة بالسواد من محاولات مستعجلة لتحطيمها... كل ما لا يمكن حمله حطموه وخرّبوه. الدمار والموت يهيمنان بصمت مخيف على القرية الصغيرة بكاملها". وهي تمشي لمست بإصبع رجلها جمجمة بشرية. وحين كانت تمرّ بجوار المعبد الصغير رأت شاباً مستلقياً في الظل، عيناه مفتوحتان ويبدو مريضاً وهزيلاً. طلبت من أحد حراسها أن يفحصه لمعرفة كيفية مساعدته. عاد الحارس بعد قليل وقال: "إنه ميت!" في نومها، "كانت مشاهد المزارع المهجورة والقرى المنهوبة التي رأتها خلال اليوم تطاردها"، وهناك المزيد من المشاهد المرعبة. في أحد الأيام، حاصر جيش شيانغ وحدة من "الجيش الأحمر" التي تلقت أوامر بالبقاء لتشارك في حرب عصابات. "أراد الجنود الحمر الاستسلام ولإثبات أنهم صادقون قتلوا قائدهم وفصلوا رأسه عن جسده وحملوه إلى شيانغ".

كانت ماي–لينغ في مرات عدة قريبة من الموت. ذات مرة في منتصف الليل، في موقع قيادة شيانغ في نانشانغ – عاصمة إقليم جيانغزي، التي كانت مركز الولاية الحمراء – أيقظتها طلقات نارية من ناحية جدار المدينة. العصابات الشيوعية كانت تشنّ هجوماً مباغتاً. ارتدت ملابسها بسرعة وبدأت إعداد "بعض الأوراق التي لا يجوز أن تقع في أيدي العدو. وضعتها على مقربة مني كي نحرقها إذا اضطررنا إلى المغادرة. ثم حملتُ مسدسي وجلست أنتظر ما قد يحدث. سمعت زوجي يعطي أوامره لكل الحراس الموجودين بتطويق المكان كي يغطّوا خروجنا بإطلاق النار إذا كان الشيوعيون يحاصروننا بالفعل". لم تكن خائفة. "كنت أفكر في أمرين فقط: الأوراق التي تحتوي على معلومات عن تحركات قواتنا ومواقعها، وبأنني سوف أطلق على نفسي النار كي لا يأخذوني أسيرة". لكن جنود شيانغ نجحوا في ردّ الهجوم، "وعدنا إلى النوم".

استرجعت الأخت الصغرى حيويتها. كانت مشتاقة إلى مساعدة زوجها، وصارت تفكر في ما ستفعله. كانت دائماً تلجأ إلى والدتها لترشدها؛ الأخت الكبرى إي–لينغ صارت الآن تتولى هذا الدور بعد وفاة الأم. منذ سنوات وإي–لينغ تحاول إقناعها بأن تصبح أكثر تديناً، لدرجة أنها كانت تدفع الأخت الصغرى إلى التوتر أحياناً. والآن قررت إحياء اللقاء الأسبوعي للصلاة الذي كانت والدتها تواظب عليه، في منزل العائلة القديم، وشجعت ماي–لينغ على الانضمام إلى المجموعة كي تعبّر عن حزنها على والدتها. كان تأثير ذلك اللقاء عجائبياً في ماي–لينغ التي كتبت لتصف حالتها: "عدت إلى إله أمي. كنت أعرف أن هناك قوة أعظم مني، وأن الله موجود. لكن أمي لم تعد موجودة لتشفع لي. يبدو أن عليّ تقديم المساعدة الروحية إلى القائد". "قررتُ أن أحاول من كل قلبي وروحي وعقلي تنفيذ مشيئة الله"، وتوجهت إلى الله مؤمنة بأن "الله سوف يهديني لمعرفة مشيئته". أحسّت

بعد مدة أن الله استجاب لدعائها؛ ''الله أعطاني عملاً لأفعله من أجل الصين''. هذا العمل كان دعم حركة الحياة الجديدة.

خطرت لزوجها هذه الفكرة وهو يزور الإقليم الذي كان تحت السلطة الحمراء. هنا سادت الأيديولوجية الشيوعية، خاصة مفهوم الصراع الطبقي، وهو أحسّ بنفور من هذه الأيديولوجية أثناء وجوده في موسكو منذ عقد. يقولون للفقير إن من حقه أن يسرق الغني، ويحثون الموظفين على خيانة أو قتل أصحاب العمل، ويشجعون الأطفال على الخروج عن طاعة آبائهم. بالنسبة إلى شيانغ ''هذا يدمّر كل المبادئ الأساسية'' التي تتمسك بها الأخلاق الصينية التقليدية. أخذ على عاتقه إعادة إحياء المبادئ الأخلاقية في الصين القديمة، التي كانت تتمحور حول الوفاء والشرف. أعلن القائد الأعلى إنشاء حركة ''الحياة الجديدة'' في ربيع ١٩٣٤ في نانشانغ.

ماي–لينغ واكبت المشروع بحماسة، مع أن معنى الحركة يختلف بالنسبة إليها. خلال رحلاتها برفقة زوجها إلى المنطقة المركزية، رأت الصين الحقيقية لأول مرة في حياتها. مثل أي زائر غربي يبتعد عن ''البرافانات'' المزخرفة في شانغهاي، وجدت المكان قذراً ونتناً وكارثياً ومستفزاً. رجال يتجولون أنصاف عراة. أولاد وحتى كبار يبولون عند زوايا الشوارع. بالنسبة إليها وإلى العديد من الغرباء، تبدو الصين ''قديمة ووسخة ومنفّرة''. وجدت ماي–لينغ نفسها ''أكثر اضطراباً وأنا أجتاز الشوارع المكتظة والوسخة وسط المدينة مما أعانيه وأنا أواجه مخاطر السفر بالطائرة في الضباب الكثيف''. صارت تتوق إلى تغيير بلادها وتطويرها لتصبح مكاناً يملؤها اعتزازاً وفخراً. بالنسبة إلى الأخت الصغرى، اعتياد الناس التقيد بالسلوك اللائق هو في صلب أهداف ''الحياة الجديدة''.

الزوج والزوجة وحّدا جهودهما واتفقا على أن ''الحركة يجب أن تبدأ من الأمور البسيطة وتتدرج إلى المشكلات المعقّدة، وتتقدم مما هو عملي لتصل إلى المثالي''. في البداية، حاولا توجيه الناس إلى السلوك الصحيح. وماي–لينغ أكدت أن ''الرجل إذا كان مهملاً وقذراً ولا يعتني بمظهره وحركته... سوف يكون كذلك في تفكيره أيضاً''.

هكذا، من الدمار والخراب في الأرض التي كانت تحت الراية الحمراء، والتي شهدت الكثير من الرعب والقتل، أخبر القائد الأعلى الصينيين أن مستقبلاً أفضل يمثل أمامهم في نصائح مثل: ''لا تحدثوا أصواتاً وأنتم تأكلون أو تشربون''، ''لا تضحكوا أو تصرخوا بصوت عالٍ في المطاعم وبيوت الشاي''، ''حافظوا على استقامة الظهر في المشي والجلوس''، ''لا تبصقوا''. مُنع الحمّالون من التجول أنصاف عراة. وكان على الجميع أن يزرّروا قمصانهم. وطُلب من المشاة ''أن يمشوا

فقط على الجانب الأيسر من الشارع" (علّق بعض الذين يحبون المزاح على ذلك بالتساؤل: "ألن تكون الجهة اليمنى من الشارع فارغة عندئذٍ؟").

صارت "الحياة الجديدة" المشروع المفضّل لدى عائلة شيانغ وأهم بند في السياسة الداخلية للنظام. تم الترويج لها على أنها علاج لكل العلل وضمانة لمستقبل مجيد للبلاد. كان من الواضح أن هذا الوعد العظيم ليس صحيحاً، مع أنه لا أحد ينكر أن الذوق السليم والترتيب واللياقة أمور أساسية لبناء المجتمع المتحضر. كتب هيو شيه الزعيم الليبرالي تعليقاً على منشور حكومي ينصّ على أربعة وخمسين قانوناً واثنتين وأربعين من قواعد النظافة، يقول فيه إن معظم ما ورد هو "وصف لطريقة العيش المنطقية والسليمة التي يعيشها الإنسان المتحضّر؛ لا يقترح المنشور أي دواء يشفي البلاد وينقذها، ولن يشكل بالتأكيد أي علاج عجائبي لإحياء الأمة". وأشار إلى أن معظم العادات السيئة هي "من نتائج الفقر. معدل مستوى العيش متدنٍ جداً ولا يسمح بتطبيق معايير السلوك اللائق". وتابع متسائلاً: "عندما يبحث الأطفال في مستوعبات القمامة عن فحمة لا تزال صالحة لتشتعل أو قطعة قماش وسخة، كيف يمكن اتهامهم باللصوصية إذا وضعوا في جيوبهم غرضاً ضائعاً عثروا عليه؟" (من قوانين "الحياة الجديدة" كان "إعادة الأغراض المفقودة التي تعثر عليها"). "أول مسؤولية تقع على عاتق الحكومة هي توفير سُبُل العيش الكريم للناس العاديين... أما تعليمهم كيف يعيشون ما يسمونه الحياة الجديدة، فهذا يأتي أسفل قائمة الأولويات".

منظومة الدعاية التابعة لشيانغ تمكنت من إخفاء صوت هيو شيه المعارض باللجوء إلى تشويه سمعته والحط من قدره. ماي–لينغ "فنّدت آراءه" مستندة إلى ما سمّته "الواقع الجلي والبرهان الأكيد بأنه في حال اعتمد الجميع من أعلى موظف حتى أدنى عامل يجر العربات قواعد السلوك هذه في حياتهم اليومية سوف يتوفر الطعام للجميع". ومع أن هذا الكلام بسيط وينطلق من رغبة لا من الواقع، فإن هو الذي يتعرّض للاضطهاد لم يكن قادراً على الردّ عليه. هكذا تابعت الأخت الصغرى بسخط الإلحاح في تأكيدها أن الحركة التي أطلقها زوجها هي "أعظم مبادرة بناءة... عرفتها الأمة". وبالنسبة إليها ما تفعله هو بإرشاد من الله ولا مجال لمناقشته. "أنا أطلب الهداية، وعندما أتأكد، أبادر، وأترك النتائج له". بحماسة، اختارت مبشرين أجانب مستشارين، وسنّت القوانين وحاولت فرضها "كأنها رئيسة نادٍ نسائي أميركي من الدرجة الأولى"، كما لاحظ أحد الأميركيين. كان تحت تصرّفها عدد من الموظفين الذين يتقاضون أجراً، ومئات الآلاف من المتطوعين. جهود الزوجين ساهمت في حل بضع مشكلات فعلية وملحّة لكنها ما لبثت أن تراجعت، رغم أنها تركت بعض التأثير الذي يدفع باتجاه التحضّر.

لكن الحركة بالنسبة إلى ماي–لينغ غيرت لها حياتها: ''القنوط واليأس بعيدان مني اليوم. أنا أتطلّع 'إليه'، هو القادر على كل شيء''.

ماي–لينغ وزوجها خاضا هذه المغامرة معاً، فاقتربا من بعضهما بعضاً أكثر من أي وقت مضى، وشعرا بدرجة أعلى من المودة تجمعهما. يوم عيد الميلاد في ١٩٣٤، سافرا بالطائرة إلى إقليم فوجيان الذي يقع على بعد أكثر من خمسين كلم إلى الجنوب. ومن المطار، توجها بالسيارة إلى أكثر المناطق الجبلية وعورة في شرق الصين، لكنهما اجتازا هذه المنطقة على طريق عسكرية أُنشئت حديثاً. آلاف العمال أزالوا شرائح ضخمة عن جوانب التلال العالية بأدوات يدوية بدائية. على الطريق أحياناً منعطفات خطيرة ''والزوجان في سيارتهما التي تسير بمحاذاة المنحدر، وأدنى انحراف يمكن أن يرمي بها أسفل الوادي''. في نهاية الرحلة، ''لام زوجي نفسه لأنه جعلني أتعرض لمثل هذه المخاطر''. وماي–لينغ أكدت له أن الخطر الشخصي لا يعني لها شيئاً، وأنها كانت بالفعل مأخوذة بجمال الطبيعة طوال الطريق. جبال تلو جبال مكسوة بأشجار التنّوب ''التي تنمو هنا وهناك وتزدان بثوب الميلاد الأخضر... تتوزع بينها أشجار عنبّية تزيدها تألقاً بلونها الأحمر الناريّ''. ''مشهد رائع لم أرَ مثله من قبل''.

يوم عيد رأس السنة تمشّى الزوجان إلى الجبال وتوقّفا ليتأملا شجرة صغيرة مثقلة ببراعم البرقوق البيضاء. في الثقافة الصينية شجرة البرقوق الشتوية تمثل الشجاعة؛ إنها تزهر في البرد القارس. قطف شيانغ بعناية عدداً من الأغصان الصغيرة مليئة بالبراعم وحملها معه إلى المنزل. في تلك الليلة، عندما أضاءا الشموع وجلسا لتناول العشاء، طلب إحضار الأغصان إلى الطاولة في سلة صغيرة من الخيزران. في ضوء الشموع، رسمت ظلال الأغصان على الجدار خطوطاً واضحة، ونشرت البراعم عطرها الرقيق. قدم شيانغ السلة إلى ماي–لينغ هدية في السنة الجديدة. تأثرت وكتبت تقول: ''زوجي لديه شجاعة الجندي ومشاعر الشاعر الحساسة''.

١٣

إنقاذ ابن شيانغ من قبضة ستالين

في الأيام التي تلت مراسم عمادته في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٠، سافر شيانغ كاي–شيك إلى مسقط رأسه في زيكو للإشراف على توسيع ضريح والدته. بعد تشييده ضريحاً شاسعاً لـ"أبو الصين"، شعر أنه آن الأوان ليقدم إلى والدته مدفناً يليق بها. ومع أنه لم يكن باتساع أو فخامة ضريح سون، لكنه امتدّ على تلّة بأكملها تشرف على مشهد بانورامي رائع للريف في شرق الصين. مدخله يقع على قمة طريق يصعد نحو سبعمئة متر بين أشجار الصنوبر.

ماي–لينغ وإي–لينغ رافقتاه في رحلته. وفي اليوم الأول أثناء الرحلة، فتحتا معه الموضوع الأكثر أهمية له: كيف يستطيع إعادة ابنه تشينغ–كيو من روسيا. تشينغ–كيو، ابن القائد الأعلى من زوجته الأولى، رهينة عند ستالين منذ خمس سنوات.

وُلد في ٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٢٧، وكان في الخامسة عشرة حين أرسله شيانغ إلى المدرسة في بيجينغ. كان حلم الشاب تعلم الفرنسية ومتابعة تعليمه في فرنسا. لكن مع صعود نجم والده بين القوميين، صار الروس متلهفين لوضع يدهم على تشينغ–كيو، وتمكن الديبلوماسيون في السفارة في وقت قصير من التقرب منه. وكما أورد تشينغ–كيو في توثيقه أحداث حياته (سمح بنشر المعلومات بعد وفاته في ١٩٨٨)، ''أقنعوه'' بأنه عليه ''أن يذهب إلى روسيا لمتابعة دراسته''. ستالين احتفظ بأبناء زعماء ثوريين أجانب في روسيا كرهائن محتملين، وفي الوقت نفسه، فتح لهم أبواب العلم والمعرفة هناك. الصبي السهل الانقياد أبدى حماسة للذهاب وشيانغ الذي كان يدعي الولاء للروس في تلك المرحلة لم يستطع الاعتراض.

بعد أشهر قليلة من وصوله إلى بيجينغ، اصطحب تشينغ–كيو إلى موسكو عميل لدى الحمر من أعضاء ''القومي''، شاو لي–تزو. الأخير كان من مؤسسي ''الشيوعي'' الصيني في ١٩٢٠، لكن موسكو طلبت منه الاحتفاظ بهويته السرية والاستمرار في عمله بين صفوف القوميين. أحضر معه ابنه، وهو من عمر تشينغ–كيو. عندما أنهى تشينغ–كيو دراسته في جامعة سون يات–سين في موسكو في نيسان/ أبريل ١٩٢٧ وطلب الإذن بالعودة إلى الصين، لم يسمح له بالمغادرة. كان والده

قد أعلن للتو انفصاله عن الشيوعيين وستالين أخذه رهينة عنده. موسكو أخبرت العالم أن الشاب يرفض العودة لأن والده "خان الثورة".

فُرضت على الشاب ابن السابعة عشرة "العزلة التامة عن الصين"؛ "لم يكن مسموحاً له حتى كتابة رسالة". اشتاق كثيراً للعودة إلى بلاده: "لم أعرف كيف أتوقف عن التفكير في عائلتي وبموطني". شعر أنه "وقع في شرك الاكتئاب والحنين إلى الوطن". طلب مرات عدة الإذن بالعودة أو حتى بكتابة رسالة، وكان طلبه يجابه بالرفض في كل مرة. كان أحياناً يكتب رسائل لوالده لكنه سرعان ما يمزقها. احتفظ بواحدة منها مرة واستطاع تسليمها سراً لزميل صيني ليحملها إلى الصين (بعد بيع بعض ما لديه من أجل جمع المال الكافي للرحلة)، لكن رجال الأمن ألقوا القبض على الرجل على الحدود.

وهو في الأسر، ولا أمل لديه في الخلاص، ازدادت عزيمته قوة وأخذ ينتظر الفرصة الملائمة. انسحب من منظمة تروتسكية انضم إليها أيام الدراسة وتطوع للانتساب إلى "الحزب الشيوعي" الروسي. انضم إلى صفوف "الجيش الأحمر" وأثبت أنه جندي شجاع. في المقابل، سُمح له بالعيش في المجتمع الروسي بدلاً من زنزانة السجن لكن السلطة في موسكو هي التي تقرر أين يعيش وكيف.

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٠، في الوقت الذي كانت فيه ماي–لينغ وإي–لينغ تتحدثان مع والده عن كيفية استرجاعه، أُرسل تشينغ–كيو للعمل في محطة لتوليد الطاقة؛ كان دوام عمله من الثامنة صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر، مع توقف ساعة واحدة فقط لتناول الغداء. لم يكن معتاداً العمل اليدوي الشاق، فأصيب بتورّم في ذراعيه، وصار ظهره يؤلمه لدرجة أنه لم يعد قادراً على الوقوف مستقيم الظهر، وأخذ يعاني من آلام مزمنة ومن الإرهاق. الطعام ليس متوفراً وباهظ الثمن، وما يتقاضاه لا يكفيه لسدّ جوعه، فكان جائعاً باستمرار. يتذكر تلك الأيام: "كنت أقصد عملي صباحاً ومعدتي فارغة". لكسب المزيد من المال، اضطر أن يعمل عملاً إضافياً فامتد يومه حتى الحادية عشرة ليلاً. صرّ على أسنانه وقال لنفسه إن "العمل الشاق وسيلة جيدة لتعلّم الانضباط".

بعد المحطة أُرسل إلى قرية خارج موسكو "لتأهيله مهنياً". تعلم هناك كيف يحرث الحقول، وينام في كوخ لم يكن ملائماً حتى للفلاح لتمضية الليل فيه. ذكّرته الحقول التي يعمل فيها بحقول الأرز الخضراء المحيطة ببلدته، "وسالت الدموع على وجنتيّ".

شيانغ كاي–شيك افتقد ابنه بشدّة، خاصة أنه يعرف أن حياة ابنه بين يدي ستالين صعبة للغاية. على مر السنوات، وفي مفكرته، وصف اشتياقه لتشينغ–كيو، وهو ابنه الوحيد من صلبه. ماي–لينغ

لم تعد قادرة على الإنجاب بعد الإجهاض، ومع أن شيانغ تبنى صبياً آخر، واي–غو، لكن تشينغ–كيو هو ابنه الفعلي ووريثه. أكثر ما يهمّ الرجل الصيني أن يكون لديه ابن ليرثه. وأسوأ لعنة يمكن التفوّه بها في الصين: ”فلتكن بلا وريث!“ كما أن ”الانقطاع عن إنجاب وريث“ (hou–jue) إساءة لا تغتفر قد يتسبب فيها الابن لوالديه وأسلافه، وحب شيانغ المفرط لوالدته وحزنه على رحيلها ضاعفا حدّة عذابه على فراق ابنه.

عندما كانت ماي–لينغ والأخت الكبرى تتناقشان مع شيانغ في السبل الممكنة لتحرير تشينغ–كيو في ١٩٣٠، كانت الصين وروسيا لا تزالان تتفاوضان حول السكة الحديدية الشرقية في الصين. تلك القضية تفاقمت لدرجة أن روسيا اجتاحت الصين قبل ذلك بسنة وانقطعت العلاقات الديبلوماسية بين الدولتين. اقترحت عليه إي–لينغ أنه ربما يستطيع عرض تسوية في ما يخص السكة الحديدية مقابل حرية ابنه. شيانغ تأثر من اهتمام الأختين وكتب في مذكراته في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر: ”الأخت الكبرى وزوجتي لم تنسيا ابني تشينغ–كيو. أنا ممتنّ جداً لهما“. لكنه قرّر ألا يأخذ بنصيحتها. موسكو تطالب بأمر هو انتهاك لسيادة الصين، والانصياع لها سوف يتسبب في غضب شعبي عارم. لكنه بدأ يفكر في صفقة يعقدها مع موسكو من أجل ابنه. قرّر أنه بحاجة إلى مزيد من الوقت والتخطيط بعناية. وكتب في مذكراته: ”هذه قضية لا تحلّ على عجل“.

بعد سنة عرضت موسكو نفسها مقايضة. المسؤول عن عمليات ”الكومينترن“ في الشرق الأدنى، الذي يُعرف باسمه المستعار هيلير نولنز، أُلقي القبض عليه مع زوجته وأُودعا السجن في شانغهاي. وبما أنهما يعرفان الكثير من الأسرار، كانت موسكو ترغب في إخراجها في أقرب وقت. تحركت مجموعة من النخبة الأجانب، بينهم ألبرت أينشتاين، للضغط على نانجينغ من أجل إطلاق سراحهما. و”الأخت الحمراء“ ضمت صوتها إليهم، وهي التي حملت خطة موسكو لتبادل الرهائن إلى شيانغ في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣١. شيانغ رفض العملية. هذه المقايضة بدت مستحيلة. سجن العميلين قضية شأن عام بالغة الأهمية؛ جرت محاكمتهما علناً وحُكم عليهما بالإعدام (خُفّض الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة). أي مساومة جانبية سوف يُفتضح أمرها وتُؤدي إلى تدمير سمعة شيانغ.

لكن عرض موسكو جعل القائد الأعلى عرضة لمزيد من الحزن. من الواضح الآن أن تشينغ–كيو رهينة ولن يعود إلّا بثمن باهظ. قد يطلب الروس أمراً آخر في المستقبل. واظب شيانغ على الكتابة في مفكرته يوماً تلو الآخر: ”في الأيام القليلة الماضية، انتابني شوق لرؤيته أكثر من أي وقت مضى. كيف أقابل والدي عندما أموت؟“ ”رأيت والدتي في الحلم وصرخت أناديها مرتين.

استيقظت وأنا أتألم من شدة اشتياقي لها. لقد ارتكبت خطيئة كبيرة بحقها". "أنا غير مطيع لوالدتي وغير محب لابني. أشعر أنني بلا قيمة وأتمنى لو تنشقّ الأرض وتبتلعني".

في هذه المدة، فقد العميل السري الأحمر شاو ابنه، وهو الذي رافق تشينغ-كيو إلى موسكو. شاو أخذ ابنه مع تشينغ-كيو إلى موسكو. وابنه عاد إلى الصين وسافر بعدها إلى أوروبا. قُتل رمياً بالرصاص في غرفة فندق في روما. شياو وعائلته كانا مقتنعين أن الجريمة نفذها عملاء شيانغ.

بعد رفض المقايضة رمت موسكو تشينغ-كيو في معسكر في سيبيريا في ١٩٣٢. كان يعمل في منجم للذهب عملاً مضنياً تسبب له في آلام مبرحة في ظهره ويعاني باستمرار من الجوع والبرد. والعمال الآخرون معه كانوا "أساتذة وطلاباً وأرستقراطيين ومهندسين ومزارعين أثرياء، ولصوصاً. كل واحد منهم تعرّض لأمر ما غير متوقع وغير مقصود تسبب له في النفي". على يساره، ينام مهندس سابق. كان يقول لتشينغ قبل أن ينام: "انقضى يوم، وأنا على مسافة يوم أقل لاستعادة حريتي والعودة إلى منزلي". تشينغ-كيو صار بدوره متعلقاً بالأمل نفسه.

في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٢، عادت العلاقات الديبلوماسية بين شيانغ والحكومة الروسية. عدوّهما المشترك، اليابان، جعل العلاقة الودية بينهما أمراً ملحّاً. اليابان هاجمت شانغهاي؛ أُعلن قيام ولاية صورية، منشوكيو، في منشوريا، وواصل اليابانيون توسعهم جنوباً. صار النزاع الواسع النطاق أمراً لا مفرّ منه. الصين بحاجة إلى روسيا. روسيا المنافس التقليدي لليابان في الشرق الأدنى بحاجة إلى الصين. كان أكثر سيناريو يخشاه ستالين أن تحتل اليابان الصين وتستولي على مواردها ويصبح لديها حدود تصل إلى ٧٠٠٠ كلم تصعب حمايتها، فتشن هجماتها على الاتحاد السوفياتي. أراد شيانغ أن يحارب الصينيون ويوقفوا تقدم اليابانيين ويمنعوهم من تشكيل خطر على روسيا. وفيما كان الخصمان يتحولان إلى صديقين، نوى شيانغ التخطيط لاستعادة ابنه. إنه يعرف جيداً أن عليه تقديم عرض له معنى كبير للروس. واتجهت أفكاره نحو الصينيين الحمر.

في هذه المرحلة، كان شيانغ يقود حملات ضد الولاية الحمراء المنفصلة جنوب شرقي الصين. حاصر الحمر وأراد سحقهم. والآن خطر له أنه عوضاً عن ذلك يستطيع إبعادهم من الإقليم الغني جنوب شرقي شانغهاي، ثم دفعهم إلى الشمال الغربي إلى أرض قاحلة أو لا تكاد مأهولة شمال شانزي على هضبة الأرض الصفراء. أثناء الترحيل يستطيع استنزاف قواهم، مع الانتباه جيداً إلى الحفاظ على قادتهم. وعند الوصول إلى الهدف يتركهم هناك يعانون من أجل البقاء، ويتأكد من أنهم لن يوسّعوا دائرة نفوذهم. وتوقع أنه عند اندلاع حرب مع اليابان، سوف يشاركون في المعارك (ستالين سيأمرهم بذلك) والاحتمال القوي أن اليابانيين سوف يقضون عليهم. في هذه الأثناء، وبما

أنه سمح للشيوعيين الصينيين بالبقاء، فإن ستالين، الذي تعنيه كثيراً هذه المسألة، سوف يطلق سراح ابنه.

فكّر القائد الأعلى على هذا النحو.

خريف ١٩٣٤، طرد شيانغ الحمر وأخرجهم من الإقليم الجنوبي الشرقي الغني. ورحلة هربهم صارت تُعرف بـ"الزحف الطويل". يجري تفسير ما حدث عادة بأن الحمر هُزموا وفرّوا، والواقع أن البعض فقط يعرف أن الحمر استطاعوا الانطلاق في هذه الرحلة وتحمل مشقتها بفضل تخطيط شيانغ كاي–شيك الذي أراد بصورة أساسيّة تحرير ابنه.

استمر الزحف الطويل مدة سنة على امتداد ستة آلاف ميل (كان أطول، في الوقت والمسافة، مما خطط له شيانغ. الفضل في ذلك يعود إلى مكائد ماو أثناء الزحف).[25] الزاحفون واجهوا صعوبات هائلة وبعضهم لاقى حتفه على الطريق. في نهاية المطاف، قال شيانغ لنفسه: لا يبدو أن "الشيوعي" الصيني "صار مستعداً للاستسلام". لكن الحقيقة كانت عكس ذلك. القائد الأعلى الذي يريد بأي وسيلة استرجاع ابنه كان يخدع نفسه.

25 من أجل الاطلاع على تفاصيل المكائد في الزحف الطويل، انظر:
يونغ تشانغ وجون هاليداي في *Mao, The Unknown Story* الفصول ١٢ – ١٤.

صفقة شيانغ "الحمر مقابل الابن" لم تكن واضحة حتى لموسكو، واضطر شيانغ أن يرسل إلى موسكو إشارات ضمنية لكن غير مبهمة. في كل مرحلة من الزحف الطويل، عندما كان الحمر ينجزون مرحلة أساسية، كان يرسل إلى موسكو أن الفضل يعود إليه وأنه يطلب عودة ابنه تشينغ–كيو. قبل بداية الزحف الطويل أرسل شيانغ أول طلب رسمي من أجل إطلاق سراح تشينغ–كيو عبر قنوات ديبلوماسية، كما سجّل في مفكرته في الثاني من أيلول/ سبتمبر. بعد نجاح الحمر في اجتياز طبقات من عوائقه المشيّدة بعناء، كانت نانجينغ تكرر طلبها: تشينغ–كيو. هناك عدد من الوثائق في ملفات الخارجية الروسية تتضمن: "شيانغ كاي–شيك يطالب بعودة ابنه". وكل مرة تدّعي موسكو بأن تشينغ–كيو لا يريد العودة. كتب شيانغ في مذكراته: "خداع العدو الروسي المثير للاشمئزاز لا نهاية له".

القائد الأعلى حقق إنجازاً آخر خلال الزحف الطويل. على الجهة الغربية من قاعدة الحمر التي صارت فارغة، يقع إقليمان، غيزو وسيشوان، يحتفظان بجيشيهما ويعلنان ولاء كاذباً لنانجينغ. أراد شيانغ وضعهما تحت سيطرته. ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية عليه نشر جنوده في الموقع، لكن الإقليمَين لم يرحّبا بهذه الخطوة. الآن دفع القائد الأعلى "الجيش الأحمر" داخل الإقليمين، فخاف

الزعماء المحليون من بقاء الحمر في أرضهم، فسمحوا لجيش شيانغ بطردهم؛ هكذا تمكن شيانغ من فرض سيطرته على الإقليمين. سيشوان خاصة سوف يصبح قاعدة له في حربه ضد اليابان، والمدينة الكبرى فيه، شونغكينغ، تحولت إلى عاصمة العمليات الحربية.

مكيدة شيانغ هذه من السهل إحكامها وإنجازها. وفي حين لم تنتبه موسكو إلى هدفه الأكثر أهمية، ترك شيانغ الحمر يهربون بعد السيطرة على الإقليمين، وأكثر من ذلك، ترك جماعة ماو تتحالف مع مجموعة حمراء ثانية في حزيران/ يونيو ١٩٣٥. مباشرة بعد ذلك زار زوج إي–لينغ هـ. هـ. كونغ، نائب رئيس الوزراء (لأن شيانغ استرد لقب رئيس الوزراء)، السفير الروسي، دميتري بوغومولوف، وأخبره بأن شيانغ يريد عودة ابنه. هذه الزيارة كشفت بوضوح نية شيانغ بالمساومة.

في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٥، اليوم الذي انتهى فيه الزحف الطويل بالنسبة إلى قيادة "الشيوعي" الصيني، اجتمع شيانغ مع بوغومولوف نفسه في لقاء ودي. لم يأتِ على ذكر تشينغ–كيو، لكنه أرسل بعد الجلسة مباشرة تشين لي–فو، ابن أخ "العراب" تشين، إلى السفير كي يرفع أمامه التماسه. نية شيانغ بمقايضة الحمر بابنه صارت أكثر من واضحة.

وبما أن الصفقة لا تزال ضمنية (لم يتم التوافق عليها مسبقاً) لعبت موسكو دور الأصم والأخرس. صار ستالين يعرف الآن نقطة الضعف عند القائد الأعلى، فازداد تمسكاً برهينته لابتزازه أكثر. بوغومولوف وغيره ممن اتصل بهم مبعوثو شيانغ كانوا يلجؤون إلى الكذبة القديمة نفسها بأن تشينغ–كيو لا يريد مغادرة روسيا.

في هذه الأثناء، نظراً إلى القيمة الكبيرة التي يتمتع بها، حظي تشينغ–كيو بمعاملة أفضل. أُطلق سراحه من المعسكر، وعيّن في منصب اختصاصي فنّي في مصنع للآليات في الأورال. استطاع هناك العيش بطريقة مقبولة إلى حدّ ما، وكان يدرس الهندسة في مدرسة مسائية، ثم ترقّى في وظيفته ليصل إلى رتبة مساعد مدير المصنع. أحبّ اختصاصية فنية روسية تدعى فاينا فاخريفا. "إنها تتفهم وضعي جيداً وتقف دائماً إلى جانبي. تتعاطف معي وتساعدني عندما أواجه الصعوبات. وعندما أشعر بالحزن لأنني لا أستطيع رؤية والديّ، تحاول أن تخفف عنّي". تزوّجا في ١٩٣٥. وفي كانون الأول/ ديسمبر من تلك السنة، وُلد أول أبنائهما الأربعة في الأسر الذي سوف يستمر تشينغ–كيو في تحمّل مشقّته.

١٤

"أنثى تحيط برجل"

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٦، وصلت مجموعات "الجيش الأحمر" الثلاث الرئيسية، التي تضم عشرات الآلاف من الجنود، إلى نهاية الزحف الطويل وتلاقت في "موطنها" الجديد في الشمال الغربي من الصين. طالب شيانغ موسكو مجدداً بالإفراج عن ابنه. ماي–لينغ تحدثت مع السفير الصيني الجديد لدى الاتحاد السوفياتي وأخبرته بالإلحاح في طرح هذه القضية. ولكن لم ترد أي أخبار عن تشينغ–كيو. قرر القائد الأعلى ممارسة المزيد من الضغط على ستالين فأعطى أوامر للجيش القومي الذي يحاصر الحمر بالإعلان مجدداً خوضَ "حملة الإبادة". الحمر الآن في مواجهة مشكلة مميتة. كانوا على هضبة الأرض الصفراء، والطّفال الرملي هناك، الذي تُعدّ تربته الأكثر قابلية للتآكل على وجه الأرض، يشكل حاجزاً قاحلاً. لذلك من المستحيل أن يستطيع جيش كبير العيش هنا أو بناء قاعدة.

لكن قائد الجيش القومي المحلي لم ينفذ أوامر شيانغ. كانت لديه أجندته الخاصة. إنه زانغ زيو–ليانغ، المارشال الشاب، أمير الحرب السابق في منشوريا. عندما غزا اليابانيون الإقليم في ١٩٣١، تراجع داخل الأراضي الصينية، آخذاً معه مئتي ألف جندي. طلب منه شيانغ التمركز مع قواته في إقليم شانزي الذي تقع عاصمته زيان على بعد نحو ثلاثمئة كلم إلى الجنوب من "الجيش الأحمر".

ربّان طائرة زانغ، الأميركي رويال ليونارد، وصفه على هذا النحو: "كان رئيس نادي الروتاري ممتلئ الجسم، ثرياً، أنيس الطباع وعذب المعاشرة... صرنا صديقين في خمس دقائق". لديه سمعة بأنه مستهتر. "لا يفعل شيئاً مع قواته. يكتفي بالطيران بطائرته الخاصة". كانت طائرته معروفة بالقصر الطائر: boeing فخمة ربما اشتراها بالرشوة التي دفعها له شيانغ وبلغت بضعة ملايين من الدولارات (كي يساعد شيانغ في إزاحة منافسيه في الحزب في ١٩٣٠). كان المارشال الشاب يتمتع بقيادتها بنفسه أحياناً. طرف ثوبه الطويل مرفوع، وقلنسوته مورّبة. لكن هذه الصورة العابثة كانت قناعاً لرجل له طموح لا حدود له يشبه المقامر بجرأته. وهو مثل معظم حكام الأقاليم الآخرين لم يكن مؤيداً لشيانغ ويعتقد أنه يستطيع تحسين أدائه. كان يطمح إلى أن يحلّ محل القائد الأعلى،

ووصول "الشيوعي" الصيني سيشكل فرصة ذهبية له. من يريد أن يصبح "ملكاً"، يعرف أن ستالين هو صانع الملوك، والطريق لاستمالة ستالين تمرّ عبر "الشيوعي". تواصل المارشال الشاب مع الحمر وزوّدهم بالطعام والملابس وهم بأمسّ الحاجة إليهما، وبدأ يخطط معهم ضد شيانغ. موسكو شجعت هذه الإجراءات من أجل حثّ المارشال الشاب على الاستمرار في مساعدة "الجيش الأحمر". ماو خطا خطوة إلى الأمام ليدفعه إلى التخلص من شيانغ. أقنع المارشال الشاب بأن موسكو سوف تدعمه ليحلّ محلّ شيانغ. تحت تأثير هذه الخدمة وضع خطة لانقلاب يُفترض عند حدوثه أن تعلن موسكو تأييدها له.

نصَب المارشال الشاب شركاً لشيانغ وأغراه بالحضور إلى زيان مدعياً أن الجنود لن ينفذوا أوامره بشن حرب ضد الحمر في شانزي لأنهم يريدون محاربة اليابانيين في موطنهم، منشوريا، وطلب من شيانغ الحضور إلى زيان بنفسه لإقناعهم. توجه القائد الأعلى إلى هناك بداية كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٦.

في الصباح الباكر، في ١٢ كانون الأول/ ديسمبر، كان شيانغ قد انتهى للتو من ممارسة التمارين الرياضية الروتينية ويهمّ بارتداء ملابسه عندما سمع أزيز الرصاص. نحو أربعمئة من جنود المارشال الشاب كانوا يهاجمون مقره. بعض حراس شيانغ لاقوا حتفهم وبينهم المسؤول عن الأمن. تمكن شيانغ من الهرب إلى التلال الخلفية واختبأ في صدع في الأرض وهو يرتدي فقط قميص نومه في البرد القارس، ولا ينتعل جورباً أو حذاءً. حالفه الحظ في نجاته من الموت لكنه وقع في قبضة الفرقة التي انطلقت للبحث عنه. أعلن المارشال الشاب أنه أقدم على خطوته هذه من أجل إجبار شيانغ على محاربة اليابانيين. أرسل برقية إلى نانجينغ يحدّد فيها مطالبه، وأولها "إعادة تنظيم حكومة نانجينغ". افترض أن "الشيوعي" الصيني وموسكو سوف يطرحان اسمه ليتولى رئاسة الحكومة الجديدة، وفق وعود ماو له.

نائب الرئيس هـ. هـ. كونغ كان في شانغهاي عندما وصلته أنباء اعتقال شيانغ. ذهب في الحال لإبلاغ أخت زوجته. بالنسبة إلى ماي-لينغ، كان هذا الخبر "يشبه صاعقة في سماء صافية". رافقته إلى منزله ليتباحثا مع إي-لينغ في ما يجب عمله. الرجل الوحيد الذي كان هناك ولا ينتمي إلى العائلة هو ويليام دونالد، مستشار سون يات-سين القديم، الذي يعمل اليوم مع ماي-لينغ، وكان في ما مضى مستشاراً عند المارشال الشاب وساعد ذلك المستهتر على التغلب على إدمانه الأفيون. بين مزاياه اللافتة التي ساعدته في الوصول إلى ذوي النفوذ في الصين حِكمته وحسّه السليم في تقدير الأمور، وقدرته على التعاطي بصدق ودون خداع مع الأقوياء دون أن يستفزّ غضبهم. جهله

الصينية كان بطريقة مفارقة ميزة لأنه لن يتمكن من التآمر مع مساعدي شيانغ. ماي–لينغ طلبت من دونالد التوجه بسرعة إلى زيان ليعرف ما يجري هناك. بدا واضحاً له أنها لا تثق أن صينياً يمكنه تنفيذ هذه المهمة.

ماي–لينغ والأخت الكبرى وهـ. هـ. كونغ ودونالد استقلّوا القطار الليلي إلى نانجينغ ووصلوا إلى العاصمة في السابعة صباحاً. كان الأربعة يتناولون طعام الفطور حين أتى وزير الحربية، الجنرال هو ينغ–تشينغ، ليطلعهم على نتيجة اجتماع القمة الذي عقد ليلاً. لم يشأ المشاركون في اللقاء انتظار وصول نائب الرئيس كونغ لأنه شخصية ليست جديرة بموقع القرار في نظام شيانغ الديكتاتوري الأحادي. باسم حكومة نانجينغ، صدر عن اللقاء قرار بإدانة المارشال الشاب وتجريده من مناصبه وتهديده بعقاب قاسٍ. توعّدوا بإعلان الحرب على زيان، فأحست ماي–لينغ بقلق شديد. الحرب على زيان تعني أن القنابل التي سوف تتساقط تشكل خطراً على زوجها. خروجه من هذه الأزمة بأمان كان أولوية بالنسبة إليها. إنّ اتفاق المسؤولين الكبار على هذا القرار وتمنعهم عن انتظار وصولها مع هـ. هـ. كونغ إلى نانجينغ زاد في غضبها وضاعف شكوكها. طلبت من دونالد التوجه إلى زيان ومقابلة القائد الأعلى أولاً. الجنرال هو، الذي لا يرتاح لدونالد لما لديه من تأثير في الزوجين شيانغ، اعترض على ذهابه. تجاهلت ماي–لينغ اعتراضه وأعطت دونالد رسالة ليحملها إلى زوجها.

حاولت ماي–لينغ السيطرة على أعصابها واستعادة هدوئها. لا تريد أن "تكون امرأة لا أحد يتوقّع منها أن تكون عاقلة في ظروف مماثلة"، لكن فوران غضبها كان على المسؤولين الكبار في نانجينغ. كانت مقتنعة أن أعداء زوجها الكثيرين يستغلّون الأزمة للتخلص منه، وأصرت على السفر بالطائرة إلى زيان للتفاوض مع المارشال الشاب من أجل إطلاق سراح شيانغ. قادة نانجينغ رأوا أن ثقتها بما لديها من قدرة على الإقناع مجرد وهم.

في الواقع، لم يكن المارشال الشاب بحاجة إلى من يقنعه بإطلاق سراح شيانغ. بعد يومين من إلقاء القبض على القائد الأعلى، أدرك أنه ارتكب خطأً جسيماً وبدأ بالفعل يخطط لإطلاق سراحه وحتى مرافقته إلى نانجينغ. في ذلك اليوم، ١٤ كانون الأول/ ديسمبر، استخدمت موسكو لغة قاسية لإدانة أعماله، واتهمته بمساعدة اليابانيين، وأكدت دعمها للقائد الأعلى. أدركت موسكو أن الرأي العام في الصين بمجمله تقريباً داعم لشيانغ. الشعب يعرف أن قوات شيانغ حتى في هذه اللحظة تواجه بشراسة تعديات اليابانيين في سويوان شمالي الصين. ويرى الروس أن القائد الأعلى خصم قوي لليابان، وإزاحته عن منصبه تسهّل الاحتلال الياباني. لم يعتقد أحد أن المارشال الشاب يستطيع أن يحلّ محلّه.

هـ. هـ. كونغ، الذي يتحرك الآن بوصفه رئيساً لمجلس الوزراء، اتصل بذوي النفوذ في البلاد طالباً المساعدة منهم ومعظمهم ردّوا عليه بإيجابية. من القلائل الذين رفضوا التعاون "الأخت الحمراء" تشينغ–لينغ. عندما اتصل بها هـ. هـ. من أجل دعمها، قالت إنها سعيدة لأن المارشال الشاب ألقى القبض على شيانغ، وإنه على حق في تصرّفه، وأضافت: "كنت سأفعل ذلك لو كنت في مكانه. لكنني لم أكن لأكتفي بهذا القدر!" لم تعبّر عن مشاعرها هذه علانية، لأن موقفها سوف يثير غضب موسكو.

أرسل هـ. هـ. رسالة إلى ستالين يقول فيها: "بات معروفاً أن الشيوعي الصيني متورط في الانقلاب"، وأنه في حال "تعرض حياة السيد شيانغ للخطر سوف يتجاوز غضب الأمة الشيوعي الصيني إلى الاتحاد السوفياتي". وشدّد ضمناً على أن هذا قد يؤدي إلى تحالف بلاده مع اليابان ضد روسيا. ستالين صعّد موقفه في إدانة المارشال الشاب وأمر "الشيوعي" الصيني بالمساعدة على إطلاق سراح شيانغ.

لم يكن أمير الحرب السابق بحاجة إلى مزيد من الإيضاح بأن اللعبة انتهت بالتأكيد. ماو خدعه. يجب أن يجد طريقة لينقذ نفسه. خياره الوحيد كان البقاء مع شيانغ كاي–شيك. لكن من المؤكد أن حكومة نانجينغ تريد إعدامه. لم يتولَّ قيادة انقلاب فقط لكنه تسبب في مقتل العديد من الموظفين (والجنود) القوميين أثناء العملية، وبينهم بعض المسؤولين. عائلات الضحايا وأنصارهم سوف يطالبون بدمه. أمله الوحيد أن يعفو عنه القائد الأعلى عند إطلاق سراحه. لكنه يعرف مدى تعنّت شيانغ، ولذلك لا يبني آمالاً على أن شيانغ سيوافق على عقد صفقة معه، حتى لو وافق شيانغ، هو لا يستطيع الاتكال على أن القائد الأعلى سيكون صادقاً في تنفيذ ما يترتب عليه في الصفقة. ماي–لينغ وحدها تستطيع عقد صفقة بالنيابة عن شيانغ وتحمله على التزامها. والمارشال الشاب شعر أنه يستطيع أن يثق بها. كانا منسجمين ويتحدثان بالإنكليزية. الأهم من ذلك أنه كان يعرف أنها صريحة ومنصفة، وأنه إذا عقد صفقة معها، لن تخدعه. إيمانها المسيحي يعني أيضاً أنها ستحاول مسامحته إذا قدّم نفسه كمرتكب خطيئة يريد التوبة.

من ١٤ كانون الأول/ ديسمبر، أرسل المارشال الشاب عدداً من الرسائل إلى ماي–لينغ بواسطة دونالد، يرجوها فيها المجيء إلى زيان. قال لها إنه أراد فقط الضغط على شيانغ لمحاربة اليابانيين، وإنه أدرك أنه أخطأ في ما فعله، رغم "أن نياته سليمة". أقسم أنه لم تكن لديه أي نية لإيذاء زوجها، وهو في الواقع يريد إطلاق سراحه ومرافقته إلى نانجينغ. لكن هل تتفضل بمجيئها حتى يستطيعا التداول معاً في الإجراءات.

نانجينغ وجدت كلمات المارشال الشاب غريبة وغير جديرة بالثقة، ورفضت السماح لماي–لينغ بتعريض حياتها للخطر بالذهاب إليه. قيل لأمير الحرب السابق أن يطلق سراح شيانغ في الحال وإلا سيواجه الحرب. لكن حدس ماي–لينغ القوي أوحى لها أنه يريد بالفعل تحرير زوجها، وأنها يجب أن تكون هناك كي يتحقق ذلك. بقي المسؤولون في نانجينغ متمسكين بموقفهم: قد يكون الأمر مجرد فخ، وقد تواجه خطراً فعلياً ولا تستطيع مع ذلك إنقاذ زوجها. لكن ماي–لينغ أصرّت، ونانجينغ في النهاية استسلمت لمشيئتها. في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر، ركبت الأخت الصغرى طائرة تتجه إلى زيان.

عاد دونالد ليرافقها في رحلتها. أشار إلى زيان من نافذة الطائرة. أخذت تحدق في هذه المدينة وسورها الحجري المربع والجبال المكسوة بالثلوج المحيطة بها. ماي–لينغ قلقة ومضطربة. حين صارت الطائرة على مشارف الوادي الذي يفضي إلى المدينة أعطت ماي–لينغ مسدّسها لدونالد قبل هبوط الطائرة، وجعلته يعِدها "إذا خرجت الأمور عن السيطرة وألقى الجنود القبض عليّ"، أنه سوف يطلق عليها النار "دون تردّد".

عندما رأى شيانغ زوجته تدخل إلى الغرفة، أُصيب بدوره بحالة من الانفعال والتوتر. انفجر باكياً: "لقد أتيت إلى عرين نمر". أخبرها أنه فتح **الإنجيل** في الصباح وقرأ: "لأن الربّ قد خلق شيئاً حديثاً في الأرض أنثى تحيط برجل". أحست ماي–لينغ أن هذه الكلمات لها معنيان: أنها ستأتي و"أن كل شيء على ما يرام". كلمات ماي–لينغ مأخوذة من قصيدة لروبرت براونينغ: "الرب في سمائه... كل شيء على ما يرام على الأرض". هذه المعاني أعطتها أملاً كبيراً واستطاعت تهدئة زوجها بتفاؤلها. عندما رأته "ممدداً على فراشه جريحاً وضعيفاً، كأنه طيف الرجل الذي تعرفه"، أحست "بموجة عارمة من الغضب على الذين أساؤوا إليه". ولأنه "كان منفعلاً ومضطرباً"، فتحت **الإنجيل** وقرأت له من المزامير فهدأت نفسه ونام بهدوء.

عقد المارشال الشاب صفقة مع ماي–لينغ وت. ڤ. الذي وصل إلى زيان قبلها بيوم. أمير الحرب السابق ادّعى أن إلقاء القبض على شيانغ نزوة متهورة: "كنا نحاول فعل عملٍ اعتقدنا أنه لمصلحة البلاد. لكن القائد الأعلى رفض مناقشة أي أمر معنا... أعرف أنني أخطأت وأنا لا أحاول تبرئة نفسي أو إيجاد مبرر لما ارتكبته". وحاول استرضاء ماي–لينغ فقال: "أنت تعرفين أنني أثق بك منذ البداية، وكلّ من معي معجبون بك. أثناء مراجعة أوراق القائد الأعلى، بعد احتجازه، وجدوا رسالتين منك وهذا ضاعف من احترامهم لك". قال لها إن "كلماتها حرّكت مشاعرنا جميعاً"، وذلك

قبل تقديم حجته الحاسمة: ''خصوصاً، عندما كتبت أنه بفضل الله لم ترتكب المزيد من الأخطاء، وأنك تحتاجين إلى الصلاة والدعاء لطلب الهداية والإرشاد من الله''.

عندما تلقى المارشال الشاب وعداً بأنه سيكون في أمان، صار مستعداً لإطلاق سراح سجينه. لا تزال هناك عقبة يجب اجتيازها. طلب الشيوعيون من شيانغ التحدث إلى مبعوثهم في زيان، الدبلوماسي السابق الشهير زو إن–لاي، الذي يزور المدينة لبضعة أيام. شيانغ رفض تماماً رؤية زو رغم أن المارشال الشاب أخبره أنه دون هذا اللقاء لا يستطيع المغادرة. الحمر موجودون بأعداد كبير بين الحراس والقوات العسكرية. إن لقاء القائد الأعلى مع زو يشبه في أيامنا لقاء رئيس الولايات المتحدة الأميركية مع ممثل جماعة إرهابية معروفة. لكن زو دخل إلى غرفة شيانغ يوم عيد الميلاد. كان يحمل رسالة من موسكو: تشينغ–كيو، ابن شيانغ، سوف يعود إلى وطنه. موسكو تدرك جيداً أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يرضي شيانغ ويدفعه إلى التفاوض.

لقاء شيانغ–زو لم يكن طويلاً. اكتفى القائد الأعلى بدعوة زو ''للمجيء إلى نانجينغ لإجراء مباحثات مباشرة''. لكن هذه الكلمات غيّرت موقع ''الشيوعي'' الصيني. منذ هذه اللحظة تغيّرت النظرة الرسمية له كمنظمة لصوصية يجب القضاء عليها، وصار حزباً سياسياً شرعياً بارزاً. المباحثات التي أُجريت أدت إلى تكوين ''جبهة موحدة'' بين الحزبين، كشريكين متساويين، عند اندلاع الحرب ضد اليابان خلال بضعة أشهر. أثناء الحرب قدّم شيانغ إلى ''الشيوعي'' الصيني تنازلات عدة ساعدت ''الجيش الأحمر'' على النمو بوتيرة متسارعة، لدرجة أنه صار بعد الحرب في موقع يسمح له بالانقلاب على شيانغ والتغلب عليه. استماتة شيانغ لاستعادة تشينغ–كيو جعلته يتهوّر في التقليل من أهمية ما يمكن لماو وستالين أن يفعلاه معاً. لكنه أنقذ تشينغ–كيو من قبضة ستالين. أطلق سراحه وغادر روسيا ووصل إلى بلده مع عائلته في آذار/ مارس ١٩٣٧، وانتهت محنته التي استمرت اثنتي عشرة سنة والتي عانى فيها من الأشغال الشاقة في المعسكر.

يوم عيد الميلاد في ١٩٣٦، بعد اللقاء مع زو، ركب الزوجان والمارشال الشاب في الطائرة التي قادها رويال ليونارد. أمضى الجميع ليلتهم في مدينة ليويانغ. وصف ليونارد لحظة هبوط الطائرة ومغادرة ركابها في مذكراته:

> وأنا أهبط بالطائرة كان الحقل الضيق الذي تغطيه الرمال مليئاً بحشود من الطلاب والجنود يركضون نحونا. عندما رأوا السيدة عند باب الطائرة توقفوا والغبار يحيط بهم. حيّوها عند نزولها وتقدّم منها ضابطان لمساعدتها. تبعها المارشال الشاب، وعند نزوله تقدم نحوه أربعة جنود وهم يصوّبون عليه بنادقهم.
>
> سألها أحدهم: ''هل نقتله؟''

ردّت بحزم: ”لا! دعوه يذهب!“
أحاطته بذراعها وأحاطها المارشال الشاب بذراعه... بعد أمر السيدة عاملوه كضيف شرف.

عند عودتهم إلى نانجينغ، حاول المارشال الشاب كسب تعاطف إي-لينغ لأنه يعرف تأثيرها الكبير في القائد الأعلى. صارت تربطه بها علاقة طيبة، وأخذ يناديها ”الأخت الكبرى“. اقترح عليها الاتفاق على ارتباط زوجيّ بين أولادهما. توسل إليها: ”أرجوك، سامحيني“، فصارت أكثر ليونة معه. قالت لاحقاً: ”أردت أن... حسناً، أردت أن أعاقبه لما أقدم عليه، ولكنه بدا لي نادماً بالفعل“.

في النهاية، وصلت عقوبة المارشال الشاب إلى إقامة جبرية في منزل مريح كان بموجبها محمياً أيضاً. بعد نحو نصف قرن، إثر موت شيانغ وابنه، أُطلق سراحه وانتقل إلى هاواي، وهناك مات في سريره في ٢٠٠١، وكان عمره مئة سنة.

وصلت شعبية شيانغ إلى ذروتها بعد محنته. في مدرج مطار ليو يانغ، عندما حُمل لإنزاله من الطائرة، رأى ليونارد أن ”الذين أتوا لاستقباله اهتاجوا وتحمّسوا وألقوا قبعاتهم في الهواء... سالت دموع البعض منهم“. وتجمعت الحشود في الشوارع لتحيته وهو في السيارة على الطريق إلى نانجينغ. أضاءت الأسهم النارية سماء المدينة في تلك الليلة. الصينيون يريدون من شيانغ قيادة الحرب في مواجهة اليابانيين. منذ الآن تضاءل على نحو ملحوظ عدد المتآمرين ضد القائد الأعلى وتراجعت نشاطاتهم.

هذه الحماسة القومية ساعدت شيانغ أيضاً في التغلّب على تيار خفيّ من الامتعاض بين زملائه، منه ومن زوجته الصريحة في كلامها.

بعد رجوعها إلى نانجينغ كانت ماي-لينغ لا تزال تتّقد غيظاً من قادة نانجينغ لأنهم هدّدوا بشنّ حرب على زيان وزوجها هناك. كتبت وصفاً لما جرى أظهرت فيه نقمتها عليهم مباشرة، ومن دون أي إساءة إلى المارشال الشاب أو للشيوعيين. ”الصورة التي قدمتها أعطت الانطباع بأن زملاء شيانغ هم الأشرار المسؤولون عن محنته. سلوكهم كان متهوراً، ولا يُطاق، وضباط بارزون في القوات المسلحة تصرّفوا كمهووسين خطيرين“. الفضل في إطلاق سراح شيانغ يعود إليها، وقد عبّرت عن ذلك بوضوح. لم تكتفِ بتقديم عرض تفصيلي لمديح المارشال الشاب لها، الذي يؤدي إلى خلاصة بأنه حرّر شيانغ نتيجة لإعجابه بها، ولم تتردّد في تقديم استنتاجها الخاص: ”السيد دونالد وضع الأسس، وت. ڤ. شيّد الجدران، وكان دوري أن أضع السقف“.

نشر القائد الأعلى مقالة زوجته في كتيّب ضمّ أيضاً روايته عما حدث في زيانغ، مؤكداً بذلك صحة اتهاماتها لزملائه. بضربة واحدة، تمكّن الزوجان من الإساءة إلى أعضاء فريق شيانغ كافة تقريباً واستفزازهم. بوصفه زعيماً للحزب والبلاد، من المفترض أن يعلم أن موقف نانجينغ المتصلّب من المارشال الشاب هو الرد الوحيد الذي تستطيع الحكومة تقديمه. معاونون مقرّبون منه، مثل تشين لي–فو، ظلوا غاضبين لعقود. خسارة شيانغ الكبرى كانت في عزل داي جي–تاو، ''صديق'' شيانغ القديم، الذي تبنى شيانغ ابنه غير الشرعي، والذي صار ابنه الصغير واي–غو. داي زوّد شيانغ بنصائحه القيّمة على مرّ السنين. في هذه المرة، ولأنه من المدافعين عن الموقف المتصلّب، كان معظم غضب ماي–لينغ موجهاً ضدّه. عندما أحسّ بارتياب القائد الأعلى، التزم داي الصمت وحذا الآخرون حذوه. شيانغ كاي–شيك، الذي ليس لديه أصلاً سوى عدد قليل من الأصدقاء أو المستشارين الذين يمكنه الاعتماد عليهم، وجد أن هذا العدد تضاءل من حوله بصورة ملحوظة. والإخلاص الذي كان نادراً صار أكثر ندرة. بعد زوال التهديد الياباني، سوف يخونه كثيرون من المحيطين به.

لكن ماي–لينغ كانت على حق حين شعرت أن الأزمة انتهت بفضلها. والواقع أنها لو لم تذهب إلى زيان، ولو لم يطمئن المارشال الشاب إلى سلامته في ظل حكم شيانغ، ما كان سيطلق سراحه. في هذه الحال، كانت الحرب ستندلع بين نانجينغ وزيان وهناك احتمال كبير أن يلاقي فيها شيانغ حتفه، بسبب القصف أو على يد المارشال الشاب – الذي درس هذا السيناريو – أو على يد الحمر (زو إن–لاي أحضر إلى زيان فريقاً متخصصاً من جهاز المخابرات الشيوعي لمساعدة المارشال الشاب في التخلص من شيانغ). والصين سوف تغرق في حرب أهلية كارثية، والغزاة اليابانيون سوف يجدونها فرصة لا تقدّر بثمن. بالإمكان القول إن ماي–لينغ حمت وطنها كما حمت زوجها.

الجزء الرابع

الأخوات في خضمّ الحروب

(١٩٣٧_١٩٥٠)

١٥

شجاعة وفساد

في تموز/ يوليو ١٩٣٧، احتلّت اليابان بيجينغ وتيانجين، وفي منتصف آب/ أغسطس، نشبت حرب شاملة في شانغهاي. الجيش الصيني حارب بشجاعة لكنه مُني بخسارة مفجعة. عدد الضحايا تجاوز أربعمئة ألف إضافة إلى تدمير سلاح الجو الذي شارك في العمليات القتالية ومعظم السفن الحربية أيضاً. في هذه الظروف الحرجة، دعا القائد الأعلى شيانغ كاي–شيك الأمة لمقاومة اليابان مهما بلغت التضحيات.

قررت السيدة شيانغ وأختاها أن يكنّ قدوة ويتوجهنَ إلى الجبهة لرفع معنويات الجنود، وبادرنَ إلى إلقاء خطابات تعبوية وتشجيع النساء على العناية بالأطفال الأيتام والتدرب ليصرن ممرضات. كتبن مقالات لتنشر في الصحافة الأجنبية، وقابلنَ الصحافيين الذين توافدوا إلى الصين، وشاركنَ في حوارات بثتها الإذاعات الأميركية بلغة إنكليزية لا شوائب فيها.

إي–لينغ ركّزت جهودها على إعداد المستشفيات وواحد منها كان في كباريه الليدو، وقد استطاعت الأخت الكبرى تحويله من قاعة رقص شعبية إلى مستشفى ميداني مجهّز بثلاثمئة سرير. واشترت بأموالها الخاصة سيارات إسعاف وشاحنات لنقل المصابين.

للمرة الأولى – الوحيدة ربما – وضعت "الأخت الحمراء" جانباً كراهيتها لشيانغ كاي–شيك وطلبت من الناس الالتفاف حول القائد الأعلى. قالت إنها كانت "متحمسة بصورة استثنائية، ومندفعة بصورة استثنائية"، و"بكت" بالفعل عندما ألقى شيانغ خطابه الذي يدعو فيه إلى الوحدة مع الشيوعيين كي تتوحد الأمة في محاربة اليابان. وتعهّدت بأن "تتخلى عن كل ضغائن الماضي وأحقاده".

الأخت الصغرى ماي–لينغ كرّست نفسها لزيارة الجنود المصابين. وتوجهت ذات يوم في سيارة بلا سقف برفقة مستشارها الأسترالي دونالد لزيارة إحدى المستشفيات. كانت الرحلة خطيرة. والطرقات مليئة بالحفر جراء استهدافها بالقصف، والطائرات اليابانية ترصد السيارات التي لا تستخدمها في تلك المدة إلّا الشخصيات البارزة. كانت ترتدي بنطلوناً فضفاضاً وقميصاً وتتحدث إلى

دونالد عندما اصطدمت السيارة بكتلة كبيرة وانفجر دولابها الخلفي. انحرفت السيارة عن الطريق وانقلبت. قُذفت ماي–لينغ من فوق رأس دونالد، وحطّت في خندق على بعد عشرين قدماً وفقدت وعيها. عندما استعادت وعيها وكانت شاحبة وتشكو من ألم في جنبها، سألها دونالد: ''هل تريدين مواصلة الطريق لزيارة الجنود؟'' فكرت قليلاً وأجابته: ''سوف نواصل طريقنا''. خاضا جولات على مخيمات عدة. وفيما بعد أخبرها الأطباء أنها أصيبت من أثر الصدمة بارتجاج في المخ وكسر في أحد أضلاعها.

أواسط كانون الأول/ ديسمبر سقطت العاصمة نانجينغ وقوات الاحتلال ارتكبت فيها مجزرة. تمكّن الجيش الياباني بعد ذلك من فرض سيطرته على الموانئ كافة ومعظم المدن الرئيسية على خطوط السكة الحديدية. أخبار وحشيّته مع المدنيين سبقت وصوله، و٩٥ مليوناً هربوا مرعوبين من طريقه... أكبر عدد من اللاجئين عرفه التاريخ. أُجبر شيانغ على نقل حكومته إلى ووهان، على بعد ستمئة كلم أعلى مجرى يانغتزي، وذلك قبل أن يتجه إلى الغرب ليستقرّ في شونغ كينغ ''مدينة الجبال''، بإقليم سيشوان، حيث تحيط بها القمم العالية، ويجري تحتها نهر يانغتزي الذي لا يصح إلّا لملاحة القوارب الصغيرة، وكانت عاصمة الصين الحرة محمية من الغزاة. اتخذها القائد الأعلى مقراً لقيادة الحرب في السنوات السبع التالية.

عملية انتقال الحكومة من نانجينغ إلى شونغ كينغ جرت بلا حوادث تذكر. تحت قصف ياباني مستمر، قطع مئات الآلاف من الناس – من موظفين في الدوائر، وهيئات طبية، وأساتذة، وطلاب – نحو ألفي كلم، بعد توضيب معداتهم الثمينة بكثير من العناية وأجهزتهم وملفاتهم في أقفاص لشحنها. تم نقلها (الأغراض الثمينة) بعد ذلك بواسطة شاحنات عند الضرورة القصوى، وبواسطة العربات إذا توفّرت، وفي معظم الحالات، تولّى عمال هذه المهمة. الآليات والأجهزة وضعها العمال على بكرات خشبية لحملها على القوارب إلى أعلى نهر يانغتزي. واحدة من معدات الجامعة المركزية تزن سبعة أطنان، ولم تكن هناك رافعة فعمد الطلاب إلى تحريكها بأيديهم ودفعوها ببطء حتى وصلوا بها إلى القارب، ثم على قوارب الملاحة في أودية اليانغتزي الضيقة والخطيرة، حيث ينحسر النهر في معبر هائج بين منحدرات عالية على ضفتيه تحجب وجه السماء، وحيث الماء يفور ويهدر متحولاً إلى دوامات تحيط بصخور تحت السطح. في بعض الأماكن من الضروري سحب القوارب إلى الأعلى لتجتاز الشلالات بواسطة رافعات القوارب، والعمال بذلوا جهوداً خارقة، وتضاعف انحناء ظهورهم من الحبال السميكة التي شدّها كل واحد منهم على أحد كتفيه. وللمواءمة بينهم ورفع قدرتهم على التحمل، كانوا يردّدون معاً نغماً رتيباً يقوي عزيمتهم.

بهذه الطريقة، تمكنت الجامعة من نقل كل ممتلكاتها القابلة للنقل، وضمنها مكتبتها الكبيرة، إلى جانب دزينتين من الجثث من أجل دروس التشريح. كلية الزراعة شحنت على متن قارب حيواناً من كل نوع لديها، وأطلق الطلاب على القارب اسم "سفينة نوح". سائر حيوانات المزرعة اقتادها براً موظفون في الكلية كما تفعل القبائل البدوية. استغرقت الرحلة سنة بكاملها، والمواشي الثمينة التي مصدرها هولندا وأميركا اجتازتها دون استعجال، معترضة بغضب أحياناً على حمل أقفاص الخيزران التي تحتوي على الدجاج والبط على ظهورها. في نهاية المطاف، لم يخسر الفريق حيواناً واحداً بل ازداد العدد بعجل ولد على الطريق.

وصل أكثر من ألف تلميذ وأستاذ إلى شونغ كونغ على مراحل، ووجدوا قاعات للدراسة وأماكن مجهزة لإقامتهم، وكلها محفورة في منحدرات جبلية. الحرم الجامعي الجديد شيّده ١٨٠٠ عامل في ثمانية وعشرين يوماً تحت إشراف أساتذة مهندسين وصلوا بالطائرة قبل الآخرين.

مع أن الحرب أحدثت اضطراباً هائلاً في حياتهم وجلبت معها الفقر والعوز، تحمّل الناس المشقة بصلابة ودعموا شيانغ بمَرارة لخوضها. كان القائد الأعلى حازماً وصارماً. ومع أنه لم يكن يعرف تماماً كيف سيربح، لكنه اعتمد إستراتيجية "الصمود أكثر من العدو". مساحة الصين الشاسعة ومناطقها الجبلية التي لا طرقات فيها جعلت احتلال اليابان البلاد مهمة مستحيلة، وهذا أعطاه مجالاً للتراجع تقوية صفوفه. المشاعر القومية العالية ساعدته في تحقيق مساعيه. لكن موت زوجته الأولى، والدة تشينغ–كيو، بقصف ياباني في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٩، آلمه وأحزنه.

كراهية القائد الأعلى لليابان التي تعلّم فيها بعض فنون القتال كانت عنيفة وراسخة. في أيار/ مايو ١٩٢٨، اعترض اليابانيون سبيل الحملة الشمالية التي شنها في جينان، عاصمة إقليم شاندونغ. وبعد محاولات فاشلة للاعتراض، وجد شيانغ نفسه مضطراً إلى قبول مطالب اليابانيين التي اشتملت على تقديم الاعتذار، وسلوك طريق أخرى إلى بيجينغ. استسلم لليابانيين أمام أعين جميع الناس. منذ تلك الحادثة أصيب شيانغ باكتئاب عميق لم يفارقه طوال حياته. في ذلك الشهر، أخذ يمهّد لما يكتبه كل يوم على مفكرته بكلمتين "الثأر للعار" (chi–xu). والتزم هذا التمهيد لأكثر من أربعة عقود. لكن شيانغ لم يعرف أبداً كيف ينجح في تنفيذ شعاره.

موقف شيانغ الذي لا مهادنة فيه جعله يكتسب مكانة عالية. تحت تأثير المشاعر القومية الموحّدة سلمته جميع الأقاليم قيادة جيوشها كي تخوض الحرب كقوة واحدة، وفي تلك المرحلة، وصل شيانغ كاي–شيك إلى أقرب ما استطاع تحقيقه من توحيد البلاد اسماً ومضموناً في الوقت نفسه. القوة الوحيدة التي ظلّت خارج سيطرته كانت "الجيش الأحمر" الذي احتفظ بقيادته الخاصة المنفصلة،

ويأخذ أوامره منه اسمياً فقط. نجح في ذلك بفضل ستالين الذي وقع معاهدة مع شيانغ عند اندلاع الحرب الشاملة، وصار بموجبها المصدر الوحيد الذي يزوّد شيانغ بالسلاح. قدّم شيانغ تنازلاً آخر عندما وافق على أن يخوض "الأحمر" حرب عصابات فقط خلف خطوط اليابانيين ولا يخوض حرب مواجهة في الخطوط الأمامية. هذان الامتيازان ساعدا الحمر كثيراً. ومع نهاية الحرب في ١٩٤٥، رأى معظم معارضي شيانغ اليابانيين يقضون على جيوشهم. وبقي ماو المنافس الوحيد للقائد الأعلى.

وصلت ماي-لينغ إلى شونغ كينغ مع شيانغ في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٨، بعد شهرين من زيارة جبهات الحرب في الشمال إلى الجنوب. مارست دورها بالفعل سيدة أولى في زمن الحرب، تهتم بالأمور شتى. ورغم تعبها، كانت تحافظ على اندفاعها. كتبت لصديقتها الأميركية إيما ميلز تصف لها ما يجري باستغراب: "يا لها من حياة! أعتقد أن لون شعري سيصبح رمادياً عندما تنتهي الحرب، لكن لديّ عزاء وحيد: أعمل بجهد لدرجة أنني لم أعد معرّضة أن أصير مثل وسادة كنبة لطيفة وممتلئة وناعمة، أو لدي مؤخرة عريضة". وفي رسالة أخرى: "يا لها من حياة! لكننا لن نتراجع عن المقاومة".

شونغ كينغ مكان يصعب العيش فيه. وهي معروفة بأنها "فرن الصين" بسبب الرطوبة والحرارة المزعجتين فيها. البخار المتصاعد من نهر يانغتزي في الأسفل تحبسه الجبال، فيتمدد فوق المدينة كمنشفة رطبة خانقة. في أشهر الصيف الطويلة، تصبح أشبه بطنجرة الضغط. فصل الشتاء يلطّف الأجواء إلى حد ما، والضباب الكثيف يغمر المدينة، ويعطيها اسماً آخر فتتحول إلى "مدينة الضباب". قد تصل كثافة الضباب أحياناً إلى حد أن المرء لا يرى يده. التجول في المدينة يعني تسلّق المئات من درجات السلالم الحجرية الشديدة الانحدار أو هبوطها. الميسورون يتنقلون على مقاعد يحملها الحمالون، ووسط شونغ كينغ عدد قليل من الطرقات التي شُقت حديثاً تستخدمها العربات والسيارات. هناك نقص في المواد الضرورية، والبنية التحتية لم تعد تحتمل ضغط الملايين الذين تدفقوا فجأة للعيش في المدينة. تفشت الملاريا والديزنطاريا.

بدأ اليابانيون قصف المدينة بالطيران في أيار/ مايو ١٩٣٩ مع تبدّد الضباب. كانت هناك ملاجئ بدائية فقط حُفرت في التلال، ومعظمها بلا تهوئة. وإذا استمرت الغارة الجوية مدة طويلة يفسد الهواء في الداخل ويصبح خانقاً. ذات ليلة، بعد ساعات من القصف، تدافع المئات للخروج من نفق مزدحم طلباً للهواء النقيّ، لكن مجموعة ثانية من الطائرات وصلت فجأة وبدأت تلقي قنابلها

عشوائياً. أصيب الناس بالذعر وحاولوا العودة إلى الملاجئ؛ أكثر من خمسمئة منهم لاقوا حتفهم في تلك الليلة.

عانت ماي–لينغ من بثور الشّرى أو طفح القرّاص، وازدادت إصابتها سوءاً بسبب درجة الرطوبة المرتفعة في شونغ كونغ. إن "تمضية ساعات في الملجأ عذاب لا يحتمل". كتبت لأخيها ت. ف.: "جلدي تكسوه البثور المائية التي تسبب لي حكاكاً مؤلماً مثل تقرحات أيوب!"

شاهدت معاناة رهيبة في كل مكان. تتكدس في المدينة البيوت الخشبية، وبعضها يجثم على أعمدة طويلة يجري تثبيتها في جوانب المنحدرات. كل قنبلة تشعل ناراً تستمر لساعات. وبعد إحدى الغارات الجوية خرجت ماي–لينغ للإشراف على أعمال الإغاثة. كتبت لإيما أن أجزاء كثيرة من المدينة استعرت فيها النيران كأنها "جهنم". وبسبب ضيق المكان، يصبح من الصعب الهرب من النار والدخان. حاول الناس تسلّق سور المدينة القديم لكن ألسنة النيران لم ترحمهم. مات الآلاف. كانت الجثث المحروقة تسحب من الأكوام التي لا يزال الدخان يتصاعد منها؛ "الناس يبحثون بغضب عن أقاربهم أو أصدقائهم المصابين". "صراخ الجرحى، وأنين الذين يموتون يملآن الليل... الرائحة الكريهة تزداد والعيش في هذا المكان يبدو مستحيلاً".

هي نفسها نجت بصعوبة من القصف مرة. داخل الملجأ، ولكي تشغل بالها بأمر آخر، طلبت من القسّ البلجيكي الأب وايتز أن يعلمها الفرنسية. في أحد الأيام، بعد تمضية معظم النهار داخل الملجأ المزدحم، قالت له: "دعنا نكمل الدرس في الخارج". بعد دقائق دوّت صفارة الإنذار ثانية وشيانغ ناداهما للعودة إلى داخل الملجأ. أثناء دخولهما سقطت قنبلة حيث كانا يجلسان. سقطا على وجهيهما على قطع الدَّبْش المكسّرة، وكتاب قواعد الفرنسية الذي تركته في المكان مزّقته إحدى الشظايا.

السيدة الأولى وجدت نفسها قريبة من الرجال والنساء العاديين وأخذت تشير إليهم في كلامها أنهم "شعبنا". عند مجيء الشتاء أخذت تفكر "أن هذا سوف يضاعف معاناة المشردين والمصابين". معنويات الناس تركت تأثيراً كبيراً فيها وساعدتها لتحافظ على اندفاعها: "من مزايا شعبنا أنه لا يستسلم، لأنه بعد كل غارة، وصوت صفارة زوال الخطر يتراجع ليصبح صدى رفيعاً، كان الناس الذين لم يصابوا بأذى يعودون إلى المتاجر والمنازل وبعد بضعة أيام تظهر أكواخ مؤقتة في المواقع القديمة للمنازل". "نساؤنا رائعات... كنّ معرّضات هذه الظروف الصعبة للإصابة بالهستيريا والإرهاق العصبي لكنهنّ تماسكنَ وحافظنَ على مرحهن وقوّتهن".

كتبت ماي–لينغ إلى إيما: "سوف نستمر بالقتال". مقام شيانغ كاي–شيك الرفيع في ذلك الوقت يعود أساساً إلى وجود زوجته الشجاعة إلى جانبه.

ماي–لينغ حازت لقب "الأمين العام لوكالة الملاحة الجوية"؛ أشرفت على بناء قوة الملاحة الجوية الصينية أواسط الثلاثينيات. وقع اختيارها على الكابتن كلير شنّولت فاستدعته للحضور إلى الصين في ١٩٣٧، لأنه أسس الجمعية الأميركية للمتطوعين أو "الطيارون النمور"، وهي قوة ضاربة من أكثر من مئة من الطيارين الأميركيين. دمّر "النمور" مئات الطائرات اليابانية. شنّولت ربّان طائرة ومقاتل شرس يتمتع بالمخيلة والجرأة. موهبته صارت أسطورة بعد العرض المثير الذي قدمه بالقرب من باسو بتكساس أوائل العشرينيات. اجتمع حشد كبير لمشاهدة مناورات قوة الملاحة الجوية Fort Bliss، عندما تقدمت سيدة عجوز ترتدي ثوباً طويلاً إلى أرض المطار، والوشاح البرّاق الذي تغطي به شعرها يتطاير في الهواء. أعلن المذيع أن الجدّة موريس، في الثمانين، ترغب في ركوب الطائرة، وأن قوة الملاحة الجوية قررت تنفيذ رغبتها. هتف المحتشدون تشجيعاً للجدة موريس التي صعدت إلى مقصورة الطيار. ساعد الطيار، الذي يقف في الخارج، الجدة لتثبيت أحزمتها، وبدأ تشغيل المحرك. رفعت يدها تحيي الناس. وفيما كان الطيار يهمّ بالدخول إلى المقصورة، اندفعت الطائرة إلى الأمام ورمته على الأرض. خاف الناس وأخذوا يصرخون للجدة موريس كي تقفز لكن الطائرة ظلت تدرج، وبدأت بعد قليل ترتفع بحركة غير ثابتة، وعلى علو منخفض فوق سطوح المنازل. ثم أخذت ترتفع وتهبط وتلتف بطريقة مخيفة، واندفعت أخيراً نحو الأرض في انقضاض رأسي عنيف. ارتفع ضجيج الناس وصراخهم. كادت الطائرة تلامس أرض المدرج لكنها ارتفعت ثانية لتنقلب وتدور في الفضاء، ثم عادت للهبوط مجدداً، لكنها هبطت بنحو رائع هذه المرة. ومن مقصورة القيادة، قفزت الجدة موريس وهي ترفع غطاء رأسها وشعرها المستعار وتخلع ثوبها؛ رأى الناس الكابتن شنّولت في بذلته الرسمية وهو يضحك لهم.

بشرة وجه الكابتن خشنة للغاية. ربما من الطيران لساعات في مقصورة مفتوحة. ويبدو أن ونستون تشرشل انتبه للأمر وقال: "يا إلهي، يا لهذا الوجه؛ أنا سعيد لأنه معنا". بالتأكيد، كان شنّولت في صفّ ماي–لينغ. كتب في مفكرته: "سوف تظل أميرة بالنسبة إليّ". "السيدة شيانغ تخاطر بحياتها باستمرار وتصرّ على المجيء إلى المطار – مع أنه الموقع الأول المستهدف بالقصف – من أجل تشجيع الطيارين الصّينيين، لأنها تشعر بالمسؤولية نحوهم. إنها تجربة يصعب على الرجل تحمّلها: رؤية وجوههم الكالحة واليائسة وهم ينطلقون لمواجهة صعوبات لا حدود لها، وانتظار عودتهم الذي يتعب الأعصاب، ورجوع الناجين من المعركة مسفوعين بالنار ومثخنين بالجراح. كان هذا دائماً يثير أعصابها، لكنها كانت تتمكن من إخفاء مشاعرها عند التأكد من أن الشاي جاهز وأنها سوف تصغي إلى حكاياتهم عن القتال".

الملاحون الأميركيون أُعجبوا بها أيضاً. أحدهم، يدعى سبي بيغز سميث، يتذكر أنه حطّ في المطار بعد معركة قاسية:

> أردنا النزول من الطائرة لتفقد الأضرار، لكن السيدة شيانغ وصلت في الحال وأخذت تمشي حول الطائرة التي تعرضت لإصابات مباشرة. سبقتنا في الوصول إلى أرض المطار. مجدداً أقول إنها امرأة شجاعة للغاية. كانت تواجه المخاطر باستمرار. كأنها واحدة من الجنود. بعد كل غارة تسرع إلى المطار لتتفقد الطيارين عند عودتهم، وتصرّ على وجود القهوة بانتظارهم، وتفعل ما في وسعها كي تخفف عن هؤلاء الشجعان الذين يواجهون الصعاب وليس هناك من يحلّ مكانهم، وكل واحد منهم يعرف وهو في طريقه إلى المطار أن هذه الرحلة قد تكون الأخيرة.

عمل دونالد جنباً إلى جنب مع ماي–لينغ. اكتشفا معاً اقتطاع "عمولة" وصلت إلى مبالغ طائلة على ما تشتريه الحكومة من طائرات ومعدات للملاحة الجوية. الوسيط أميركي يدعى أ. ل. باترسون. والسفير الأميركي نلسون ت. جونسون كتب في مذكّرة بعد حديث مع أحد أعضاء فريقه: "غارنت مالّي، قائد جناح في سلاح الجو... كان مرتاحاً لأن باترسون ضاعف سعر الطائرات الأميركية التي اشترتها الحكومة الصينية، وفي بعض الأحيان، رفع السعر إلى ثلاثة أضعاف". في إحدى المرات، وصل السعر "إلى أربعة أضعاف السعر الفعلي". كانت ماي–لينغ مستاءة للغاية وأعطت أوامرها بإجراء تحقيق "لمعرفة الحقيقة في هذه القضية". وسرعان ما تبين لها أن أختها الكبرى متورطة فيها. السفير الأميركي كتب في مذكراته أن "اسم الجنرال تزاو تردّد مرات عدة بوصفه عميلاً للسيدة هـ. هـ. كونغ لتحصيل عمولة في شراء الطائرات".

في منتصف كانون الثاني/ يناير ١٩٢٨، طارت ماي–لينغ إلى هونغ كونغ لمعالجة إصابتها من حادثة السيارة الأخيرة. لكنها توجهت إلى هناك أيضاً من أجل التحدث مع أختها. كانت إي–لينغ تقيم في هونغ كونغ معظم الوقت، حيث تدير القسم الأكبر من أعمالها من منزلها المشيّد على تلّة تشرف على المحيط. بجواره، على الأرض المنحدرة التي حوّلت إلى مصاطب، حدائق جميلة ومتناسقة وملاعب تنس تحظى بعناية جيدة. كانت تمضي معظم أمسياتها في لعب "البريدج". أقامت ماي–لينغ هناك وقتاً أطول مما توقعت. أرسلت برقية إلى زوجها تقول فيها إن إي–لينغ أُصيبت بأذى جراء وقوعها. ثم لزمت بدورها الفراش أيضاً. عبّر شيانغ عن قلقه وتمنياته بالشفاء لهما، وطلب من ماي–لينغ تحديداً "ألّا تشغل بالها بمسألة وكالة الملاحة الجوية". لكنه أواسط شباط/ فبراير أرسل لها برقيتين: "أعتقد أنك تعافيت". "وكالة الملاحة الجوية أُعيد تنظيمها، أمر مهم. عودي في الحال".

خلال إقامتها الطويلة أقنعت الأخت الكبرى ماي–لينغ أن أسلوبها في العمل لا يؤثر في نتيجة الحرب، لكنه حيوي على الصعيدين الشخصي والسياسي في حياة أختها الصغرى وزوجها. كانت حجتها أنها مضطرة إلى تأمين احتياجات القائد الأعلى السياسية، ورعاية الأخت الصغرى، وتوفير الاعتمادات اللازمة لأي حاجة قد تطرأ في حياة السيد الرئيس والسيدة الأولى. مع استمرار الحرب ومرور الوقت، فهمت ماي–لينغ منطق أختها. والآن، حتى إذا لم تكن مقتنعة كلياً، هي تنحني أمام سلطة أختها. عند عودتها إلى العاصمة المؤقتة استقالت من الأمانة العامة لـ"وكالة الملاحة الجوية". وزوجها أمر بوقف التحقيق في الفضيحة.

سمعة إي–لينغ بأنها امرأة تستغل الحرب الصينية لتملأ جيوبها بالمال صارت على كل لسان. واتفق الجميع على أنها العقل المدبّر للقرارات المالية المهمة التي يتخذها زوجها، هـ. هـ. كونغ الذي يحمل مفتاح خزينة الدولة. وكما صرّح به لمشروع التاريخ الشفهي الذي تعدّه جامعة كولومبيا في نيويورك، فإن الميزانية الفعلية للدولة (سمّاها "الميزانية السرية") يقرّرها اثنان: هو وشيانغ كاي–شيك: "قرارات الميزانية السرية تحتاج توقيعين فقط". هذا الموقع أعطى الزوجين كونغ إمكانات مالية هائلة. في ١٩٣٥، غيّر هـ. هـ. العملة الصينية المتداولة وحوّلها إلى فابي، وعندما نشبت الحرب بعد ذلك التاريخ بسنتين، توقع حدوث تضخم، فحوّلت العائلة كل ما عندها من فابي إلى ذهب فحفظت ثروتها، فيما كان المواطن الصيني العادي يرى قيمة ممتلكاته تتراجع. أثناء الحرب، وفيما تنفق الحكومة مبالغ ضخمة على شراء الأسلحة، استطاع الزوجان كونغ اقتطاع حصص مهمة لهما كعمولة في هذه الصفقات. هـ. هـ. عيّن ابنهما دايفيد، الذي تخرج حديثاً في الجامعة ولم يكد يبلغ العشرين، مديراً إدارياً مشتركاً في المصرف التجاري المركزي، الوكيل الذي يشتري ما تحتاجه الحكومة. وبما أن مخصّصات الجيش بمعظمها بالدولار الصيني، والأسلحة والذخائر يجب دفع ثمنها بالعملة الأجنبية، شملت هذه العمليات إجراء تحويلات للعملة استطاع دايفيد الحصول منها على أرباح كبيرة. إضافة إلى ذلك أسّس الشاب شركة استيراد وتصدير خاصة به، "يانغتزي" للتجارة، التي لعبت دور الوكيل في الصين لأصحاب المصانع الكبيرة في الغرب. عندما شاركت أميركا في الحرب في ١٩٤١، بدأت البضائع الأميركية الوصول، وأفراد عائلة كونغ وأصدقاؤهم المقربون تدخّلوا كوسطاء وجنوا الثروات الطائلة. كانت لعائلة كونغ أيضاً حصة عمولة في طباعة الأوراق النقدية على يد شركات أجنبية تختارها وزارة هـ. هـ.

جون غونتر، وهو صحافي أميركي، كتب عن إي–لينغ في ١٩٣٩: "إنها خبيرة مالية من الدرجة الأولى بجهدها الشخصي، وتجد متعة كبيرة في إدارة الأعمال والمؤسسات. يعود الفضل في نموّ

معظم ثروة عائلة سونغ الكبيرة إلى ما لديها من موهبة وذكاء في القضايا المالية". "تنتشر أقاويل عن التأثير المؤي للعمولات. محاولات محاربة الفساد في القطاع العام تمّ توقيفها بلا مبرر. الزوجان كونغ لهما اعتبار كبير عند القائد الأعلى. وهما يعرفان ذلك. وهو يعرف... أنهما يسيطران على مالية الدولة".

هذا الوصف، وما يشبهه، يزعج إي–لينغ كثيراً، وهي بطبيعتها لا تحب الدعاية، لكنها وافقت بناءً على طلب من الكاتب والصحافي إميلي هان على تأليف كتاب عن سيرة حياتها، في محاولة لإبعاد الشبهة عن اسمها. ذكر هان أن "صوت السيدة كونغ كان يرتعش" وهي تتحدث عن غونتر. تحدثت إي–لينغ إلى هان عن عطاءاتها أثناء الحرب: اشترت للجيش ثلاث سيارات إسعاف وسبعاً وثلاثين شاحنة، وتبرعت بعشرين شاحنة أخرى لـ"وكالة الملاحة الجوية" (عندما كانت ماي–لينغ تترأسها)، واشترت خمسمئة معطف جلدي للطيارين. ومن مالها الخاص، حوّلت كباريه الليدو إلى مستشفى ميداني يتسع لثلاثمئة سرير وأسّست مستشفى للأطفال بمئة سرير. قامت على نشاطات خيرية غيرها، لكن كل ما قدمته لا يمكن مقارنته بالثروة الهائلة التي تكدّست من اقتطاع العمولات. لقد وصلت ثروة عائلة كونغ إلى مئة مليون دولار، وقد تكون تجاوزت هذا الرقم.

عرف الناس بالفساد الهائل في قلب السلطة، مع أنهم، على الأرجح، لم يعرفوا تفاصيله. وابتكروا عبارة لوصفه: "يجمعون الثروات من الكوارث الوطنية" (cai–nan–gus–fa). وعائلة كونغ كانت دائماً مستهدفة من الصحافة والناس وكبار القوميين، والحكومة الأميركية. لكن شيانغ تمسّك بنسيبه بصفته "قيصره المالي" ورفض اتخاذ أي تدبير ضده. هـ. هـ. فعل ما في وسعه كي تبقى مالية الصين غير المحتلة متماسكة تحت ضغط الحرب الهائل عندما انقطعت فعلياً عن المناطق كافة التي تدعم الاقتصاد. ومن المبرر أن يشعر (وكان مبرراً) بأن إجراءاته كانت "كالمعجزات لأنها حافظت على استمرارية الحرب وعلى تماسك الوضع النقدي".

كشف في مذكراته أن حيلته الرئيسية كانت في "تحويل الضريبة العقارية إلى ضريبة وطنية بدلاً من ضريبة موزعة على الأقاليم"، ونتيجة لذلك "غطّت وصولات الجباية أكثر من ٥٠% من النفقات". هـ. هـ. كونغ انتزع مدخولاً كان ملكاً للأقاليم ووضعه في خزنة الحكومة المركزية، حيث يستطيع وأفراد عائلته مدّ أيديهم للأخذ منه، وهذا بالتأكيد جعل كثيرين من زعماء الأقاليم يرفضون هذا التدبير. وبكل بساطة، تجاهلهم: "كان التعاطي مع بعض الأقاليم بالطبع أكثر صعوبة من سواها. وهذا يعود إلى تغليب المصلحة الذاتية أو إلى الجهل"، لكن كثيرين من الأعداء الناقمين سوف يساعدون الشيوعيين في ما بعد من أجل إسقاط شيانغ كاي–شيك.

بالنسبة إلى القائد الأعلى، هـ. هـ. هو خادمه المطيع والأمين، وهو أيضاً الذي يحميه من كوارث مفاجئة. الغضب من الفساد تمحور حول عائلة كونغ، ولم يتعرض أحد لشيانغ الذي ظل يستمتع بسمعة المحارب الإسبرطي. الواقع أن الأموال التي ذهبت إلى جيوب عائلة كونغ كانت في الواقع من أجل عائلة شيانغ. كانت الأخت الكبرى تفكر خاصة في رفاهية أختها. السيدة الأولى لا تخاف من الموت لكنها لا تحتمل الحياة غير المريحة. إنها بالفعل مدمنة على مستوى العيش الراقي. اعتمدت التقشف في بداية الحرب لكن قدرتها على التحمل وصلت إلى حدّها، وكانت عندما تسمح لها الظروف، تهرب إلى رفاهية هونغ كونغ وأميركا، وتمتد إقامتها هناك بضعة أشهر كل مرة. كانت هذه الرحلات باهظة. في إحدى رحلاتها، نزلت في مستشفى الكنيسة المَشيخية في نيويورك وحجزت طابقاً بكامله لمعاونيها. لا تستطيع الحكومة الصينية دفع كل نفقاتها، وإي–لينغ سدّدت الحصة الأكبر من الفاتورة. طوال حياتها ظلت ماي–لينغ تعتمد مالياً على أختها. عاشت بعد وفاة شيانغ نحو ثلاثة عقود، واختارت نيويورك مقراً لها، وكان الزوجان كونغ يؤمنان لها جزءاً كبيراً من كلفة حياتها المترفة هناك.

كانت ماي–لينغ ممتنّة للأخت الكبرى وتدافع عنها بحماسة دائماً. اتصل رئيس جامعة تبشيرية بوليام دونالد، المقرب من ماي–لينغ، وقال له: ''يجب إبلاغ عائلتي سونغ وشيانغ بضرورة وضع حدّ لهذه الحماقات. بعض أفراد هاتين العائلتين يجني أموالاً طائلة من تحويل العملة. يا إلهي! ألا يخجلونه من أنفسهم؟'' قرّر دونالد التحدث إلى السيدة الأولى. وذات يوم سنة ١٩٤٠، أمسك ذراعها برقّة ومشيا معاً نحو الحديقة، وطلب منها أن تفعل شيئاً بخصوص عائلة كونغ. التفتت ماي–لينغ نحوه في فورة غضب وقالت له مستفيضة في الكلام: ''دونالد، تستطيع أن تنتقد الحكومة أو أي شيء آخر في الصين، لكن هناك أشخاص لا يحق لك توجيه أي نقد إليهم!'' كان هذا كافياً كي يتخذ دونالد قراره بالتخلي عن عمله عند الزوجين شيانغ. وهكذا ودّع البلاد التي أقام وعمل فيها لسبع وثلاثين سنة.

تربط ماي–لينغ بالأخت الكبرى وبعائلتها علاقة قوية ومميزة. منزل أختها هو منزلها، وتشعر فيه بارتياح أكثر مما تشعر مع شيانغ. إي–لينغ ربّت أولادها على نحو غير اعتيادي ليكونوا قريبين قدر المستطاع من ماي–لينغ، وحتى أكثر اقتراباً مما هم معها. اثنان منهم، دايفيد وجانيت، عاشا بالفعل كأنهما ولدا ماي–لينغ اللذان كانت تعجز عن إنجابهما. يخاطبانها niang (''الأم'')، ويبذلان ما في وسعهما لتلبية أي طلب تطلبه مهما كان بسيطاً. لم يتزوجا، وكانت دائماً محور حياتهما. إي–لينغ منحت الأخت الصغرى عائلة، وملأت ما لديها من فراغ بسبب حرمانها الإنجاب الذي يترك

إحساساً بالاستياء وغياب الرضا (''الأخت الحمراء'' عانت بالفعل من هذا الإحساس معظم أيام حياتها).

جانيت، ابنة إي–لينغ، تولّت إدارة شؤون منزل ماي–لينغ، والعاملون في المنزل أعطوها لقب ''المديرة العامة''. كانت قاسية معهم وتحمّلهم فوق طاقتهم، ولم يحبوها. ماي–لينغ، التي تهتم عادة بآداب السلوك، غضّت النظر عن وقاحة ابنة أختها وحتى عن سلوكها الأسوأ من ذلك. ذات ليلة توجهت جانيت من شونغ كونغ بالسيارة إلى منزل والديها الريفي خلال التعتيم. في هذه الحالة، تتقيد السيارات بالتعليمات وتبطئ في سيرها لكن جانيت اندفعت بسيارتها مسرعة. عندما حاول شرطي السير التقدم باتجاهها لإيقافها زادت سرعتها متجهة صوبه مباشرة وهي تصرخ: ''ابتعد!'' دفعته السيارة وهي تمرّ بقربه مسرعة وسالت دماؤه على الطريق. ترجّل معاونها واتخذ الإجراءات المناسبة لنقل الشرطي إلى المستشفى، وبقيت هي في السيارة دون أن يسبب ذلك إزعاجاً لها على الأرجح.

قوة إرادة جانيت ظهرت بحدّة في سلوكها. كانت سحاقية وتحدّت المجتمع بملابس الرجال وقصّ شعرها مثلهم، ووضع قبعة مائلة، ولم يكن هذا مألوفاً في تلك الأيام. كانت حين ترتدي بذلة غربية النوع أو ثوب الرجل التقليدي تبدو كشاب صغير. لم تقدم أي تنازل أثناء مرافقتها خالتها في رحلة رسمية إلى واشنطن، والرئيس روزفلت خاطبها قائلاً: ''يا بنيّ''. هناك امرأتان على الأقل معروفتان بأنهما عاشتا معها. لكن لم تعرّف خالتها إليهما، وماي–لينغ تجاهلت الأمر، ولم تطرح الموضوع معها أبداً.

الاتهامات بالفساد التي طاولت عائلة كونغ كانت بمعظمها تتعلّق بدايفيد. لكن الغضب الذي طاوله لم يتوقف عند القضايا المالية فقط. هو وأخوه الأصغر لويس لم يقتربا أبداً من ساحة القتال في الصين كما يفعل غالباً معظم أبناء النخبة. الأثرياء وذوو النفوذ يرفضون المخاطرة بحياتهم في الحرب وهذا سبب حملة الغضب والاستياء التي تستهدفهم. في إحدى حفلات العشاء، رفعت كأسها لشرب نخب ''الأسماء المئة القديمة'' – عامة الناس – الذين تحمّلوا وطأة الحرب. شعر السفير الأميركي جونسون، الذي كان حاضراً، بوجود توافق ضمني على ''القتال حتى آخر نقطة من دماء الشعب''، وفي هذه الأثناء، ''يواصل أفراد عائلة سونغ نشاطهم المخزي الذي يثير اشمئزازي كلياً في بعض الأحيان''. كانت الإجابة المفضلة عند الأجانب الذين يقيمون في هونغ كونغ عندما يطلب منهم فتح اعتمادات للإغاثة: ''لماذا لا يفعل هؤلاء الشبان الذين نراهم في حمّامات السباحة ودور

السينما أي شيء لبلادهم؟“ ممثل الرئيس روزفلت الشخصي، لوشلين كوري، قدم شكوى إلى الحكومة الصينية بخصوص أبناء عائلة كونغ.

لويس تخرّج في Sandhurst Military Academy برتبة نقيب في الجيش البريطاني. وعندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا النازية، كان سيُرسل إلى الجبهة. لكن هـ. هـ. أرسل برقية إلى السفير الصيني يطلب منه فيها التحدث مع الحكومة البريطانية. وكما ورد في مذكرات هـ. هـ.: ”قلت له إنني لم أفكر في سلامة ابني بل في الجنود السبعمئة الذين يتلقون أوامرهم منه. إنه لا يزال شاباً. كنت قلقاً من كونه مسؤولاً عن سبعمئة جندي. قلت له إنني أفضل أن يتولّى مهمة أخرى... في ما بعد تمّ تعيينه مدرباً عسكرياً في إنكلترا“.

بين أولاد إي-لينغ كانت روزاموند الأقرب إلى قلوب الناس، وهي ابنتها الكبرى التي صارت شابة لطيفة وهادئة الطباع. أحبت شاباً لم ترضَ به إي-لينغ، لأن والده قائد أوركسترا ”متواضع“ في قاعة للرقص. سافرت معه إلى أميركا وتزوّجا هناك. قبلت إي-لينغ زواجهما وأرسلت إليهما بالطائرة الكثير من الهدايا المترفة بوصفها مهراً لروزاموند. سقطت الطائرة وتم العثور على الأقمشة الحريرية فتعرضت إي-لينغ مجدداً لغضب شعبي عارم بسبب تبذيرها وفسادها في زمن الحرب.

على مرّ السنوات، تكوّنت لدى إي-لينغ قناعة بأن مهمتها في الحياة أن تعتني بأختيها المشهورتين وتعيلهما، وعلى نحو خاص الأخت الصغرى. آمنت أن هذا ما يريده الله منها، وتحصيل المال هو السبيل لهذه المهمة. صارت هذه القناعة حافزاً لها لجمع الثروة وأعطتها مزيداً من القوة في مواجهة الاتهامات المتزايدة. وفي ما بعد، عشية انهيار نظام شيانغ على الأراضي الصينية، ساءت حالة إي-لينغ الصحية واعتقدت أن نهايتها باتت قريبة. رأت أن الله يستدعيها إلى جانبه لأنه لم يعد في وسعها عمل شيء من أجله على الأرض. شعرت بالأمان وبأنها مستعدة للموت.

١٦

إحباط "الأخت الحمراء"

قبل سقوط هونغ كونغ أمام اليابانيين في ١٩٤١، كانت مستعمرة هونغ كونغ البريطانية الوجهة المفضلة لدى أولئك الذين لا يرغبون في البقاء في الصين ولديهم الإمكانات للمغادرة. تشينغ–لينغ التي تكره العيش في شونغ كينغ، عاصمة شيانغ كاي–شيك في زمن الحرب، اختارت هونغ كونغ مكاناً للإقامة بعد إجلاء شانغهاي. قرار السيدة سون البحث عن حياة مريحة وآمنة خارج وطنها الذي يخوض حرباً شرسة أثار الاستغراب. كثيرون توقعوا من حاملة مشعل "أبو الصين" أن تكون بطلة في مواجهة الأزمات والمخاطر. والصحافة اليابانية سخرت منها بدورها. لكن تشينغ–لينغ كانت مرتاحة لقرارها. المهم بالنسبة إليها ألّا تعيش في المدينة نفسها مع شيانغ.

نفور تشينغ–لينغ من القائد الأعلى لم تخفّ حدته على مر السنوات. عند بداية الحرب في ١٩٣٧، وبدافع وطني، ولأن موسكو أصدرت أمراً صارماً بالتعاون مع شيانغ، اضطرت "الأخت الحمراء" إلى أن تكون لطيفة مع صهرها مدة وجيزة. لكن مجاملاتها لم تخلُ من التعليق اللاذع: "لا شك أن القائد شيانغ كاي–شيك يستحق التهنئة لأنه وضع حداً لمزيد من الاقتتال الداخلي". كل من يعرفها يدرك جيداً أن كراهيتها لشيانغ لم تتراجع أبداً.

في هونغ كونغ، تابعت نشاطها بالمساهمة في تخفيف أعباء الحرب. أسّست "جبهة الدفاع عن الصين" لدعم الشيوعيين وجمع الأموال لهم وشراء المعدات ونقلها إلى قواعدهم. تكونت الجبهة من مجموعة صغيرة من المتطوعين بينهم ثلاثة أو أربعة يتقاضون الحد الأدنى من الأجور. كان تأثيرها ضئيلاً على المستوى المادي، لكنها لتشينغ–لينغ كانت منظمة خاصة بها. أشرفت على التفاصيل كافة، ووقّعت الوصولات للتبرعات مهما كانت صغيرة، وكتبت بنفسها رسائل شكر للمتبرعين. كانت تشينغ–لينغ راضية عن مشروعها المتواضع. هذا أثار دهشة الميجور إيفانس كارلسون من سلاح البحرية الأميركية، وهو مساعد الملحق في سلاح البحرية في الصين، فكتب أنها تتمتع "بالقناعة وبثقتها المطلقة بنفسها، ولا تعرف الأنانية". إنها في الواقع لم تسعَ أبداً في طلب السلطة لنفسها، وتعرف جيداً قدراتها المحدودة.

داخل المنظمة خلقت جواً من الصداقة والألفة. إسرائيل إيستين، وهو متطوع صار صديقاً لها لسنوات طويلة وكاتباً لسيرتها، وصف تجربته في المنظمة: ”مع زملائها في العمل، في المستويين الأعلى والأدنى، تصرفت بديموقراطية وحميمية، فشعر الجميع أنهم متساوون ويعملون بارتياح. اجتماعات الجبهة الأسبوعية، في مقر هونغ كونغ الضيّق في ٢١ سيمو رود، تُعقد في جوّ ودّي وغير رسمي، بين مكاتب تكدّست عليها الملفات والأوراق، وبوجود أكوام من المؤن والتجهيزات على الأرض أحياناً بانتظار توضيبها. كنا مختلفين في جنسياتنا ومواقعنا وأعمارنا. كنت الأصغر سناً، في الثالثة والعشرين. سونغ تشينغ–لينغ، الرئيسة، لم تحاول أبداً فرض نفوذها“.

”أحبّ الجميع حسّها بالفكاهة. تبلّغت ذات يوم أن السياسي البريطاني سير ستافوورد كريبس (الذي صار لاحقاً عضواً في وزارة تشرشل للحرب) يزور هونغ كونغ ويود لقاءها. دعته لتناول العشاء في منزلها. أعدّت مأدبة صغيرة، وقبل وصول الضيف المرموق علمت أنه نباتي. كان على الطاهي أن يبدأ إعداد الطعام مجدداً. ثم وردت معلومة إضافية أنه نباتي ولا يأكل الطعام المطبوخ. عند سماعها ذلك رفعت تشينغ–لينغ يديها في الهواء وقالت: ”في هذه الحالة ليس أمامنا سوى أن نتركه على المرج في الخارج ليرعى على راحته!“

في شباط/ فبراير ١٩٤٠، وصلت ماي–لينغ بالطائرة إلى هونغ–كونغ لتخضع لعلاج بالكيّ لمعاناتها من الجيوب الأنفية. أقامت في منزل إي–لينغ الكبير الذي يطلّ على المحيط. تأثرت تشينغ–لينغ برقّتها وضعفها وانتقلت بدورها لتكون بجانبها، ولأكثر من شهر، أقامت الأخوات الثلاث معاً ولم يفترقنَ، وهذا ما لم يفعلنه منذ سنوات عدة. الجبهة الموحدة في زمن الحرب سمحت لهنّ بوضع خلافاتهنّ السياسية جانباً والاستمتاع بالمودة التي تربط بينهن.

انتقدت تشينغ–لينغ في الماضي أساليب إي–لينغ في جمع الثروة، وقالت للصحافي إدغار سنو: ”إي–لينغ بارعة في عملها. لا تقامر أبداً. تشتري وتبيع بناءً على معلومات تحصل عليها مسبقاً... عن تغيرات في سياسة الحكومة المالية... قد تنتج أميركا رجالاً أثرياء، لكن الصين لا تستطيع ذلك. من المستحيل جمع ثروة هنا إلّا بالغش وإساءة استخدام السلطة السياسية بدعم من القوى المسلحة“. لكنها الآن تنعم بالحب الذي أغدقت الأخت الكبرى في إعطائه لها، ولا تريد أن تنتقدها. كما اختارت كلاماً لطيفاً وهي تتحدث عن ماي–لينغ. لاحظ إدغار سنو، الذي زار هونغ كونغ في تلك المدة، أنها ”إلى حد ما غيّرت رأيها“ بخصوص زواج ماي–لينغ. قالت له في ما مضى إنه زواج مصلحة من الطرفين ولا مكان للحب فيه، وقالت الآن: ”لم يكن الحب موجوداً في البداية لكنني أعتقد أنه صار

موجوداً الآن. ماي–لينغ تحب شيانغ بإخلاص، وهو يبادلها هذا الحب. لولا وجود ماي–لينغ، ربما كان في حالة أسوأ مما هو عليه".

ذات ليلة في ذلك الشهر، خرجت الأخوات معاً إلى أكثر الأماكن شهرة وصخباً في المدينة، مطعم وقاعة رقص في فندق هونغ كونغ. كانت على الأرجح أول مرة يسهرنَ فيها معاً مثل هذه السهرة. هذه الأماكن ليست مناسبة تماماً لهنّ. كسيّدات الأسر الملكية، اقتصرت حياة الأخوات الاجتماعية على المناسبات الرسمية أو الحفلات الخاصة. لكنهنّ في هذه الأمسية ارتدينَ أثواب الشيونغسام الرائعة، وجلسنَ وظهورهنّ إلى الحائط ليراقبنَ أهل هونغ كونغ بسحرهم أو عبثهم وهم يمرون بجانبهنّ. تشينغ–لينغ في ثوبها الأسود بدت معجبة بما يجري. إنها بالفعل تحب الرقص، خصوصاً الفالس، لكن موقعها لم يسمح لها منذ البداية أن تقترب من حلبة الرقص. أخذ الراقصون والراقصات ينظرون إليهنّ خلسة ليتأكدوا بالفعل أنهنّ الأخوات الثلاث، ويتهامسون عن المعنى السياسي لهذا اللقاء.

إميلي هان وصلت إلى المطعم برفقة ضابط من سلاح الجو. إي–لينغ بلّغت كاتبة سيرتها عن العشاء. رغم أنها عادة لا تحب أن تسلّط الأضواء عليها وتفضل الابتعاد عن الأنظار، لكن الأخت الكبرى تعرف كيف ترسل إيحاءات معينة. رسالتها كانت أن "الجبهة الموحّدة" متينة ومتماسكة. وهكذا، تمكنت الأخوات أخيراً من الاستمتاع بسهرتهنّ بضمير مرتاح.

وحدة الصف الداخلي بدأت تواجه أزمة فعلية. الشخص الثاني في الحكومة القومية، وانغ جينغ–واي، الذي كتب وصية سون يات–سين، انشقّ عن الحكومة ولجأ إلى المنطقة التي يحتلها اليابانيون وكان على وشك تشكيل حكومة عميلة بديلة عن حكومة شونغ كينغ. وانغ منافس للقائد الأعلى منذ زمن طويل. في ١٩٣٥، بمناسبة افتتاح مؤتمر للقوميين، اجتمع القياديون أمام الصحافيين لأخذ صور لهم. أصيب وانغ بجروح خطيرة عندما أطلق أحد المسلحين النار. كان الرجل يريد قتل شيانغ كاي–شيك الذي يجلس عادة على مقعد في منتصف الصف الأول. لكن القائد الأعلى الذي يتمتع بحاسة سادسة قوية غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة وقرّر ألّا يظهر في الصورة. فصوّب المسلح مسدسه إلى وانغ، المسؤول الأعلى الثاني، قبل أن يصاب بدوره. شك الجميع في شيانغ لأنهم لم يجدوا تفسيراً آخر لتغييره لرأيه في اللحظة الأخيرة. حاول شيانغ إقناع الناس بصدق نياته عبر إجراء تحقيق شامل. لكن سحابة الشكوك لم تتبدّد.

كان وانغ متشائماً من نتيجة الحرب. كما أنه رأى شيانغ مسؤولاً عن الهزائم، فأعلن أن خسارة شانغهاي وغيرها من المدن الرئيسية إضافة إلى مساحات شاسعة من الأراضي في وقت قصير جداً

هي نتيجة لتقصير نظام شيانغ "ديكتاتورية الرجل الواحد... الفاسدة والمظلمة". كما أن شيانغ، في رأيه، ينظر إلى خصومه بعين الريبة ويعاملهم بقسوة. هذا رأي شاركه فيه كثيرون. جوزف ستِلْوَل، الملحق العسكري للولايات المتحدة، لاحظ أثناء زيارته شونغ كينغ في ١٩٣٨ أن شيانغ "يسعى دائماً إلى إبعاد معاونيه لأنه لا يثق بهم... هذا الميل القديم عنده إلى فقدان الثقة بالآخرين منعه من تعزيز قوة جيشه".

والصين في اعتقاد وانغ لا يمكن حمايتها إلا بالسعي إلى "السلم" مع اليابانيين. نهاية ١٩٣٨، هرب خلسة من شونغ كينغ قاصداً شانغهاي، عبر هانوي، ونجا أثناء رحلته رغم محاولات عملاء شيانغ اغتياله (جروح الرصاص الذي أصابه أدت في النهاية إلى موته المبكر بعد ست سنوات). ترأس نظاماً عميلاً أسسه في نانجينغ تحت الاحتلال الياباني في آذار/ مارس ١٩٤٠.

كان وانغ الوريث الأصلي لسون يات–سين، وسون روّج "للآسيوية العظمى"، وهي شعار المحتلين اليابانيين. هذا ساعد وانغ في ادعائه أنه وريث سون، وشكّل تحدياً غير مسبوق للقائد الأعلى. لتأكيد شرعيته، أطلق شيانغ كاي–شيك، بصورة رسمية، على سون لقب "أبو الصين" (مع أن الأمر يبدو مستغرباً منطقياً، لأن كل ما فعله سون بخصوص اليابان كان تشجيع طموحها العدواني نحو الصين بدلاً من رفض هذا الطموح).

في اليوم الذي أقسم فيه وانغ اليمين في نانجينغ، قررت تشينغ–لينغ التوجه إلى شونغ كينغ لإعلان تضامنها مع القائد الأعلى. الأخت الصغرى اقترحت هذه الرحلة، والأخت الكبرى أبدت حماسة كبيرة للمشاركة فيها، و"الأخت الحمراء" أرادت إرضاءهما، وأن تقول للناس إن أرملة سون تعارض نظام وانغ. سافرت الأخوات الثلاث بالطائرة إلى العاصمة الحربية في اليوم التالي.

لاقت "الحمراء" ترحيباً كأنها ملكة وإلهة ونجمة سينمائية في الوقت نفسه. صحيفة *Ta Kung Pao* الشهيرة أوردت في عنوانها الرئيسي: "أهلاً وسهلاً، مدام سون". وصحيفة أخرى لفتت الانتباه إلى ثوبها الشيونغسام الأسود وحذائها المسطّح الكعبين الرمادي–الأزرق، وإطلالتها التي تدلّ على جمالها وأناقتها المشرقة. قيل أن "عشرات الآلاف من السيدات احتشدنَ إعجاباً بمدام سون ومن أجل تأمّل حضورها اللافت ورقيّها.

في الأسابيع الستة التالية، أجرت الأخوات جولات سريعة لزيارة الأماكن التي تعرّضت للقصف، ومشاريع الإغاثة، والبيوت التي أعدت لإيواء أيتام الحرب. كنّ سعيدات معاً وهنّ يتذكرنَ حياتهنّ في ما مضى. إميلي هان لحقت بهنّ ولاحظت: "تأثرت وهن يضحكنَ ويتمازحنَ، ويستعدنَ ذكريات أيام الدراسة في جورجيا". تشينغ–لينغ انضمت إلى إي–لينغ في التعبير عن دهشتها مما فعلته

الأخت الصغرى وكيف استطاعت المضيّ قدماً في السنوات الثلاث الماضية "وتغلّبت على الموت". وماي–لينغ وتشينغ–لينغ أثنتا على الأعمال الخيرية التي تشرف عليها الكبرى. رافقهنّ في جولاتهنّ صحافيون ومصوّرون وسينمائيون لتسجيل هذه اللحظات التاريخية.

لكن تشينغ–لينغ حرصت على الابتعاد عن القائد الأعلى وانتبهت كي لا تبتسم في حضوره. في إحدى الصور المعبّرة، وقفت بجانب شيانغ الذي تألق وجهه وهي تضغط بشدة على شفتيها. وفي إحدى حفلات الشاي، وقف شيانغ بجانبها منتصب القامة أكثر من عشر دقائق، وهو كان بالتأكيد يرغب في أن تلتفت نحوه وتتحدث إليه كي يرى الضيوف العلاقة الطيبة بينهما، لكن تشينغ–لينغ أصرّت على أن تبقى بعيدة. قالت لصديقتها الألمانية القريبة منها آنا وانغ، التي كانت في شونغ كينغ آنذاك، إنها تشعر بأن شيانغ يستغل وجودها وترغب في العودة إلى هونغ كونغ.

في هذه الأثناء، كانت الجبهة الموحدة بين الشيوعيين والقوميين تتداعى شيئاً فشيئاً. كلّف شيانغ "الجيش الأحمر" خوض حرب عصابات خلف الخطوط اليابانية. وفي تلك المناطق كانت أيضاً قوات من القوميين. لكن الواقع أثبت أن فكرته بإمكانية توحّد المقاتلين في مواجهة عدو مشترك مجرد خيال. انشغلوا في القتال بينهم في معارك ازدادت حدة واتساعاً، وكان الحمر غالباً المنتصرين. بعد بضعة أشهر من رجوع تشينغ–لينغ إلى هونغ كونغ، في كانون الثاني/ يناير ١٩٤١، شهد نهر بانغتزي معركة شرسة بين الطرفين. والواجهة المخادعة للجبهة الموحّدة انهارت.

كانت تشينغ–لينغ تتوق إلى فرصة مماثلة لشنّ هجوم لاذع على شيانغ، للتنفيس، لو جزئياً، عن إحساسها بالإحباط لاستغلاله وجودها في شونغ كينغ. لكنها اكتفت بإرسال برقية إلى القائد الأعلى تطلب منه فيها "التوقف عن قمع الشيوعيين". موسكو لم تسمح لها بأكثر من ذلك، خصوصاً إدانة شيانغ صراحة. إحساسها بالإحباط تضاعف في تشرين الثاني/ نوفمبر، في الذكرى العاشرة لوفاة دنغ يان–دا. جريمة قتل الرجل الذي أحبته بلا أمل ظلّت الدافع الأساسي لكراهيتها التي لا تلين للقائد الأعلى. ولم يكن متاحاً لها سوى الإشارة إلى "البعبع" بطريقة غير مباشرة في مقالتها في ذكرى يان–دا. ربما بفضل هذا التحفظ خلت مقالتها من الضغينة واللغة الشيوعية المتداولة التي اتصفت بها تصريحاتها عادة. ضمت مقالتها تعابير حملتها أحاسيسها كما لم تفعل من قبل. يان–دا كان، كما وصفته، "آخر زهرة جميلة تشرّفت بها ثورتنا".

في السابع من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١، شنّ اليابانيون هجوماً على بيرل هاربر، وقصفوا هونغ كونغ بعد ذلك. بينما كانت الطائرات تهدر متوعّدة فوق المدينة، أسرعت تشينغ–لينغ وصعدت على سلمٍ من الخيزران حملها لتجاوز حائط قديم لتصل إلى حديقة البيت المجاور حيث يوجد ملجأ

يحمي من غارات الطائرات. كتبت لأخيها ت. ڤ. في ما بعد عن الغارة: ’’توترت للغاية. شعرت أنني مريضة في الأسبوع الذي تلاها‘‘. ولم تنسَ حسّها بالسخرية من ذاتها فأضافت: ’’شعري يتساقط باستمرار... أعتقد أنني سأصبح صلعاء قريباً‘‘.

كان ت. ڤ. متضامناً مع تشينغ–لينغ وقضيتها، وأعارها اسمه رئيساً لجبهة الدفاع التي أسستها. غضب شيانغ منه وأرسل له برقيات يطلب منه الانسحاب. لكن ت. ڤ. حاول التأجيل بأعذار شتى حتى وصله إنذار. استقال من منظمة تشينغ–لينغ لكنه ظلّ قريباً من ’’الأخت الحمراء‘‘ ومتعاطفاً معها، وتشينغ–لينغ أيضاً لم تتأثر علاقتها بأخيها بسبب هذه الحادثة.

في اليوم الذي تعرضت فيه هونغ كونغ للقصف بالطائرات اليابانية، كان ت. ڤ. يزور الولايات المتحدة للقاء الرئيس روزفلت بصفته ممثلاً شخصياً عن شيانغ. أرسل برقية إلى ماي–لينغ: ’’عاجل. إلى مدام شيانغ. هونغ كونغ في خطر. هل تستطيعين إرسال طائرة أثناء الليل لإبعاد الأخت الثانية عن الخطر؟ أرجوك، أجيبي‘‘.

شونغ كينغ أرسلت طائرة لكن تشينغ–لينغ رفضت بإصرار المغادرة. فضّلت البقاء في هونغ كونغ التي قد يحتلها اليابانيون على العيش في المدينة نفسها مع صهرها البغيض. إي–لينغ التي كانت في هونغ كونغ أيضاً حاولت إقناع تشينغ–لينغ بتغيير رأيها، لكنها فشلت، فقررت بعناد أنها في هذه الحالة لن تغادر هونغ كونغ بدورها. عندئذٍ خضعت تشينغ–لينغ في اللحظة الأخيرة. لم تجرِ أي ترتيبات للرحيل، وخادمتها جمعت بعض الملابس القديمة في ظلمة التعتيم الذي غرقت فيها المدينة، وأسرع الجميع إلى المطار. فجر اليوم العاشر، قبل احتلال اليابانيين المدينة، أقلعت الطائرة إلى شونغ كينغ وعلى متنها الأختان.

الاستقبال في العاصمة الحربية اختلف كثيراً عمّا كان عليه منذ سنة. كان عدائياً بكل ما للكمة من معنى، وهذا أثار دهشة تشينغ–لينغ. كتبت إلى ت. ڤ. تعبر عن استيائها: ’’صحيفة *Ta Kung Pao* رحبت بنا بنشر مقالة افتتاحية تتهمنا فيها بإحضار كمية كبيرة من الحقائب وسبعة من جراء كلاب البودل الأجنبية وفريق من الخدم‘‘، والواقع ’’أنني لم أستطع إحضار ما لديّ من وثائق ومقالات قيّمة، كما تركت كلابي وملابسي... لم أحمل معي قلماً واحداً مع أنني أكتب كل يوم... أردت أن أردّ على الصحيفة... لكن قيل لي أن ألتزم الصمت الوقور‘‘.

تشينغ–لينغ لم تشملها الانتقادات بالفعل التي استهدفت الأخت الكبرى بالدرجة الأولى بالإضافة إلى زوجها هـ. هـ. كونغ الذي لم يكن أصلاً في الطائرة. نزل الطلاب في مدن عدة إلى الشوارع ليتظاهروا (هذا تصرف غير اعتيادي في زمن الحرب) ضد الزوجين. وتوالت الاتهامات: ’’فيما

كانت هونغ كونغ تسقط، أرسلت الحكومة طائرة لإجلاء موظفين رسميين، لكنها لم تحضر سوى السيدة كونغ ومعها سبعة كلاب أجنبية و٧٢ حقيبة". وهتف المتظاهرون: "فليسقط هـ. هـ. كونغ الذي استعمل طائرة لنقل كلاب أجنبية!... الإعدام لـ هـ. هـ. كونغ!"

مع أن تشينغ–لينغ تعلم أن التهمة غير صحيحة وأنها تؤذي إي–لينغ، لكنها لم تفعل شيئاً لمساعدة أختها. المكانة التي تتمتع بها عند الطلاب والتي تصل حد التقديس سوف تهتز إذا فعلت أي مبادرة ولذلك آثرت الصمت.

لزمت صمتاً مماثلاً حين بدأت حياتها في شونغ كينغ بالإقامة عند إي–لينغ، في قصر عائلة كونغ بأعمدته الحمراء العالية ونوافذه الكبيرة التي تطل على النهر. قيل أن أختها الشريرة تسجنها هناك. زو إن–لاي، المبعوث الشيوعي في شونغ كينغ، أبلغ ماو في ينان أن تشينغ–لينغ "لا يسمح لها باستقبال الزوار بحجة النقص في عدد الخدم، والزوجان كونغ يجبرانها على الإقامة في غرفتها مع شخص آخر، وهو في الواقع يراقبها". لكن تشينغ–لينغ كان لديها طابق بأكمله وتستطيع استقبال من تريد. قالت لأخيها ت. ف: "الأختان لطيفتان للغاية معي"، مع أنها في العلن لم تكذّب الإشاعة.

إي–لينغ لم تطلب من أختها مصارحة الناس. وبالفعل، يسّرت الأمر لـ"الأخت الحمراء" عندما قالت لها إنها "لا تهتم بالشائعات".

بعد مدة قصيرة انتقلت تشينغ–لينغ إلى منزلها الخاص في شونغ كينغ. كانت تلتقي أختيها لكنها حرصت قدر الإمكان على ألا تكون في المكان نفسه مع شيانغ.

الحياة هنا صعبة بالمقارنة مع هونغ كونغ. كان الموظفون لديها يشترون الأغراض من السوق الذي يعاني من شح المواد الغذائية وارتفاع في أسعار مواد أساسية مثل البصل والسكر وحتى الملح ناتج عن التضخم. لا توجد جوارب أو أحذية، وثوب شيونغسام العادي لم يكن ثمنه يتجاوز ثمانية يوانات في شانغهاي قبل الحرب، لكنه يباع هنا بأكثر من ألف يوان. مرت أشهر دون أن تتذوق مشروبها المفضل، القهوة، وبعد حضورها حفل استقبال رسمي، كان أفضل ما تتذكره هناك أنها تناولت سلطة البطاطا والبطيخ. أصدقاؤها قدّموا إليها هدايا مثل علبة سردين أو القليل من التفاح أو جوارب. في الصيف، كانت تملأ حوض الحمام بالماء البارد وتجلس فيه.

أحاطت نفسها بمجموعة صغيرة من الأصدقاء الشباب المخلصين، من الجناح اليساري، من الصينيين والأجانب، كما كانت تفعل في هونغ كونغ. ولأنها عاشت في حلقة ضيقة، أحاط بها جوّ من الغموض، فصارت تثير اهتمام السياح، وكثيرون من الذين زاروا المدينة سعوا إلى التعرف إليها. وهي في معظم الأحوال فضلت الانزواء.

منظمتها تابعت نشاطها، وهمها الأساسي في هذه المدة كان الحصول على دعم أميركي للمناطق التي يسيطر عليها الشيوعيون. من أجل هذا الهدف، تعرفت إلى موظفين رسميين وصحافيين أميركيين ولم تفوّت فرصة للتنديد بالقائد الأعلى. قالت للجميع إن شيانغ ''مجرد ديكتاتور''، وادّعت أن ''هناك علاقة وثيقة بين أعضاء الحكومة العميلة وبين إدارة (شونغ كينغ)''. لاحَظوا ''حقدها العميق'' وأنها كانت ''صريحة للغاية في انتقادها القائد الأعلى''. كثيرون منهم تعاطفوا معها. لكنها أصيبت بمزيد من الإحباط لأنها اضطرت إلى أن تطلب منهم ''التوقف عن نشر'' ما قالته.

الجنرال جوزف ستلويل، المسؤول في ذلك الحين عن الموظفين عند القائد الأعلى لمسرح الصين (أي شيانغ)، لم يتفق مع شيانغ في وجهة نظره، ورأى أن ''الأخت الحمراء'' رائعة. ستلويل عمل في الصين في مدد متقطعة منذ العشرينيات ويعرف البلاد جيداً. كان رجلاً قريباً من الناس. كتب وصفاً موجزاً عن رحلاته في الصين يعطي لمحة عن شخصيته. في كشك يبيع الطعام في الريف، رأى الطاهي يسكب ''النودلز'' في ''وعاء استخدمه للتو أحد الزبائن ومسحه بفوطة سوداء كأنها كانت مرمية في كاراج. مسح عودين على بنطلونه، ووضعهما في الوعاء، وأعطاه لصبي حمله بحركة مسرحية إلى الزبون''. لم يصب ستلويل بالغثيان، كما يجري مع معظم الغربيين، بل نظّف وعاءه والعودين بطريقته. طلب وعاء فيه ماء يغلي، ورفعه كأنه يريد سكب ما فيه على رأس الطاهي، فأثار موجة من الضحك بين الحاضرين. بسبب هذه النكتة، ''صار عند الموجودين شخصاً عظيماً لديه حسّ الفكاهة ولذلك يستطيع أن يفعل ما يشاء، حتى أن يحفّ العودين بسكين جيب قبل أن يستخدمهما''.

كتب ستلويل عن تشينغ–لينغ في مذكراته: ''مدام سون هي الأكثر لطفاً بين النساء الثلاث، والأكثر دهاءً على الأرجح. إنها سريعة الاستجابة، وجديرة بالمحبة، وهادئة ورصينة ولا يفوتها أي شيء''. عندما استدعاه روزفلت وذهب ليودعها، كما كتب في مذكراته، ''أخذت تبكي وبدت متأثرة... أرادت المجيء إلى الولايات المتحدة لتخبر روزفلت من هو شيانغ... وتطلعه على حقيقة شخصيته. 'إنه نمر من ورق'... 'لماذا لا تضعه الولايات المتحدة في المكان الذي يستحقه'''.

ثمّة أميركيون آخرون لهم رؤية مختلفة عن ''الأخت الحمراء''. الديبلوماسي الأميركي جون ملبي كتب في مفكرته بعد لقائه بها: ''سحرها وجاذبيتها الذائعان الصيت لا شك فيهما، موجودان، لكنها بدت لي امرأة باردة وقاسية وبلا رحمة، تعرف ماذا تريد وكيف تحصل عليه''.

لم تستطع أيضاً منافسة الأخت الصغرى، سيدة الصين الأولى في زمن الحرب، في تألّقها ومكانتها. في ١٩٤٣، أجرت ماي–لينغ جولة ناجحة في الولايات المتحدة، وهذا حرك لدى

"الحمراء" إحساساً بالغيرة. في رسالة لها لأحد أصدقائها، استخدمت تشينغ–لينغ أسلوباً لاذعاً وحاولت التزام التحفظ والإنصاف:

> ماي–لينغ تبدو كسيدات الجادة الخامسة وتتصرف كواحدة من الـ"٤٠٠"[26]، هذا لفت الانتباه إلى التغيير الكبير الذي طرأ على وزنها... مهما يُقال، فقد نجحت في توفير دعاية واسعة النطاق للقضية الصينية، وكما قالت أمام حشد من المعجبين: "وضّحت للأميركيين أن الصين ليست بلاد حمّالين وعمال مصابغ فقط!" أعتقد أن الصين يجب أن تعبّر لها عن شكرها من أجل ذلك... أفراد طاقم الطائرة تحدثوا عن العدد الكبير من الحقائب التي أحضرتها وكميات الطعام المعلب وغيرها. لكنني لم أحصل على علبة واحدة من الفاصوليا المطبوخة أو... زوج من الأحذية. قيل لي أنه لم يكن هناك مكان لها وسوف تُجلب "على الطائرة التالية"! بعد الحرب، في غالب الظن!

26 لائحة شهيرة من أفراد المجتمع المخملي النيويوركي في أواخر القرن التاسع عشر.

هدية ماي–لينغ لها اقتصرت على مرآة صغيرة من البلاستيك يصعب الحصول عليها في شونغ كينغ. لكنها كانت تريد جوارب من النايلون. ذات مساء، وبعدما ضربت بيدها بعوضة على كاحلها قالت لضيفتها وهي تبتسم: "لا جوارب، هذا ما يحدث. أعتقد أنني لا أراعي قوانين حركة 'الحياة الجديدة'، لكنني لم أستطع الحصول على جوارب النايلون من أميركا كما فعلت أختي الصغيرة، الإمبراطورة".

في ١٩٤٤، ذهبت أختاها في زيارة إلى البرازيل، وتشينغ–لينغ رافقتهما إلى المطار لتودعهما. لفتت انتباهها الطائرة التي تنتظرهما: "لم أرَ طائرة بهذا الحجم من قبل. إنها أشبه بمقصورة 'البولمان' (مقصورة فخمة من عربات القطار)". وأمام أصدقائها الأميركيين عبرت عن رفضها رحلة أختيها اللتين "تخلّتا" عن الحرب التي تخوضها الصين، وهذا أمر لا يمكن أن تقبله.

تشينغ–لينغ احتفظت بسخريتها من أختيها في محيطها الضيق وحرصت على إبراز مظهر المودة أمام الناس. صديقتها الحميمة آنا وانغ علقت على ذلك: "لم يكن لديها أوهام حول نفوذ 'سلالة سونغ'... وتكره نزوع شيانغ كاي–شيك نحو الديكتاتورية، وتعرف جيداً أهداف مدام كونغ وشهية مدام شيانغ للبذخ والترف. مع أصدقائها المقربين تتحدث بحرية عن هذه الأمور. لكنها اكتسبت على امتداد سنوات عدة حنكة سياسية مذهلة وقدرة على ضبط النفس منعتاها من الإفصاح عن آرائها في أوقات غير مناسبة". وبالفعل، انتظرت تشينغ–لينغ، بإحباط وعزيمة في الوقت نفسه، أن تنتهي الحرب ضد اليابان، كي تبدأ حرب الشيوعيين ضد القائد الأعلى، ويزول نظام شيانغ بالكامل، حتى لو كان هذا كارثة على أسرتها وأختيها.

١٧

الأخت الكبرى: انتصار وفاجعة

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٢، وصل وندال ويلكي، المرشح الجمهوري للرئاسة في ١٩٤٠، إلى شونغ كينغ ممثلاً شخصياً عن الرئيس روزفلت. حتى ذلك الحين كان الزائر الأبرز إلى عاصمة الحرب، واصطُحب في جولة إلى الجبهة. أعجبه الوضع هناك وكان مأخوذاً بنحو خاص بماي–لينغ. بعد سيل من الإطراء والمجاملة دعاها للحضور إلى الولايات المتحدة في زيارة ودّية. إنها تتمتع "بالذكاء والقدرة على الإقناع والطاقة المعنوية... والفطنة والسحر، ولديها قلب عطوف وكريم. وقورة وجميلة في سلوكها ومظهرها، ومتشبثة بعقيدتها... السيدة ربما تكون السفيرة المثالية لبلادها". عشية سفره طلب ويلكي من ماي–لينغ أن تركب معه الطائرة إلى واشنطن "في الغد" (لا يوجد أي دليل يشير إلى علاقة بينهما، كما ادعى البعض).

هذه الحماسة، من جانب شخص قريب من البيت الأبيض، ساهمت في إقناع ماي–لينغ بزيارة الولايات المتحدة. خطرت الفكرة في بالها منذ المرحلة الأولى لاندلاع الحرب، لكنها تردّدت، ليس بدافع الخوف من قلة اهتمام الأميركيين، بل من اهتمامهم الزائد. قالت لصديقتها إيما ميلز: "أستطيع أن أتصوّر ما سيحدث. جميع أصدقائي، وآلاف الناس الذين كتبوا الرسائل وتبرعوا بالمال، ومئات الآلاف من الفضوليين، وبالتأكيد آلاف الصحافيين وذوو الشأن الذين يودون التعرف إليّ أو إجراء لقاء صحافي معي... سأجد نفسي في هذه الحالة بعد ساعات قليلة من وصولي". خافت ألّا تكون مستعدة لهذا القدر من الضغط (إنها تعمل بجهد منذ مدة وتشعر أنه "لم يعد لديها قدرة على الاستمرار")، وسوف تخيّب أمل الشعب الأميركي وبلادها في الوقت نفسه. وكما قالت لإيما، هي خائفة من تعاطف الأميركيين ومودتهم. وعندما ترد إيما بأنها لا تعتقد أن الأميركيين يتصرفون على هذا النحو، تقول لها ماي–لينغ: "إيما، أنت لا تعرفين شعبك".

ماي–لينغ وجدت ما توقعته من ترحيب حار للغاية لكن قوته تجاوزت بكثير توقعاتها. ما كتبته لإيما كان في ١٩٣٩، قبل بيرل هاربُر. منذ ذلك الحين، ارتفع مستوى تعاطف الأميركيين مع الصين بصورة مذهلة. هذا البلد الفقير والغامض يحارب وحده اليابان، العدو المخيف والشرير، منذ

أربع سنوات ونصف. وماي–لينغ تمثل هذه الأمة الشجاعة. إنها امرأة جميلة، وهي أميركية في كل شيء ما عدا وجهها، ''ببشرته العاجية الناعمة''. عند وصولها إلى واشنطن العاصمة في مستهل زيارتها الرسمية، أُعدّ لها استقبال رائع. في محطة القطار، وجدت السيدة روزفلت بنفسها في انتظارها، فأمسكت بيدها ورافقتها لتلتقي الرئيس الذي كان في سيارة البيت الأبيض خارج المحطة. تحدثت ماي–لينغ أمام سبعة عشر ألف شخص احتشدوا في ماديسون سكوير غاردن في نيويورك، وأمام ثلاثين ألفاً في هوليوود بول في لوس أنجلس، ولاقت الترحيب من جماهير متحمسة من مدينة إلى أخرى. وعندما وقفت تخطب أمام الكونغرس – هذا شرف كبير – في ١٨ شباط/ فبراير كان حضورها مؤثراً ولفتت الأنظار بثوبها الشيونغسام التقليدي الأنيق، ورقتها وقدّها الصغير، وسط كل أولئك الرجال البارزين، وتحت هذا السقف الرائع. كما أن خطابها بالإنكليزية الأميركية كان خالياً من أي خطأ أو عيب، فأدمعت الحضور يصفقون لها لأربع دقائق على التوالي.

بالنسبة إلى ماي–لينغ، لم يكن هذا ممكناً لولا الجهد الكبير الذي تبذله. هي بطبعها مهووسة بالكمال، وترهق نفسها بكتابة خطاباتها وإعادة كتابتها. وفي بعض الأحيان، تجهد نفسها لدرجة أنها تغيب عن الوعي. عندما شاهدها زوجها في فيلم إخباري وهي في الحي الصيني بنيويورك، انشغل باله عليها لأنها بدت له مريضة وتقاوم كي تكون بالمظهر المناسب. كانت مريضة قبل رحلتها. عانت من ارتفاع الضغط ومشكلات في المعدة. اعتقد الأطباء في البداية أنها مصابة بالسرطان (تبين أنها لم تكن كذلك). ومن أجل تلقّي العلاج قبل بدء جولتها الرسمية – وللعناية بنفسها قليلاً – أتت إلى أميركا قبل ثلاثة أشهر وأقامت في مستشفى الكنيسة المَشْيخيّة في نيويورك، ولذلك بدت في أفضل حال أمام الجمهور الأميركي، وكسبت مودته، وجعلت الحكومة الأميركية تضاعف المساعدة المقرّرة للصين. كانت الرحلة انتصاراً كبيراً.

لكن وُجّهت إليها انتقادات بعضها من العاملين في البيت الأبيض. أحضرت معها شراشف حريرية وكانت تطلب تغييرها مرة أو مرتين في اليوم إذا نامت أثناء النهار. والواقع أن هذا سببه الطفح الجلدي الذي عانت كثيراً منه، وكان الحكاك يخفّ عندما تنام على شراشف نظيفة. والأميركيون الذين تعاونوا مع مرافقيها انزعجوا من السلوك السيئ لابن أختها دايفيد، وابنة أختها جانيت، وقد رافقاها بصفتهما مساعدين لها. إيما مثلاً وصفت دايفيد بأنه ''مقزّز'' وجانيت بأنها ''غريبة الأطوار''. العاملون في البيت الأبيض رأوهما متعجرفيْن، والمخابرات الخاصة انزعجت من طلباتهما الوقحة، لكنهما مخلصان في خدمة خالتهما ويعتنيان بها أكثر من أي شخص آخر. كانت ماي–لينغ تتكّل عليهما.

نزلت من القطار في واشنطن في زيارتها الرسمية إلى المدينة ودايفيد بجانبها. ظهر في صور عدة في الصحافة رغم أنه ليس موظفاً رسمياً. ولم يكن أيضاً ابن الأخت الذي يلفت الأنظار وتتمنى خالته أن يراه الناس، فهو بدين وملامحه عادية وبلا جاذبية. مع ذلك، تمّ التعريف عنه بأنه ''سكرتيرها''، وكان يوقّع على البرقيات لشكر الناس مثل الحاكم العام لكندا الذي استضافها. توقيع ابن أختها على مراسلات من هذا القبيل، بدلاً منها، غير بروتوكولي وغير لائق، وقد أزعج الديبلوماسيين الصينيين كثيراً. لكن ماي–لينغ تجاهلت اعتراضاتهم. كانت حنونة للغاية مع ابن أختها وابنة أختها المفضلين لديها، وتريد أيضاً إرضاء إي–لينغ، لأنها تشعر أنها مدينة بالكثير لها. الأخت الكبرى تدفع جزءاً كبيراً من فواتير الرحلة وهي في الوقت نفسه متهمة بالفساد. وبما أن دايفيد موضع اتهام بدوره، حرصت ماي–لينغ على إعطائه هذه الصورة اللائقة لإظهار دعمها للأخت الكبرى وعائلتها.

رحلة أميركا حققت نجاحاً كبيراً للصين، وماي–لينغ قضت وقتاً ممتعاً في البلاد التي تشعر أنها وطنها الفعلي. أمضت ثمانية أشهر هناك ولم تعد إلى شونغ كينغ حتى تموز/ يوليو ١٩٤٣، رغم توسلات زوجها لها للعودة.

كتب لها القائد الأعلى ليقول كم يفتقدها، ومدى حزنه عندما صعدت إلى الطائرة، وإحساسه بالوحدة في عيديْ رأس السنة الغربي الصيني. حين عادت ماي–لينغ، أتى شيانغ إلى المنزل ورآها مستلقية على السرير (أصابها تصلّب في رقبتها). كانت أختاها وولداه بجانبها. قال إنه سعيد لهذا الاجتماع العائلي. وحين صارت ماي–لينغ معه وحدها أخبرته عن إنجازاتها في الرحلة، فاكتملت سعادته.

لكن الحزن سرعان ما خيّم على حياتهما. تناهى إلى مسمع السيدة الأولى أن القائد الأعلى التقى نساء غيرها أثناء غيابها في أميركا، وخاصة زوجته السابقة جنّي التي تقيم في شونغ كينغ. وأكد بعض الناس أنهم رأوها في حوض السباحة في الكلية الحربية، وشيانغ يجلس بجانب الحوض يراقبها. انتقلت ماي–لينغ في الحال إلى منزل الأخت الكبرى. ولم تهدأ إلّا بعد بضعة أشهر ورضيت أخيراً بعد إلحاح شيانغ أن الحكاية لا أصل لها. والحقيقة أن شيانغ عانى من الرغبة الجنسية أثناء ابتعاد زوجته.

مزاج ماي–لينغ المرير استمر، فاعتلّت وعانت من الديزنطاريا والتهاب قزحية العين الذي كان يسبب لها الألم والحساسية من الضوء. كما أن الطفح الجلدي زاد حدة في الجو الضبابي الرطب في

شونغ كينغ. انتفخت بقع قرمزية على وجهها وجسمها. حاولت أثناء الليل التحكم في رغبتها في الحكاك ولم تعرف سوى لحظات من النوم والراحة.

كانت في حالة سيئة عندما اضطرت إلى مرافقة زوجها إلى القاهرة للمشاركة في مؤتمر يحضره الرئيس روزفلت ورئيس الوزراء ونستون تشرشل، ويُعقد من ٢٢ إلى ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٣. مؤتمر القاهرة سوف يتخذ قرارات حول الحرب وما بعد الحرب في آسيا، ويضع بوضوح شيانغ في المستوى نفسه مع روزفلت وتشرشل. كانت تتحدث بارتياح وترتدي ثوب الشيونغسام الأسود الأنيق، وسترة بيضاء، وحذاء تزيّنه عقد فراشية جميلة. ظهرت في الصور مرتاحة للغاية، بلا ملامح متوترة. الحكاك المستمر جعلها تحرك رجليها قليلاً عندما اضطرت إلى الجلوس مدداً طويلة لحضور الاجتماعات. هذه الحركة كشفت عن رجليها المتناسقتين والجميلتين، فقال البعض إنها تعمدت هذه الحركة لتحويل انتباه الرجال عن أداء زوجها الضعيف. كتب بروك: ”تسبب ذلك في إرباكٍ بين الذين يحضرون المؤتمر. خُيّل إليّ أنني سمعت تنهيدات من المجموعة الأصغر سنّاً!“

أنطوني إيدن، الذي سيصبح في ما بعد رئيساً للوزراء، كان في القاهرة مساعداً لتشرشل، وتركت لديه انطباعاً لطيفاً: ”المدام فاجأتني. تتصرف بمودة كأنها ملكة... مثابرة وجدية في الترجمة، وليست مندفعة أو سريعة الغضب كما وصلني“. إيدن وجد القائد الأعلى مثيراً للإعجاب. ”من الصعب تصنيفه في فئة معينة ولا يبدو محارباً. يحافظ على ابتسامته لكن عينيه لا تعكسان الابتسامة بهذه السهولة، فتأسرانك بنظرتهما العميقة والثابتة... قوي كنصل فولاذي حاد... أنا معجب بهما، وبشيانغ خاصة، وسأكون مسروراً لو عرفتهما أكثر“.

الزوجان شيانغ يحققان الكثير وهما معاً. إعلان القاهرة كان ”انتصاراً لشيانغ كاي–شيك“. وقد نصّ بوضوح على ”أن الأراضي كافة التي انتزعتها اليابان من الصين، بما في ذلك منشوريا وفورموزا (تايوان)، والبسكا دورز، يجب أن تعود إلى السلطة الصينية“. تلك كانت أمنية شيانغ التي أوصى ماي–لينغ بحملها إلى الرئيس روزفلت أثناء زيارتها إلى أميركا.

في اليوم الأخير من المؤتمر، كتب شيانغ في مفكرته:

> هذا الصباح ذهبت زوجتي لتلتقي روزفلت حول قضايا اقتصادية وعادت في الحادية عشرة لتتحدث مع هوبكنز (هاري، هو المؤتمن على أسرار روزفلت). حتى مغادرته في المساء، مضت عشر ساعات دون أن ترتاح دقيقة واحدة، وكانت منتبهة إلى كل قضية تُناقش. كل كلامها ينم عن تركيز مطلق. في العاشرة ليلاً،

كان من الواضح أنها متعبة جداً، مع إصابتها في عينها والحكاك الذي لا يهدأ. من المدهش أنها تستطيع العمل بهذه الطريقة. لا أعتقد أن إنساناً عادياً بإمكانه بذل هذا الجهد مثلها.

ذات يوم أتى تشرشل لزيارتهما، وشيانغ رأى زوجته وهي تضحك وتتحدث معه بحيوية. في ما بعد، سألها عمّ كانا يتحدثان؟ أخبرته أن تشرشل قال لها: ''أنت على الأرجح تظنين أنني أسوأ رجل عجوز عرفته، أليس كذلك؟'' (هذا الكلام، إذا كان صحيحاً، من المحتمل أن تكون له صلة بردّ تشرشل على طلب شيانغ العودة إلى هونغ كونغ: ''على جثتي''.) وماي–لينغ، كما دوّن زوجها في مفكرته، قالت لرئيس الوزراء: ''عليك أن تسأل نفسك: هل أنت رجل سيئ؟'' وقالت إن تشرشل أجابها: ''أنا لست شريراً''. واستنتج شيانغ أن زوجته عرفت كيف تؤنب تشرشل. وبغض النظر هل هذا الجزء من الحديث منقول بدقة أم لا، نجحت ماي–لينغ في حفظ مقام زوجها، وهو بدوره كان فخوراً بها.

عادا سعيدين من القاهرة، وشيانغ اصطحب زوجته لتناول الطعام في الهواء الطلق على التلال الموحشة المحيطة بشونغ كينغ. عشية عيد رأس السنة في ١٩٤٣ كتب: ''يا لها من بهجة!''

ماي–لينغ لم تكن سعيدة إلى هذه الدرجة. الطفح الجلدي ازداد سوءاً. في القاهرة، استشارت طبيب تشرشل، الدكتور موران، فقال لها إنها بخير؛ ''لن تتحسني إلّا عندما ترتاحين في حياتك ويزول الضغط عنك''. لكن حياتها صارت أكثر توتراً. في ذلك الحين، برزت مشكلة كبيرة تتعلق بزوجها وبالأميركي الأكثر أهمية في شونغ كينغ، الجنرال ستلويل، الذي حمّل شيانغ مسؤولية الكوارث في ساحة القتال. أرسل تقريراً إلى واشنطن يقول فيه إن ''الجندي الصيني خامة ممتازة، والقيادة الغبية تضيّعها وتتخلى عنها''. لقبه ''جو النكد'' لأنه سريع الغضب،[27] وحدثت بينه وبين شيانغ خلافات كثيرة، وقد رفض بكل وضوح الرضوخ لنفوذ القائد الأعلى.

27 كتب ستلويل حكاية يعترف فيها بمزاجه الحاد. تاجر صيني انحنى أمامه مرحباً به: ''نهارك سعيد، أيها المبشّر''. ردّ عليه عابساً ومستغرباً: ''لماذا تخاطبني بأنني مبشر؟'' أجابه الرجل: ''لأنك تشبه المبشر''، وتابع باختصار: ''وبسبب ملامحك اللطيفة، 'سير'''.

ماي–لينغ والأخت الكبرى حاولتا الوصول إلى تسوية بينهما لكن مساعيهما باءت بالفشل. كراهية ستلويل العميقة لنظام شيانغ لا تخفف حدتها أساليب التودّد والكلام اللطيف. وعلى أي حال ''جو النكد'' لم يكن متعاطفاً مع هاتين السيدتين، ويفضل عليهما ''الأخت الحمراء''.

وصلت الأزمة إلى ذروتها في نيسان/ أبريل ١٩٤٤، عندما اعتمد اليابانيون إستراتيجية هجومية واسعة النطاق رمزها السري ICHIGO، ربطت شمال الصين بالجنوب المحتل. قوات شيانغ كاي–شيك، وحتى الأفضل بينها، سقطت كمنزل مشيّد من ورق اللعب. خاب أمل الأميركيين مجدداً

لأن شيانغ ليست لديه على الأرجح "أي خطة أو إمكانية لوضع حدّ للعدوان الياباني". وصل الامتعاض من أداء القائد الأعلى أعلى المستويات. شعر الرئيس روزفلت أن "قضية الصين ميؤوس منها" لدرجة أنها تحتاج "إلى اعتماد أساليب راديكالية فورية يجب تطبيقها بعناية"، وكتب إلى شيانغ في ٦ تموز/ يوليو، يبلّغه دون مواربة أن يسلّم القيادة العسكرية لستلويل. وطلب روزفلت من شيانغ أن يتولّى ستلويل "قيادة القوات الصينية والأميركية"، وأن "تمنحه سلطة مطلقة ليكون مسؤولاً عن تنسيق وتوجيه العمليات التي يجب خوضها لوقف تقدم العدو". القائد الأعلى لا يستطيع الإذعان لهذا الأمر، حتى لو كان ذلك يعني، وفق قوله، الانفصال عن أميركا.

ماي–لينغ أُسقط في يدها، وسيطرت عليها المخاوف التي تنذر بمستقبل مشؤوم وتمنت الرحيل. قررت مغادرة الصين بحجة المرض. رأى المقربون أنها "مجرد محاولة للهرب". شيانغ رفض السماح لها بالسفر لأنه أدرك ما قد يقوله الناس. كانت ماي–لينغ مستعدة لأي شيء لتحقيق رغبتها، وعندما أتى نائب الرئيس الأميركي هنري والاس إلى الصين، تقربت من أحد أعضاء الوفد المرافق له ورجَتْه أن يتمنّى على والاس طرح مسألة حالتها الصحية مع زوجها. حتى أنها أنزلت جورب النايلون لتريه بقع الطفح الجلدي على رجليها.

أخيراً سمح شيانغ لماي–لينغ بالسفر فاستقلت الطائرة في بداية تموز/ يوليو برفقة إي–لينغ وولديها جانيت ودايفيد. قبل رحيلها مباشرة قالت لزوجها بعينين دامعتين إنها خائفة من أنهما قد لا يلتقيان ثانية. أكدت له أنها تحبه، وأنها لن تنساه لحظة واحدة، وأنه يجب ألا يشك أبداً في حبها. دوّن في مفكرته أنه كان حزيناً جداً ولم يعرف ماذا يقول.

أقام شيانغ حفلة وداع لها ألقى فيها خطاباً غريباً. وقف أمام أكثر من سبعين من ذوي المقامات الرفيعة والصحافيين من صينيين وأجانب، وأقسم أنه لم يقدم ولا مرة على خيانة ماي–لينغ. توضيح هذه المسألة أمام الناس محرج بالتأكيد لكن الزوجين اتفقا على أنه ضروري. الشائعات عن خيانات شيانغ المزعومة ازدادت انتشاراً وإزعاجاً، وصارت محور حديث كل الناس في مدينة الضباب خلال حفلات تناول الشاي والعشاء. رحيل ماي–لينغ مجدداً ومن دون موعد محدّد لرجوعها ربما يبدو مؤشراً على نهاية ارتباطهما الزوجي إذا لم يبادرا إلى نفي هذا الاحتمال.

عند إعلان موعد الرحلة، أثارت وجهة ماي–لينغ الاهتمام والشكوك. وفي الوقت الذي وافق فيه البعض، بحسن نية، على أن السيدة الأولى مسافرة إلى ريو من أجل علاج المرض الجلدي عند طبيب مشهور هناك، اعتقد كثيرون غيرهم، وبينهم هاري س. ترومان الذي سيصير لاحقاً رئيساً للولايات المتحدة، أن عائلة سونغ سطت على أموال المساعدة الأميركية ووظفتها في العقارات في

البرازيل. لم يظهر أي دليل على صحة الادعاءين. ربما اختارت الأختان ريو لأنها كانت المدينة الأكثر مرحاً وأناقة في تلك الفترة. الذهاب إلى أميركا ليس حكيماً؛ الأخت الصغرى تعرّضت لحملة من الانتقادات اللّاذعة. الصحافة الأميركية التي بالغت في مديحها منذ سنة فقط أخذت تركز الآن بأسلوب غير ودّي على "معطفها الثمين من فرو السمّور وقطعة الفراء التي تدفئ يديها، المزيّنين بالماس واليَشم ويساويان قدراً كبيراً من المال".

مكثت ماي–لينغ في ريو شهرين، وتوجهت بعد ذلك إلى نيويورك حيث أقامت في منزل عائلة كونغ الفخم وابتعدت عن الأضواء. قالت لإيما إنها تشعر بأنها "تعاني عذابات الملعونين". ومع مرور الوقت، أخذت تستمتع بالحياة مجدداً وقضت أوقاتاً ممتعة. أمضت معظم وقتها مع إيما تتبادلان "أحاديث الفتيات". بعد تناول طعام العشاء ذات يوم قصدتا برودواي لمشاهدة أحد الأفلام، وبرفقتهما رجلان من المخابرات، ودخلتا من باب للخروج. زارتا حديقة الحيوان في برونكس بصفة غير رسمية، لرؤية حيوانات الباندا التي أهتدتها ماي–لينغ إلى نيويورك تقديراً لدعمها الصين في الحرب التي تخوضها. تناولت مثلجات الصودا واعترفت أنها مشتاقة كثيراً لها. وكان من مصادر سعادتها أيضاً التجول في شوارع نيويورك في Packard Limousine (تدفع أجرها الأخت الكبرى على الأرجح). علّمها مرافقاها من المخابرات كيفية قيادتها، وكانا يجلسان بجانبها وهي تتولّى القيادة.

مضت أكثر من سنة وسيدة الصين الأولى بعيدة من بلادها وهموم الحرب. ظل شيانغ مخلصاً لها. في رسائله، سألها عن صحتها، وأخبرها بأسلوب مثير للشفقة إلى حدّ ما كم يشتاق لها... يوم عيد ميلادها، وفي ذكرى زواجهما، ويوم عيد الميلاد، وفي كل مناسبة يمكن تخيّلها، وليس أقلّها ذكرى رحيلها إلى ريو. توسّل إليها أن تعود في الحال. وكانت تجيبه بلائحتها المعتادة من الأمراض التي تعاني منها.

لم يكن تعلّق شيانغ بماي–لينغ بسبب حاجته إليها للمحافظة على علاقة ودية مع أميركا. خلال غيابها الطويل اتخذت هذه العلاقة بالفعل منحى جديداً وسارت نحو الأفضل. استدعى الرئيس روزفلت ستلويل في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٤. والجنرال ألبرت س. وديماير، الذي حلّ مكانه، والسفير الجديد باتريك ج. مورلي، كانا منسجمين مع القائد الأعلى وداعمين له.

في ١٢ نيسان/ أبريل ١٩٤٥، فارق الرئيس روزفلت الحياة إثر إصابته بنزيف حاد في الدماغ. توجهت ماي–لينغ بالسيارة إلى منزله في نيويورك، هايد بارك، لتزور إليانور. الرئيس التالي،

هاري س. ترومان، استمر في دعم القائد الأعلى وأهداه طائرة خاصة أنيقة، C–٤٧، فيها كل التجهيزات المريحة. أطلق شيانغ على الطائرة اسم ماي–لينغ، مع أنها لم تحضِرْ زوجته.

في هذه المدة، كانت ماي–لينغ مستاءة من زوجها بسبب الطريقة التي عامل فيها زوج الأخت الكبرى، على وجه الخصوص. وصل هـ. هـ. كونغ إلى أميركا في مهمة رسمية بصفته نائب الرئيس ووزير المالية أواسط ١٩٤٤، ولم يعد إلى الصين مدعياً أنه بحاجة إلى علاج في الولايات المتحدة. ربيع ١٩٤٥، أثيرت فضيحة فساد حول سندات فاقت قيمتها عشرة ملايين دولار. القوميون بقيادتهم وقاعدتهم ثاروا غضباً، وشيانغ أُجبر على إصدار أمر بالتحقيق. أرسل إلى هـ. هـ. سلسلة من البرقيات، وكل واحدة منها أكثر إلحاحاً من التي سبقتها، يبلغه فيها ضرورة العودة إلى الصين لاستجوابه. عاد هـ. هـ. تحت تأثير الضغوط في تموز/ يوليو. تمت تنحيته عن منصبه وأُجبر على إعادة بعض المال الذي اختلسه.

عيّن شيانغ نسيبه الثاني ت. ڤ. سونغ رئيساً جديداً للوزراء. ساءت العلاقة إثر ذلك بين ت. ڤ. وعائلة كونغ. ومنذ ذلك الحين، لم يوفّر هـ. هـ. أي فرصة للإساءة إلى ت. ڤ. وإي–لينغ لم تسترجع علاقتها الودية بأخيها تماماً لسنوات عدة.

إي–لينغ غضبت من شيانغ لأنه أساء معاملة زوجها، ما يعني أنه أساء إليها أيضاً. خلف الأبواب المغلقة كانت تفضي بمشاعرها للأخت الصغرى. إيما انتبهت إلى ما يدور في المنزل. وهي، مثل معظم الأميركيين الذين يتابعون ما يجري في الصين، شعرت بكراهية لعائلة كونغ وكتبت في مفكرتها أن صديقتها كانت إلى حد كبير ”تخضع لنفوذ السيدة كونغ. ليتها كانت برفقة أيّ شخص آخر“. وقفت ماي–لينغ بجانب أختها تماماً وتوقفت عن الردّ على رسائل شيانغ. لم تكد تذكره مع إيما.

في ٦ و٩ آب/ أغسطس ١٩٤٥، ألقت الولايات المتحدة قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناكازاكي. في الثامن من الشهر نفسه، أعلن الاتحاد السوفياتي الحرب على اليابان. وفي العاشر، أعلنت اليابان نيتها بالاستسلام، فعمت الاحتفالات في أرجاء العالم. ماي–لينغ لم تستعجل العودة إلى الصين لتشارك زوجها فرحة الانتصار. توجهت بالسيارة إلى تايمز سكوير حيث وجدت نفسها وسط حشود مسترسلة في فرح صاخب، وأخذت تراقب الناس وهم يلوّحون بالعلم الأميركي. أحست أنها تنتمي إلى هذا المكان ولم تشأ العودة إلى الصين. لو كانت حرة في خيارها، هي بالتأكيد تفضل البقاء في نيويورك مع الأخت الكبرى.

١٨

سقوط نظام شيانغ

في ١٠ آب/ أغسطس ١٩٤٥، علم شيانغ كاي–شيك، في شونغ كينغ، برغبة اليابان في الاستسلام بطريقة غير عادية. طوكيو بثت الخبر على الراديو بالإنكليزية. ماي–لينغ في نيويورك ولم يكن معه من يعرف الإنكليزية ويتابع الأخبار التي يذيعها الراديو (إلى هذا الحد وصلت وحدته). وكما أورده في مذكراته، في نحو الثامنة مساء، سمع هتافات مرحة، ودوّت بعدها المفرقعات النارية في قاعدة الجيش الأميركي بالقرب من مقر الرئاسة. أرسل رسولاً من عنده (أحد أقربائه) إلى القاعدة ليسأل: "ما سبب كل هذا الضجيج"، وبهذه الطريقة، وصل هذا الخبر التاريخي إلى القائد الأعلى لمسرح الصين!

لم تغمر السعادة شيانغ بل توتر كثيراً. هذا أوان المواجهة مع ماو حول من يحكم الصين. ستالين أرسل مليوناً ونصف مليون من الجنود إلى شمال الصين على امتداد جبهة هائلة تزيد عن ٤٦٠٠ كلم. الأرض التي احتلوها (أكبر من المساحة التي سوف تخضع لسيطرتهم لاحقاً وسط أوروبا وشرقيها) قد تُسلّم لجماعة ماو إذا لم يبادر شيانغ في الحال إلى الحؤول دون ذلك. جيش ماو كان ضئيلاً قبل الحرب لكنه الآن تجاوز المليون، أي أنه يناهز ثلث قوات شيانغ. فكر شيانغ في نشر جنوده في الحال. في تلك الليلة، كان يستضيف السفير المكسيكي، وأحس بانزعاج شديد لأن السفير لم يتوقف عن الكلام ويتركه وحده حتى يستطيع إرسال برقيات إلى قادة جيشه.

أميركا أرادت أن يعمّ السلام في الصين فأجبرت شيانغ على دعوة ماو إلى شونغ كينغ لإجراء محادثات معه. ماو لم يرغب في المجيء إلى أرض شيانغ لأنه يعرف جيداً تاريخ القائد الأعلى في الاغتيالات. لكن ستالين طلب من ماو المشاركة في لعبة المفاوضات، لأنه لم يكن متأكداً من أنه يستطيع أن ينتصر عسكرياً على شيانغ. بعد استلامه ثلاث برقيات يأمره فيها ستالين بالذهاب، ترك ماو قاعدته، ينان، على مضض، في ٢٨ آب/ أغسطس. توجّه إلى شونغ كينغ على متن طائرة أميركية برفقة السفير هيرلي؛ الأميركيون أكدوا له أنهم يكفلون سلامته. ارتاح شيانغ لأن ماو "انصاع للأوامر وحضر"، كما كتب في مفكرته في ٣١ آب/ أغسطس. وأضاف أن هذا بفضل ما

يتمتع به من ''هالة قوية ونفوذ معنوي''، إلى جانب ''إرادة الله''. كان واثقاً أنه يعرف كيف يتعامل مع ماو.

أرسل شيانغ طائرة إلى نيويورك لتعود بزوجته. ماي–لينغ لم ترغب في الرجوع كما أخبرت إيما: ''لا أشعر أنني مستعدة للرجوع، إيما. لكن زوجي بحاجة إليّ في الأزمة مع الشيوعيين. أصلّي على رجاء أن تستطيع البلاد تجنب النزاع المسلّح والوصول إلى الوحدة الوطنية. سوف أشتاق إليك. ربما لن أراك ثانية. قد 'ينتقم' الشيوعيون منّي''. بدت السيدة الأولى كأنها تتوقع الهزيمة. مع ذلك، وصلت إلى شونغ كينغ في ٥ أيلول/ سبتمبر. ووجدت شيانغ في انتظارها في المطار. وصف شيانغ في مفكرته هذا اللقاء بأنه كان خالياً من أي تعبير عن المشاعر بعد أربعة عشر شهراً، على عكس ما عرفاه بعد عودتها من رحلاتها السابقة إلى الولايات المتحدة.

بالطبع انشغل شيانغ بلقائه مع ماو. في شونغ كينغ، أخذ الزعيم الشيوعي يردّد في كل مكان: ''يحيا القائد الأعلى شيانغ!'' وهو مصمم على تنحية شيانغ بالقوة. بالفعل، وضع خطة لشنّ هجوم ضد قوات شيانغ قبل مغادرته، وبدأ القتال أثناء وجوده في شونغ كينغ في أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر. هذه المعركة، في شانغ دانغ في إقليم شانزي، مهّدت للحرب الأهلية بين الشيوعيين والقوميين. شيانغ الذي هبّ للدفاع عن نظامه بكل ما لديه من وسائل صبّ جام غضبه على ماو على صفحات مفكرته. طوال المدة التي قضاها ماو في تشونغ كينغ لم يوجّه شيانغ إليه دعوة للقاء ماي–لينغ. من الواضح أن القائد الأعلى لم يشأ أن يحظى ماو بسحر زوجته.

بعد مضيّ نحو شهر على وجود ماو في شونغ كينغ لم يعد في وسع شيانغ تحمّل ضيفه مدة أطول، فأخذ ماي–لينغ إلى زيشيانغ، إقليم بعيد في سيشوان على الطرف الشرقي من جبال الهملايا. وقع اختياره على هذا الموقع سابقاً ليكون عاصمته التالية في حال سقوط شونغ كينغ بأيدي اليابانيين. تم تجهيز وإعداد مطار على مساحة ضيقة من الأرض المسطحة على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق مستوى البحر، كما شُيّدت مجموعة من المنازل.

سفر شيانغ المفاجئ أثار الرعب في ماو؛ شك أنه تمهيد لعملية للنيل منه. أرسل شو إن–لاي ليطلب من السفارة الروسية السماح له باللجوء إليها، وغضب عندما وصله الرد برفض طلبه. الأشخاص المحيطون بشيانغ شجّعوه بالفعل على اغتيال ماو لكن شيانغ رفض، لأنه خاف من خسارة المساعدات الأميركية.

قضى الزوجان أسبوعاً في زيشيانغ، المكان الذي يتميّز بجمال غير مألوف. الزلازل المتعاقبة اقتطعت أجزاء من الجبال الصخرية المحيطة بالمكان، ما جعل جدران الوادي الضيّق تشبه أسنان

عمالِقةٍ ظاهرة للعيان. هذه الأودية الضيقة المدهشة تحتضن بحيرة ساكنة كأنها مرآة شاسعة. ركب الزوجان بزورق في يوم سماؤه صافية يستمتعان بأشعة الشمس المبهرة وبرودة الهواء النقيّ، وهذا يختلف تماماً عن جو الاختناق والرطوبة في شونغ كينغ. طوال الأيام السبعة ترك شيانغ نفسه يرتاح كلياً، حتى أنه لم يحلق ذقنه، وهذا أمر غير اعتيادي عنده. بعد عودته إلى شونغ كينغ في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر وقع على معاهدة مع ماو. لم تكن نية الرجلين التزام المعاهدة، وكلاهما أخذ يعدّ العدّة للحرب الشاملة.

فور وصوله إلى ينان في ١١ تشرين الأول/ أكتوبر بدأ ماو يصدر أوامره للشروع في القتال. جيشه لم يكن أصغر حجماً من جيش شيانغ فقط، لكنه لا يملك أيضاً الخبرة في خوض المعارك الشرسة التي حازها جيش شيانغ خلال حربه مع اليابانيين. لم يحقق انتصارات إلّا في مواجهة وحدات إقليمية ضعيفة من القوميين. والآن سوف يواجه نخبة من قوات شيانغ التي اكتسبت الخبرة في القتال وتدربت على أيدي الأميركيين. لم تمضِ مدة طويلة حتى أدرك ماو، بكثير من خيبة الأمل، أن أداء جيشه لم يصل إلى مستوى آماله، وأن ستالين الذي يدعمه في السرّ كان على الأرجح يحتفظ بخيارات مفتوحة. بعد سلسلة من الضربات، أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٥، أصيب ماو بانهيار عصبي فلزم الفراش وعانى من التشنجات ونوبات التعرّق البارد.

بعد سقوط ماو، أجرى شيانغ جولة في البلاد بوصفه القائد المنتصر. دخوله إلى مدن مثل بيجينغ وشانغهاي وعاصمته القديمة نانجينغ "يشبه دخول يوليوس قيصر إلى روما"، كما قال أحد المراقبين. استقبله عشرات الآلاف وهتفوا للبطل الذي انتصر على اليابان. كان الجو مذهلاً والقائد الأعلى استمتع بمجده، ومن الواضح أنه استمال الجماهير لأنه من هزم اليابانيين. وقف منتصب القامة يلوّح بفخامة، راسماً لنفسه صورة، وفق وصف قائد طائرته الخاصة، "لمن هو معصوم كإله". أحسّ المقرّبون منه أنه يخدع نفسه بأوهامه، لكن لم يجرؤ أحد منهم على مصارحته بذلك.

حالة الانتصار التي عاشها جعلته يكافئ نفسه بطائرة خاصة جديدة، أفضل وأفخم ما أنتجته صناعة الطائرات C–٤٥. ماي–لينغ وإي–لينغ سافرتا إلى ريو في ١٩٤٤ على متن طائرة من هذا النوع، وقد أذهلت كل من رآها. والآن طلب شيانغ واحدة لنفسه، رغم أنه لم تكد تمضي سنة على استلامه C–٤٧ التي أهداها له الرئيس ترومان. حملت الطائرة الجديدة اسم "الصين–أميركا"، ووُضعت تحت إشراف أشخاص يعرفون ما يعجب الزوجين شيانغ. بلغت كلفتها ١.٨ مليون دولار دفعتها وزارة المالية على مضض. ومن رأوا هذا التبذير غير مناسب بسبب الأزمة التي تعيشها البلاد احتفظوا برأيهم لأنفسهم.

المسؤولون القوميون الذين أُرسلوا إلى المدن والبلدات التي كانت خاضعة للاحتلال الياباني رفّهوا عن أنفسهم بدورهم، بلا ضوابط تقريباً، كأنهم كانوا ينتظرون الإشارة من قائدهم؛ عانوا من التقشّف لسنوات والآن استولوا على المنازل والسيارات وسلبوا كل الموجودات الثمينة. كل واحد سيئ الحظ كان يملك ما يشتهونه قد يتهمونه بـ"العمالة" ويصادرون ممتلكاته. هؤلاء المسؤولون الذين رأوا أنفسهم منتصرين أخذوا يعاملون السكان المحليين غالباً بازدراء واضح، ورأوا فيهم "عبيداً لا ينتمون إلى وطن"... بكل بساطة لأنهم عاشوا تحت الاحتلال الأجنبي. الناس في مناطق عدة من الصين ممن استقبلوا القوميين كـ"محرّرين" أخذوا الآن يلعنونهم ويصفونهم بـ"اللصوص" و"المخربين". في غضون وقت قصير، زال كل ما أحيط به شيانغ كاي–شيك ونظامه من حماسة وإعجاب، وحلّ مكانهما الاشمئزاز والنقمة. وصف النخبوي تاكونغ باو عملية فرض السيادة بأنها "نكسة الانتصار". وفي ما يخصّ شعبيته، وقف شيانغ على حافة المجد مدة قصيرة قبل السقوط.

في الحرب نفسها، كان شيانغ أفضل حالاً. مضت أكثر من سنة وجيشه يحقق انتصارات في كل الجبهات تقريباً. المنطقة الأكثر خطورة كانت منشوريا على الحدود مع الاتحاد السوفياتي. إذا استولى الشيوعيون عليها، سوف يحصلون على مساعدات حربية حيوية من روسيا إضافة إلى التدريب العسكري. في حزيران/ يونيو ١٩٤٦، كانت قوات القائد الأعلى على وشك طرد الحمر عندما ارتكب القائد خطأ فادحاً. أوقف مطاردته لهم وأمر بوقف النار أربعة أشهر، بسبب ضغوط مارسها الجنرال جورج مارشال الذي أتى إلى الصين في مسعى لوقف الحرب الأهلية. جيش ماو استغلّ وقف النار ليبني قاعدة صلبة وشاسعة تفوقت في أهميتها الوجود الألماني على الحدود مع روسيا والدولتين التابعتين لها: كوريا الشمالية ومنغوليا الخارجية.[28] واستطاع الجيش أن يستحوذ على دعم مطلق لا يقدر بثمن من ستالين شمل إصلاح خطوط السكة الحديدية، وهذا أمر خطير، لتأمين السرعة في نقل الأسلحة الثقيلة والجنود بأعداد كبير. قرار شيانغ الكارثي غيّر نتيجة الحرب. مع حلول ربيع ١٩٤٧، انقلب الوضع.

28 اعترف شيانغ بـ"استقلال" منغوليا الخارجية في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٦، على أمل أن يسلمه ستالين منشوريا وغيرها من الأرض التي يحتلها الاتحاد السوفياتي بدلاً من أن يعطيها لماو.

ارتكب شيانغ هذا الخطأ إلى جانب أخطاء أخرى خطيرة لأسباب عدة منها أنه لم يكن عنده فريق من المستشارين يعينونه في اتخاذ القرارات، في حين أن ماو لديه معاونان بارزان، الإستراتيجي ليو شاو–كي والإداري والديبلوماسي البارز شو إن–لاي. أما شيانغ، فقائد وحيد وعنيد. في هذه المرحلة، لم يحصل حتى على نصيحة الأخت الكبرى التي أبعدها بطرده زوجها.

لم يستشر شيانغ أبداً رئيس الوزارة الجديد ت. ڤ. سونغ في ما يخصّ الأمور العسكرية، وكلفه الشأن الاقتصادي فقط. ومع أن ت. ڤ. كان خريجاً في الاقتصاد في هارفرد وكولومبيا، ورغم أنه ديبلوماسي بارع، لكن الاقتصاد صار في أسوأ حال في إدارته. واجه مهمة مستحيلة: حرب أهلية هائلة مستمرة بعنف شديد. مؤهلاته لم تكن ذات فائدة؛ ت. ڤ. أجنبي يعيش على أرضه. قضى معظم سنوات حياته في الخارج أو في عزلة مرفّهة في المنزل، ولم يحاول أبداً التعاطي مع الناس العاديين. لديه حسّ قوي بالواجب تجاه بلاده لكنه يعرف القليل عن الصين الحقيقية. خططه الاقتصادية قد تبدو جيدة على الورق لكنها غير قابلة للتنفيذ على أرض الواقع.

بدلاً من بذل مجهود لتصويب نقاط ضعفه كان ت. ڤ. يتباهى بعناده واستعلائه. عندما أعلن اليابانيون استسلامهم، أقام السفير الصيني في بريطانيا، ولنغتون كو، استقبالاً كبيراً للاحتفال بالمناسبة. بين المدعوبين رئيس الوزراء البريطاني آنذاك كليمنت آتلي ووزراء أجانب من الدول العظمى منها الولايات المتحدة وروسيا (فياتشيسلاف مولوتوف) الذين كانوا في لندن يشاركون في مؤتمر. السلك الديبلوماسي كله كان موجوداً. و ت. ڤ. رئيس الوزراء الصيني كان في مبنى السفارة لكنه لم يحضر الحفل. حاول السفير كو ووزير الخارجية الصيني إقناعه بالنزول إلى الطابق الأرضي لكنه رفض أن يتزحزح من مكانه، ولم يعطهما أي أعذار مقنعة. السفير كو جنتلمان وهو ديبلوماسي محافظ من المدرسة القديمة أحسّ بسعادة عارمة عند سماعه أخبار استسلام اليابان وأمر في الحال برفع العلم الصيني خارج السفارة. كتب في مفكرته: ”أخيراً أتت اللحظة العظيمة التي تطلعت إليها وحلمت بها وعملت من أجلها“. لم يستطع أن يفهم سلوك ت. ڤ. وفي مذكراته، سمح لنفسه بالإفصاح عن غضبه مشيراً إلى ”تغيّب السيد سونغ بدا على الأرجح غير مناسب“. وديبلوماسي آخر أقل تحفظاً كتب بسخرية أن رئيس الوزراء ”كان على الأرجح متعباً من الجهد الذي يبذله في عمله“.

الأكثر أهمية في هذا السياق أن ت. ڤ. فقد الثقة في شيانغ ونظامه بعد نشوب الحرب الأهلية بسنة تقريباً. في ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٦، بكثير من الجدية وانفعال واضح، تكلّم بصراحة مع المستشار الأميركي جون بيل، وقال: ”نحن عالقون في طريق مسدود... لسنا هنا في أميركا، حيث تستطيع أن تقول: ‘حسناً، فلنترك الجمهوريين يحكمون البلاد مدة‘. البديل هنا الشيوعيون. إذا انهارت الصين، سيستولي الشيوعيون على السلطة“. وبدأ يفكر في بديل عن شيانغ، وسأل بيل عن موقف أميركا من احتمال إنشاء ”جبهة ليبرالية“. لكن هذا لم يأتِ بأي نتيجة. أوائل ١٩٤٧، عندما

أجمع الرأي العام على مطالبته بالاستقالة من منصب رئيس الوزراء، أذعن في الحال.[29] أُرسل إلى كانتون حاكماً إقليمياً. هناك أجرى محادثات سرية مع معارضي شيانغ من القوميين الموجودين بالقرب منه وكانوا يتآمرون للإطاحة بشيانغ. لكنه تراجع في الحال عن الانضمام إليهم لأنهم يخططون للتعاون مع ماو. قال لهم: ”لا نستطيع العمل مع الشيوعيين“.

29 كانت هناك ادعاءات بأن ت. ف. أخذ مبالغ طائلة من الخزينة. لكن بالمقارنة مع التهم التي طاولت هـ. هـ.، افتقد ما نُسب إليه إلى التفاصيل، والمسؤولون في المؤسسات المالية عموماً امتنعوا عن توجيه الاتهامات بحقه. مع ذلك، ووفق ما صرّح به بنفسه، كان يملك أكثر من خمسة ملايين دولار في ١٩٤٣، ومعظم هذه الثروة ناتج عن المراكز العالية التي شغلها.

كانت إي–لينغ قلقة من نتيجة الحرب الأهلية منذ البداية. إنها تعرف شيانغ كاي–شيك جيداً، ولم تعتقد أنه سوف ينتصر في ربيع ١٩٤٧. تملكها اليأس من إحساسها بأن حالتها الصحية تتدهور. شكت أنها مصابة بالسرطان، ومع أن الأطباء قالوا لها إنه لا دلائل على ذلك، ظلت إي–لينغ متمسكة بإحساسها بأن نهايتها باتت قريبة. في حزيران/ يونيو، كتبت رسالة كوصية لأختها الحمراء التي عادت إلى شانغهاي عند توقف الحرب مع اليابان، قالت لها فيها إنها تحبها كثيراً، والآن أكثر من أي وقت مضى. إي–لينغ على الأرجح توقعت استلام الشيوعيين السلطة، وتصورت أن الحياة في نظام شيوعي سوف تكون صعبة جداً، حتى للسيدة سون، وأنها تجري تحضيرات عملية لـ”الأخت الحمراء“. وبوصفها ”المعيلة“ لأختيها، وهي تؤمن أن هذه المهمة اختارها الله لها، قالت إنها طلبت من قائد طائرة ماي–لينغ، الذي كان مسافراً إلى شانغهاي، أن يحمل معه مجموعة من زجاجات الشامبو وغيرها من الحاجات الضرورية للاستخدام اليومي، وتعتقد أنها ستكفي تشينغ–لينغ مدة طويلة. قالت لتشينغ–لينغ إنها كل ليلة وهي مستلقية على سريرها ينشغل بالها في كون أختها العزيزة لديها كل ما تحتاج إليه لتكون حياتها مريحة وممتعة أم لا. ”إذا حدث لي شيء، تذكري أرجوكِ أنني أحبك كثيراً“. حمل أشخاص آخرون إلى ”الحمراء“ أقلاماً لرسم الحاجبين وأقمشة وسترات أنيقة وحقائب ومجموعة من الحلي بينها حلق من الذهب، ومعها أيضاً عبوات رشّاشة لنمو الشعر وتقويته. طلبت الأخت الكبرى من ”الحمراء“ أن تخبرها في الحال هل تحتاج إلى المال.

تحت تأثير الأخت الكبرى، أخذت ماي–لينغ منذ مدة ترى النكبة آتية. وفيما يستمتع شيانغ بجولاته احتفالاً بالنصر بعد انتهاء الحرب مع اليابان، شعرت ماي–لينغ أنها مرهقة أكثر مما هي مسرورة، فشكت حالها لإيما: ”لم نفعل شيئاً في الأشهر الأخيرة سوى السفر، والسفر، والسفر، والمزيد من

السفر. عدت منذ مدة وجيزة من زيارتي الثانية إلى منشوريا. الغريب في الأمر أنني بعد سنوات من السفر بالطائرة لم أستطع التغلّب على الدوار الذي يصيبني".

***

كان سلوكها مختلفاً جداً في هذه الحرب عن الحرب السابقة. في ذلك الحين، زارت الجبهة، وعادت المصابين، وألقت الخطب الحماسية، وكانت بارعة في التعامل مع الناس. يتذكر جون بيل ما جرى: "وقفت تخاطب الكونغرس، وسحرت كل من التقاها. تحدثت بطلاقة بالإنكليزية وناقشت أعضاء مجلس الشيوخ والمندوبين في مسألة الحرب ومشكلات ما بعد الحرب. بدت للأميركيين مفعمة بالحياة، ولبقة وذات حضور آسر". الآن لاحظ بيل أنها لا تريد أن تفعل شيئاً. في الأول من تموز/ يوليو ١٩٤٦، طرح معها قضية "التغطية الصحافية السيئة" لما تفعله حكومة زوجها. وافقت وقالت في الحال: "أعرف ما تريدني أن أفعل. تريدني أن أحضر (لقاء شيانغ مع الصحافيين) وأترجم. هذا ما فعلته أثناء الحرب، وقد تعبت ولن أفعل ذلك مجدداً". كتب بيل في مفكرته أن ماي–لينغ "خرجت بسرعة أذهلتني، خصوصاً لأنني لم أكن أفكر في هذا الدور لها، رغم أنها فكرة لا بأس بها".

كل ما تتوق إليه الأخت الصغرى هو "نيويورك العزيزة الرائعة" وكانت دائماً في بالها. كتبت لإيما رسالة تعبر فيها عن حنينها: "تخيلي، منذ نحو سنة كنت في نيويورك وعشنا معاً أوقاتاً سعيدة للغاية". وفي رسالة أخرى، طلبت من إيما أن تكتب لها: "ماذا تفعلين وكيف حالك؟ اكتبي لي وأخبريني كل شيء". كانت تنتظر مزيداً من الرسائل من صديقتها: "هذه رسالة قصيرة لأطلب منك أن تستمري في الكتابة لي، مع أنني أشعر بالخجل لأنني لا أجيب عن رسائلك كما ينبغي". وسط معمعة الحرب الأهلية الدموية شغلت نفسها بإرسال هدايا جميلة إلى صديقاتها على الضفة الثانية من المحيط: "سوف أرسل إليك (إيما) كيمونو، ومجموعة من أثواب كيمونو أيضاً إلى عدد من الصديقات. سوف أكتب لائحة بأسمائهن. هل تستطيعين من فضلك توصيلها أو إرسالها بالبريد؟ إنني أتكل مجدداً على طيبتك، لكن أنت دائماً معي في غاية الطيبة والرقة وتفعلين الكثير من أجلي، وأعرف أنك لن تمانعي هذه المهمة"، "أرسل أيضاً شيكاً بقيمة مئة دولار إلى صندوق الخريجات وصندوق اللقاء السنوي لصفنا. أرجو أن تقرّري النسبة التي ستعطينها لكل من الصندوقين".

ماي–لينغ قدمت خدمة واحدة إلى زوجها عن طيب خاطر. أواخر ١٩٤٧ دعت "الأخت الحمراء" إلى نزهة في الموقع الجميل والقريب: هانغزو. كانتا تتمشيان على ضفة البحيرة الكبيرة

الهادئة، حين سألتها ماي–لينغ بصراحة عن الحد الأدنى الذي يرضي الشيوعيين للتوصل إلى تسوية لوقف القتال. فوجئت تشينغ–لينغ بهذا السؤال المباشر. كانت الأخوات يتجنبن الخوض في اختلاف ميولهنّ السياسية. بينما كانت ''الحمراء'' تفعل ما في وسعها لمساعدة ماو على التغلّب على شيانغ، كانت أيضاً ترسل أطعمة مترفة إلى زوجة القائد الأعلى، مثل القريدس النهري، والأخيرة بدورها تبادر إلى إهدائها حلوى الزنجبيل وبسكويت الجبن. قدمت علاجات من أجل مشكلة عين إي–لينغ، وأرسلت كتباً بالطائرة إلى ابنة ت. ل. كأنّ المعارك الطاحنة من حولها لا تشكل خطراً عليها. سؤال ماي–لينغ كشف الواقع المرير. وأكثر من ذلك، كانت تشينغ–لينغ تحاول التمسك بادعائها أنها مساندة مستقلة وليست عضواً في المنظمة التي كانت في نظر سائر أفراد عائلة سونغ محور الشرّ. والآن سؤال الأخت الصغرى يمنعها من الاستمرار في ادعائها؛ أخواها وأختاها يعرفون أنها عضو أساسي في المنطقة التي تستهدفهم جميعاً. أجابت ''الحمراء'' باستعجال مستعيدة أساليبها القديمة أنها لا علاقة لها بالشيوعيين وكيف لها أن تعرف مطالبهم؟ ودّعت أختها وعادت بالقطار إلى شانغهاي حيث أبلغت ''الحزب الشيوعي'' الصيني مباشرة بما دار بينها وبين الأخت الصغرى. إنها بالتأكيد لا تريد أن يعتقد الحزب أنها تعقد صفقات مع عائلتها دون علمه.

سؤال زوجته عن الحد الأدنى الذي يطلبه العدو كشف عن وضع شيانغ كاي–شيك اليائس. والواقع أنه خلال ١٩٤٧–١٩٤٨ تعرّض لسلسلة من الهزائم الكارثية. المستشار الأميركي المسؤول عن القضايا العسكرية، الجنرال دايفيد بار، حمّل القائد الأعلى بكل وضوح مسؤولية ما حدث. في التقرير الذي أرسله إلى واشنطن في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٨، علّق بار: ''لم تكن خسارة أي معركة... بسبب نقص في العتاد أو الذخيرة. كل فشلهم العسكري في رأيي بالإمكان نسبته إلى أسوأ قيادة عرفها العالم وإلى عوامل أخرى مدمرة للمعنويات تؤدي إلى فقدان الرغبة في القتال''. الأكثر تدميراً للمعنويات كان على الأرجح انتصارات الشيوعيين المذهلة والإعجازية في معارك أساسية مثل منشوريا والإقليم حيث مقر قيادة ماو. الجواسيس الحمر الذين حازوا ثقة شيانغ ووصلوا إلى مراكز عالية في جيشه سلّموا قواته لـ''الجيش الأحمر'' ليقضي عليها بالكامل. من النادر أن يمنح شيانغ كاي–شيك أحداً ثقته لكنه عندما فعل ذلك كانت ثقته في غير محلها وأدت إلى ويلات. هذا يتعلّق بسوء تقديره وأحكامه غير الصائبة.

صيف ١٩٤٨ بدأ القائد الأعلى يستعد ''لنقل مقره'' إلى تايوان، جزيرة مساحتها ٣٦ ألف كلم مربع وعدد سكانها ستة ملايين. وضع خطة لإخراج أكبر كمية ممكنة من الذهب والفضة والعملة الصعبة لينقلها هناك. عملية السحب جرت تحت عنوان ''إصلاح نقدي'': طلب من كل شخص

تحويل ما يملكه من سيولة نقدية إلى عملة ورقية جديدة تدعى ''اليوان الذهبي''. والامتناع عن التنفيذ عقوبته الموت. وفيما تولّى الموظفون الصغار في الأقاليم الانتقال من باب إلى باب محاولين تخويف الناس وإجبارهم على التضحية بمدخراتهم، أرسل ابن شيانغ، شينغ كيو، إلى شانغهاي. هناك حمّل أصحاب رؤوس الأموال مسؤولية التضخم الهائل والأزمة الاقتصادية في البلاد، وأمرهم بالتصريح عن كل مقتنياتهم. هذه خطوة ممهدة لمصادرتها. رجال الأعمال الذين رفضوا التعاون أُطلق عليهم اسم ''النمور''، وفي عملية سُميت ''سحق النمور'' اعتدي عليهم وجرى توقيفهم وحتى إعدام بعضهم.

ومن أجل إرهاب رجال الأعمال وحملهم على الالتزام، أمر شينغ–كيو بإلقاء القبض على ابن واحد من أهم رجال العصابات، بيغ–إيرد ديو. عند ظهور صورة ابنه على الصفحة الأولى في الصحيفة المتحدثة باسم القوميين، *Central Daily*، لزم بيغ–إيرد ديو فراشه بضعة أيام. كان يعدّ نفسه صديقاً للقائد الأعلى ولم يخطر له أنه سيتعرض لهذه المعاملة. قرّر الردّ بالمثل. وقبل مضيّ وقت طويل، بدأت الصحافة تفضح تعاونية ''ياتغنتزي'' التجارية، الشركة التي يملكها ابن إي–لينغ، واتهامها بامتلاك بضائع مستوردة بطرق غير قانونية. شنّ رجال الشرطة حملة على المخزن وأمروا بإقفاله. صار دايفيد معرّضاً لدفع غرامات عالية وحتى السجن. في الواقع، بفضل علاقاته بالمطّلعين على سير الأمور وفطنة والدته في إدارة الأعمال، كان دايفيد قد سجل هذه البضائع (هي بمطلق الأحوال لا تتعدى جزءاً بسيطاً من ثروته)، ولذلك هو لم يرتكب أي مخالفة قانونية. لكن الموضوع أثار غضب الرأي العام. حتى *Central Daily* أدانت ''الرأسماليين من ذوي النفوذ'' بأسلوب تستخدمه عادة وسائل الإعلام الشيوعية. أحسّ شينغ–كيو أنه وسط دوامة. فهو إذا مارس مزيداً من الضغط على الناس لدفعهم إلى تسليم مقتنياتهم، عليه أن يجعل قريبه عبرة. وجد نفسه مجبراً على ذلك.

اتصل دايفيد بخالته ماي–لينغ التي ثارت غاضبة. استدعت زوجها وكان يجري جولة على الجبهة في الشمال. كلامها وانفعالها لم يتركا له مجالاً للتردّد، فركب الطائرة إلى شانغهاي مباشرة. واجهته ماي–لينغ إلى حد إنذاره بأنها سوف تقف إلى جانب عائلة كونغ ضده إذا واصل التضحية بهذه العائلة. طلب القائد الأعلى من ابنه ألا يتعرّض لدايفيد. شينغ–كيو غادر شانغهاي و''سحق النمور'' توقفت. وُصفت مهمة شينغ–كيو – لا تزال توصف على هذا النحو – بأنها لمحاربة الفساد أجراها شيانغ الأب مع ابنه؛ الواقع أنها كانت للابتزاز. والفضل في توقيفها يعود إلى تعميم ماي–لينغ حماية ابن أختها، وبذلك، تمكنت الطبقة المتوسطة من الاحتفاظ بما تبقى من مقتنياتها (في

الوقت الحاضر... لأن ماو سيستولي عليها كلها لاحقاً). مع ذلك، تمكن شيانغ من انتزاع مقدار كبير إضافة إلى احتياط الذهب عند الحكومة، وهذان شكّلا ركيزة لمساندة القوميين في المرحلة الأولى لإقامتهم في تايوان بعد هربهم.

بالنسبة إلى الرأي العام، أخفقت حملة ’’سحق النمور‘‘ لمحاربة الفساد بسبب ماي–لينغ، وبدأ الناس يصبّون غضبهم عليها. في تشرين الثاني/ نوفمبر، أشار شيانغ في مفكرته مرات عدة إلى أن ’’أعضاء القومي كافة‘‘، إضافة إلى معظم الناس، يلومون زوجته ومعها عائلتا كونغ وسونغ. وأشار إلى هجوم طاوله مع ابنه أيضاً لكنه أضاف مباشرة: ’’تعرّضنا للإساءة لأن الناس ربطوا بيننا وبين كونغ الأب والابن‘‘.

كانت ماي–لينغ محطمة في مواجهة السقوط الوشيك للنظام. والآن ازدادت مرارتها حدة لأن الجميع يشيرون بأصابع الاتهام إلى عائلتها. وتفاقم غيظها على نحو خاص لأن زوجها وابنه كانا مستعدين لجعل عائلتها كبش فداء لهما، وحتى لوضع ابن أختها في السجن. واجهت شيانغ وهي تبكي وتصرخ بجنون، فأجفل شيانغ لأنه لم يسبق له أن رآها بهذه الصورة من قبل. حاول تهدئتها لكنها رفضت مساعيه لمواساتها وتطييب خاطرها. أخذت تنتظر بصبر فارغ الابتعاد عنه وعن الاتهامات والفوضى التي تغرق فيها البلاد. في ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٨، غادرت الصين إلى نيويورك. كانت مستعدة كي لا ترى زوجها ثانية.

لكنها ما لبثت أن عرفت أن الرئيس ترومان لديه الرأي الفظيع نفسه عنها وعن عائلتها. قال الرئيس للكاتب ميرل ميلر لاحقاً إن ’’أي مال نقدمه للمساعدة (مساعدة الصين)... سوف يوضع مقدار غير ضئيل منه في جيوب شيانغ والمدام وعائلتي سونغ وكونغ. كلهم لصوص، كل واحد منهم‘‘.

كانت ماي–لينغ مقتنعة أن عائلتها ليست سبب سقوط نظام شيانغ. وآمنت بصدق أن ’’الله والزمن سوف ينصفانها‘‘.

في ٢١ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٩، أُجبر شيانغ كاي–شيك على الاستقالة من منصب الرئاسة لمصلحة نائب الرئيس لي تسونغ–جين. ’’لجأ‘‘ إلى مسقط رأسه في زيكو. هناك أقام بجوار الضريح الذي يوازي جبلاً بحجمه والذي شيده لوالدته. في ٢٣ نيسان/ أبريل، استولى الجيش الشيوعي على نانجينغ، وانتهى بذلك حكم القوميين الذي استمر اثنتين وعشرين سنة. في ١٩ أيار/ مايو، وصل شيانغ إلى تايوان. خلال الأشهر الأخيرة له على البرّ الرئيسي، لم تكن زوجته برفقته. طلب منها مراراً العودة. تراوحت أعذارها بين حالتها الصحية المعتادة وضرورة وجودها لمتابعة المساعي مع

واشنطن. كتب لها شينغ–كيو أن والده يعيش مرحلة حرجة في حياته ويعتمد عليها للوقوف إلى جانبه. أجابته: ''أتمنى لو أستطيع العودة في الحال، لكن عودتي الآن لن تساعد في تخفيف أعباء الوضع السائد. لذلك أنوي البقاء هنا لمزيد من الوقت. أنا متأكدة أن في هذا فائدة للحزب والبلاد''.

خلال هذه المدة، لم يترك شينغ–كيو، الذي اقترب من الأربعين، والده. صار بين الوالد وابنه رابط قوي. عندما اقترحت ماي–لينغ – بتسّرع كما تبين لها لاحقاً – أن يحضر شينغ–كيو إلى أميركا ليطلعها على الوضع الفعلي في الصين، وكي تناقش معه الدور الذي يمكن أن يكون لها في أميركا، أجابها شينغ–كيو أنه لا يستطيع بأي حال ترك والده بمفرده. علاقة الأب بالابن ترسّخت في الوقت الذي تراجع فيه تعلق القائد الأعلى بماي–لينغ.

برقيات شيانغ إلى ماي–لينغ صارت متباعدة وتطغى عليها الأمور العملية. أحست ببرودة زوجها نحوها، كما أحست بالذنب لأنها ليست بجانبه في هذه ''الساعة الحرجة''. خطت خطوة لاسترضائه، وهذا ما لم تقدم عليه من قبل. أبدت قلقها وحرصها على سلامته وصحته، ومساعيها البطيئة في أميركا، واقترحت عليه بكثير من المودة الحضور إلى عندها والسفر من أجلها. شيانغ رفض قطعاً السفر إلى الخارج، وأقسم على العيش أو الموت في تايوان. طلب منها بوضوح إلى حدّ ما أن توافيه هناك (''في أي يوم تنوين الوصول إلى تايوان؟'').

إي–لينغ نصحت الأخت الصغرى ألا تذهب. أخذت ''تعترض'' كلما سمعت ماي–لينغ تقترح مغادرة نيويورك. شيانغ لا يستحق في رأيها إخلاصهما بعد كل تلك النقمة التي طاولت عائلتهما إضافة إلى قلة كفاءته الكارثية. لكن الأهم من كل ذلك أن إي–لينغ تخاف على أختها ولا تريدها أن تسافر إلى موت شبه مؤكد. الشيوعيون يخططون للاستيلاء على تايوان، وبمساعدة ستالين، والجواسيس الموزعين في مواقع حساسة على الجزيرة، سوف ينجحون في مساعيهم على الأرجح. وبما أن القائد الأعلى يرفض مغادرة تايوان، لا تريد إي–لينغ أن تموت الأخت الصغرى معه. مع ذلك، هي تتألم لأنها تعرف أنه لا يجوز للزوجة أن تهجر زوجها وقت حاجته إليها. وبالتأكيد تدرك أن شيانغ لن يسامح ماي–لينغ إذا تركته، وأن الأخت الصغرى سيكون مصيرها كمصير كثيرين لم يسامحهم شيانغ. تفكيرها كان غالباً يدعمها ويطمئنها لكنها الآن أحسّت أنها مرتبكة على نحو غير اعتيادي.

ماي–لينغ كانت مضطربة. شعرت بالذنب لمجرد التفكير في ترك زوجها في هذا الظرف العصيب، وهي تعرف أن الشيوعيين سوف يستغلون موقفها في حملة للدعاية ضده. إذا تخلت عنه، لن تستطيع أن تسامح نفسها أبداً. في الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩، أرسل إليها شيانغ

برقية يقول فيها إنه حزين لأنه لن يحتفل بعيد زواجهما الثاني والعشرين معها. ذِكر الزواج يبدو أنه فتح الباب أمام فيض من الذكريات عن حياتها مع القائد الأعلى. فتوالت ذكرياتها: "رافقت زوجي في حملاته. كنا ننام في أكواخ من الطين، وفي محطات السكة الحديدية، وفي القطارات، وفي كهوف الصخور الرملية الحارة في الشمال الغربي، وفي ثكنات بدائية، وفي الخيم... أنشأت المدارس ودور الأيتام والمستشفيات، والعيادات لمعالجة إدمان الأفيون... كما دخلت في الخدمة العسكرية بوصفي الأمين العام للملاحة الجوية". لولا زواجها بشيانغ، ما كانت حياتها بهذا الزخم والامتلاء. سألت نفسها: "كيف أجرؤ على ترك زوجي يواجه أصعب أزمة في حياته وأنا بعيدة عنه؟"

لم تعد قادرة على النوم، ولم تعرف كيف تهدأ أثناء النهار. حاولت التحدث مع إي–لينغ لتنظم أفكارها. قالت لها الأخت الكبرى: "استمري في الصلاة، وكوني صبورة. أنا على ثقة أنه سوف يهديك". ماي–لينغ مثابرة على الصلاة منذ بضعة أشهر وبدأت تشعر: "صلاتي صارت إلى حد ما آلية ومتكرّرة". لكنها واظبت على الصلاة. "ذات صباح عند الفجر، وأنا لم أكن أعي تماماً هل أنا نائمة أو مستيقظة، سمعت 'صوتاً'، 'صوتاً' سماوياً يقول لي بوضوح: 'كل شيء على ما يرام'".

هذا التعديل البسيط في السطر الشعري عند براونينغ عرفته ماي–لينغ من قبل. في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٦، عندما اختطف شيانغ كاي–شيك، طارت إلى زيان لتشاركه مصيره. في تلك المناسبة، قال لها شيانغ إن الله أشار له إلى وصولها عبر مقطع في **الإنجيل** كان يقرؤه. فسّرت آنذاك هذا "الأمر الرائع" بأن الله أوحى إلى زوجها أن "كل شيء على ما يرام". وبسماعها هذه الكلمات الآن، يريد الصوت مقارنة الوضع الحالي مع ما حدث في ١٩٣٦ ليخبرها بضرورة الالتحاق بزوجها ثانية.

"أيقظتني الكلمات وتوجهت في الحال إلى غرفة أختي. نظرت إليّ وهي مستلقية على سريرها. لم تُفاجأ بهذه الزيارة الباكرة لأنني في تلك الأيام الصعبة كنت أعاني من الأرق وأزعجها غالباً في النهار والليل". رأت إي–لينغ وجه ماي–لينغ "مشرقاً"، وفهمت في الحال. "أخبرتها أنني سمعت صوتاً سماوياً يخاطبني... قررت أنني سوف أعود إلى الوطن على أول طائرة. ساعدتني في توضيب أغراضي، ولم تعد تبدي أي اعتراض".

وصلت ماي–لينغ إلى تايوان في ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٠. كتب شيانغ في مفكرته عن ذلك اليوم بأسلوب مباشر ورسمي أنه التقاها بعد أخذ نصيبها من الراحة، و"استمعت إلى تقريرها عن العمل الذي أنجزته في أميركا".

لكن الناس أدركوا بسرعة مغزى عودة ماي–لينغ. الوضع في تايوان كان حساساً للغاية: هرب معه إلى تايوان مليونان من الجنود والمدنيين، فاكتظت الجزيرة التي كان عدد سكانها ستة ملايين فقط. تايوان تعاني من أزمة اقتصادية كبيرة. الولايات المتحدة لا تبدي اهتماماً. لم يكن هناك سفير أميركي بل مجرد سكرتير ثانٍ. الشيوعيون أعلنوا تصميمهم على احتلال تايوان. والجميع يعتقدون أن الجزيرة سوف تسقط في وقت قريب. كلّ الناس كانوا مذعورين. وأي شخص في مقدوره المغادرة كان يستعجل الرحيل. مع ذلك، أتت ماي–لينغ في هذا الظرف. وجودها أعطى دفعاً معنوياً هائلاً للقوميين. عندما تسربت المعلومات عن موعد وصولها، توجهت الحشود إلى المطار. والقائد الأعلى أتى تعبيراً عن امتنانه لما فعلته زوجته. في مفكرته، قارن ماي–لينغ بالأبطال الأسطوريين الذين يأتون للنجدة في أخطر الأوقات.

الجزء الخامس

ثلاث نساء، ثلاثة أقدار

(١٩٤٩_٢٠٠٣)

١٩

"يجب السيطرة على المشاعر الحميمة": في مركز نائب الرئيس ماو

قبل أيام من سقوط شانغهاي في قبضة الشيوعيين في أيار/ مايو ١٩٤٩، كانت ماي–لينغ لا تزال في أميركا، فأرسلت إلى "الأخت الحمراء" رسالة تفيض بمشاعر القلق والاهتمام. تشينغ–لينغ دائماً على بالها، كما قالت؛ تأمل أن تكون أختها بخير وكل شيء سيكون على ما يرام. الأخت الصغرى متوترة لأنه ليس في وسعها مساعدتها كما ينبغي والمحيط الآن يفرّق بينهما. وترجو تشينغ–لينغ أن تردّ على رسالتها وتخبرها عن أحوالها. في هذه المرحلة، كان اسم ماي–لينغ على لائحة "مجرمي الحرب" التي أعدها الشيوعيون إلى جانب زوجها، ولأنها تعرف ذلك، تجنبت وضع اسمها وحدها على الرسالة وأضافت اسم ابنة أخيها ت. ل. التي أرسلت إليها تشينغ–لينغ بعض الكتب مرة.

لم تكتب "الحمراء" رداً على هذه الرسالة. كما لم تردّ على أي رسالة من إي–لينغ. في المدة التي مهّدت لاستلام الشيوعيين السلطة، كانت أختاها تعبّران في رسائلهما عن تعاطفهما وحبهما، وهي لم ترسل في المقابل كلمة واحدة عن مشاعرها الطيبة نحوهما. لم تتأثر برسائلهما... أو على الأرجح أحسّت بالاستياء، لأنهما افترضتا أن المستقبل الذي ترجوه قاسٍ ومضطرب. منذ قررت الشروع في النضال مع الحمر، قوّت تشينغ–لينغ نفسها لتبعد أختيها عن حياتها. ما أظهرته سابقاً من مودة وحميمية في تصرفاتها كان على الأرجح وسيلة لتحمي نفسها من أي أذى قد يُلحقه بها شيانغ كاي–شيك أكثر من كونه تعبيراً عن مشاعر عميقة. منذ وقت طويل صممت على العيش دون عائلتها التي وُلدت في كنفها.

عائلتها التي تبنتها هي رفاقها وأصدقاؤها المقرّبون. مع بعض هؤلاء احتفلت ببسط الشيوعيين نفوذهم على مدينتها. اجتمعوا في منزلها وهم يردّدون: "اليوم الذي ناضلنا من أجله أتى أخيراً!" وضعت تشينغ–لينغ وهي تبتسم بانفعال وردة حمراء في عروة سترة أحد الزوار.

اختار ماو بيجينغ عاصمة له، وأرسل إليها يحثّها على المجيء والانضمام إلى حكومته. أسلوب الرئيس كان دمثاً ويتّسم بالاحترام: أرجو أن تكون السيدة سون قادرة على الحضور "لترشدنا إلى

كيفية بناء الصين الجديدة''.

تشينغ–لينغ شكرت ماو بامتنان لكنها لم تشأ الذهاب إلى بيجينغ. قالت إنها تعاني من ارتفاع في ضغط الدم ومن أمراض أخرى وإنها بحاجة إلى متابعة علاجها في شانغهاي. حاول رئيس الوزراء الجديد شو إن–لاي إقناعها، كما حاول بعض أصدقائها القدامى، لكنها قالت لهم جميعاً بتهذيب: لا.

لم تكن تشينغ–لينغ تناور للحصول على مكتسبات أفضل. لقد اختارت شانغهاي مكاناً ترغب في العيش فيه، وإضافة إلى ذلك قررت أنه من الأفضل لها الابتعاد عن مركز السلطة كي لا تبتلعها دوّامة الخلافات الحزبية. تشينغ–لينغ تعرف جيداً مدى قسوة النظام الذي اختارته وشراسته. في البداية، كانت شاهدة على ممارسات ستالين الدموية، وعرفت عن حملات التطهير العنيفة التي نفّذها ماو (كان شو إن–لاي نفسه أحد ضحاياها واضطر إلى التذلل ليحصل على العفو). في بعض الأحيان، كانت مشاعر الخوف من المستقبل تسيطر عليها، وفكرت مرات عدة في الانتقال إلى روسيا ''من أجل العلاج''. لم تكن تريد سوى إدارة منظمتها الصغيرة التي أطلقت عليها الآن اسم ''إنعاش الصين''، بصحبة أصدقائها المقربين في المدينة التي تحبها.

طلب ماو من زوجة شو التوجه إلى شانغهاي لتوجيه الدعوة إليها مجدداً وجهاً لوجه. الاستمرار بالرفض في هذه الحالة فيه كثير من الاستعلاء غير المقبول. تشينغ–لينغ قبلت الدعوة من السيدة شو. في هذه الأثناء، أدّى شو كلّ الإجراءات لضمان حياتها المستقبلية بدقته المعروف بها لمتابعة أصغر التفاصيل. أشرف على إعداد المنزل الذي خُصّص لها، وأبلغها أنه أكثر اتساعاً من منزليها في شونغ كينغ وشانغهاي، وأنه من طابقين، وهذا نادر في بيجينغ حيث معظم المنازل لا تتعدى الطابق الواحد. بعض أصدقائها القدامى أشرفوا على تصميم الديكور في الداخل، كما أبلغها رئيس الوزراء، ولم ينسَ الاقتراح عليها بإحضار طباخها الخاص. اشتكت تشينغ–لينغ من بضعة أمور، وتمت تسويتها جميعاً بما يرضيها. أُلقي القبض على أحد العاملين القدامى لدى سون يات–سين، وأُطلق سراحه بناءً على طلبها. بيت أخيها المفضّل (لا يتدخل في السياسة) ت. أ. صودر (كسائر ممتلكات عائلتها) وأعيد إليها لتحافظ عليه من أجله.

أواخر آب/ أغسطس، توجهت تشينغ–لينغ إلى بيجينغ. رحلتها في القطار استمرت يومين، وكانت تحدق من النافذة لرؤية المناظر المتعاقبة من حقول وقرى وبلدات، من الجنوب حتى الشمال؛ فكرت: ''وطننا سوف يزدهر. الشروط كافة متوفرة... عندنا موارد عظيمة... لا شيء يعيقنا عن تحقيق أهدافنا''.

جاء ماو إلى محطة السكة الحديدية لاستقبالها. قدم إليها بعضُ الأطفال باقات الورود على الطريقة السوفياتية. تولت ’’الأخت الحمراء‘‘، وهي في السادسة والخمسين (أكبر من ماو بأحد عشر شهراً) منصب نائب الرئيس في حكومة ماو. عندما أعلن ماو ولادة جمهورية الشعب في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٩، مشت وراءه تماماً حتى Tiananmen Gate. وفيما كانت أختاها تعيشان كمنفيّتين، وصلت هي إلى ذروة النجاح في حياتها.

حياة ذات امتيازات فريدة. صار لـ’’الحمراء‘‘ منازل عدة تُحسد عليهما في بيجينغ وشانغهاي. منزل شانغهاي صودر من صاحب مصرف كبير، وهو فيلا مشيّدة على النمط الأوروبي، ويحيط بها مرج جُذّت أعشابه جيداً، وعلى أطرافه أشجار نادرة وأزهار غريبة. والمنازل التي عاشت فيها في بيجينغ فاقته روعة. آخرها قصر ملكي لأمير منشوي، وُلد فيه الإمبراطور الأخير بيو يي. بين الموجودات المفضلة لديها في هذا القصر شجرة رمان فيها عقد كثيرة ويزيد عمرها عن ١٤٠ سنة ولا تزال تحمل عدداً من الثمار كل سنة. امرأة عُرف زوجها المتوفّى بغيريّتيه وبأنه زعيم ثورة عظيمة أسقطت العائلة الإمبراطورية بدت إقامتها في هذا القصر مفارقة فاضحة استغلها ضدها كثيرون من المشككين والمتعصبين. شعرت تشينغ–لينغ بالإرباك وحاولت الاعتذار من أصدقائها: ’’أنا بالفعل أحظى بمعاملة ملكية، لكنني لست سعيدة، لأن آخرين يستحقونها أكثر منّي (وأكدت ذلك) يعيشون في بيوت صغيرة وبسيطة‘‘. في كل منزل فريق عمل يتولّى المهمات كافة، والخدم كانوا ينادونها تاي تاي (مدام) بالأسلوب المعروف قبل الحقبة الشيوعية.

لم تكن عضواً في ’’الشيوعي‘‘ الصيني بالمعنى الصحيح للكلمة. في الثلاثينيات، تجنّدت في ’’الكومينترن‘‘ التي خضعت مباشرة لسلطة موسكو. والأخيرة قررت آنذاك أن تبقى خارج المنظمة عضواً سرياً. بعد تصفية ’’الكومينترن‘‘ في ١٩٤٣، صارت ’’الأخت الحمراء‘‘، وإلى جانبها موسكو، ترى أن ’’الشيوعي‘‘ الصيني ’’منظمتها‘‘، رغم أنها ليست عضواً فيه. في الصين الشيوعية، لم تشارك في التخطيط وهذا بدا مناسباً لها، فلم يكن لديها طموح سياسي شخصي وتقبّلت حدودها، واكتفت بأن تتولى مسؤولية جمعيتها الخاصة، ’’إنعاش الصين‘‘، التي صار مقرها في منزل العائلة القديم، وهذا منحته تشينغ–لينغ للشيوعيين، ومعه ممتلكات عائلتها كافة. سُمح لـ’’الإنعاش‘‘ بإدارة مستشفى للنساء والأطفال، ودار للحضانة، و’’مركز للشباب‘‘ على النمط السوفياتي. كان هناك ’’مركز للألعاب‘‘ للأطفال. لكن كان عليها وقف نشاطها في مجال أساسي: تخفيف المجاعة. رسمياً لا وجود للمجاعة في الصين الشيوعية عندما ورد في تقرير إخباري بثته

إذاعة Voice of America أنها تساعد ضحايا المجاعة، كتبت إلى شو إن–لاي في الحال وعرضت نشر تكذيب علني "لهذا التشويه السافر للوقائع".

أشرفت على إصدار مجلّة بالإنكليزية، *China Reconstructs*، لكن جهاز الرقابة في الحزب كان يحجب بعناية كل عدد. أدخل الحزب موظفين إلى "إنعاش الصين"، واستمر في مراقبة طاقمها القديم بعناية. بعض أصدقائها المقربين وجدوا أن التغييرات لا تحتمل وفضّلوا الانسحاب. لكن تشينغ–لينغ استجابت لها دون اعتراض. تأقلمت بسرعة مع الوضع الجديد.

كان عليها أن تتأقلم مع وجود حراس يرافقونها دائماً وهؤلاء من الجنود الشيوعيين. كانوا في الغالب أبناء أسر من الفلاحين الفقراء، ورأوا في أسلوب حياتها أموراً كثيرة لم تعجبهم، وعمدوا أحياناً إلى توجيه ملاحظات صريحة لها بأسلوب لم يعرفه أبداً الذين خدموها قبلهم. أصرّ الشيوعيون على مسألة "المساواة" بين المسؤول والموظفين لديه، ورأوا فيها قضية حساسة في تأسيس الديموقراطية. في أحد أيام ١٩٥١، قصدت سفارة ألمانيا الشرقية لحضور حفل استقبال. بعد نهاية الحفل انتقد بعض حراسها أثواب النساء الطويلة بوصفها تبذيراً لا مبرر له؛ "كل هذا القماش الغالي من الحرير لا فائدة منه!" حاولت تشينغ–لينغ أن تشرح لهم أن الأزياء والحليّ لهما أهمية كبرى في حياة الناس. ولم تعرف ما هل أقنع كلامها هؤلاء الشبان أم لا.

لم يعد الاحتفال بعيد الميلاد مسألة عادية. عندما دعت أصدقاءها إلى أمسية الميلاد في ١٩٥١، كان عليها أن تطلب منهم ألّا يخبروا أحداً بأن هناك حفلة. الاحتفال قد يؤدي إلى "سوء تفاهم". في السنوات التالية، اكتفت بالاحتفال بعيد رأس السنة لكن بوجود شجرة للميلاد.

تعلّمت أن تتوخّى الحذر في ما يخصّ أموراً لم تفكر فيها من قبل. عندما حوّلت رسالة من صديقها الأميركي إدغار سنو إلى ماو بناءً على طلب سنو، وجدت أنه من الضروري أن تلحّ على "لا أعرف هل أفكاره في هذه المرحلة لا تزال صحيحة. منذ وقت طويل لم أقرأ كتاباته". أثناء الكتابة إلى أصدقائها كانت تطلب منهم غالباً "إحراق" رسائلها أو "إتلافها" بعد قراءتها.

في ١٩٥١–١٩٥٢، أطلق ماو حملة دُعيت "اللّاءات الثلاث" (لا للفساد، لا للإسراف، لا للبيروقراطية) وتستهدف الموظفين الذين يتعاطون في الشؤون المالية. طُلب من العاملين في "إنعاش الصين" التبليغ عن آخرين وتبرئة أنفسهم في الوقت نفسه. استلمت تشينغ–لينغ لوائح بأسماء أشخاص وُجّهت إليهم اتهامات بغيضة. وورد بين الأسماء اسم قريب لها وهو متعهد بناء بنى منازل أفراد أسرتها وبعض أصدقائها وأجرى إصلاحات فيها، بما في ذلك المنزل الذي تبرعت به للمنظمة. قبل خسارة شيانغ كاي–شيك لشانغهاي سرت إشاعة أنه قد يخطف السيدة سون وبأخذها

معه إلى تايوان. قريبها هذا لم يفارق منزلها ورأى في نفسه حارساً لها، فأحست بالامتنان له وتوطدت علاقتها به ومن حين إلى آخر كانا يتبادلان الهدايا. صارت الشائعات الآن عن تلقيها رشى منه. أحست بالإهانة لأنها اضطرت إلى تفسير أن الهدايا التي تبادلاها لم تكن سوى قوالب من الحلوى والبسكويت، وعندما تكون هديته ثمينة مثل النبيذ الأحمر، كانت تختار له هدية أثمن منها. أقسمت أن لديها شهوداً يؤكدون صحة أقوالها، وحاولت أن تبدو منفصلة عنه وطالبت بأن يخضع للاستجواب وأن يعاقب إذا ثبتت إدانته بالفساد.

وبينما طالت مدةُ الحملات السياسية وتورط أصدقاؤها الواحد منهم تلو الآخر في مشكلات لا حصر لها، انتبهت تشينغ–لينغ أنها كانت دائماً تميل إلى الثقة بالناس أكثر من الشك فيهم، وأن هذا صار أشبه بالجريمة: ”طريقة الجناح اليميني في التفكير“.

مع ذلك، في هذه السنوات الأولى، استطاعت ”الأخت الحمراء“ المحافظة على توازنها إلى حد كبير. استمرت في إقامة حفلات لمجموعة ضيقة من أصدقائها ليرقصوا ويستمعوا للأغاني الغربية القديمة المسجلة على أسطوانات. ماو اختار شو إن–لاي، الأكثر تمدناً وجاذبية بين موظفي نظامه الأشداء، ليبقى على تواصل معها. سائر الموظفين الكبار الذين عملت معهم في شانغهاي على وجه الخصوص كانوا من أصدقائها القدامى من الشيوعيين المناضلين في الخفاء. شكلوا حولها شبكة أمان لطيفة. أُغدقت عليها كل مظاهر التكريم والحفاوة، ومنحها الكرملين ”جائزة ستالين للسلام“ الرفيعة الشأن. وقد وصل إلى بيجينغ أديبان كبيران، إيليا إرنبرغ من الاتحاد السوفياتي وبابلو نيرودا من تشيلي، للمشاركة في الاحتفال. عرفت مصادر جديدة للسعادة. سافرت إلى بلدان عدة حيث أُعدّت لها استقبالات حاشدة بوصفها الممثلة المتألقة والمشهورة عن الصين. حياة تشينغ–لينغ لم تكن عادية أبداً وكانت سعيدة وراضية عنها.

في ١٩٥٦، عاشت ”الحمراء“ تجربتها الأولى في مواجهة الحزب مباشرة، وقد تكون الأخيرة. في تلك السنة، فُرضت لجنة تنفيذية جديدة على ”إنعاش الصين“ برئاسة مسؤول الحزب في شانغهاي، كي كينغ–شي، وهو أحد رفاق ماو المقربين منه. مع أن تشينغ–لينغ احتفظت ”بكرسيّها“، صار من الواضح أن منصبها ليس سوى امتياز شرفي. خسرت ”طفلتها“ التي احتضنتها واعتنت بها، وعانت من إحساسها بهزيمة لم تتوقعها. في رسائلها الخاصة، نفّست عن غضبها، وأشارت إلى الحزب بالضمير ”هم“: ”لم يستشيروني في شيء وفي الواقع... لم تكن لديّ أدنى فكرة أنهم اتخذوا القرار بأن...“.

في تشرين الثاني/ نوفمبر، لم تعد قادرة على كتمان ما داخلها. في ذلك الشهر، كانت بيجينغ تعدّ احتفالاً بذكرى مرور تسعين سنة على ولادة سون يات–سين. كتبت تشينغ–لينغ مقالات عن سون لتنشرها الصحيفة المتحدثة باسم الحزب، *People's Daily*. وصفت فيها سون بأنه لينين الصين، وأضافت أن الحزب الشيوعي الصيني "تابع مسيرته" بعد وفاته.

كالمعتاد، أرسلت تشينغ–لينغ مسوّدة المقالة إلى بيجينغ للموافقة عليها. اعتادت في أمور كهذه أن تتواصل مع شو إن–لاي الذي تحترمه. في تلك المدة، كان شو منشغلاً جداً بقضية أكثر أهمية. كان العالم الشيوعي مضطرباً. الانتفاضة المجرية اندلعت في أوروبا، وتلتها موجة احتجاج في بولندا وماو متوتر. في ذلك الحين، كان يحاول استغلال الأزمة ليحلّ محلّ نيكيتا خروتشيف كقائد للمعسكر الشيوعي (ستالين مات في ١٩٥٣). كيفية التعامل مع هذا الموضوع شغلت ماو وفريقه واستنفدت كل طاقاتهم. كانوا يعقدون اجتماعات متواصلة ليلاً ونهاراً.

لا وقت لدى شو إن–لاي لقراءة مقالات تشينغ–لينغ، فتولى المهمة مراقبون صغار. ودون لباقة شو، طلب منها الموظفون مباشرة إجراء تعديلات تؤكد الدور القيادي لـ"الشيوعي" في مسيرة سون. قيل لتشينغ–لينغ أنْ تكتب على النحو التالي: فكر الدكتور سون المعاديّ للإمبرالية... تبلور من لقاءاته مع لي تا–تشاو وشيوشو–باك (من القياديين الأوائل في الحزب). تشينغ–لينغ ثار سخطها. كتبت إلى صديق في ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر أن أفكار سون الثورية "برزت منذ البداية... قبل أن يلتقي أي عضو في الشيوعي"؛ "لا أقصد التقليل من أهمية مساهمتهم لكن بما أننا نقدّر الحقيقة والوقائع يجب أن نذكرهما بكل شفافية حتى إذا لم تكن الوقائع ما يتمنى البعض رؤيته". وطلبت من صديقها، كما اعتادت، "من فضلك، تخلص من هذه الرسالة".

أصرّت على صيغة نصّها وعلى أن الموظفين الصغار في جهاز الرقابة لا سلطة لديهم عليها، ولا على مقالاتها التي سوف تنشر كما هي. عندما اطلع قادة الحزب على ما كتبته انزعجوا وقرروا تلقينها درساً. في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر، في الاحتفال الحاشد بذكرى سون – الذي كان مناسبة في غاية الأهمية وحضرها ماو بنفسه، ومعه كل قيادات "الشيوعي" – لم تكن أرملة سون حاضرة.

في هذه الأثناء، انتشر خبر بأن تشينغ–لينغ لديها "علاقة غير شرعية" مع قائد حرسها ولم تعد مدام سون. وصلت الإشاعة إلى أحد أقربائها الذي بادر إلى إطْلاعها عليها. لم تعرف تشينغ–لينغ ماذا تقول من شدة غيظها، فكتبت له أنه إذا سمع أحداً يقول ذلك ثانية، "خذه إلى الشرطة!" سألها قريبها ما الذي منعها من حضور الاحتفال؟ اضطرت إلى أن تجيبه بأنها غابت لأنها خافت من

عجزها عن السيطرة على حزنها وهذا قد لا يبدو لائقاً. والحقيقة أنها لم تتلقَّ دعوة للحضور، وأن أحداً لم يبلغها حتى بالمناسبة.

تشينغ–لينغ احتفظت في قلبها بمعزّة خاصة لرئيس حرسها، سوي زيو–فانغ، ولم تمانع في إظهارها. سوي شاب وسيم يتقن عمله، وهو سائق محترف ومصوّر موهوب وراقص بارع. تشينغ–لينغ تختاره في حفلاتها ليكون شريكها في الرقص. وكانا أحياناً يلعبان معاً الشطرنج والبليارد. تعاملت تشينغ–لينغ عامة بلطف واهتمام مع العاملين لديها،[30] وربما رأت في سوي الابن الذي لن تستطيع إنجابه. والحقيقة أنها كانت تتصرف بمودّة أيضاً مع نائب سوي، جين شان–وانغ، الذي أطلقت عليه بتحبب اسم "المدفع". علمته كيف يعزف على البيانو، وكلفته إلقاء خطب غير رسمية بالنيابة عنها. تنافس الشابان على ودها، بإصرار طفولي أحياناً. وهي معهما بدت مرحة وعابثة كأنها أصغر سناً. ساد في منزل تشينغ–لينغ جوّ عائليّ من المودة والسرور، إلى جانب الحرد والخلاف.

30 أجريتُ مقابلة مع اثنين بارزين من أعضاء فريقها أمضيا مدة طويلة في خدمتها: المساعد لي يون ونائب رئيس الحرس جين شان–وانغ، وكلاهما أكّد طيبتها مع كل أعضاء فريقها وطلبا مني أن أذكر هذه السّمة التي تحلّت بها. وهذا طلب لم أسمعه من أي موظف يعمل لدى زعيم وأُجريت مقابلة معه.

الكلام الفارغ يتعذّر تجنبه، وفي هذه الحالة، وبطريقة غير اعتيادية، وصل إلى مسامع الناس. حياة قادة البلاد الشخصية يحافظُ على سريتها بعناية. ربما كان موظفون رسميون غيرها لديهم علاقات لكنها كانت تظل في حلقات النخبة ولا أحد غيرهم يعرفها. سيرة تشينغ–لينغ وحدها صارت على كل لسان.

خافت تشينغ–لينغ من الإشاعة ومن استبعادها عن الاحتفال بذكرى سون يات–سين. تعرف جيداً أنها قد تُحرم لقب مدام سون الحيوي بالنسبة إلى بقائها. واجهت شائعات مماثلة من قبل، في سلطة شيانغ كاي–شيك، لكنها استطاعت دائماً إعلان رأيها وتكذيبها. بعض الصحف تنشر روايتها، أو هي تطبعها على أوراق ترمى عن سطوح الأبنية العالية في شانغهاي. الآن لم يعد لديها أي وسيلة ليسمع الناس صوتها، حتى لو كانت تحتل منصب نائب رئيس البلاد. لا تملك أي وسيلة تدافع بها عن نفسها في العلن، وهي الآن ترضخ تماماً لمشيئة الحزب. إن قال الحزب إنها لم تعد مدام سون، فهي لن تعود مدام سون، حتى لو ظلّت أرملته الوفية.

هذا الاحتمال المخيف أجبر تشينغ–لينغ العنيدة على الإذعان. ووجدت طريقة تظهر فيها خضوعها. في نيسان/ أبريل ١٩٥٧، وصل إلى شانغهاي الرجل الثاني بعد ماو، الرئيس ليو شاو–

كي، وزار تشينغ–لينغ مع زوجته. السيدة ليو، الذكية والأنيقة، ابنة عائلة عريقة ومعروفة وقد تخرجت بشهادة في الفيزياء في الجامعة الكاثوليكية في بيجينغ في المدة التي سبقت حكم الشيوعيين. تربط تشينغ–لينغ بالزوجين علاقة طيبة. رأت في زيارتهما إليها إشارة إلى أن الحزب يريد مصالحتها، وهي استغلّت الفرصة. أخبرت ليو أنها تريد الانضمام إلى "الشيوعي". لاحظت السيدة ليو إلى أي مدى كانت صادقة وهي تتقدم بطلب الانتساب. كان زوجها مسروراً لكنه أجابها وهو يختار كلماته بعناية أنه سوف يطلع ماو على الأمر لأنه "بالغ الأهمية". عاد ليو بعد مدة قصيرة إلى شانغهاي ومعه شو إن–لاي، الرجل الثالث، لتبليغ تشينغ–لينغ أن الحزب يرى أنها قادرة على دعم قضيتهما المشتركة بفعالية أكثر بالبقاء خارج صفوف الحزب، وأن الأخير سوف يطلعها على المسائل الأساسية كافة وأنها سوف تشارك في بلورة القرارات. أحنت تشينغ–لينغ رأسها والدموع في عينيها وبدت متأثرة جداً.

في الواقع، لم يكن ماو أو فريقه يريدان إبعاد تشينغ–لينغ. ماو بالذات تربطه بها علاقة ودية على الصعيد الشخصي، وهو يناديها "الأخت الكبرى العزيزة" ويكتب لها بأسلوب عفوي. سياسياً وجودها لا يُقدّر بثمن. جيران الصين من غير الشيوعيين يخافون من الصين الحمراء، وتشينغ–لينغ تستطيع مساعدة "الشيوعي" لكسب دعمهم. سوكارنو رئيس أندونيسيا، الذي أراد ماو بصورة خاصة تنمية العلاقة معه، لفتت انتباهه تشينغ–لينغ الجميلة والفاتنة وغنّى لها مشيداً بها، غنّى لها بالفعل بنفسه أغنية مهداة لها. وأصرّ ماو على أن يعبّر لـ"الأخت الحمراء" عن مقدار سروره من تأثيرها في سوكارنو.

كان وقع تشينغ–لينغ أكثر أهمية في نظر بيجينغ لفرض سيطرتها على تايوان. كان الرئيس هاري س. ترومان قد أخذ قراراً بالنأي بنفسه عن نظام شيانغ، لكن بعد مساندة ماو لكوريا الشمالية في هجومها على الجنوب في حزيران/ يونيو ١٩٥٠، ما أشعل الحرب الكورية، أمر بتوجّه الأسطول السابع إلى مضيق تايوان لحماية الجزيرة من أي اعتداء قد تتعرّض له. كان جيش ماو عاجزاً عن الاستيلاء على تايوان بالقوة. لم يعد أمام ماو سوى استدراج تايوان للاستسلام. ومَنْ لديه القدرة على إقناع القوميين أكثر من مدام سون؟ تشينغ–لينغ، بدافع المسؤولية، أرسلت برقية إلى إي–لينغ في نيويورك تحثها فيها على الحضور في زيارة "في الحال" قبل أن تصيرا كبيرتين في السنّ. إي–لينغ كتبت في السنوات القليلة الماضية رسائل عدة إلى تشينغ–لينغ ولم تتلقَّ منها أي ردّ. لذلك، أجابتها بلباقة أنها تعاني من اعتمام في عدسة العين وستخضع لعملية جراحية قريباً، ووعدتها أنها عندما تشعر بتحسن بصرها، سوف تأتي لرؤية أختها العزيزة في أقرب وقت. وأضافت بالطبع أنها تفتقدها

باستمرار وتتمنى لو أنهما معاً كما كانتا في السابق. أرسلت إلى تشينغ–لينغ بعض الألبسة من الكشمير لكنها لم تذهب أبداً إلى الصين الشيوعية.

أخذ ماو بادرة حسن نية للمرة الثانية مع تشينغ–لينغ للتعويض عن إهانتها في السابق. أخذها معه بصفتها الرسمية إلى موسكو في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧ لحضور الاحتفالات بمناسبة العيد الأربعين لـ"ثورة أكتوبر". وتشينغ–لينغ أيّدت من جانبها استغلال الحزب لسون يات–سين قبل الرحلة، فكتبت أن سون طوّر "رؤيته الصحيحة للثورة الصينية بعد لقائه ممثلين عن الحزب الشيوعي الصيني".

في هذه الأثناء، تزوج سوي، حارسها الشخصي، بفتاة تعمل في أحد المصانع. وتشينغ–لينغ أقامت حفل عشاء احتفالاً بزواجهما، وبما أن العروسين لم يتمكّنا من الحصول على شقة للسكن، عرضت عليهما الإقامة في جزء من الجناح المخصّص لمرافقيها في قصرها في شانغهاي.

هكذا، انتهى الإشكال ببراعة عند الطرفين. لكن الشائعة عن العلاقة بين تشينغ–لينغ وسوي استمرت. ولقد سمعت مراراً مثل كل الصينيين في الستينيات والسبعينيات أن تشينغ–لينغ تزوجت بالسرّ حارسها الشخصي، وأن لقب "مدام سون يات–سين" مجرد مظهر تركه لها الحزب حفظاً لكرامتها. صدّق الناس الشائعة آنذاك. وكثيرون لا يزالون يصدقونها حتى يومنا.

حصيلة كل ذلك كانت أن تشينغ–لينغ لم تعد تتصرف باستقلالية، وصارت مجرد واجهة للحزب، تزور الدول الأجنبية وتستقبل الزائرين الأجانب باسم الحزب. لم تعد تصدر عنها أي تعليقات تنتقد الحزب، حتى في مجالسها الخاصة. في العلن، صارت المتحدثة باسم الحزب. وفي ١٩٥٧، خلال الحملة "المعادية لليمينية"، أُدين مئات الآلاف من النساء والرجال المثقفين الذين استجابوا لدعوة ماو وتحدثوا علناً عن مشكلات البلاد. بين المستهدفين كان عدد من أصدقاء تشينغ–لينغ القدامى ومعارفها الذين واجهوا شيانغ كاي–شيك معها. خسروا وظائفهم وأرسلوا إلى أعمال يدوية. بعضهم جرى ترحيلهم إلى المعسكرات، وآخرون دُفعوا إلى الانتحار. هذه الأحكام دمّرت حياة عدد كبير جداً من الناس وفاقت ببشاعتها أي إجراء اتخذه شيانغ كاي–شيك من قبل، لكن "الأخت الحمراء" لزمت الصمت (في تلك السنة كانت تناضل من أجل البقاء). تألمت لمآسيهم لكنها ناضلت في سبيل تحجّر مشاعرها. في إحدى مقالاتها، استعانت بشعار للحزب لتوعية قرائها وتوعية نفسها: "يجب السيطرة على المشاعر الحميمة".

في ١٩٥٨، أطلق ماو حملته الكبرى "قفزة عظيمة إلى الأمام" التي كانت في الواقع مشروعه لبناء مجموعة من المصانع العسكرية بسرعة مذهلة. كان الفولاذ مطلوباً، وماو، الذي لم يكن بارعاً

في الشؤون الاقتصادية، أصدر أوامره لكل الناس باستخدام الفولاذ. أخذت الأفران تظهر في الحدائق الخلفية للمنازل في الصين، وتشينغ–لينغ شيّدت فرنها الخاص مع العاملين لديها في فناء منزلها. ومن أجل إيجاد مكان لهذا الشيء البشع، اضطرت إلى قطع أشجار قديمة وجميلة. أوردت *People's Daily* أنها ثبتت كتلة ساخنة من الفولاذ للشباب كي يطرقوها. كانت تعيسة لكنها لم تحتج.

الخسارة الفادحة في الموارد البشرية والطبيعية التي نجمت عن القفزة أدت على نحو أساسي إلى مجاعة على امتداد البلاد استمرت لأربع سنوات (١٩٥٨–١٩٦١).[31] قضى في هذه المجاعة نحو أربعين مليوناً من السكان. حتى في عالم تشينغ–لينغ الذي يحظى بامتيازات كان هناك جياع. اضطرت ذات مرة أن تعطي أوامرها بذبح عنزة تربيها من أجل توفير الغذاء لفريق العاملين لديها. في مواجهة الحكم الخطأ بأبعاده الخطيرة إلى هذه الدرجة، تمرد بعض الشيوعيين، والأكثر شهرة بينهم المارشال بينغ دو–هواي، وزير الدفاع. في حزيران/ يونيو ١٩٥٩، ثبتت إدانة بينغ (مات في ما بعد داخل السجن). تشينغ–لينغ التي كانت تحترم المارشال أُصيبت بالذهول. كتبت لأحد أصدقائها الموثوقين تصف حالها: "أشعر بتوتر شديد، والكوابيس لا تفارقني". وطلبت منه "تخلّص من الرسالة بعد قراءتها".

31 كان السبب الرئيسي أن ماو أرسل المواد الغذائية إلى روسيا ليدفع كلفة المصانع العسكرية. وهو غذاء كان الصينيون بحاجة إليه ليحافظوا على بقائهم. انظر:

يونغ تشانغ وجون هاليدي، *Mao, the Unknown story*، الفصل ٤٠.

ربما خطر لـ"الأخت الحمراء" في هذه المرحلة أنها يجب أن ترحَل بحجة بعض المشكلات الصحية. هي تعاني بالفعل من التهاب المفاصل، وتتوفر لها أفضل رعاية طبية ممكنة، لكنها في إحدى رسائلها إلى صديقتها الألمانية آنا وانغ في تموز/ يوليو ١٩٥٩ ادعت أن الأطباء بلّغوها أنها لن تستطيع الحصول على العلاج والرعاية اللّازمين إلّا إذا سافرت إلى الخارج. أرادت بكلامها لفت انتباه آنا لكي تحاول إيجاد طريقة لها علاقة بصحتها من أجل إخراجها. كانت تعبّر عما تتمناه أكثر مما تسعى إلى وضع خطة جدية. لكن مجرد التلميح بذلك لصديقتها الحميمة أثار توترها. كتبت الرسالة وهي تتصور أن شخصاً مثل "الأخ الأكبر" يقف بجانب آنا ويقرأ الرسالة معها، وفيما كانت تلمّح إلى هذا الاحتمال، عمدت في الوقت نفسه إلى التراجع عنه بقولها إنها تعاني من الألم وهذا يجعل سفرها إلى الخارج صعباً، وأن مشكلتها لا حلّ لها.

لم يقتصر توتر تشينغ–لينغ من رسائلها على احتمال الاطّلاع على ما يرد فيها؛ خافت أيضاً من اعتراض سبيلها، وكانت تنتظر بانفعال وقلق تأكيد أصدقائها أن رسائلها وصلت. سمحت لنفسها في بعض الحالات بتقديم الشكاوى فقط. مكبّرات الصوت (من معالم القفزة العظيمة إلى الأمام) تزعق بحماسة من الفجر حتى التاسعة ليلاً وكادت تفقدها صوابها؛ اختفت الحياة الاجتماعية التي تبعث على الفرح، واستبدل بها أنشطة رسمية كئيبة، إضافة إلى نقص مزعج في الاحتياجات اليومية. كتبت إلى آنا أن النساء اللواتي لديهنّ أطفال حديثي الولادة كنّ يستجدين بخجل الأغطية المستعملة لتحويلها إلى حفاضات، وأنها أعطت بعض ما عندها من شراشف لم تعد بحاجة إليها وملابس عتيقة. إنها بحاجة ملحّة إلى أقمشة للقمصان والبنطلونات. فهل تستطيع آنا أن ترسل بعض الأقمشة (من ألمانيا الشرقية)؟ أي شيء تجده سيكون مناسباً، لأنه "لا يحق للمتسول أن يختار ما يريد". وآنا أرسلت أيضاً أشرطة المطّاط للملابس الداخلية والجوارب ومرآة لها قاعدة لتضعها على منضدة الزّينة.

المعجبون بمدام سون، الذين انتظروا بصبر فارغ أيّ اعتراض يصدر عن بطلتهم، يدّعون غالباً أنها كتبت شكاوى إلى قيادة "الشيوعي" الصيني مرات عدة. ليس هناك أي دليل على ذلك، ولكن تبرز في المقابل أدلة كثيرة على أنها كانت مقتنعة بخط الحزب وملتزمة إياه.

خلال المجاعة طرأ تغيير على حياة تشينغ–لينغ أجبرها على إغماض عينيها عن الواقع والتغاضي عنه. في بداية الستينيات، تبنت ابنتين على نحو غير رسمي، فانشغلت بهما وأحست بامتلاء حياتها.

إنهما ابنتا سوي، رئيس الحرس الذي طاولته أيضاً الفضيحة إلى جانبها. نهاية ١٩٥٧ ولدت طفلته الأولى، فأحضرها كي تراها تشينغ–لينغ، وهذا أمر اعتاده بعض العاملين لديها لأنهم يعرفون مدى تعلّقها بالأطفال. وضعت تشينغ–لينغ الطفلة على ركبتيها، وضمّتها بذراعيها. لم تبكِ الطفلة بل ابتسمت لها، وأخذت الواحدة منهما تحدّق بالأخرى. ثم بدأت الطفلة تريح نفسها وتبول على ثوب تشينغ–لينغ المنشّى. حاولت الخادمات، اللواتي يعرفنَ تقيد سيدتهن بأصول النظافة، حمل الطفلة وإبعادها. لكنها منعتهنّ: "اتركنها تنتهي من التبول، كي لا تصاب بأذى". البول الدافئ حرّك في أعماق تشينغ–لينغ إحساساً خامداً لم تعرفه من قبل وتتوق إليه: أن تصبح أمّاً. منذ ذلك الحين أخذت ظلال السياسة المظلمة تتراجع، وتشينغ–لينغ في أواسط الستينات من عمرها استغرقت في الأمومة.

٢٠

"ليس عندي ما أندم عليه"

طفلة سوي الصغيرة التي تبولت على تشينغ–لينغ صارت طفلة جميلة في السنتين. تشينغ–لينغ أطلقت عليها اسماً إنكليزياً، يولندا، لكنها كانت تناديها "ثروتي الصغيرة". وبما أن تشينغ–لينغ صارت في أواخر الستينات، قيل للطفلة أن تناديها "جدتي" أو "تاي تاي" (مدام)، لكن تشينغ–لينغ أرادتها أن تناديها "أمي". كأن الطفلة الذكية أحسّت بما يجول في بالها فأخذت تتمتم "ماما–تاي تاي"، فانشرح صدر تشينغ–لينغ وحُلّت المشكلة. وأعطت في ما بعد تعليماتها بأن كل الأطفال الذين يجلبون لزيارتها يجب أن ينادوها على هذا النحو أيضاً. وعندما تختلي بيولندا كانت تقول لها إنها "ماما"، والطفلة تناديها "ماما".

ذات يوم من ١٩٦١، رقصت يولندا ابنة السنوات الثلاث لماما–تاي تاي. لم تستطع تشينغ–لينغ السيطرة على مشاعر الاعتزاز، وأخذت تعرّف أصدقاءها إلى الطفلة. تلقت يولندا دعوة للرقص في احتفال كبير بمناسبة عيد الطفل (الأول من حزيران/ يونيو) في تلك السنة، وارتدت ثوباً كورياً جميلاً. سحرت تشينغ–لينغ عندما شاهدتها على شاشة التلفاز (كان وسيلة رفاهية نادرة لم تحصل عليها سوى مجموعة ضيقة من النخبة). أحست بالتحديد أن يولندا تشبهها إلى درجة غير معقولة (والآخرون اعتقدوا ذلك أيضاً).

كما تبنّت تشينغ–لينغ بطريقة غير رسمية أخت يولندا، يونغ جي، التي ولدت في ١٩٥٩. عندما بلغت الطفلة شهرها الخامس، أخذت لها صورة. تشينغ–لينغ أحبت الصورة إلى حدّ أنها طلبت نشرها على غلاف المجلة النسائية الرسمية *Women in China* (طلبها رُفض).

كانت الطفلتان تترددان باستمرار على منزلها الذي كان مثل الجنة لهما، لأنهما تعيشان في الجناح المكتظ المخصّص لفريق العمل. كانت الحياة صعبة على والديهما، الحارس وعاملة المصنع، خصوصاً خلال المجاعة. لديهما أفواه كثيرة عليهما سدّ جوعها: بعد يولندا ويونغ–جي أنجبا صبياً وفتاة. ولم تخيّم السعادة على حياة العائلة أيضاً. الزوجان يتشاجران باستمرار ويعلو صراخهما. لم تحب السيدة سوي وجود تشينغ–لينغ في عائلتها، وفي نوبات القهر والغضب، تبدأ تكسير الأواني

والأطباق والأغراض الثمينة كافة. ذات مرة لحقت بزوجها إلى منزل ربة العمل وتهجّمت على السيدة سون المهيبة محمّلة إياها مسؤولية التوتر في عائلتها. توترت تشينغ–لينغ وأمرت بتأمين مسكن للعائلة في الحال، وبعد مدة قصيرة غادرت العائلة منزلها.

في ١٩٦٣، أُصيب سوي بجلطة وتعرّض لشلل نصفي. كتبت تشينغ–لينغ إلى صديقة قديمة: "تألمت من الخبر، وحتى الآن لم أستجمع شجاعة كافية كي أزوره. أخشى عليه من رؤية انفعالي لأنه قد يتألم وربما تزداد حالته سوءاً. كنت قد أرسلت طفلتين من أولاده إلى دار الحضانة وهذا أفضل لهما من البقاء في البيت. إنهما ذكيتان جداً. زرتهما في دار الحضانة عند عودتي ووجدت أنهما تأقلمتا مع محيطهما الجديد". بدأت تصطحبهما إلى منزلها ثم انتقلتا للإقامة معها.

رغم أن أمهما تكره ذلك، لكنها رضيت لأنه الحل الأفضل لابنتيها. يولندا ويونغ–جي حافظتا على علاقتهما بوالديهما لكن معظم وقتهما كان مع ماما–تاي تاي التي تقدم إليهما طعاماً يصعب الحصول عليه وملابس رائعة لا تحلمان بها، بما فيها معاطف الفرو الناعم من صوف الحملان التي أذهلتهما. كانت تشينغ–لينغ تسرّح لكل فتاة شعرها في الصباح وتزينه بعقدة أنشوطية من الحرير الملوّن على شكل فراشة. كانت تراقبهما وهما تلعبان في المرج الكبير مقابل منزلها، فتجلس على مقعد خشبي وتنتظرهما حتى تركضا نحوها لتضمهما إلى صدرها. كانت هناك في المرج وزتان، وكانت الفتاتان تطعمانهما، وهما بجانب تشينغ–لينغ، عندما تقتربان. علّمت ماما–تاي تاي الفتاتين قواعد اللياقة والتهذيب عند لقاء ذوي الشأن، واصطحبتهما معها لزيارة أصحاب المقامات الرفيعة. في إحدى الصور، يبدو شو إن–لاي وهو يجرّهما من يديهما ويتمشّى معهما في الحديقة.

سيطرت الفتاتان على حياة تشينغ–لينغ تماماً، وحازتا كل اهتمامها. قالت يولندا في ما بعد إن تفاني تشينغ–لينغ في عملها في السابق ربما كان لملء الفراغ داخلها الناجم عن حرمانها الأمومة.

مع انطلاقة الثورة الثقافية في ١٩٦٦، لم تعد "الأخت الحمراء" قادرة على تجاهل الواقع السائد خارج قصورها. في عملية التطهير هذه الأكثر أهمية التي أقدم عليها ماو، كان الرئيس ليو شاو–كي الهدف الأبرز، لأنه اعترض مسار ماو وتمكن من إبطاء عملية تصنيع السلاح التي تفاقمت سرعتها وازداد خطرها (وضع حداً للمجاعة بمبادرته).[32] كان ماو يكره من يعيق تقدمه، ولذلك عاقب ليو وأراد له أن يموت بائساً في السجن. سُجنت السيدة ليو بعد إدانتها بتهمة غريبة: "جاسوسة في وكالة الاستخبارات الأميركية وعند القوميين". أنصار ليو أدينوا، وهم بعشرات الملايين على امتداد الأراضي الصينية، بشعارات من قبيل: "رأسماليون يركبون السيارات المكشوفة"، و"أعداء الطبقة

العاملة" و"عناصر مشبوهة"، وغيرها من الاتهامات التي تصل عقوبتها إلى الموت. رئيس الوزراء شو إن–لاي بقي على حافة الهاوية بسبب تفانيه في خدمة ماو.

32 للاطلاع على مزيد من التفاصيل:

Mao, The Unknown story يونغ تشانغ وجون هاليداي، الفصل ٤٤.

تشينغ–لينغ لم تتعرض لأذى، وذلك مجدداً بفضل أهميتها كمدام سون يات–سين. كان اسمها بالفعل على رأس قائمة من الأشخاص الذين تم انتقاؤهم لحمايتهم من العنف الذي مارسه "الحرس الأحمر"، قوة ماو الضاربة. تعرّضت لبعض الأمور المؤذية لكنها كانت مجرد أمور مزعجة بالمقارنة مع ما كان يحدث. قبر والديها في شانغهاي تعرّض للتخريب، لكن بعد إرسالها الصور إلى شو إن–لاي تم إصلاحه، رغم أن أسماء أخويها وأختيها أُزيلت عن شاهد القبر. رئيس الحرس الجديد نغّص عليها حياتها لكن بعدما شكت للسيدة شو عنه تم استبداله (هذا المتعصّب لماو جرى فصله بطريقة دراماتيكية. كان عائداً إلى غرفته، وهو يدندن أغنية تقتبس أقوالاً لماو، عندما ألقى عليه التحية حارس أقل منه رتبة ليبلغه بأن يدخل إلى المكتب من أجل استشارة ضرورية. لم يكد يدخل الغرفة حتى انقضّ عليه حارسان من خلف الباب وأمسكاه من ذراعيه، وانتزع أحدهما مسدسه من حزامه. رافقاه حتى بوابة المنزل، وتركاه يبتعد على دراجته).

أراد ماو أن ينال كل شخص حصة لو قليلة من الخوف. وبناء عليه سمح لـ"الحرس الأحمر" بإقامة مخيم خارج الجدران القرمزية لمنزل تشينغ–لينغ الفخم في بيجينغ (بعد إبلاغها بضرورة البقاء هناك وألا تذهب إلى شانغهاي). مكبرات الصوت في المخيم كانت تصدح بشعارات رهيبة تخترق الجدران. كانوا يعرّضون ضحاياهم في الخارج للمشاركة في "لقاءات تحذيرية" ويصل إلى مسامعها أحياناً صراخ الألم الذي يطلقونه. أصابها الذعر. لم تصل حملات التطهير عند ستالين إلى هذه الممارسات، ولا الرعب الأبيض الذي أثاره شيانغ كاي–شيك، ولا حتى حملات ماو السياسية السابقة. خافت من اقتحام "الحرس الأحمر" منزلها وتعريضها للتعذيب لمجرد أن لديها حقائب وأحذية وأقمشة جميلة، وهذه مقتنيات "برجوازية"، ففرمتها في الفرن وأحرقتها. عندما قرأت مقالة في الصحيفة تدين تربية الحيوانات بما في ذلك طيور الحمام والأسماك الذهبية، ألقت الصحيفة في الحال وأمرت خدامها بقتل كل طيور الحمام. لحسن حظ الطيور، وصل الخبر إلى شو إن–لاي الذي أصدر أوامره بتجنّب التعرّض لها. ذات مرة، عمدت تشينغ–لينغ بسبب توترها واندفاعها إلى وصف مخاوفها لصديقتها القديمة، الصحافية الأميركية المؤيّدة لماو، آنّا لويس سترونغ. لكنها أصيبت بنوبة أكبر من الرعب بعد أن أرسلت الرسالة مباشرة، فكتبت لها رسالة ثانية في الحال

تطلب فيها من سترونغ التخلّص من الأولى. سترونغ أكّدت لها: ‟في اليوم نفسه الذي استلمت فيه رسالتك الثانية، مزّقت بنفسي الأولى إلى قطع صغيرة وفتحت عليها الماء لتنزل في البالوعة... لم يبقَ منها شيء‟.

كل يوم هناك بيان بالأخبار المثيرة للرعب. أصدقاء وأقارب يتعرّضون للتعذيب في ‟اللقاءات التحذيرية‟. كانوا يُطردون من منازلهم، أو يسجنون، أو يفقدون حياتهم بأساليب عنيفة. أحد أصدقائها المقرّبين، ومن رفاقها القدامى، جين زونغ–هوا، الذي شغل منصب نائب عمدة شانغهاي، اتهموه بأنه ‟جاسوس أميركي‟، وخضع لجلسات استجواب وتعذيب متتالية. اقتحموا منزله لتفتيشه، وعثروا على نحو ثمانين رسالة من تشينغ–لينغ. تشينغ–لينغ طلبت منه كعادتها إتلاف الرسائل لكنه لم يفعل ذلك لأنه يعتزّ بتبادلها الرسائل معه. ورغم أن الرسائل لا تتضمن أي إساءة، لو بعيدة، تطاول النظام، لكن نائب العمدة السابق توتر من أنها قد تستغل للإساءة إلى تشينغ–لينغ لسبب ما غير متوقع أو غير مفهوم. عانى من ضغوط فاقت قدرته على التحمّل فشنق نفسه في ١٩٦٨.

في الواقع، كل أقرباء تشينغ–لينغ تعرّضوا لمعاملة مروّعة، لأنهم يتحدرون من عائلة سونغ فقط. في جي–زين، قريبة لها من ناحية والدتها، طردها ‟الحرس الأحمر‟ من بيتها في شانغهاي، وضربوها وداسوا عليها. ناشدت تشينغ–لينغ لمساعدتها وهي تتلوّى من الألم وتبصق الدماء. في رسالتها، بتاريخ ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦، روت بالتفصيل ما تتعرض له: ‟لا أعرف إلى متى أستطيع احتمال كل هذا العذاب والخوف... أحاول الصمود (سمعت أن من يحاول قتل نفسه يصير معادياً للثورة). لم أخالف القانون ولم أسعَ إلى الموت... أرجوك أرجوك أرسلي اليّ بضع كلمات عندما تصلك رسالتي كي أتأكد أنك اطّلعت عليها. هذا يجلب إليّ بعض الراحة‟. وبعد توقيع اسمها، أضافت: ‟كنّة عائلة غان انتحرت بتنشّق الغاز. ثمانية أشخاص بين معارفي انتحروا‟.

وصلت الرسالة إلى تشينغ–لينغ التي كانت لا تزال تطيع الأوامر وتقيم في بيجينغ. لم تردّ على الرسالة لكنها طلبت بهدوء من موظفة قديمة عندها في شانغهاي أن تعطي مبلغاً من المال إلى قريبتها التي لا مأوى لها. قالت: ‟قريبتي التي نشأت في عائلة برجوازية لم تكن تتعاطى السياسة، ولم ترتكب أي جنحة. التزمت دائماً المطلوب منها‟. لم يعد أحد يعرف شيئاً عن الموظفة، وتشينغ–لينغ عرفت في ما بعد أنها مرمية في أحد السجون الخاصة التي أقامتها المنظمات كافة في الصين، على الأرجح لأنها أوصلت المبلغ كما طلبت منها. لم تعد ‟الأخت الحمراء‟ تحاول فعل أي شيء لمساعدة قريبتها. وفي أيار/ مايو ١٩٦٨، قريبتها التي خضعت للتعذيب وصارت يائسة من حياتها

دقت جرس منزل تشينغ–لينغ في شانغهاي. قيل لها أن تشينغ–لينغ في بيجينغ، وأنها يجب أن تغادر. اجتازت قريبتها الشارع وتوجهت إلى المبنى المقابل، وصعدت إلى السطح ورمت نفسها.

موتها طارد "الحمراء" التي شعرت أنها "بصورة جزئية مسؤولة" عنه، ورأت قريبتها غالباً في أحلامها. وفي النهاية، لم تعد قادرة على تحمّل الكوابيس أكثر من ذلك فوصفت معاناتها لسينثيا، صديقتها الحميمة منذ زمن بعيد، التي حضرت حفل زواجها بسون يات–سين وكانت طفلة آنذاك. عبّرت في رسالتها بصراحة عن غضبها واشمئزازها من الأعمال الشنيعة والوحشية في كل مكان. ولم تطلب من صديقتها إتلاف الرسالة. الرسالة مؤرخة في شباط/ فبراير ١٩٧١، وهي أبعد ما توصّلت إليه في احتجاجها على الثورة الثقافية. لم تعد "الحمراء" تعرف ماذا تفعل.

في تلك السنوات الجحيمية، مُنعت بالقوة أيضاً من رؤية ابنتيها بالتبنّي. عادت الشائعة القديمة، عن علاقتها بوالدهما سوي، للتداول هذه المرة بوقع قويّ، ووصلت إلى القنوات الرسمية. اتهمها بعض الناشطين علناً بأنها قدّمت إلى سوي هدايا كثيرة، منها كاميرا – ترف كبير في ذلك الحين – ومجموعة من الملابس. وجدت نفسها مضطرة إلى الدفاع عن نفسها فكتبت إلى السلطات المعنية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٩: "الملابس في الحقيقة قدمتها إليه الحكومة لأنه رافقني في زيارات رسمية إلى الخارج. أنا لم أطلب تفصيل أي قطعة ملابس له. والكاميرا هدية مني".

كما حدث في المرات السابقة، قررت السلطات أن استعداء السيدة سون ليس محبّذاً. في بداية ١٩٧٠، رأت تشينغ–لينغ ابنتيها بالتبني للمرة الأولى بعد حرمانها إياهما بضع سنوات. فاض قلبها حباً وحناناً عند رؤية المراهقتين. أخذت تحدق فيهما وتتأملهما وهما في بداية صباهما. يولندا زاد طولها وصارت قدماها كبيرتين لدرجة أنها تحتاج إلى حذاء رجل. شعرت تشينغ–لينغ أن حبها لهما يكبر معهما. وهذه المرة انتقلتا للعيش معها ولم تفارقاها.

لم تحصل الفتاتان على تعليم كافٍ؛ توقفت الدراسة والأولاد كانوا يقصدون مباني المدرسة فقط للتنديد بأساتذتهم، أو ليحاربوا بعضهم بعضاً كأنهم فرق من "الحرس الأحمر"، أو من أجل اللعب. قرر ماو في هذه المرحلة حلّ "الحرس الأحمر" وترحيل أفراده إلى القرى ليعملوا مزارعين. هذا المستقبل كان الخيار الوحيد المُتاح لأبناء الأمة. تشينغ–لينغ لا ترضى بهذا المستقبل لابنتيها، فأجرت بعض الاتصالات كي تُدرجا في صفوف الجيش، وكان هذا التبديل من حق النخبة فقط. في المؤسسة العسكرية، تدربت يولندا لتصير راقصة، ويونغ–جي بدأت تعمل في مستشفى.

في أيلول/ سبتمبر ١٩٧١، شهدت البلاد حدثاً مهولاً. قائد الجيش، لين بياو، الرجل الثاني بعد ماو في الثورة الثقافية، قضى في حادثة تحطم الطائرة التي كان على متنها بنيّة الفرار من الصين، وذلك

بعد نشوب خلاف حادّ بينه وبين ماو. لم يعد ماو يثق برجال لين لإدارة مواقع في البلاد لمصلحته، ووجد نفسه مضطراً إلى إعادة موظفين رسميين سابقين أقالهم من مناصبهم في حملة التطهير، بينهم دينغ زياو–بينغ، وهو ملازم أول قديم رفض التعاون معه في تنفيذ حملته التطهيرية الواسعة النطاق. بدأت البلاد تسلك مساراً أكثر ارتياحاً. صار ذوو الشأن في الدوائر العليا يشيرون إلى الثورة الثقافية بوصفها "محرقة" الصين. في هذا الجو الجديد، أحست تشينغ–لينغ أنها قادرة على الكلام بمزيد من الحرية. في حزيران/ يونيو ١٩٧٢، كتبت لإحدى قريباتها وهي صديقة مقرّبة إليها: "ارتحت لأنني تمكنت من التحدث إليك بصراحة عن بعض ما يجول في خاطري مساء البارحة. الثورة بالفعل تكشف العناصر السيئة، ولكن على حساب التضحية بكل هذا العدد من الأشخاص الأكفاء! الكوادر المؤهلة!" هذان السطران عبّرا عن عمق مشاعرها.

في السنوات التالية، أُطلق سراح عدد كبير من أصدقاء تشينغ–لينغ. بين هؤلاء إسرائيل إپستين وزوجته اللذان أمضيا خمس سنوات في السجن باتهامات باطلة. عندما وصلها خبر إطلاق سراحهما، فرحت كثيراً. لكنها كانت بحاجة إلى أن تستفهم، بطريقة غير مباشرة، من السلطات، هل تستطيع استعادة علاقتها السابقة بهما.

عادت لإقامة الحفلات حيث كان يلتقي عندها الأصدقاء القدامى الذين عانوا الكثير من المشقة ولم يرَ الواحد منهم الآخر منذ سنوات، فيتبادلون الأحاديث ويضحكون. قبل الحفلة كانت تضع برفق القليل من الذَّرور على وجهها وترسم حاجبيها بالقلم. لكن لا تزال هناك أمور كثيرة تغيظها. مُنع صديق مقرّب منها من حضور مأدبة عشاء في منزلها (قيل لها أنه مريض وأنها لا تستطيع مقابلته). كتبت له "الأخت الحمراء" ساخطة: "هذه ليست طريقة لمعاملة عضو قديم في الحزب، وكان دائماً مخلصاً للحزب". كما أنها عانت الكثير لتجد خادمة يرضى بها جهاز الأمن الذي يشترط أن تكون من عائلة ذات ميول سياسية مقبولة. إحدى الخادمات نجحت في التحقيق الذي تعرّضت له وعُيّنت للعمل عندها، لكنها كانت تعاني من قدميها المقيدتين ولا تكاد تمشي. غضبت تشينغ–لينغ مما يجري. "قالوا إنها تأتي من عائلة يرضون عنها. ولكن بأي حقّ يحاسب الإنسان على توجّهات عائلته!"

في كانون الثاني/ يناير ١٩٧٦، مات شو إن–لاي بمرض السرطان وهو في السابعة والسبعين. حزنت تشينغ–لينغ على وفاته. استمر شو في تسوية أمور حياتها حتى قبل أشهر قليلة من وفاته. ذات مرة ضرب رجل يولندا مدّعياً أنها استدانت منه مبلغاً ورفضت أن تدفعه له لاحقاً. تشينغ–لينغ عمدت في الحال إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة وقدّمت شكوى بالرجل إلى السلطة المعنية. عندما

وصل الخبر إلى شو، أمر بتوقيف الرجل لأسبوع وأن يكتب رسالة اعتذار. وعندما وقعت تشينغ–لينغ، اتصل بها شو أكثر من مرة للاطمئنان إليها.

في ٩ أيلول/ سبتمبر، مات ماو. كانت تشينغ–لينغ في شانغهاي آنذاك، وتلقت الخبر بمكالمة هاتفية من مسافة بعيدة. من المؤكد أن السيدة التي بلغت الثالثة والثمانين بكت عليه. لكنها لم تقل شيئاً ولم تتحدث مع أحد بهذا الخصوص. وانشغلت، على الأرجح، في شكوكها في أن رسائل موجهة إليها بعد وفاته مباشرة اعترضتها الرقابة وأوقفتها. بعد نحو شهر، اعتُقل معاونو ماو الأربعة والأقرب إليه في سنواته الأخيرة، ''عصابة الأربعة''، وعلى رأسهم زوجته جيانغ كينغ. وُجّهت إليهم الاتهامات بفعل كل التجاوزات الفظيعة في الثورة الثقافية التي انتهت الآن رسمياً. عندئذٍ بدأت تشينغ–لينغ تستعيد حياتها الطبيعية.

رغم كراهيتها الثورة الثقافية، تردّدت ''الأخت الحمراء'' في إلقاء اللّوم على ماو. تسليمها بتحمله المسؤولية يعني أنها يجب أن تفكر في القرارات التي اتخذتها في حياتها، وقد يؤدي بها إلى التفكير في أنها على الأرجح اختارت مساراً مضلّلاً وغير مناسب. قررت منع نفسها من الخوض في أفكار مماثلة. قالت للمقربين منها: ''لقد اخترت، وليس عندي ما أندم عليه''. سقوط السيدة ماو، التي لم تكن تحبها، كان كبش فداء مناسب لها، فاستعادت توازنها.

في الواقع، لم تكن جيانغ كينغ تضع خططاً سياسية؛ كما قالت: ''أنا كلبة الرئيس ماو؛ إذا أرادني الرئيس ماو أن أعضّ شخصاً، أنفّذ أمره''. كانت ممثلة في شانغهاي في الثلاثينيات قبل أن تتوجه إلى ينان مع مجموعة من الفانين من الجناح اليساري. لفتت انتباه ماو، وتزوجا في ١٩٣٨، بعد انفصاله عن زوجته الثالثة. مع مرور الوقت، لاحظ ماو أن لديها الكثير من الحقد والضغينة وقرّر الاستفادة منها. قال لأحد أقرباء العائلة ذات مرة: ''جيانغ كينغ سمّها قاتل كالعقرب''، وأخذ يهزّ إصبعه الصغير كأنه ذنب العقرب. استخدمها لتكون رأس الحربة في الثورة الثقافية وطلب منها الكثير من أعماله القذرة. كان ماو يعرف إلى أي مدى يكرهها الناس. في المرحلة الأخيرة من حياته، كان يعاني من مرض لا شفاء منه وخاف من انقلاب ضده، فأخذ يرسل إلى منافسيه: ''اتركوني أموت في سريري، وبعد ذلك افعلوا ما تشاؤون بزوجتي وعصابتها''.

بعد زجّ السيدة ماو في السجن فرحت ''الأخت الحمراء''. قالت لإحدى رفيقاتها: ''كان الحزب كريماً للغاية مع هذه المرأة القذرة! تصوّري أنها طلبت إحضار شعرها المستعار لأن الطقس بارد جداً!'' خلال محاكمة ''عصابة الأربعة'' في ١٩٨٠ كتبت إلى آنا وانغ أن أسوأ ما فعلته السيدة ماو كان تلويث اسم زوجها بادعائها أنها كانت تنفذ أوامره طوال الوقت. وتابعت نائبة الرئيس ماو

باستغراب: "يا لها من امرأة فظيعة!" أحست أنها ترغب في الخوض مجدداً بإعجابها بماو حتى في رسالة شخصية: "بالنسبة إليّ، هو الرجل الأكثر حكمة الذي أسعفني الحظ بلقائه، فكره النيّر وتعاليمه... يجب أن نتبع بإخلاص من يقودنا من انتصار إلى آخر". هذا القول أتى بعد فكرة خطرت لها: "لكنني لا أزال أستغرب لماذا لم يقطع كل ما يربطه بجيانغ كينغ مرة واحدة، كي يمنعها من إثارة المشكلات له؟" تعتقد "الأخت الحمراء"، على ما يبدو، أن هذه المرأة البغيضة تقف وراء "محرقة" الصين.

بدأت حقبة جديدة. استلم السلطة دينغ زياو–بينغ، ودخلت البلاد مرحلة الإصلاحات والانفتاح على العالم الخارجي. تغيّر وجه الصين. دينغ رسّخ القاعدة بمنع التعرّض لـ"الشيوعي" أو لماو. بالنسبة إلى "الحمراء" هذه هي القاعدة المثالية. أحست في سنواتها الأخيرة أنها في أمان و"مرتاحة للغاية" و"فرحة جداً".

يولندا ويونغ–جي أضافتا إلى حياة تشينغ–لينغ البهجة والسعادة في تلك المدة. صارت في الثمانينات وكانت ضعيفة جداً. أُصيبت مثل أختها ماي–لينغ بالشّرى، وصار جلدها عرضة لانتشار البثور التي تتجمع كعناقيد الكرز الأحمر. قالت لإحدى صديقاتها مرة إن مشكلاتها الصحية تكاد تدفعها إلى الانتحار لولا ما تتمتع به من صلابة وقوة. وجود ابنتيها بالتبنّي إلى جانبها صرف أفكارها عن معاناتها وأمتعها. أعجبها ذكاؤهما ومرحهما. صارتا محور حياتها ومنحتهما الامتيازات المتاحة للحلقة العليا من القياديين.

مع نهاية الثورة الثقافية، سمحت الصين لعدد قليل من الزوار الأجانب بالدخول إلى البلاد. ومن أجل راحتهم وضعت أصنافاً جديدة في "متجر الصداقة" في العاصمة. في تلك المدة، كان كل المواطنين يرتدون البذلة الرسمية التي تتألف من سترة زرقاء وسروال واسع. يولندا ويونغ–جي سحرتهما الأغراض الجديدة والجميلة. ألحّتا على تشينغ–لينغ أن تطلب من أصدقائها الأجانب أن يشتروا لهما من هذه الهدايا. مرة جوارب النايلون، وقد رأتا صديقات لهما ترتدينها، ومرة أخرى بكرات لفّ الشعر (لم يكن مسموحاً للمرأة تصفيف شعرها أو استخدام مستحضرات التجميل). ثم أرادتا زيارة هذا المتجر الرائع. تشينغ–لينغ قدرت مشاعرهما وحققت لهما رغبتهما. سمحت لهما مرات عدة باستخدام سيارتها لزيارة المتجر، وهذا لفت انتباه الناس. اشترت لهما ملابس وأحذية ودراجتين. بمناسبة عيد ميلاد يولندا، طلبت من صديق لها في هونغ–كونغ أن يشتري لها ساعة يد وهذا ترف كبير وباهظ الثمن، مع أنها شدّدت على أن تكون "ساعة عمّال عادية... قوية وليست فاخرة". بعد سنتين اضطرت يولندا إلى التخلّي عن مهنة الرقص بسبب إصابة تعرّضت لها

وأصبحت ممثلة سينمائية. فطلبت تشينغ–لينغ من صديقها أن يشتري لها ساعة ثانية أكثر أناقة وهذه المرة تناسب عملها الجديد.

في تقديرها يولندا كانت مغرورة في تلك المدة ولديها حب الظهور. لم تكن محبوبة، وأتاحت بتصرفاتها مواضيع كثيرة للقال والقيل بين أفراد النخبة في بيجينغ. إسرائيل إپستين، كاتب سيرة تشينغ–لينغ، تجاهلها بازدراء في كتابه، ونعتها هي وأختها بـ"الفتاتين المزعجتين". وصل الأمر إلى أن إحدى السيدات في بيجينغ سمحت لنفسها بمصارحة السيدة سون بمقامها الرفيع حول هذه القضية. تشينغ–لينغ كتبت أن هذه السيدة "لامتني بقسوة لأنني لم أعلم يولندا أصول السلوك الجيد، ومعها حق في أنني لم أتمكن من السيطرة على أسلوبها المتكبّر". كثرة الانتقادات جعلت يولندا أكثر تحدياً وأخذت تبالغ بإظهار تعجرفها. تشينغ–لينغ كانت تقول لها وقد خاب أملها "ألا تعود". لكن يولندا كانت باستمرار تعود لمعانقة ماما–تاي تاي.

في ١٩٧٥، قبل بلوغها الثامنة عشرة، صار ليولندا صديق. حذرتها تشينغ–لينغ من هذه العلاقة، لكن يولندا كعادتها رفضت النصيحة. استغل خصومها هذا الأمر وبدؤوا نشر أخبار ملفّقة حوله. أشفقت تشينغ–لينغ على حال ابنتها بالتبني، وصمّمت على تسوية القضية مع رفاقها. كتبت لإحدى صديقاتها: "أنا أحب يولندا. وأعرف أنها بريئة، رغم ما لديها من عيوب".

بعد وفاة ماو، بدأ الصينيون يتخلّصون من السترة البيوريتانية المفروضة عليهم. يولندا في بداية العشرينات أقبلت على متع الحياة بجنون. صارت على الأرجح أشهر فتاة في البلاد تستمتع بوقتها. تخرج من المنزل في أي وقت، وتلبي دعوات زائرين من الخارج إلى الأماكن الفاخرة من المطاعم والأندية التي بدأت تعيد الحياة إلى المدينة الكئيبة. شاهدها فوكس باترفيلد وهو أول مراسل لـ*The New York Times* في بيجينغ بعد سيطرة الشيوعيين في فندق بيجينغ في ١٩٨٠: "كانت ترتدي تنّورة قصيرة من الصوف تلتصق بوركيها، وحذاء عالياً من الجلد البني، وقميصاً برتقالياً زاهياً. يولندا... نحيلة، وطويلة جداً بالنسبة إلى فتاة صينية، نحو ستة أقدام. كانت تضع مستحضرات تجميل فاقعة على عينيها وشفتيها؛ ليست جميلة، لكنها متغطرسة وأخّاذة ومثيرة. بدت كنجمة سينمائية من تايوان أو هونغ كونغ".

في احتفال تلك السنة للنسخة الصينية من الأوسكار، "كانت يولندا ترتدي قميصاً من الحرير الأحمر وتنورة طويلة مطرزة بالأحمر". لون ملابسها وأناقتها لفتا الانتباه في غابة من السراويل الزرقاء الواسعة. كما أنها كانت تدخن سيجارة، وهذا أمر لم تجرؤ عليه في العلن سوى فئة قليلة جداً من الفتيات الصينيات. عندما انتبه فريق من التلفزيون الكندي إليها، تناولت من حقيبتها علبة التجميل

الصغيرة لترى في مرآتها هل أنفها يلمع. ''رأيت داخل حقيبتها علبة Marlboro. السجائر الأجنبية ليست متوفرة في المخازن الصينية العادية''.

تشينغ–لينغ تقبّلت كل هذا. لم تمانع أن تفضّل يولندا أسلوب الحياة الغربية وأنها ''تبدي إعجابها... عندما تسمع عن الحياة في الولايات المتحدة''. وكانت تتبادل معها الأحاديث الحميمة حول ''الحب''، وهذه الكلمة لم تكن متداولة في تلك المدة. ذات يوم رأتها يولندا وهي تتأمل صورة لسون يات–سين في شبابه، وصرخت: ''واو! السيد سون وسيم جداً. لو أنني التقيته، لكنت سأطارده أيضاً''. تورّدت وجنتا تشينغ–لينغ بالاعتزاز وقالت: ''ضاعت منك الفرصة، أنا فزت به! هذا الرجل لي. لن تستطيعي الحصول عليه الآن''. لاحظت يولندا أن تشينغ–لينغ عندما تتحدث عن سون تصبح فتاة صغيرة واقعة في الحب. يبدو أنها حين صارت ''أماً'' بدأ الجرح الذي أصابها عندما فقدت طفلها يُشفى إلى حدّ ما، وتشينغ–لينغ استعادت حبها لزوجها الراحل.

يولندا محاطة برجال كثيرين يطلبون ودّها. وتشينغ–لينغ، مثل أي أم كانت قلقة على ابنتها. إنها تميل إلى استعراض أنوثتها: قميصها ضيق جداً، على سبيل المثال، ويكشف الكثير من نهديها الممتلئين. تشينغ–لينغ تتنهد بسخط: ''أتمنى أن يتقدم لطلب يدها شاب مناسب في وقت قريب كي يريحني من عبء مراقبتها كأنني الدجاجة الأم! جرس الهاتف لا يتوقف عن الرنين ويسبب لنا جميعاً الصداع. ربما تصيبني نوبات الحكاك بسببها''.

في ١٩٨٠، وقع اختيارها على شريك حياتها، ممثل رائع يكبرها بأربع عشرة سنة. تشينغ–لينغ كانت تريد لها شاباً سواه. لم توافق على الزواج لكنها لم تفعل شيئاً لمنعه. والأمر الوحيد الذي حذرتها منه قبل موعد الزفاف بيوم واحد: ''هناك شيء وحيد لا يجدر بك احتماله أبداً: إذا ضربك، حتى مجرد صفعة، طلّقيه وعودي إلى البيت مباشرة''. أقامت تشينغ–لينغ حفل شاي بمناسبة الزفاف، وأرسلت إلى المدعوين بطاقات حمراء عليها رسومات باللون الذهبي. في الحفل، ارتدت يولندا ثوب الشيونغسام بالأبيض ووضعت وشاحاً على رأسها وبدت رائعة. خفق قلب تشينغ–لينغ بالانفعال، وغادرت الغرفة على نحو مفاجئ. لحقت بها يولندا، فاستدارت وشدت على ذراع العروس وانفجرت باكية.

بعد زواج يولندا أحست تشينغ–لينغ أن وطأة المرض تتزايد، وزارت الطبيب مرات عدة. أخبرت آنا بأسى: ''لا توجد علّة جسدية وصحتي بخير. لكن يبدو أن هناك دافعاً نفسياً كبيراً''. تابعت اهتمامها بحياة يولندا، وساعدت العروسين في الحصول على شقة صغيرة، صعبة المنال، في أحد الأبراج الجديدة التي تم تشييدها في الثمانينيات. مضى أكثر من عقد ولم يتم تشييد سوى عدد قليل

من الأبنية، فيما كان أبناء جيل بكامله يكبرون في السن ويريدون الزواج والإنجاب. كان الناس يتنافسون في الحصول على شقة في هذه الأبراج الجديدة. ''شُيدت على عجل. الغرف صغيرة جداً وأرضيتها من الباطون فقط...''. هذا ما لم تتحمله تشينغ–لينغ. المصعد يتوقف عند التاسعة مساء، والشقة في الطابق الثامن عشر. عندما كانا يعملان ليلاً ويعودان إلى شقتهما في الثالثة صباحاً كان عليهما الصعود على الدرج. لم يمضِ وقت يذكر على انتقالهما إلى تلك الشقة حتى بدأت تشينغ–لينغ تبحث لهما عن شقة أفضل منها.

وماما–تاي تاي كانت تحيط ابنتها الثانية بالتبني، يونغ جي، وتقوم على حمايتها ورعايتها أيضاً. أمّنت لها مركزاً في المستشفى العسكري. لكنها أدركت أن المجال غير مفتوح أمامها لدراسة الطب، وأنها تقوم على أعمال مكتبية وتمضي أيامها في نسخ الوثائق. ظنت تشينغ–لينغ أن هذا العمل هو عقاب وأدّى على مرّ الزمن إلى إلحاق الأذى بعيني يونغ–جي. كتبت لأصدقائها: ''لا تصدقوا الشائعات المغرضة التي ينشرها أعداؤهما (أعداء الأختين). أنا أحبهما، ومستعدة لأفعل ما في وسعي كي أمنع الحسد من تدمير مستقبلهما''. أجرت بعض الاتصالات وتمكنت من إدخال يونغ–جي إلى معهد اللغات الأجنبية في بيجينغ الرفيع المقام. في ١٩٧٩، نالت يونغ–جي منحة دراسية وسافرت لتتابع دراستها في أميركا. أنفقت تشينغ–لينغ الكثير في سبيل الإعداد لرحلتها. باعت معاطف الفرو التي ورثتها عن والدتها وبعض قناني النبيذ الثمينة التي ورثتها عن والدها. حتى قبل وصول يونغ–جي إلى أميركا بدأت تشينغ–لينغ تشتاق إليها وتخطط من أجل عودتها في الصيف لتمضية العطلة معها.

هارولد أيساكس، الذي كان في شبابه ناشطاً عمل مع تشينغ–لينغ في بداية الثلاثينيات، جاء لزيارتها في ١٩٨٠. كتب معلقاً على لقائه: ''كانت عندي أسئلة كثيرة أردت أن أطرحها عليها''، لكن ''من الواضح أنها اختارت بنفسها ما تريد التحدث عنه، وهو مجموعة صغيرة من الصور وضعتها على الطاولة الصغيرة أمامها''. فوجئ أيساكس أنها صور يولندا ويونغ–جي، وأن السيدة التي نالت مرة لقب ''جاندارك الصين'' بدأت تخوض معه ''في حديث عن الأمومة''. قالت له: ''أريد أن أخبرك عن عائلتي''. أخبرته عن حفل زفاف يولندا وعن عودة يونغ–جي من أميركا لمدة وجيزة، وعن نجاحها في الإعداد للحفل. لاحظ أيساكس أنها تحدثت عن يولندا بوجع الخسارة، وعن يونغ–جي بكثير من الاعتزاز. وطلبت منه تشينغ–لينغ أن يرسل مجموعة من المجلات إلى يونغ–جي التي كانت طالبة في Trinity College في هارتفورد بكونّكتيكيت.

بعد أشهر، في أيار/ مايو ١٩٨١، وأثناء تصوير يولندا مشاهد من فيلم سينمائي على الشاطئ الجنوبي، وصلتها برقية تطلب منها العودة إلى بيجينغ. ركبت الطائرة مباشرة لتجد أن تشينغ–لينغ غائبة عن الوعي في معظم الوقت. أمسكت يولندا بيدها ورفعتها إلى خدها ونادتها: ''ماما... تاي تاي!'' فتحت تشينغ–لينغ عينيها ومرّت بيدها على خد يولندا وهمست: ''طفلتي، ثروتي الصغيرة، لقد عدت أخيراً''. أيضاً جاءت يونغ–جي على عجل من أميركا.

قرر ''الشيوعي'' الصيني في غضون ساعات قليلة في ١٥ أيار/ مايو، بعد وصول تقارير تؤكد أن حياة تشينغ–لينغ في خطر، قبول انتسابها إلى الحزب رسمياً وعلناً. لم تكن مسألة أن ''الأخت الحمراء'' لم تقدم طلب الانتساب ذات أهمية. سبق لها أن خطت هذه الخطوة منذ نحو ربع قرن في ١٩٥٧. السيدة ليو شاو–كي، التي شهدت هذه المناسبة، والتي خرجت على قيد الحياة من سجن ماو (زوجها، الرئيس السابق، لم ينجح في الخروج حياً)، تلقت أمراً بزيارة تشينغ–لينغ الراقدة على سريرها. قالت لها السيدة ليو: ''أذكر أنك ذات مرة طلبت الانضمام إلى الحزب والآن أسألك هل لا تزالين ترغبين في ذلك؟'' تشينغ–لينغ أحنت برأسها. أعادت السيدة ليو سؤالها ثلاث مرات، وكل مرة كانت ''الحمراء'' تحني رأسها دليل القبول. هكذا تمت الخطوة الشكلية، وبعد الظهر ترأس دينغ زياو–بينغ جلسة طارئة للجنة المركزية و''قرر المجتمعون بالإجماع قبول عضوية سونغ تشينغ–لينغ في الحزب الشيوعي''.

في اليوم التالي، في ١٦ أيار/ مايو، مُنحت تشينغ–لينغ لقب ''الرئيسة الفخرية لجمهورية الصين الشعبية''.

دعا الحزب أقربائها للمجيء إلى بيجينغ لزيارتها. على رأس القائمة، كانت السيدة شيانغ كاي–شيك التي أُرسلت إليها رسالة فيها رجاء للمجيء لرؤية أختها للمرة الأخيرة. السيدة آنا شنّولت – زوجة الطيار الأميركي كلير شنّولت الذي شكّل فريق ''الطيارون النمور'' في الحرب العالمية الثانية – هي التي حملت الرسالة إلى ماي–لينغ التي كانت تعيش في ذلك الحين في نيويورك، والأخت الصغرى رفضت الرد.

تشينغ–لينغ فارقت الحياة في ٢٩ أيار/ مايو ١٩٨١، وكانت في الثامنة والثمانين. ومجدداً دعت بيجينغ جميع أفراد ''العائلة'' للمشاركة في الجنازة، وتكفّلت دفع جميع نفقات السفر والإقامة. هذه المبادرات قابلتها عائلات سونغ وشيانغ وكونغ بالصمت. أقرباؤها الذين حضروا والتقطت صورهم بجانب نعشها كانوا أحفاد سون يات–سين من زواجه الأول.

يولندا ويونغ–جي لم تظهرا في الصور. هارولد آيساكس الذي قابل تشينغ–لينغ في السنة الماضية ولاحظ كيف تراهما ابنتيها بالفعل "أذهله غياب السيدتين في أي صورة للعائلة أو للأصدقاء في الجنازة... أستطيع أن أتخيل مدى حزن وألم هاتين السيدتين الشابتين لفقدانها، وهي التي وضّحت لنا عند رؤيتها أنها لا تهتم بأحد في هذه الدنيا سواهما". بالفعل، بكت الأختان كثيراً وهما تلقيان النظرة الأخيرة على جثمانها، وانتظرتا دورهما في صف طويل، بعد العاملين لديها. ثم تمّ إبعادهما. ولم يسمح لأحد بأن يأتي على ذكرهما في العقود الثلاثة التالية. يولندا تابعت عملها في مجال التمثيل في بيجينغ، ويونغ–جي عادت إلى أميركا بعد الجنازة ولم يعد أحد يعرف شيئاً عنها.

هذا التكتّم الرسمي على ابنتي تشينغ–لينغ بالتبني يعود، بجزء بسيط منه، إلى أن عملية تبنيهما لم تكن رسمية. أما السبب الأساسي، فهو أنهما لا مكان لهما في أجندة الحزب. الأخير أراد التركيز على صلة الدم بين أفراد عائلة تشينغ–لينغ المنتشرة ضمن جهوده المستمرة لضمّ تايوان تحت سيطرته. والفتاتان لا تلائمان هذا الوضع ولا تنتميان إلى العشيرة.

مع مرور الزمن استعادت "الأخت الحمراء" وهج مشاعرها تجاه عائلتها. علّقت صورة لوالدتها على الجدار في بيتها وكانت ترافق ضيوفها لتدلهم عليها. أوصت بأن تدفن في مدافن العائلة، لأنها، كما قالت للمقرّبين منها، تودّ مواصلة الاعتذار من والدتها. "كنت سيئة معها. لديّ شعور كبير بالذنب نحوها". كما أنها أحست بالاستياء من الطريقة التي تهجمت بها على أختيها في الماضي. في الثلاثينيات، أدلت بتصريح قاسي اللهجة لإدغار سنو تصف فيه أساليب الأخت الكبرى في جمع المال، وسنو نشر ما قالته. في ١٩٧٥، أحست على ما يبدو بالندم لأنها قدمت هذه التعليقات، واتهمت سنو بأنه نسب إليها "كلمات مسيئة عن أختي الكبرى". وأصرّت على أرملته أن تحذف هذه الأقوال من كتابه.

رغم كل هذه المشاعر، استمرت تشينغ–لينغ في حياتها وفي بناء عائلتها الخاصة بها. إلى جانب ابنتيها بالتبني وأصدقائها المقربين الذين تسميهم "أخواتي وإخواني"، هناك امرأة لها مكانتها في منزلها هي مدبرة المنزل لأكثر من خمسين سنة، الأخت يان–إي التي كرست حياتها لخدمة سيدتها. وتشينغ–لينغ كافأت وفاءها وإخلاصها بمعاملتها بالمثل. عندما أصيبت الأخت يان–إي بالسرطان وكانت تعاني من آلام فظيعة، تألمت تشينغ–لينغ لحالها. دفعت لها تكاليف أفضل رعاية صحية متوفرة والأغلى ثمناً، وعندما فارقت الحياة (قبلها ببضعة أشهر)، أمرت بدفنها بجوار المكان الي اختارته لقبرها في المقبرة المخصّصة لعائلة سونغ. لم تكن تشينغ–لينغ تريد على الإطلاق أن تدفن في الضريح الضخم لسون يات–سين.

كما أنها لم ترَ نفسها تنتمي كلياً إلى الحزب. رغم ارتباطها بالشيوعيين الذي رافقها طوال حياتها، حافظت على مسافة تفصلها عنهم وعلى هوية خاصة بها. أعدت بعناية وصيتها (دون محامين؛ لم تكن مهنة المحاماة موجودة آنذاك)، فتركت ممتلكاتها الشخصية التي تعدّها ملكها لا ملك الدولة لأشخاص معينين. هذا تدبير غير اعتيادي بالنسبة إلى من ينتمي إلى الخط الشيوعي آنذاك؛ إن كتب أحدهم وصية، فإنه يترك كل شيء يملكه للمنظمة. تشينغ–لينغ أورثت بعض العاملين لديها مبالغ من المال. وتذكرت خاصة أحد أصدقائها في هونغ كونغ، إرنست تانغ. منذ سنوات وهو يشتري لها أغراضاً كثيرة لم تستطع الحصول عليها في الصين (بما في ذلك ساعتين ليولندا). ومع أنها كانت باستمرار تكرّمه تعبيراً عن شكرها له وترسل إليه الهدايا الثمينة مثل البراندي والويسكي من مجموعة والدها، وقرطاً من الذهب من والدتها، أحسّت بالرغبة في التعبير عن مزيد من الامتنان، فأوصت بترك مكتبتها له في ١٩٧٥، في وثيقة تحت عنوان "وصيتي". أُرسلت الوصية إلى إرنست ومعها رسالة تشرح له فيها أن الكتب ليست ملكاً للدولة بل مجموعة خاصة بها منذ سنوات الدراسة، وأنه يستطيع توضيبها في صناديق خشبية ويرسلها بالباخرة إلى بلاده. طلبت منه أن يحتفظ بالوصية في هذه الأثناء. خافت أن تطرأ تعقيدات ما. وتعقدت الأمور بالفعل بعد وفاتها. لم يفارقها إرنست في أيامها الأخيرة، لكن لم يسمح له بالعودة إلى هونغ كونغ بعد الجنازة واحتجز في بيجينغ (كتب عن حالته: "كنت أحدّق في سقف غرفة الفندق طوال اليوم"). أخيراً، تحت الضغط، كتب إفادة تنصّ على أنه يفضل "رفض الكتب وترك الحكومة تتخذ القرار المناسب بخصوصها".

يولندا ويونغ–جي كانتا الوريثتين الأساسيتين لتركة ماما–تاي تاي. وبما أنهما ابنتان لها، تركت لهما الأثاث واللوحات والثياب والمجوهرات ومبلغاً ضخماً بالنسبة إلى تلك الفترة. حصة يولندا خمسة آلاف يوان، ويونغ–جي عشرة آلاف. قيل لهما ببساطة أنهما لن تحصلا على أي غرض ما عدا المبلغ المحدّد لكل منهما والقليل من الملابس كذكرى.

ربما لم تُنفذ وصية تشينغ–لينغ وهي على فراش الموت لكنها ماتت مرتاحة البال. لم يكن فكرها على خلاف مع إيمانها. وفي ما يخص حالتها الصحية، كانت محاطة بالعناية الطبية اللازمة ويقوم على خدمتها في منزلها فريق متفانٍ في إخلاصه لها، والأهم من كل ذلك أنها حققت ما تتمناه وصارت أماً.

٢١

أيام تايوان

بالنسبة إلى أختَيْ تشينغ–لينغ، كانت حياتهما في العقود الثلاثة الماضية مختلفة للغاية. عندما بسط الشيوعيون نفوذهم على الصين في ١٩٤٩، وشغلت "الأخت الحمراء" منصب نائب الرئيس ماو، كان لا بدّ لإي وماي–لينغ مع سائر أفراد العائلة وأتباع نظام شيانغ كاي–شيك من مغادرة البر الرئيسيّ. وبداية ١٩٥٠ انضمت ماي–لينغ إلى زوجها في تايوان.

بدأت الأخت الصغرى، منذ وصولها، فعل الكثير من النشاطات لرفع معنويات القوميين الذي اضطروا إلى التراجع إلى الجزيرة. سافرت من الشمال إلى الجنوب وزارت المرضى والمصابين ورفّهت عن الجنود. أشرفت على مشروع لتأمين المأوى المناسب للوافدين الجدد، وأنشأت "العصبة النسائية" المعادية للشيوعية لتتولى إنتاج مئات الآلاف من قطع الملابس للعسكريين وعائلاتهم. راقبت بنفسها قطع الملابس للتأكد من أنها مصنوعة بطريقة جيدة.

عندما كانت تختلي بنفسها، تخطر في بالها أسئلة كثيرة منها: "لماذا انتصر الشيوعيون؟" "لماذا فشلت؟" "هل كنت أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك؟" واستنتجت: "لم يكن عملي متوجهاً بوضوح إلى الله، وبما يرضي الله، ومع الله". شكلت مجموعة للصلاة بدأت بستة مسيحيين مخلصين. وكانت تؤمن أن كل أفراد الأمة سوف يصلّون معاً لاحقاً وسوف يحلون مشكلاتهم كافة.

في ٢٥ حزيران/ يونيو من تلك السنة، غزا جيش كوريا الشمالية بقيادة كيم إيل–سونغ جنوب الجزيرة بمؤازرة ستالين وماو. تلك كانت بداية الحرب الكورية. بعد ذلك بيومين أعلن رئيس الولايات المتحدة، ترومان، إلغاء "تجنب التدخل" في تايوان، والتزم الدفاع عن الجزيرة. كان هذا الالتزام ضمانة لمستقبل تايوان. بدأت المساعدات الأميركية تصل، وأزمة شيانغ أخذت تتراجع. كانت ماي–لينغ مسرورة رغم صعوبة المناخ ("فظيع، رطوبة وحرارة لا تحتملان") ومشكلة الطفح الجلدي ("إنني أعاني من نوبات الشّرى بسبب ارتفاع الحرارة والرطوبة")؛ كانت سعيدة: "بالي مشغول بتطوير العمل والقيام على مشاريع جديدة"، "أعتقد أننا قبل نهاية السنة (١٩٥١)، سوف نعود إلى أرض الوطن".

في إطار هذا التفكير المتفائل، بدأت ماي–لينغ تتعلم الرسم على الطريقة الصينية. في الخمسينات (وقد تجاوزت العمر المتعارف عليه بأنه عمر التعلّم) وجدت نفسها تتعامل بسهولة مذهلة مع الفرشاة والحبر: ‘‘لم أجد الرسم يحتاج مني إلى جهد كبير‘‘. أحبّتْ كثيراً هوايتها الجديدة. ‘‘الرسم هو النشاط الأكثر تشويقاً الذي عرفته في حياتي. وأنا أرسم أنسى كل ما يجري في العالم، وأتمنى ألا أفعل شيئاً سوى الرسم‘‘. بعد خمسة أشهر كتبت لإيما متباهية: ‘‘عدد من الفنانين والعارفين بأصول الرسم الصيني يقولون إن لدي الإمكانات لأصير رسامة كبيرة. والبعض يقول إنني قد أصبح أعظم رسّامة‘‘. وبعد تأكيد صحة مجاملاتهم تابعت: ‘‘يبدو أن ريشتي تؤدي عملاً مذهلاً... أعتقد أن السلطات الصينية تقول لي الحقيقة‘‘.

أرسلت صوراً عن رسوماتها إلى إي–لينغ في نيويورك لتعرف آراء خبراء أجانب فيها. كان التقدير مشجعاً لكنه لم يكن رائعاً. ثلاثة من الخبراء أكدوا أن الرسام لديه ‘‘إمكانية فعلية‘‘، لكن الرسومات ليست سوى ‘‘نسخ عن رسومات أخرى‘‘، فنصحوا ‘‘الرسام بتقديم أعمال خاصة به‘‘.

كانت منشغلة في محترفها الهادئ، ومع مجموعة الصلاة، وفي الخارج، هيمن ‘‘الرعب الأبيض‘‘ على الجزيرة. شيانغ كاي–شيك مع جيشه المهزوم وموظفيه وعائلاتهم، أي نحو مليوني نسمة، يقيمون جميعاً في مكان لا يرحّب بهم. حدثت مجزرة قبل ذلك بسنتين عندما بسط القوميون نفوذهم على الجزيرة بعد رحيل اليابانيين. معظم السكان في البداية رحّبوا بعودة الحكم الصيني. لكن حماستهم سرعان ما تحولت إلى غضب عارم. الحالة نفسها من ‘‘كارثة الانتصار‘‘ التي جعلت الناس على البر الرئيسي يتحولون إلى معاداة نظام شيانغ دفعت سكان تايوان الذين يعيشون على الجزيرة منذ أجيال إلى اتخاذ الموقف نفسه. تفشّي الفساد، وغياب الأهلية للإدارة (خصوصاً عند مقارنتها بالإدارة اليابانية ذات الكفاءة العالية)، والقادمون الجدد، واحتقارهم العلني للسكان المحليين، هذه العيوب وغيرها التي رافقت السيطرة القومية على الجزيرة أدت إلى انتفاضة شعبية بدأت في ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٤٧. القمع المسلّح الوحشيّ تسبّب في موت الآلاف.

لم تقتصر مشكلات شيانغ على السكان المحليين. كان مقتنعاً بأن أعداداً كبيرة من العملاء لـ‘‘الجيش الأحمر‘‘ اندسّوا بين صفوف الذين غادروا البرّ الرئيسي في الوقت المناسب وسوف يشكلون ما يشبه حصان طروادة. ومن أجل تدعيم الأمن في ملاذه، فرض الأحكام العرفية التي استمر التقيّد بها حتى نهاية حياته، وتولّى ابنه شينغ–كيو رئاسة جهازه الأمني. هذا البوليس السرّي كان لديه الصلاحية المطلقة لإلقاء القبض على عملاء فعليين أو وهميين للحمر وإعدامهم. سيطر الخوف على حياة الناس.

صارت الجزيرة محمية كأنها قلعة محصّنة. الشاطئ بكامله على امتداد أكثر من ١٥٠٠ كلم صار منطقة عسكرية لا يسمح لسكان الجزيرة العاديين الاقتراب منها. حتى السباحة في البحر صارت أمراً مستحيلاً. وتسلّق الجبال أيضاً لم يعد مسموحاً. هذه المناطق أُغلقت بإحكام لمنع العصابات المسلحة من إيجاد ملاجئ فيها.

حاول شيانغ وضع حدّ للفساد. وعلى عكس ما كان سائداً على البر الرئيسي، أصدر على عجل قوانين إصلاحية تتعلق بالأراضي اشتملت على تخفيض كلفة استئجار الأرض (كان من السهل طرح هذا القانون هنا لأن الملّاكين هم من سكان تايوان المحليين، والمنفّذون ليس لديهم مصلحة شخصية في هذا الخصوص). مع ذلك، لم يبدِ القائد الأعلى اهتماماً يُذكر بتطوير الأوضاع الاقتصادية على الجزيرة، ولم يطرأ أي تحسّن على أحوال الناس المعيشية خلال حكمه.

اهتم شيانغ بتفعيل صورته كزعيم على مستوى لم يتمكّن تماماً من إدراكه على البرّ الرئيسي. تماثيله نُصّبت في كل مكان إلى جانب تماثيل سون يات–سين الذي لا يزال لقبه "أبو الصين". تم الترويج للقائد الأعلى بوصفه نموذج الأمة. وهكذا قال معلمو المدارس للصبية الذين طلبوا منهم حلق شعر رؤوسهم (لمنع انتشار القمل على الأرجح) إن الرأس المحلوق بالموسى – الأصلع – هو موضة تحمل اسماً يحبونه "موضة شيانغ" (tou–zheng–zhong). القائد الأعلى كان شعره خفيفاً فرأوه كالأصلع. عندما أخبره حفيده بما يجري في المدرسة، لم يكن مسروراً.

حين صارت تايوان بأمان قرّرت ماي–لينغ المغادرة. صيف ١٩٥٢ عادت إلى نيويورك مجدداً. وعاد الزوجان إلى النمط السابق الذي ساد بينهما في ظروف مشابهة: الزوج يرجوها للعودة، وهي تشكو مشكلاتها الصحية. مضى على غيابها ثمانية أشهر، وكانت بالتأكيد تريد إطالة هذه المدة لولا الأزمة التي استجدّت في تايوان. الحاكم المدني، الدكتور ك. س. وو، لم يعد قادراً على العمل مع القائد الأعلى وصمّم على الاستقالة من منصبه. وُو ليبرالي يحظى بتأييد الأميركيين، واستقالته سوف تحطم صورة القائد الأعلى بالنسبة إليهم. الخلاف الأساسي أن الدكتور وو صدمه ارتفاع عدد الذين صدرت بحقهم أحكام بالتوقيف أو الإعدام. قدّم استقالته في ١٩٥٣، لكن شيانغ رفضها.

ماي–لينغ أدركت أهمية احتفاظ وُو بمنصبه وعادت إلى تايوان لإقناعه بالعدول عن استقالته. عندما زارها وُو ليشرح لها ظروف قراره، أحاطت ذراعه بذراعها ومشيا معاً حتى آخر الشرفة، حيث قالت له إن وسائل التنصّت موجودة في كل الأنحاء إلّا في هذه الزاوية، لأن شيانغ أراد أن يعرف عمّا يتكلم زواره. أخبرها وُو عن بغضه الشديد للبوليس السرّي برئاسة شينغ–كيو، وذكر لها قضية معينة تتعلق برجل أعمال اعتقل وحكم عليه بالموت بتهمة التجسّس للشيوعيين. وُو يعتقد أن

التهمة ملفّقة فتضايقت ماي–لينغ. دعت وُو وزوجته لتناول الغداء. عندما دخل شيانغ إلى غرفة الطعام، قالت له ماي–لينغ بحدّة: "انتبه! انتبه إلى ما يفعله ابنك!" ثم أخذت الزوجين وُو من يديهما وقالت: "هيا بنا!" وانسحب الثلاثة من الغرفة.

لم يرضخ شيانغ لرغبة زوجته. وُو أصرّ على الاستقالة. وصلت الأمور إلى حائط مسدود يوم "الجمعة الحزينة". نهار أحد الفصح غادر الزوجان وُو المدينة إلى منزلهما على التلال المجاورة. قبل الصعود في الطريق الجبلي أرادوا التوقف لتناول الغداء، على غير عادتهما بتناول السندويشات في السيارة. أثناء وجودهما في المطعم فحص السائق السيارة لأنه شعر بوجود عطل ما. اكتشف أن "عزقات" العجلتين الأماميتين غير موجودة. لولا اكتشافه هذا الأمر الآن، لكان من المحتمل أن تنفصل العجلتين عند وصول السيارة إلى الطريق الوعرة، وقد يؤدي ذلك إلى حادث خطير. فُحصت السيارة في الليلة الماضية، ولذلك احتمال أن فقدان "العزقات" ناتج عن إهمال أمر مستبعد. كان وُو متأكداً أن شخصاً ما خرّب السيارة. شكّ في شيانغ وحاول بالأساليب شتى أن يعرف هل كان متورطاً. كل المعلومات التي توفرت لديه جعلته يقتنع أن شيانغ على الأقل عَلِم بهذه المكيدة قبل تنفيذها.

لم يتحدث وو أبداً عن شكوكه لأنه يعرف أنه قد لا يتمكن من مغادرة تايوان إذا انتشر خبر محاولة الاغتيال. وهو مصمّم أكثر من أي وقت مضى على الرحيل. بالمصادفة، أرسلت Grimmell College في أميركا، الجامعة التي تخرّج فيها، أنها ستمنحه دكتوراه فخرية وأنها تدعوه إلى الحضور. كان هناك أيضاً دعوات عدة لإجراء لقاءات مختلفة في الولايات المتحدة. أَرفق هذه الدعوات بالطلب الذي تقدم به من أجل جوازات سفر له ولأفراد عائلته. لكنه لم يحصل على جواب. بعد مدة كتب وُو إلى ماي–لينغ أنه في حال رفض إصدار الجوازات سوف يُطلع الذين وجّهوا إليه الدعوات على الأسباب الفعلية لتغيبه. حصل على الجوازات ما عدا جواز ابنه الذي كان في الثالثة عشرة؛ القائد الأعلى أراد الاحتفاظ بالصبي رهينة.

كتب وو مراراً الرسائل من أميركا يطالب بجواز سفر لابنه. ومن أجل إخراج الصبي، لزم الصمت حول خلافه مع شيانغ، وحول "حادثة السيارة".

كتب وو ثلاث رسائل إلى ماي–لينغ يطلب مساعدتها. أجابت على رسائله لكنها أكدت له أنها لا تستطيع فعل شيء. خلال هذه المدة شغلت نفسها بـ"الرسم، وكثير من الرسم"، كما قالت لإيما، وذلك بعد قولها: "وأنت تعرفين كم أكره السياسة".

في محاولة لاستباق ما قد يقدم عليه وُو، بدأ شيانغ حملة لتلويث سمعته متهماً إياه بالفرار، وبتهريب أموال مسروقة من الخزينة. احتدم الأمر؛ تحدث وُو علانية ضدّ شيانغ لكنه لم يأت على ذكر ”الحادثة“. احتلت تصريحاته الصفحة الأولى من *The New York Times*. صارت وسائل الإعلام تلاحقه من أجل الحصول على مزيد من المعلومات، فكتب إلى شيانغ مجدداً: إما أن يستلم ابنه جواز سفره في غضون ثلاثين يوماً، وإما سيأتي على ذكر تفاصيل قد لا ترضيه. عملية الابتزاز نجحت. بعد ثلاثين يوماً بالتحديد دقّ موظف رسمي باب منزل أخت السيدة وُو حيث يقيم الصبي، وسلّمه جواز السفر.

خلال هذه السنة كان الصبي رهينة. اصطحب مراراً إلى ”عصبة الشبيبة القومية“، وطلب منه إدانة والده علناً. هذه المعاملة تعرض لها شينغ–كيو نفسه عندما كان مراهقاً محتجزاً في روسيا منذ نحو عشرين سنة. والآن هو يعمّم هذا الأسلوب ويعلّمه لأتباعه.

شيانغ حرّر ابن وو وضَمِن صمته. تمت لفلفة القضية بكاملها بمساعدة أعضاء اللّوبي الصيني في الولايات المتحدة الذين كانوا مساندين أشداء للقوميين. عندما بدأ وُو فضح القائد الأعلى تعرّضت له شخصيات بارزة في اللوبي وطلبت منه التزام الصمت وإصدار بيان يعلن فيه تأييده شيانغ. وُو رفض إصدار البيان لكنه كفّ عن الكلام. بعد مدة انتقل للعمل في مهنة التدريس في جورجيا وتلاشى ذكره في الأوساط السياسية، ولم يبحْ بقصته إلّا بعد مرور سنوات.

ماي–لينغ التي لعبت دوراً كبيراً في عودة شيانغ–كيو إلى وطنه فعلت ما في وسعها أيضاً من أجل ابن وُو. بعد تحرير الصبي مباشرة سافرت إلى أميركا متجاهلة الحفل الوشيك لتنصيب زوجها رئيساً ”منتخباً“ في ٢٠ أيار/ مايو ١٩٥٤. قبل موعد الانتخابات قالت لإيما باستهزاء: ”سوف يُنتخب زوجي مجدداً دون شك؛ لقد عين شين–شينغ نائباً له. البارحة في الجلسة الافتتاحية (لمجلس النواب) كان حضوري معه ضرورياً، وقد أتعبني الجهد الذي بذلته“.

في الثالث من أيلول/ سبتمبر في ذلك اليوم، قرر ماو، بناءً على أجندة خاصة به وغير متوقعة، فتح نيران المدفعية على جزيرة كوي موي (جينمن) التي تبعد بضعة كيلومترات عن شاطئ البرّ الرئيسي.[33] هذه الجزيرة الصغيرة أول موقع يمكن السيطرة عليه من أجل شنّ هجوم على تايوان، ولذلك بدا أن ماو يمهّد لعمل عسكري ضد آخر معقل للقوميين. عادت ماي–لينغ في تشرين الأول/ أكتوبر لتكون بجانب زوجها في هذه المحنة.

33 لمعرفة أهداف ماو من قصف كوي موي الآن وفي ١٩٥٨، انظر:
Mao, The Unknown Story، الفصلان ٣٧ و٣٨، للمؤلفين جونغ شانغ وجون هاليداي.

ردّت واشنطن على صليل سيوف ماو بتوقيع اتفاقية للدفاع المشترك مع تايوان. هذه الخطوة وضعت إطاراً رسمياً لاعتراف أميركا بنظام شيانغ على أنه السلطة الوحيدة الشرعية في كل أرجاء الصين، وتستطيع تايوان بموجبها استعادة مقعد "الصين" في الأمم المتحدة. ولدعم هذا الموقف، رأى شيانغ في استعادة البر الرئيسي الصيني القاعدة الأساسية في سياسة الدولة، فصار الشعار الجوهري في نظامه: "الحرب للعودة إلى البر الرئيسي!" هذا الشعار يجسّد حلمه ويشكّل في الوقت نفسه موقفاً صلباً يجب التمسّك به من أجل الاحتفاظ بالمقعد في الأمم المتحدة. كما صار أملاً للملايين من المدنيين والعسكريين الذين تركوا بيوتهم ورحلوا معه ويتمنون العودة للعيش مع أحبائهم مجدداً.

قصف كوي موي جعل ماي–لينغ ترى بوضوح "فظاعة التهديد الشيوعي". وصلت من البر الرئيسي أخبار عن تعرّض أعضاء سابقين في "القومي" مع عائلاتهم للتعذيب والقتل، ما أثار نقمتها وذعرها. في إحدى الليالي، أخذت تبكي بصوت عالٍ وهي نائمة، وعندما سألها زوجها عما أصابها، قالت له إنها رأت تشينغ–لينغ تودّعها. خافت من أن حلمها قد يعني أن "الأخت الحمراء" قُتلت.

صارت ترى زوجها مدافعاً عن تايوان، وبدأت تتعاطف مع استخدامه قبضته الحديدية وحتى الدموية. استعاد الزوجان مجدداً مشاعر التوافق والانسجام التي تجمع بينهما. عندما ألّف شيانغ كتابه المهم *Soviet Russia in China* [روسيا السوفياتية في الصين]، كرّست وقتها للتدقيق في المسوّدة وتحريرها. استعادتهما روحية الصداقة والحميمية بينهما برزت بوضوح في ملاحظات المؤلف التي كتب فيها شيانغ: "في هذا اليوم، الأول من كانون الأول/ ديسمبر، ١٩٥٦، أنا وزوجتي سنحتفل في جو هادئ بعيد زواجنا (التاسع والعشرين)". وانسجاماً مع أسلوب شيانغ كاي–شيك المثالي في تقديس الأمّ، أهدى كتابه إلى "الذكرى المقدسة للوالدتين العزيزتين على قلبينا، المرحومة مدام شيانغ المولودة وانغ، والمرحومة مدام سونغ المولودة ني. نقدم إليهما، أنا وزوجتي، هذا العمل عربون الامتنان والتقدير، من أجل تحقيق الأهداف السامية التي نشأنا عليها والسعي لنكون جديرين بتربيتنا".

ساهمت ماي–لينغ في تخفيف حدة وقسوة القمع الذي مارسه شيانغ. وظفت كاهناً معمدانياً، القسّ تشو ليان–هوا، الحائز شهادة دكتوراه في المعهد اللّاهوتي المعمداني الجنوبي في الولايات المتحدة، ليكون القسيس الملحق بعائلة شيانغ، ووكلته إلقاء العظات في السجن. والقسّ تشو حقق نجاحاً ملحوظاً مع المساجين السياسيين. أحد المساجين المحكوم عليه بعشر سنوات يتذكر تأثير الكاهن.

العالم الذي كان يعيش فيه مع رفاقه داخل جدران المعتقل كان قاتماً وشرساً ويتضمن الأشغال الشاقة والتعنيف المعنوي والجسدي، إلى جانب التجمعات اليومية للهتاف: "قائدنا الأعلى شيانغ مخلّص الأمة العظيم!" "الموت لـِ زو (قائد جيش الشيوعيين) وماو!" القس تشو أشاع جواً إنسانياً ولحظات من الارتياح والاسترخاء. شعر السجناء من حضوره بينهم ومن الاستماع إلى عظاته أنهم يستعيدون كرامتهم بصفتهم بشراً. لم يكن جهاز المخابرات محبّذاً وجود الكاهن، لكن ماي–لينغ تأكدت أن أحداً لن يعترض سبيله.

في ١٩٥٨، عادت ماي–لينغ إلى أميركا. هذه المرة جابت البلاد محذّرة الأميركيين من الخطر الشيوعي. كأن ماو أراد تأكيد صحة وجهة نظرها، فاعتدى مجدداً في اعتداء يبدو كأنه بلا مبرر، وقصف الجزيرة الصغيرة كوي موي في آب/ أغسطس بعشرات الآلاف من القذائف. استجاب الأميركيون عاطفياً مع خطابات ماي–لينغ. ودعمهم الجماهيري لتايوان رفع معنويات القوميين. عدوان ماو لم ينتج عنه سوى مزيد من الحماية لنظام شيانغ.

شينغ–كيو أرسل برقية إلى ماي–لينغ يخبرها فيها عن مدى سرور والده، وسروره أيضاً. هذه السنة شكّلت حداً فاصلاً في العلاقة بين الابن وزوجة الأب. حتى الآن كانت علاقة مهذبة ورسمية. شينغ–كيو يناديها مدام شيانغ، أولاً يستخدم لقباً. الآن بدأ يناديها "والدتي المحترمة". وهي في رسائلها إليه، كانت تشير إلى نفسها ببساطة أنها "الوالدة". كانت ماي–لينغ سعيدة. في إحدى الأمسيات خلال عيد الميلاد، شاهدت مع رفيقات لها المسرحية الغنائية 42nd Street [الشارع ٤٢]. كتبت إيما في مذكراتها: "ماي–لينغ لمرتين أو ثلاث رفعت طرف ثوبها الصيني الطويل وأخذت ترقص بفرح في الغرفة، تحاول تقليد خطوات الراقصين، وتضيف من عندها بعض الركلات والاستدارات... رؤيتها وهي في هذه الروحية شيء مذهل".

عادت ماي–لينغ إلى تايوان في حزيران/ يونيو ١٩٥٩، من دون أن يحتاج زوجها التوسل إليها. أتى شيانغ كعادته إلى المطار لاستقبالها، وهذه المرة ارتسمت على وجه كل منهما ابتسامة مشرقة، وزادتها إشراقاً أشعة الشمس المبهرة وبدا مشهد لقائهما لافتاً. كان يضع نظارة شمسية وعلى رأسه قبعة من الفلّين ويرتدي بذلة على طريقة سون يات–سين، فرفع ذراع زوجته وهي تمد يدها التي يغطيها القفّاز لتصافح المحتشدين الذين أتوا للترحيب بها. صورة تنطق بالسعادة والمودة. عندما أعيد انتخاب شيانغ بالإجماع لمنصب الرئيس في ١٩٦٠، اختلف سلوك ماي–لينغ عن سلوكها قبل ست سنوات حين غابت عن حفل التنصيب. هذه المرة قالت لإيما إنها منشغلة "في النشاطات التي لا

حصر لها والمتعلّقة بحفل التنصيب". "هناك مهمات كثيرة وضيوف كثيرون". في رسائلها إلى صديقاتها، أشارت إلى زوجها بأنه "الرئيس". استمر "الانسجام" بينهما، والأخت الصغرى كتبت إلى أخيها ت. ڤ. في ١٩٦٢ أنهما "احتفلا للتوّ في جو رائع بعيد زواجهما الخامس والثلاثين".

أحست ماي–لينغ بالفعل بالاستقرار في حياتها في تايوان مع زوجها، ويحيط بهما عدد من الأحفاد: أولاد شينغ–كيو، وابنا ت. أ. اللذان جاءا من سان فرانسيسكو لتمضية العطلة. أحضرت لهما معلماً ليدرسهما لغة المندرين الصينية الأساسية. كانت تقول عنهما باعتزاز إنهما "عزيزان على القلب، ويحسنان التصرّف، ومطيعان، وآه! ذكيان أيضاً". كانت تعدّ لهما الطعام وترقص معهما. كان الجميع يضحكون بمن في ذلك القائد الأعلى.

سيدة تايوان الأولى أدّت واجباتها الرسمية وسحرت زوار البلاد البارزين. حين اكتشف الأطباء انتشار مرض شلل الأطفال على الجزيرة، أنشأت مستشفى للأطفال المصابين. كانت تزور غالباً أولاد العسكريين الشهداء، وكانت بارعة في التقرب منهم والاهتمام بهم وفي تقدير جهود معلميهم فازداد عدد المعجبين بها. زارت المستشفى الخاص بالمصابين بالجذام مرتين. شاهدها مصوّرها وهي تقترب من المرضى وتنزع قفازها دون تردّد لتصافحهم بحرارة وألفة، فأثارت دهشته.

في معظم الأوقات، كانت حياة الزوجين بلا ارتباطات، والأخت الصغرى لا تكاد تنهض من سريرها قبل الحادية عشرة. فترسم وتلعب الشطرنج وتلتقي صديقاتها، وترافقها في جولاتها مجموعة من الكلاب (بينها كلب لا يحبه العاملون معها لأنه هاجم عدداً منهم). أنشأت حديقة من الورد في الباحة أمام القصر الرئاسي. وكان القائد الأعلى يمضي وقته في قراءة الصحف وبعض الوثائق أو الاستماع لأشخاص يقرؤونها له، كما يجري بعض الجولات التفتيشية. في السنوات الماضية، كان يحب عقد اجتماعات أسبوعية يقتصر برنامجها على تقديمه خطباً طويلة تتمحور حول الوعظ والإرشاد، وكان معظم الحضور يغلبهم النعاس. مع مرور الزمن بدأ يتخلّى عن الخطب ويكتفي بإلقاء نظرة على الصحف، والاستمتاع بالقيلولة، والمشي، ومشاهدة الأفلام القديمة والتنزه. لا يبدو أنه استغلّ وقته بما فيه الكفاية بالنسبة إلى قائد ينوي استعادة السيطرة على البرّ الصينيّ، ما عدا التفكير في بعض "الخطط" التي يصعب تنفيذها. شيانغ رجل واقعي ويعرف أن هذا الحلم يعتمد على شنّ الولايات المتحدة هجوماً مسلّحاً على الصين، والأمل في تحقيق ذلك ضئيل للغاية.

لم يعد القائد الأعلى يرتدي البذلة الرسمية أو يظهر بصورة المحارب. صار يرتدي الثوب التقليدي الواسع والطويل ويبدو مرتاحاً وهو يمشي والعصا في يده. احدودب ظهره، وضاقت عيناه،

وارتخى جانباً فمه. صار رجلاً كبيراً في السن ولا يزال في تايوان.

جاب مع ماي–لينغ أرجاء الجزيرة الخلّابة. بما أن المناطق الساحلية والجبلية مقفلة خوفاً من اجتياح شيوعي، فهذا سمح للزوجين بالانفراد والاستمتاع بالمواقع الجميلة. أكثر من ثلاثين من الفيلات الأنيقة وُضعت تحت تصرّفهما، وقد تراوحت بين المنازل اليابانية القديمة والجميلة، وبين قصور شُيِّدات حديثاً على النمط الإمبراطوري. الإضافة الأخيرة التي أمر بها شيانغ كانت تشييد مجمّع ضخم يصعب وصفه وأطلق عليه: استراحة الانتعاش. يقع المجمّع في عمق منطقة التلال على بعد ساعة فقط من العاصمة، وهو مناسب للغاية لرجل في عمر شيانغ. أشرف القائد الأعلى على أعمال البناء بنفسه، وزار الموقع خمسة أيام كل أسبوع، وكان يجري مكالمات هاتفية باستمرار مع المهندسين المعنيين عندما يخطر في باله تعديل ما (''غيّروا لون الجدران''، ''ازرعوا المزيد من أشجار الخوخ''... إلخ). وماي–لينغ أضافت لمستها في اختيار نوعية أقمشة المفروشات والستائر إلى لون حمامها (يجب أن يكون باللون القرنفلي). اختلف الزوجان على موقع نافذة محدّدة. لكنهما اتفقا على تجهيز مكان للعبادة في المجمّع، كما فعلا في المنتجعات كافة التي تردّدا عليها.

جميع الفيلات تطلّ على مناظر رائعة – تلك التي في الجبال أو على الشاطئ –لهما فقط دون سائر الناس. أما البحيرات، فأمرها مختلف. كان من الصعب حظر الوصول إلى هذه المواقع بحجة التصدي لأي اجتياح أحمر، فلم يمنع السكان من ارتيادها. مع ذلك، كانت إذا أعجبت القائد الأعلى بحيرة – مثل بحيرة الشمس والقمر التي تعتز بها تايوان – يجري تطويق جزء كبير من الأرض من أجله. شيانغ الذي يرى كل الأرض ملكاً له أمر ببناء معبد بوذي على جزيرة صغيرة وسط البحيرة لتخليد ذكرى والدته.

على عكس الانطباع الشعبي السائد أن شيانغ يعيش حياة بسيطة بعيدة من الترف، كان القائد الأعلى يهتم كثيراً بوسائل الراحة والرفاهية. توقع أن العديد من الجبال والغابات على الجزيرة يصعب الوصول إليها بالسيارة، فأحضر معه محمليْن وعدداً من الحمالين.

أثناء إقامته على الجزيرة اقتنى وسائل مختلفة للمواصلات بما في ذلك الطائرات الفاخرة. عند إعلان تصنيع طائرة Boeing ٧٢٠، اشترى واحدة مباشرة. الطيار الخاص السابق لديه، الجنرال آي–فيو–إن، اعترض بشدة مؤكداً أن ضخامة الطائرة لا تجعلها مفيدة على الجزيرة، وكلفتها باهظة بالنسبة إلى هذه المنطقة الفقيرة التي تواجه خطر الحرب. لكن نصيحته لم تلقَ آذاناً صاغية. مبالغ كبيرة دُفعت، ولم تستخدم الطائرة إلّا في ما ندر. اشترى شيانغ أيضاً طائرة مائية كي يتمكن مع

زوجته من الهبوط بها على مياه البحيرة. خلال إجراء تجربة أولى عليها تحطمت أثناء الهبوط، وبصعوبة، نجا الطياران من الغرق. لم تعد الفكرة مستساغة وتم التخلّي عنها.

بفضل أميركا، والتموضع القتالي لماو، عاش الزوجان حياة هادئة بأمان ورفاهية لعقدين. ورغم أنه خسر البر الصيني الرئيسي، لكنه في الواقع أمضى وقتاً أفضل بكثير في تايوان. تبلورت صورته هنا كحاكمٍ مطلق فاستطاع بسط نفوذه بمزيد من الشدّة، كما أن أيام تايوان كانت أطول سعادة عرفها في حياته زعيماً وفي زواجه أيضاً. حتى ارتفاع درجة الحرارة لم يكن مشكلة؛ توجد على التلال أماكن عدة أكثر برودة حيث لا ضرورة لاستخدام المراوح الكهربائية. كان القائد الأعلى يفضل أن يلوّح عامل لديه بالمروحة من وراء ظهره. لكن ماي–لينغ رفضت الانغماس بهذا القدر من الدلال.

عندما بدأ الناس يتعرّفون إلى نمط حياة الزوجين شيانغ، لم يثر الأمر كما يبدو سخطهم. شيانغ حمَى تايوان من طغيان ماو، والناس حفظوا له هذا الجميل. أما ماي–لينغ، فإنها عند مقارنتها بمدام ماو على الأرض الرئيسية، لا تترك مجالاً لأحد أن ينكر أن تايوان محظوظة لأنها سيدتها الأولى. إنها باعتراف الجميع تفعل ما في وسعها لأداء واجباتها، وتخفّف حدّة قرارات القائد الأعلى. وهي شخصية لطيفة ومحترمة.

في ١٩٧١، عندما صار شيانغ في الرابعة والثمانين، وماي–لينغ في الثالثة والسبعين، تبدّدت سعادتهما. أراد الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون إقامة علاقات ودّية مع البرّ الصيني الرئيسي، وأعلن أنه سيزور بيجينغ بداية السنة التالية. أثناء وجود مستشار الأمن القومي هنري كيسنجر في بيجينغ للإعداد للزيارة في تشرين الأول/ أكتوبر، أصدرت الأمم المتحدة قراراً بإعطاء مقعد "الصين" إلى بيجينغ، وأجبرت تايوان على مغادرة المنظمة. ومع تمهيد السياسيين الغربيين السبل للوصول إلى ماو، لجأت ماي–لينغ، المصابة باللوعة والأسى، إلى إيمانها. أخذت تردّد مراراً هذا المقطع من **الإنجيل**: "يُضَيّق علينا من كل جهة لكننا لا نُسحق. نحار في أمرنا لكننا لا نيأس. نُضطهد لكننا لا نُهمل. نُنبذ لكننا لا نهلك".

وكتبت إلى إيما: "كلّي رجاء أن رقّاص ساعة الحق والكرامة سوف يستعيد حركته عاجلاً أو آجلاً... ليس ما يحدث هو المهم، بل كيفية ردّنا عليه".

كره زوجها نيكسون بشدة، وأشار إليه بأنه "ني (كسون) المهرّج" (chou–ni). وأكّد أن نيكسون مع شيانغ الذي رفض المساهمة في تمويل حملته الانتخابية. كتب شيانغ في مذكراته: "قبل انتخاب في ني المهرّج زار تاي باي. كان يأمل أننا سوف نمدّه بالأموال من أجل حملته". "أنا رأيته سياسياً

حقيراً وتعاملت معه كرجل لا قيمة له. لم أوافق على دعم حملته“. ”ني المهرج حاقد عليّ ويريد الانتقام مني“.

إلى جانب نيكسون، وجّه شيانغ سخطه على ابن إي–لينغ، دايفيد، وحتى على ماي–لينغ. ”هذا التحوّل إلى الأسوأ في سياسة ني المهرّج دايفيد المسؤول عنه. مع ذلك، زوجتي تقدّره“، ”كل هذا سببه أن زوجتي لا تصغي إلّا لدايفيد. هو المذنب الذي ترك هذه الكارثة تحلّ على بلادنا“.

لجأ القائد الأعلى أحياناً إلى صبّ غضبه على فريق عمله، وكان يضربهم بالعصا التي يتوكّأ عليها عندما تحتدّ طباعه. قوة الضربات صارت مقياساً لصحة العجوز. قال أحد مساعديه يوماً للطبيب: ”يبدو الرئيس في صحة جيدة الآن؛ ضرباته اشتدت قوتها اليوم!“ (أدرك شيانغ أنه يجب أن يتعامل بتهذيب مع أطبائه، كما أنه لا يضرب النساء).

حالته الصحية أخذت تسوء. أُصيب بجلطة تركته عاجزاً عن النطق، وفي أحد الأيام، بينما كان يمشي، لم تعد رجلاه تقدران على الوقوف وحمله الخدم إلى المنزل. مشكلاته الصحية ظلت طيّ الكتمان، لكن شيانغ أخذ يجري الترتيبات اللّازمة لتسليم السلطة لابنه شينغ–كيو. أواخر ١٩٧١ عيّن شينغ–كيو رئيساً للوزراء وقائداً عاماً للقوات المسلحة (احتفظ شيانغ بمركز الرئاسة). هذان القراران سوف يصيران رسمييْن في الربيع المقبل عندما يجتمع المجلس القومي الذي يعطي موافقته روتينياً على قرارات شيانغ.

الأزمات الصحية التي يعاني منها زوجها، واستلام شينغ–كيو الوشيك للسلطة، أضافا هماً جديداً، شخصياً هذه المرة، على ماي–لينغ، وزادا في قلقها؛ نمط حياتها الرئاسية قد يتعرّض للخطر. إنها تعيش في رفاهية لافتة وعشرات الخدم رهن إشارتها. أثناء وجودها في الولايات المتحدة وضعت الطائرة C–٥٤ ”الصين–أميركا“ في تصرّفها. بعد رحيل زوجها، هل يسمح شينغ–كيو باحتفاظها بنمط الحياة الذي اعتادته؟ إذا تسنّى لها العيش في نيويورك، وهذا ما تتمناه، من يدفع أجور فريق العاملين لديها الذين اعتادتهم، بمن فيهم حراسها على مدى الساعة، الذين تعتمد راحة بالها على وجودهم، وكذلك الممرضات اللواتي يخدمنها ليلاً نهاراً في شيخوختها؟ ومن يؤمّن رواتب ونفقات خدّامها الأوفياء في تايوان الذين تريد الاستمرار في توظيفهم؟ حتى ثروة عائلة كونغ لن تكون كافية. يجب على حكومة تايوان تأمين معظم هذه الفاتورة. لكنها ليست متأكدة على الإطلاق أنها تستطيع الاعتماد على شينغ–كيو في ذلك. المعروف أن حياة ابن القائد الأعلى وأفراد عائلته تتسم بالبساطة، وحتى الاقتصاد في الإنفاق. قد يجد تبذيرها غير مرغوب فيه، مهما صار مقرّباً منها. شينغ–كيو وأفراد عائلته ليسوا كعائلة سونغ، وهذا أمر في غاية الأهمية لماي–لينغ. عندما كانت

تستضيف مرة أولاد شينغ–كيو إلى جانب ابني ت. أ. وضعت بعيداً من الأنظار هدايا بين أيدي ابني أخيها وهمست لهما، بقليل من المزاح، ألا يخبرا أولاد شيانغ، وقالت لهما: "أنتما من لحمي ودمي".

أيقنت ماي–لينغ أن أحد أفراد عائلتها يجب أن يتولى منصب المسؤول عن مالية تايوان من أجل حماية مصالحها. حاولت إقناع زوجها بتعيين ابن أختها دايفيد وزيراً للمالية في الجلسة المقبلة للمجلس النيابي، مدّعية أن الرجل الذي صار في السادسة والخمسين قام على مبادرات لا حصر لها من أجل القضية القومية.

انزعج شيانغ من طلبها لأن عدداً كبيراً من القوميين يتهمون بصراحة دايفيد وسائر أفراد عائلة كونغ بأنهم وراء خسارة الحزب للبرّ الرئيسي وهو لم يعمل من قبل في حكومة تايوان، ولم يعش في تايوان أيضاً. وعلى رأس قائمة المآخذ الواضحة عليه، وما كان شيانغ يلومه من أجلها، مسؤوليته عن مساعي نيكسون لإقامة علاقات ودية مع بيجينغ. وبما أن زيارة نيكسون إلى بيجينغ صارت وشيكة، جاء طلب ماي–لينغ في وقت غير مناسب على الإطلاق. قد يبدو الأمر كأن الأخت الصغرى بدأت تفقد صوابها. لكنها في الواقع كانت خائفة. لم يأتِ وقت في ظل حكومة القوميين لم يكن فيه مفتاح خزينة الدولة بيد عائلتها (تشمل شيانغ الأب وليس شيانغ الابن)، المستقبل أثار خوفها، وهي لا تستطيع انتظار وقت مناسب للتحدث إلى زوجها، لأن قلبه ضعيف وقد يموت في أي لحظة.

استمرت في الإلحاح لدرجة أن شيانغ تضايق وأخذ يتجنبها. لم يعد يرغب في تمضية الوقت إلا مع شينغ–كيو الذي كان يأتي في المساء لتناول العشاء مع والده عندما تسمح ظروف عمله. عندما يتأخر شينغ–كيو، ينتظره شيانغ، ويرفض تناول الطعام دون ابنه. ترتسم معالم السعادة على وجهه عند مجيء شينغ–كيو، وبعد العشاء يركبان السيارة لجولة (لم يحاول شيانغ التقرّب من ابنه بالتبني، واي–غو، وكان يحاول إبعاده لحظة حضوره). عندما لا يكون شينغ–كيو برفقته، يقرأ شيانغ مذكراته ليشعر بالراحة. ذهب شينغ–كيو مرة إلى كوي موي في جولة تفتيشية، وشيانغ أراده أن يمكث هناك بضعة أيام ليأخذ إجازة قصيرة، ومع ذلك، لم يهدأ بال شيانغ إلّا بعد عودة ابنه.

أخيراً هدأت أعصاب شيانغ واستعاد لقاءاته بزوجته. كان لطيفاً في حفل عيد ميلادها الرابع والسبعين. ماي–لينغ استغلّت الفرصة للترويج مجدداً لابن أختها؛ سوف يجري تشكيل الحكومة الجديدة في وقت قريب. وبناءً على توجيهاتها أتى دايفيد لرؤية زوج خالته ليحاول ترك انطباع جيد لديه. لكن وجوده أثار توتر القائد الأعلى الذي غضب من زوجته. في هذه المدة، وصف شيانغ زوجته بأسلوب يُفهم منه ضمناً بأنها عندما يُفسح لها المجال لتكون قريبة، تتصرف "بوقاحة".

وكتب في مفكرته في ١٢ حزيران/ يونيو ١٩٧٢: ”لا يجوز، على الإطلاق، ترك هذه المرأة تقترب منك“. صار شيانغ الآن يرى أن دايفيد مصدر كل ما ينغّص حياته: ”الخجل والذل والكراهية والغضب... يكاد عقلي لا يرتاح لحظة واحدة. هو سبب مرضي (دايفيد). كما أنه سبب ذلّ بلادي“.

هذا ما كتبه شيانغ في ١١ حزيران/ يونيو. وفي العشرين من الشهر نفسه، بعد نزهة في السيارة مع ماي–لينغ، شعر بحالة من ”الانزعاج والضيق“. قد تكون على الأرجح أثارت مسألة تعيين دايفيد مجدداً، وهو أحسّ ”أن معاناته لن تنتهي“. في اليوم التالي، أقرّ اللمسات الأخيرة لتشكيل حكومة شينغ–كيو، مؤكداً ألا يُدرج اسم دايفيد فيها. كان هذا آخر ما دوّنه شيانغ في مفكرته. في اليوم التالي، الثاني والعشرين، أصيب بنوبة قلبية قوية ودخل إثرها في غيبوبة استمرت ستة أشهر.

بداية ١٩٧٣، استعاد شيانغ كاي–شيك وعيه. استمر على قيد الحياة في حالة صحية صعبة لسنتين وفارق الحياة في المستشفى في الخامس من نيسان/ أبريل ١٩٧٥ وكان في السابعة والثمانين. كان قد اختار الأرض التي سيدفن فيها: موقعها رائع بجوار ضريح سون يات–سين الضخم في نانجينغ. وبما أن نانجينغ لا تزال تحت سيطرة الصين الحمراء، أوصى شيانغ بوضع تابوته في منزله على أطراف تايباي في سيهو، بانتظار اليوم الذي ينهار فيه الحكم الشيوعي على البر الرئيسي.

في السنوات الأخيرة من حياته، كانت علاقته بماي–لينغ هادئة. عوّدت نفسها تقبّل الواقع، وتعاملت بعطف مع الرجل المريض. كانت تؤنسه فتتحدث إليه وتبقى إلى جانبه. قبل وفاته بمدة قصيرة تم تشخيص إصابتها بسرطان الثدي لكنها لم تأتِ على ذكر هذا المرض الخطير للغاية والذي يهدّد حياتها أمام زوجها، على عكس ما تعوّدته في ما مضى من الشكوى المستمرة من أمراضها الأقل أهمية. قبل التوجّه إلى المستشفى لإجراء العملية الجراحية، أخبرت العاملين لديها أنها مصابة بالانفلونزا ومن الأفضل أن تبتعد عنه وقتاً كي لا تنتقل العدوى إليه. كانت ماي–لينغ تحرص على زوجها وتهتم به، وتعرف أنه يبادلها هذا الاهتمام.

عندما توفّي شيانغ، بكت ماي–لينغ في المجالس الخاصة. لكنها ظهرت أمام الناس بلا دموع، وأشرفت بإصرار على تنفيذ الإجراءات المعقّدة، وحافظت طوال الجنازة على تماسكها. كانت صورة للوقار والحزن المكتوم. على عكسها، أخذ شينغ–كيو ينتحب أمام الملأ حتى انهار، وساعده مرافقوه على الوقوف. اقترحت ماي–لينغ أن يعطيه أحد الأطباء حقنة مهدئة (لكن هذا لم يحدث). هذا الاستعراض من الحزن غير الخاضع للسيطرة لم يكن أمراً مألوفاً. إنه رجل قوي البنية، وفي أواسط الستينات، وهو الحاكم في نظام ديكتاتوري. كما أنه اكتسب قدرة جبارة على لجم مشاعره خلال سنوات احتجازه رهينة في روسيا. مع ذلك، بدا عاجزاً عن السيطرة على حزنه هذه المرة. لم

يكن حزنه عميقاً فقط، بل دام أيضاً مدة طويلة. بعد وقت طويل على وفاة والده، استمر في كتابة رسائل كهذه إلى زوجة أبيه:

جلست وحدي في شيلين (مقر شيانغ الرسمي) في غرفة نوم والدي، أفكر فيه وأشتاق إلى رؤيته من كل قلبي.
في المساء، تناولت العائلة طعام العشاء في سيهو لتكون بجواره. الحزن والأسى سيطرا عليّ...

في الليلة الماضية، قصدت سيهو لأنام هناك، ورياح الخريف تعصف والأمطار تهطل؛ بدأ الطقس البارد...

عندما عدت إلى شيلين، رأيت الأقحوان الأصفر في الحديقة وقد تفتّحت أزهاره. هذا المشهد أعاد إليّ ذكريات كثيرة وجعلني أشتاق إلى والدي بكثير من الألم...

عدتُ للتوّ مع زوجتي من سيهو التي قصدناها لزيارة نعش والدي. قطعت غصناً مزهراً من الأوسمانتوس ووضعته أمام النعش...

في الليلة الماضية، نمت في سيهو. كان ضوء القمر يغمر الجبال ويتألق على أزهار الكاميلية المتفتحة. تأثرت بالسكون والهدوء اللذين يحيطان بالمكان حيث يسجّى نعش والدي. أنا أتحسّر لأنه هنا وحده وقد يشعر بالعزلة والحزن...

أخذت ماي–لينغ تواسيه وتذكره بأنه أفضل حظاً منها بالنسبة إلى تجربتها الأليمة (لم تكد تعيش مع أبيها. غادرت البيت طفلة ولم يعش سوى أشهر قليلة بعد عودتها). أما والد شينغ–كيو، ففارق الحياة متقدماً في السنّ، وعاشا معاً لعقود.

ربما يكون أسلوب شينغ–كيو غير المعتاد في التعبير عن حزنه على فقدان والده ناتجاً عن أمر استثنائي بالفعل. قد يكون شيانغ كاي–شيك، أثناء أحاديثهما الطويلة والخاصة معاً في السنوات الأخيرة، قد باح له بالسرّ الذي مكّنه من تحريره من قبضة ستالين. ربما كان الثمن باهظاً – خسارة البرّ الصيني الرئيسي – وفكرة محتملة كهذه تتلف الأعصاب.

رجل آخر كان وداعه للقائد الأعلى عاطفياً على نحو غير متوقع أيضاً. إنه ماو حاكم الصين الحمراء الذي خلع شيانغ وذبح الملايين لتأمين عزله. ماو رآه جديراً بالمنافسة. ذات يوم، وهو طريح الفراش في الحادية والثمانين، ظل في وضعية الجلوس في سريره الخشبي الكبير ساعات عدة. لم يأكل، أو يتكلم، بل اكتفى بالاستماع لشريط من الموسيقا المؤثرة يستمر ثماني دقائق، مراراً وتكراراً، من أجل إشاعة جو جنائزي، وملامح وجهه تعكس وقعها الرصين والوقور. تم تأليف هذه المقطوعة الموسيقية خصّيصاً لماو، كلحنٍ لـ"قصيدة وداع" من القرن الثاني عشر؛ على هذا النحو، أراد ماو وداع شيانغ. كما أنه أعاد كتابة السطرين الأخيرين من القصيدة لتأكيد مغزاهما. والسطران كانا: "ارحلْ، تحرّر، يا صديقي المبجّل، لا تلتفت وراءك".

غادرت ماي–لينغ تايوان إلى نيويورك بعد خمسة أشهر على وفاة زوجها. احتفظت بصورة لشيانغ من أيام شبابه على المنضدة بجانب سريرها. أفراد عائلتها والعاملون لديها رأوها أحياناً تتكلّم مع الصورة وتخاطب زوجها بكلمة ”حبيبي“. ذات مرة، حين رآها أحد أبناء إخوتها وهي تحدّق في الصورة، ابتسمت له قائلة: ”إنه وسيم جداً، أليس كذلك؟“

تبعتها في اجتياز المحيط حاشية كبيرة تضمنت طهاة وسائقين وحراساً وممرضات. مع مرور الوقت، حين صارت كبيرة جداً في السن، وصل عدد أفراد المعاونين لديها إلى سبعة وثلاثين. شينغ–كيو، حاكم تايوان في تلك المدة، وفّر لها إمكانية العيش برفاهية. تعهّد لوالده قبل وفاته بذلك وهو يذرف الدموع. طلب شيانغ منه مرات عدة، عندما يكونان بمفردهما، العناية بماي–لينغ: ”لن أرقد بسلام إلّا إذا فعلت ذلك“. وحين كانا مع ماي–لينغ مرة، أمسك القائد الأعلى بيديهما وقال لشينغ–كيو: ”يا بني، أحبّ أمّك كما تحبني“. بعد وفاة شيانغ حافظ شينغ–كيو وماي–لينغ على علاقة متينة ساهمت أوضاع تايوان المتقلّبة في توطيدها. لم تعد ماي–لينغ قلقة بشأن أسلوب حياتها ما دام شينغ–كيو على قيد الحياة.

٢٢

حلقة هوليوود

قضت ماي–لينغ معظم وقتها مع زوجها في تايوان تحت حكم القوميين بعد سيطرة الشيوعيين على الصين، وإي–لينغ التي صارت نيويورك مقرّها الدائم كانت تزور الزوجين من حين إلى آخر. تملك الأخت الكبرى منزلاً كبيراً في لوكست فالي على لونغ آيلاند تحيط به الغابات. عاشت هناك في عزلة هادئة، وكان نشاطها الاجتماعي المفضل لعبة "البريدج" وأوراق اللعب مع فئة من الأصدقاء الكتومين الذين اختارتهم بدقّة. تجنبت حضور المناسبات العامة. وكعادتها، كانت العبادة محور حياتها اليومية، فتصلّي قبل اتخاذ القرارات المهمة، بما في ذلك توظيف الأموال.

إي–لينغ التي ترى ماي–لينغ أنها الأكثر فطنة بين الأخوات الثلاث، وأنها لا تزال تتمتع بمقدرتها الفكرية العالية، كانت تراقب أوضاع تايوان باهتمام شديد. ذات يوم من تشرين الأول/ أكتوبر في ١٩٥٦، وأثناء زيارتها الأخت الصغرى، قدمت إلى شيانغ كاي–شيك نصيحة سوف تعود بالفائدة على الجزيرة في السنوات التالية. نظام شيانغ الشديد القسوة لم يسمح إلّا لفئة قليلة من الشباب بمتابعة تحصيلهم العلمي في الخارج. ولم يجرؤ أحد على تقديم اقتراح برفع الحظر، وماي–لينغ ليس لديها هذا الميل السياسي في تفكيرها ولا تعرف كيف تقترح إجراءات مماثلة. في ذلك اليوم، كانت الأختان تتمشيّان في حديقة القصر الرئاسي برفقة القائد الأعلى، وأمسك شيانغ ذراع إي–لينغ وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. التفتت نحوه قائلة: "اسمع، أيها الأخ شيانغ، نحن نتخلّف في مجاليْ العلوم والتكنولوجيا... أنت لا تفتح المجال للطلاب للدراسة في الخارج. يجب أن تسمح للطلاب بالسفر والدراسة في أميركا!" شيانغ قَبِل نصيحتها، وبدأت أعداد كبيرة من الشبان والشابات تغادر تايوان وتعبر المحيط.

إي–لينغ ساعدت الزوجين شيانغ في تخطّي بعض المشكلات الشخصية. في ١٩٦٤، وصلتها رسالة من لورنس هيل، وهو كاتب عند جني، الزوجة السابقة للقائد الأعلى. كانت ظروفها صعبة وتنوي نشر مذكراتها. قال هيل في رسالته إنه يريد بحث بعض الأمور مع إي–لينغ. سوف يشكّل الكتاب عند صدوره إحراجاً كبيراً للزوجين شيانغ، والأخت الكبرى التي تعمل خلف الكواليس

منعت نشره. وافقت جني على تقاضي ٢٥٠ ألف دولار، وتعهّدت ألا تنشر الكتاب. والمبلغ بالطبع دفعته إي–لينغ من مالها الخاص.[34]

[34] تعرض الكاتب هيل في هذه المدة إلى اعتداء بالضرب من عصابات شيانغ، على الأرجح. لكن المبلغ الكبير الذي دُفع هو الذي أدّى إلى حل المشكلة. لم تنشر مذكرات جني إلّا في ١٩٩٠، بعد مرور زمن طويل على وفاتها ووفاة شيانغ (توفّيت في ١٩٧٠).

في الأمور الكبيرة والصغيرة، لعبت إي–لينغ دور معيلة العائلة، بسخاء دائماً. عندما زارها ابن أخيها الأصغر ت. أ، أعطته ورقة نقدية من مئة دولار هدية، وكانت مبلغاً ضخماً بالنسبة إلى الصبي الذي لم يتجاوز مصروفه الأسبوعي خمسة وعشرين سنتاً. الأفراد البارزون في فريق عمل الزوجين شيانغ وصلتهم منها هدايا ثمينة مثل ساعات Rolex. عندما دعت طبيب شيانغ للإقامة عندها لأسبوع، كانت تقدم إليه حساء زعنفة سمك القرش في كل وجبة، وهو من أغلى أصناف الطعام ثمناً. الطبيب تجنب الطعام المترف لكنه أُعجب كثيراً بحسن ضيافة إي–لينغ.

كانت على كل المستويات العقل المدبّر بعد زواجها بـ هـ. هـ. كونغ الذي شغل لسنوات طويلة رئاسة الوزراء في الصين. طريقة تفكير هـ. هـ. كونغ ربما تبدو أحياناً غريبة الأطوار، كما يعرف كثيرون. في مذكراته التي من المفروض أن تشمل فكراً متبصراً، يتبجّح بأن "روزفلت يثق بي مئة بالمئة. يصدّق كل ما أقوله له... روزفلت بالفعل صديقي". وموسوليني أيضاً يراه شخصاً مهماً: "موسوليني يعتقد أن الصين أوفدت رجالاً وعظماء إلى العواصم الأوروبية كافة (سفراء)... أعتقد أن موسيليني كان يلمح بكلامه أنه يريدني أن أكون عنده".

خلال زيارته الرسمية إلى أوروبا في ١٩٣٧، عقد اجتماعاً خاصاً مع هتلر. ووصف لقاءهما بأنه ساده الانسجام والألفة وأن الزعيم "قال لي إن الشيوعيين حاولوا تخريب ألمانيا لكن الشعب الألماني انتبه إلى مساعيهم وأدرك مدى خطورتها. الشيوعيون طُردوا من ألمانيا قبل تماديهم". وأضاف هتلر: "أعتقد أنك، أيها السيد الدكتور، تعرف مخاطر العقيدة الشيوعية". وادعى هـ. هـ. أيضاً: "أنا قادر على جعل هتلر يفكر مرتين قبل توطيد علاقته مع اليابان".

وادعى أن رسائل كثيرة وصلته من تايوان ترجوه "العودة". "يعتقدون أن عودتي تساعد الحكومة في استعادة السيطرة على البرّ الرئيسي".

كانت إي–لينغ تدرك جيداً أنها في الغالب تجهد نفسها في التفكير عن زوجها، وأنها تمارس تأثيراً لا نظير له في الأخت الصغرى والقائد الأعلى. أخبرت والدة ديبرا باجيت ذات مرة، نجمة هوليوود التي تزوجت ابنها الأصغر لوسي، "نحن متشابهتان من نواحٍ عدة". وقصدت بكلامها أن كلتيهما هندست نجاح أقربائها (إضافة إلى تديّنهما العميق).

ديبرا باجيت، بطلة فيلم إلفيس بريسلي Love me tender [أحبّيني بحنان] دفعتها والدتها المسيطرة، ماغي غريفت، إلى التوجه نحو هوليوود، وهي توصف بأنها ''فطنة وثرثارة ونجمة استعراضية سابقة ساحرة، وشخصية محبوبة في محيطها، وهي جديرة بهذه المحبة''. قررت ماغي أن ديبرا وإخوتها سوف يعملون في المجال الفني. بعد ولادة ديبرا في دنفر بكولورادو في ١٩٣٣ بمدة وجيزة انتقلت العائلة إلى لوس أنجلس لتكون على مقربة من موقع صناعة السينما. نجحت ديبرا في الحصول على أول فرصة احترافية لها حين كانت في الثامنة. عندما شاركت إلفيس بريسلي البطولة في ١٩٥٦ في أول ظهور سينمائي له، كانت قد شاركت في تسعة عشر فيلماً، لعبت دوراً في رفع منزلة إلفيس، وقالت لمعجبيها: ''يسعدني أن أراهن على أن إلفيس سوف يستمر في المحافظة على شعبيته... إلفيس بريسلي بدأ مشواره الفني هنا وسوف يبقى''.

خلال تصوير المشاهد كانت والدتها تجلس في الكواليس تمازح إلفيس. ماغي قررت منذ البداية أنها ستكون برفقة ديبرا أثناء تصوير أيّ من أفلامها. كان لها حضورها في العلاقة بين الممثلة و''ملك'' الروك في المستقبل. قالت ديبرا لجمهور البرنامج الشهير آنذاك Milton Berle show:

> كنت أنتظر اللقاء الأول مع إلفيس بريسلي بمشاعر مضطربة. سمعت عن هذه الموهبة الشابة من تنّيسّي وقرأت الكثير عنها، وتبين لي أن معظم ما عرفته لم يكن من باب المجاملة... أول شيء أذكره طريقته بالترحيب بنا. عندما قدّمه إلينا السيد بيرلي، مدّ إلفيس يده وشدّ على يدي وقال: ''أنا سعيد بالتعرف إليك آنسة باجيت''. ثم صافح والدتي بالحماسة نفسها، واستأذن قليلاً ليعود بعد دقيقتين وهو يحمل كرسياً لها... كانت تلك بداية للقاءات عائلية كثيرة مع إلفيس... اعتبر والداي إلفيس فرداً من عشيرة باجيت... وكان هذا الشعور، على ما أعتقد، متبادلاً.

إلفيس، على ما يبدو، عرض الزواج على ديبرا، لكن ماغي اعترضت. قالت ديبرا في ما بعد، في مقابلة تلفزيونية: ''لولا موقف والديّ، لكنت سأتزوج إلفيس''.

ديبرا طلّقت زوجها الأول (الممثل دايفيد ستريت) بعد عشرة أسابيع من زواجهما، وتركت الثاني (المخرج باد بويتيتشر) بعد تسعة عشر يوماً. في ١٩٦٢، وكانت في الثامنة والعشرين، تعرّفت إلى ابن إي-لينغ الأصغر، لويس، وتزوجته. كان النقيب السابق، في الجيش البريطاني، الذي تدرّب في ساندهيرست، صار في الأربعين ولم يتزوج بعد، والآن يتربع على ثروة طائلة من التجارة بالنفط في هيوستن بتكساس، ويملك طائرة خاصة، ولديه فرقة من الحراس لحمايته.

لعبت إي-لينغ دوراً مهماً في هذا الزواج. كانت معجبة بديبرا، وأكثر ما شدّها إلى ''فتاة الاستعراض'' ذات الشعر الأحمر أنها ورعة مثلها. كانت ديبرا تصف إلفيس: ''هو يحب الله، وهذا أفضل ما عنده''.

إي–لينغ تمتلك منزلاً في بيفرلي هيلز، وتلقت ديبرا دعوة إلى مأدبة عشاء لتلتقي لويس. حمل الدعوة إليها صديق مشترك. قالت ماغي للصحافة: ”أعدّ كل شيء بعناية. دعاني أنا أيضاً. وقدّم إلينا والدته. إنها إنسانة رائعة. كل شيء كان مدبّراً وفق التقاليد، إذ إن ديبرا لم تكن تملك سوى الوقوع في حبه. وأنا أيضاً أُعجبت به“.

عندما أعلنت خطوبة لويس وديبرا، قالت ماغي بصوت خفيض: ”لقد تودّد إلى ابنتي بطريقة تقليدية رائعة. لن أجد صهراً أفضل منه... أنا بالتأكيد أحبه وأعرف أن والدته تحب ابنتي“. كانت ديبرا قد وقّعت عقوداً للتصوير في روما. لكن لويس أخذها بالطائرة إلى لاس فيغاس حيث عقد قرانهما في كنيسة فيرست ميثوديست بحضور والدتيهما. وعندما سافرا لقضاء شهر العسل، صرّحت ماغي ثانية للمراسلين: ”كنت متأثرة مثل ديبرا... أعتقد أن ابنتي وجدت هذه المرة السعادة الحقيقية“. إي–لينغ كانت سعيدة، لكنها كعادتها، تجنبت الحديث إلى الصحافيين.

المنزل الذي عاد إليه لويس وديبرا كان يشبه ”قلعة“ خارج هيوستن، وسط مساحات شاسعة من الغابات والمراعي. هنا المركز الرئيسي لشركته النفطية وقصره المزوّدان بنوافذ لا يخترقها الرصاص. وفي الموقع، شُيدت بركة وبجانبها مقصورات صينية يغطي سطحها الآجر الأزرق، فبدت إضافة أنيقة وتزيينية على أرض تكساس. عند الاقتراب منها كان يتضح أن هذه المنشآت المزخرفة مشيدة من الباطون المسلّح ومزوّدة بفتحات للمدافع الرشّاشة.

تحت البركة بنى لويس واحداً من أكبر الملاجئ الخاصة في العالم للتحصّن من هجوم نووي: ملجأ ويستلين. كان احتمال هجوم نووي من روسيا الحمراء أو الصين أمراً جدياً للغاية. يجري الوصول إلى الملجأ عبر بيوت سلالم مخبأة، وبعضها داخل المقصورات. إنه مجمع شاسع تحت الأرض، ومصمّم ليتحمّل أي انفجار معروف، حتى الذي تصل قوته إلى أربعين ميغا طن. هذه المدينة المصغّرة لديها مولداتها الخاصة للطاقة وما يكفي من مخزون مياه وأطعمة لألف وخمسمئة من الناس لتسعين يوماً. الأسرّة مرتبة بعناية فوق بعضها، وإحدى الغرف احتوت على ١١٥ من الأسرّة على ثلاثة مستويات، وكل سرير مزوّد بضوء للقراءة. هناك غرف للطعام فيها طاولات وكراسيّ وحمامات وأماكن ”للدشّ“ الذي يزيل التلوّث وهي جاهزة للاستخدام، ومستشفى، وحتى سجن مزوّد بأربع زنزانات محصّنة. لويس فكر في كل الاحتمالات، ولم ينسَ الاعتداءات والشغب.

في حال اعتداء نووي، تبدأ لوحة معلقة على الجدار في غرفة التحكّم إرسال ومضات من الضوء وإشارات أخرى، ويُشغّل جهاز الإقفال. عدادات غايجر لقياس معدل الإشعاع تبدأ العمل، ويُكشف عن مخزون المياه وأجهزة التهوئة.

ترك قارئ يدعى تود برانت على موقع com.houstonarchitecture رسالة: "أشرفت على بناء بيت المصعد وعلى إعادة التصميم الداخلي لملجأ ويستلين. إنه إنجاز مذهل. يجب أن تراه لتصدقه. هناك بحيرة فوقه ولا توجد أي تسربات للمياه. إنه أفضل عمل أنجزته".

هذا المجمع الخيالي الغائر في الأرض كلّف لويس من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ مليون دولار (بتقدير يومنا هذا). خلال الأزمة التي تعرّض لها قطاع النفط في هيوستن في ١٩٨٠ والتي أدت إلى إفلاسه، خسر لويس العقار (مع أنه لم يكن معرّضاً للإفلاس على الصعيد الشخصي). والموقع الاستثنائي الذي يجسّد جنون الحرب الباردة توقف العمل فيه وبقي على حاله إلى أن فُتح مجدداً في ٢٠٠٥ لتأجيره. بعد الإعصارين كاترينا وريتا عرفت عشرات الشركات الكبرى قيمته وأرادت استئجاره. Continental Airlines مثلاً رأته مناسباً كمركز للعمليات في الأزمات الطارئة. وشركات أخرى وجدته مقراً مثالياً لبيانات الإنترنت. وما يُشاع عنه اليوم أنه "من أفضل مستودعات التخزين للبيانات حماية وأمناً. صامد أمام تقلبات الجو ولا تتسرب إليه المياه. كما أنه مأوى في حال حدوث اعتداء نووي. نفض ملجأ لويس عن نفسه غبار الزمن وأُعطي فرصة جديدة للاستمرار.

لويس أحبّ تجميع أغراض من حقبة الحرب الباردة تصلح للظهور في فيلم لجايمس بوند. أعطى ابن أخيه مرة مشطاً هو في الواقع سكين على شكل مشط. وعندما أتت ماي–لينغ مرة إلى زيارته، دعاها للركوب في Limousine صُنعت بناءً لطلبه، عندما يفتح صندوقها يظهر فيه مصباحان كشّافان قويان إلى درجة أنهما يمنعان أي متعقب للسيارة من الاستمرار في مهمته، فيما تطلق أنابيب العادم ألسنة اللهب. السيدة شيانغ كاي–شيك الواقعية قالت لأخيها ت. ڤ. إن "لويس ليس متزناً"، وت. ڤ. أجابها: "لديه القدرة على أن يحلم". لدى لويس هوايات عدة. إنه يملك عقاراً جميلاً في لويزيانا كان يقصده ليصطاد البط. أصدقاء ماي–لينغ أحبّوه لأنه كان يدعوهم لقضاء أوقات ممتعة.

لويس وديبرا انفصلا بعد ثماني عشرة سنة لكنهما استمرا على علاقة ودية. قالت ديبرا: "نحن صديقان حميمان". كما حافظت على صداقتها لعائلتي كونغ وسونغ بعد وفاة لويس في ١٩٩٦. "هذه العلاقة الرائعة" استمرت بفضل ابنهما غريغوري الذي اعتزلت ديبرا العمل في السينما من أجله.

وُلد غريغوري في ١٩٦٤، في منزل في بيفرلي هيلز بجوار منزل فرانك سيناترا. عندما أتى هـ. هـ. كونغ لرؤية حفيده، أحضر معه صولجاناً مقوّساً من اليشب (yi–ru)، هدية احتفالية تعبّر عن التمنيات الطيبة وتُحمل باليدين الاثنتين معاً. إي–لينغ اعتنت بالطفل كجدّة متمرّسة. عندما كان غريغوري صبياً وأتى لزيارتها في نيويورك، قالت له عمته الكبرى المهيبة إنه لم يتقن بعد الأصول بالوقوف عند دخول شخص أكبر منه إلى الغرفة، أو الجلوس كما ينبغي وليس بوضعية متكاسلة.

وفي ما بعد، لم تتوقف عن إطرائه وهو يكبر ليصبح شاباً لبقاً ودمثاً. وارتاحت كثيراً عندما علمت أنه لا يتعاطى المخدرات.

غريغوري هو الحفيد الوحيد لإي–لينغ. من أولادها الأربعة، دايفيد وجانيت لم يتزوجا، وروزاموند تزوجت مرتين ولم تنجب أطفالاً. غريغوري الابن الوحيد للويس وديبرا، وهو الوريث الوحيد لعائلة كونغ. كرّس وقته للعناية بديبرا التي لا تزال في الثمانينات، وفي مرحلة إعداد هذا الكتاب، تحتفظ بملامحها الجميلة... وتقواها. الأم والابن لا يفترقان.

تشينغ–لينغ وماي–لينغ لم تنجبا أطفالاً بسبب ظروفهما... والزوجين اللذين اختارتاهما. وبذلك، يكون غريغوري الذي لم ينجب بدوره "الوريث" الوحيد للأخوات سونغ. وهو لا يهتم بتمضية حياته في الحفاظ على ميراثهن، بل يتمسك بشدة بعزلته.

٢٣

نيويورك... نيويورك

الأخوات الثلاث وُلدنَ في شانغهاي. لكن بسبب الظروف السياسية لم تمضِ أي واحدة منهنّ فيها سنواتها الأخيرة. تشينغ–لينغ من قيادات الصين الحمراء وعاشت سنواتها الأخيرة في بيجينغ حيث استمرت في خدمة الحكومة الشيوعية حتى النفس الأخير. لم تكن تحب العاصمة بل تشتاق إلى شانغهاي لكنها لم تستطع الاختيار. إي–لينغ وماي–لينغ كانتا منفيتين من وطنهما، واختارتا نيويورك لتمضية شيخوختهما، وهي المدينة التي تذكّرهما بمسقط رأسيهما. أحبتا نيويورك كثيراً واندمجتا في مجتمعها. وسط النشاط البالغ في المدينة وجدتا الإحساس بالأمان والسكينة.

كما استقر في نيويورك أيضاً الأخوان سونغ. الأول ت. ل. الذي يصغر ماي–لينغ بسنة واحدة، وهو مصرفيّ سابق خسر معظم ثروته بسبب هربه من البر الرئيسي وعجزه عن الحصول على عمل في أميركا. بعد فقدانه مدخراته لجأ إلى أقاربه لإعالته. الاتكال على الغير للحصول على المال لا يساعد في بناء علاقات متأنية وحذرة. في مدينة تنتشر فيها علاقات من هذا النوع، كان ت. ل.، ككثيرين مثله، لا يكاد يلتقي أقاربه، وهو يعيش بتواضع وهدوء مع زوجته وابنته. هو الوحيد من عائلة سونغ الذي أرسل برقية عزاء بوفاة "الأخت الحمراء" في ١٩٨١، لكن بيجينغ لم تكترث كثيراً للأمر، كأنه ليس بالفعل من عائلة سونغ. لم يعر أحد اهتماماً بموته في ١٩٨٧ وهو في الثامنة والثمانين.

جذبت نيويورك أيضاً ت. ف. في ١٩٤٩، وهو الأكبر بين الإخوة سونغ الثلاثة والأكثر شهرة، كانت لديه شقة في فيفث أفينيو تطل على سنترال بارك، لكنه عاش في حالة خوف دائم على حياته. كان حفيده ذات مساء يشاهد برنامجاً على التلفزيون، حين حدثت جلبة على نحو مفاجئ. أُصيب الصبي بصدمة عندما رأى جدّه يندفع داخل الغرفة والمسدس في يده. لم يكن المسدس يفارقه، وعندما يغادر نيويورك لم يكن يفصح عن وجهته ولا وقت غيابه. ت. ف. على قائمة ماو لـ"مجرمي الحرب"، لكن خوفه الفعلي كان من نيات شيانغ كاي–شيك السيئة نحوه. خلال الحرب الأهلية أخذ يغازل منافسي صهره من القوميين الذين ينتظرون الفرصة للإطاحة به. هذا التصرف

"الغادر" القصير الأمد أثار بعمق عدائية القائد الأعلى نحوه. كان ت. ڤ. مضطراً أن يأخذ الاحتياطات اللّازمة.

إنه يدرك جيداً أن عملاء القوميين يراقبونه من كثب في نيويورك، وأن أهم المحظورات، من وجهة نظر صهره، اقترابه من واشنطن (قد تشكل دعماً له ليحل محل شيانغ). لذلك ورغم أن لدى ت. ڤ. عدداً كبيراً من الأصدقاء الأميركيين البارزين، لكنه كان لم يكد يلتقي أي واحد منهم. كما تجنب زيارة مسؤولين من تايوان أيضاً. عاش حياته مهتماً بأموره الشخصية: يمشي في سنترال بارك، ويشاهد مباراة الفوتبول الأميركي على شاشة التلفزيون، ويلعب بالورق أو بالغمّيضة مع أحفاده. لا تشكل هذه الحياة بديلاً مقنعاً عن بريق الشهرة الذي نعم به منذ مطلع شبابه. لكن لديه حياة عائلية سعيدة: زوجة محبّة (وجميلة)، وثلاث بنات مهذّبات، وتسعة أحفاد.

لم يعد يتصل بتشينغ–لينغ التي تعيش في الصين الماوية المُحكمة الإغلاق. ولم يكن يلتقي كثيراً إي–لينغ مع أنهما يقيمان في المدينة نفسها. الأخت الكبرى ناقمة عليه لأنه حلّ محل هـ. هـ. كونغ رئيساً للوزراء في نهاية الحرب مع اليابان. رأته متواطئاً مع شيانغ في توجيه طعنة في الظهر إلى زوجها ووضعه ككبش فداء.

بقي على صلة وثيقة بماي–لينغ لكن آلاف الأميال فرقتهما حين كانت في تايوان. على مرّ السنوات، تبادلا الرسائل والهدايا، وقدم الواحد منهما إلى الآخر خدمات صغيرة تهدف أساساً إلى إظهار مدى اهتمام كل منهما بالآخر. في إحدى رسائلها الطويلة والحميمة لأخيها في ١٩٦٢، قالت ماي–لينغ: "بعد بضعة أيام يصادف عيد ميلاد الأخت... أرجو أن تتصل بها بالتلفون لتتمنى لها عيداً سعيداً، لأنني كلما كبرت في السن، صرت أكثر إقتناعاً بمغزى القول المأثور: 'الدم أكثر كثافة من الماء'".

اتصل ت. ڤ. بالأخت الكبرى تلبية لرغبة ماي–لينغ، وإي–لينغ قدّرت مبادرته ودعته للمجيء إلى لوس أنجلس. أثناء وجوده هناك انفجرت أزمة الصواريخ الكوبية. وانتهت الأزمة بانسحاب الرئيس الروس نيكيتا خروتشوف، بالنسبة إلى الرأي العام على الأقل. احتفل ت. ڤ. وإي–لينغ بهذه المناسبة وتصالحا. كتب إلى ماي–لينغ في الحال وهو سعيد ومتحمس: "أنا موجود في منزل الأخت إي الأنيق في لوس أنجلس، وهي في أفضل حال من الناحيتين الصحية والمعنوية. كنا سعيدين للغاية بمواجهة كينيدي لخروتشوف. هذه بداية فصل جديد في التاريخ تتجدّد فيه آمالنا بالعودة إلى بلادنا".

تشجعت بنجاحها في إعادة الوئام بين أخيها وأختها، وبدأت ماي–لينغ تعدّ للمصالحة بين ت. ڤ. وزوجها. في شباط/ فبراير ١٩٦٣، أثناء وجوده في مانيلّا لزيارة إحدى بناته التي تقيم مع زوجها

هناك، تلقّى ت. ڤ. دعوة للمجيء إلى تايوان. حمل الدعوة الأخ الأصغر ت. أ. الذي كان في الغالب يعمل رسولاً بين إخوته الأكبر منه الذين فرّقتهم السياسة. رد فعل ت. ڤ. المباشر كان الحذر. هو بالتأكيد يحب أخته لكنه لا يثق بزوجها. خاف أن يسلبه شيانغ حريته إن لم يكن حياته. أخذ يحضّر نفسه لهذا السيناريو، فكتب رسائل إلى زوجته، ورد فيها أنه سيذهب "أسبوعاً" أو "أسبوعين" فقط و"لا داعي للقلق. سوف أعود قبل نهاية الشهر".

شيانغ كاي-شيك ترك ت. ڤ. يستمتع بزيارته التي امتدت نحو اثني عشر يوماً، لكنه لم يستقبله فاتحاً ذراعيه كما فعل مع هـ. هـ. كونغ. كما لم يطلب منه أن يقدم إليه أي خدمة في الولايات المتحدة. شيانغ مثل أنسبائه كان سعيداً بموقف الرئيس الأميركي الحازم في أزمة الصواريخ الكوبية، ونوى إرسال ابنه شينغ-كيو في أيلول/ سبتمبر في محاولة لإقناع كينيدي بدعمه لشنّ هجوم على الصين الحمراء. وافق على التماس ماي-لينغ بطلب المساعدة من ت. ڤ. و. أفريل هاريمان، وكيل الوزارة للشؤون الخارجية في حكومة كينيدي، الذي كان صديقاً قديماً لـِ ت. ڤ.

ت. ڤ. التقى هاريمان بعد عودته من تايوان، وكتب لماي-لينغ رسالة مطوّلة عما دار بينهما، وماي-لينغ ترجمت ما ورد إلى الصينية لزوجها. لم تحمل الرسالة أخباراً سعيدة لشيانغ. الحكومة الأميركية لا تريد أن تتورط في أي "نزاع خطير" مع بيجينغ. الجليد في قلب شيانغ نحو نسيبه ظل متجمداً على حاله. لقد كان حريصاً على ألا تكون لـ ت. ڤ. أي علاقة بزيارة شينغ-كيو إلى واشنطن.

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٤، أجرت الصين تجربتها الأولى على القنبلة النووية. وفي تلك المدة، اعترفت فرنسا ببيجينغ، وهي بذلك أجبرت تايوان على قطع علاقاتها الديبلوماسية مع باريس. في السنة التالية، تعرّض شيانغ لضربة جديدة. لي تشونغ-جين، الذي حلّ محلّه مدة وجيزة وصار رئيساً للصين في ١٩٤٩ وهو يقيم في نيويورك منذ ذلك الحين، أفلت من مراقبة القوميين السرية له وظهر في بيجينغ بأسلوب دراماتيكي. نزل من الطائرة ومشى على السجادة الحمراء، وكان في استقباله قياديون سابقون في "القومي" بينهم أصدقاء لـِ ت. ڤ.، وأصدقاء أصدقائه. رغم أن ت. ڤ. فعل ما في وسعه ليكون مفيداً، فإنه لم يكن بالتأكيد ليتلقّى دعوة جديدة للمجيء إلى تايوان.

في ٢٦ نيسان/ أبريل ١٩٧١، توفّي ت. ڤ. فجأة وهو يتناول طعام العشاء مع أصدقائه، وكان في السادسة والسبعين. ورد في تقرير الطبيب أنه مات "إثر اختناقه بقطعة من اللحم". وربما أصيب بالسكتة القلبية: أحسّ ببعض العوارض صباح ذلك اليوم، وقبل ذلك بيوم أو يومين.

فور وصول الخبر قالت ماي–لينغ لزوجها إنها سوف تسافر إلى نيويورك للمشاركة في الجنازة التي حدّد موعدها في الأول من أيار/ مايو.

قبل ليلة من موعد سفرها، غيّر شيانغ رأيه. كتب في مفكرته بتاريخ ٢٩ نيسان/ أبريل: "وصلني هذا المساء أن سونغ تشينغ–لينغ قد تسافر إلى نيويورك من أجل جنازة ت. ڤ، وتنوي أن تستغل الفرصة للبحث في اتفاقية سلام (أي استسلام تايوان) مع زوجتي. لذلك، قررت توجيه أمر لزوجتي ألا تسافر إلى نيويورك غداً".

لم يكن هناك أي دليل على احتمال سفر "الأخت الحمراء" إلى نيويورك. في تلك المدة، كانت الصين تعيش في عزلة تامة عن العالم الخارجي. لم تكن هناك أي علاقات ديبلوماسية بين بيجينغ وواشنطن. كسينجر سوف يأتي لاحقاً في مهمة سرية (في حزيران/ يونيو) إلى العاصمة الصينية. من المستحيل أن تقرر تشينغ–لينغ، الشخصية البارزة في الصين الحمراء، السفر بالطائرة بصورة مفاجئة. عائلة ت. ڤ. في نيويورك لم تعد على صلة بها منذ عقود ولم توجه إليها دعوة بالحضور. كما أن بيجينغ لم تتصل بالعائلة للتنسيق لحضورها. ليس هناك أي دليل على أن تشينغ–لينغ طلبت السفر. حتى عند وفاة أخيها ت. أ. في ١٩٦٩، الأقل تدخّلاً في السياسة، اكتفت بإرسال برقية عزاء. ولم تتمكن من فعل هذه المبادرة البسيطة إلّا بعد وساطة رئيس الوزراء شو إن–لاي الذي اتصلت به عبر زوجته.

أثناء تفكير القائد الأعلى في احتمال إرسال بيجينغ تشينغ–لينغ لحضور جنازة ت. ڤ. من أجل تحقيق مآرب معينة، خطر له ترتيب مماثل. وفي ذلك الشهر، حدث أمر أثار انتباهه: دعت الصين بعض لاعبي "بينغ بونغ" الأميركيين للمشاركة في مباريات على أرضها، وتلك خطوة لم يسبق لبايجينغ فعلها. أخذ شيانغ يفكر بمبادرات مماثلة. لكن القائد الأعلى في النهاية لا يريد أن تسافر زوجته كل هذه المسافة من أجل الحداد على ت. ڤ. ففي المدة الأخيرة، امتلأ رأسه بمشاعر الامتعاض والاشمئزاز تجاه نسيبه. وعند التفكير في خسارة البر الصيني الرئيسي كتب في مفكرته أن هناك "أموراً كثيرة ندمت عليها"، على رأسها توظيف ت. ڤ. الذي، وفق ادعائه، أحدث فوضى في الوضع الاقتصادي، بسبب "جهله أو رفضه تنفيذ الأوامر أو تحمل المسؤولية". كانت أفكار شيانغ تتداعى بهذه الصورة حين قال لزوجته إنه يمنعها من السفر إلى نيويورك.

تألمت ماي–لينغ لأنها لم تحضر جنازة ت. ڤ. عندما كتبت لها إيما لتعزيها، تعمّدت في ردّها بنحو مفاجئ تغيير الموضوع: "العائلة حزينة جداً على فقدانه، هو أخي الأصغر ت. أ. الذي فارق

الحياة منذ سنتين... السيدة كونغ زارتنا لتمضية الصيف وكانت قد وصلت في نيسان/ أبريل من أجل عيد ميلادي".

إي–لينغ التي كانت في تايوان في تلك المدة لم تحضر أيضاً جنازة ت. ڤ. نتيجة لذلك كان حضور أفراد عائلة سونغ هذه المناسبة قليلاً بالمقارنة مع جنازة ت. أ. حين سافرت ماي–لينغ إلى سان فرانسيسكو للمشاركة فيها. وكذلك فعل ت. ڤ. وإي–لينغ التي كانت تعاني على فراش المرض في نيويورك.

عندما توفّي هـ. هـ. كونغ، عديل شيانغ، وكان في الخامسة والثمانين، في آب/ أغسطس ١٩٦٧، سافرت ماي–لينغ من تايوان إلى نيويورك لحضور الجنازة. وفي تايوان، أعد شيانغ جنازاً حاشداً تكريماً له. وكتب القائد الأعلى خطاباً تأبينياً حزيناً ألقاه في المناسبة. ت. ڤ. لم يحظَ منه باهتمام مماثل. اكتفى شيانغ بإرسال لوحة مكتوب عليها بخط اليد تشبه اللوحات التي كان الأباطرة يضعونها في إطارات ويمنحونها للرعايا المميزين، كأحد الأبناء، أو أرملة محتشمة، أو والدة عانت كثيراً من أجل رعاية عائلتها.

كانت إي–لينغ في نيويورك عندما استسلمت أمام مرض السرطان، فتوفّيت في الرابعة والثمانين في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣. عانت من أمراض عدة في شيخوختها. كانت ماي–لينغ تحرص على تأمين أفضل عناية طبية لها أثناء وجودها في تايوان، وتبقى إلى جانبها في المستشفى أياماً طويلة. سافرت ماي–لينغ لتهتم بها وهي على فراش الموت، وما لبثت أن عادت مسرعة بسبب تدهور حالة زوجها الصحية.

بعد مرور سنة على وفاة شيانغ في ١٩٧٥، استقرت ماي–لينغ نهائياً في نيويورك، وعاشت مع دايفيد كونغ في ١٠ غرايسي سكوير في الجهة الشرقية العليا من مانهاتن. شقة كبيرة تنعطف على زاوية مبنى مهيب شُيّد في الثلاثينيات وتقع في الطابق التاسع وتطلّ على متنزّه إيست ريفر. لم تكن السيدة شيانغ كاي–شيك تفكر إلّا في حماية نفسها عندما وقع اختيارها على هذه الشقة. الطريق الخاصة التي تفضي إلى المبنى غير مكشوفة وتصل داخل الحاجز الأمني، وهذا يعني أنها تستطيع الدخول والخروج بسيارتها من داخل المبنى. وعلى مرمى حجر وسط مرج أخضر، يقع المقر الرسميّ لعمدة نيويورك، غرايسي مانشن، وهذا يعني أن المنطقة كلها مراقبة جيداً. إضافة إلى ذلك نوافذ الشقة لا يخترقها الرصاص.

كانت تقصد أحياناً قصر عائلة كونغ في لونغ آيلاند يحيط بها حراسها وخدمها، والقصر الآن تشرف عليه جانيت التي صارت بمكانة ابنة لها. جانيت حافظت على المنزل، وعرفت كيف تدير

العاملين لديها ليقوموا على واجباتهم على أكمل وجه ليلاً نهاراً (ممرضات الليل لا تغمض لهنّ عين). أسلوبها القاسي كالمعتاد أثار استياء فريق العمل، لكن ماي–لينغ لا تستغني عن جانيت التي كان تفانيها في رعاية خالتها لا حدود له. كانت تفحص جيداً أي دواء جديد يصفه الطبيب لماي–لينغ لتتأكد من أنه لن يحمل لها تأثيرات جانبية. صارت في السبعينات، وتجلس القرفصاء أمام رجليْ ماي–لينغ لتقصّ أظفار أصابع قدميها، لأنها لا تثق بأي اختصاصية لهذه المهمة.

تلقت ماي–لينغ صدمة كبيرة عند وفاة جانيت في ١٩٩٤، وذلك بعد وفاة دايفيد في ١٩٩٢. سيطرت الكآبة عليها لأشهر. أحد المعجبين بها رأى مدى تأثرها وقرر أن يفعل شيئاً لرفع معنوياتها. بناءً على اقتراحه أقام عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي حفل استقبال في الكونغرس في ١٩٩٥، بمناسبة الذكرى الخمسين لهزيمة اليابان. قصدت ماي–لينغ واشنطن بالطائرة في ذلك اليوم، وكانت السيدة التي صارت في السابعة والتسعين مشغولة طوال الرحلة بمراجعة خطابها. تكلّمت بحماسة وبأسلوب مؤثر. بعد ذلك انتقلت إلى مقر ممثل تايوان، حيث أحاط بها أميركيون صينيون في حفل غداء، وكانت حاضرة بكل ما تتمتع به من سحر وجاذبية، فتتبادل أطراف الحديث مع الحضور وتتصور معهم، وفي نهاية الاحتفال، عادت بالطائرة إلى نيويورك، ولم تشعر بأي تعب. استمر ارتفاع الأدرنالين في جسمها لأيام، وخلال هذه المدة شعر كل المحيطين بها بمدى سعادتها.

روزاموند، ابنة إي–لينغ الكبرى، تولت مهمة رعاية ماي–لينغ. لكنها كانت في ذلك الحين في أواخر السبعينات ولم تكن على وفاق تام مع خالتها مثل جانيت. فريق عمل السيدة الأولى السابقة الكبير تقلّص ليقتصر بمعظمه على أفراد عائلتها، وكان يديره ببراعة نقيب سابق مخلص في سلاح الجو يدعى سونغ. رجل قدير ولبق ومهذب، ترك تأثيراً مميزاً في العقد الأخير من حياة ماي–لينغ. صارت أكثر تعاطفاً ولباقة في التعاطي مع العاملين لديها وهؤلاء اجتهدوا لأداء واجباتهم. أيتام الحرب، الذين صاروا كباراً في السن، زاروها مرة أو مرتين في السنة. عندما كانت تستقبلهم أو تستقبل سواهم من الزائرين خاصة من تايوان، كانت ترتدي ثوباً أنيقاً وتصنع المساحيق على وجهها وتعدّ نفسها لتظهر أمامهم بإطلالتها الملكية. قالت للذين احتشدوا حولها مرة: ”حين كنتم صغاراً، كنت أمرّر يدي على وجوهكم. والآن اقتربوا مني لأمرّر يدي على وجوهكم“. فضحكوا وأحسوا كم يحبونها.

ما عدا ذلك لم تكن تلتقي أحداً خارج منزلها. لم تقبل سوى عدد قليل من الدعوات، العامة أو الخاصة، ولم ترَ أي واحدة من صديقاتها. إيما ميلز، التي استمرت في مراسلتها لعقود، رأتها مرتين

فقط في مدة تزيد على عشر سنوات، منذ أقامت في نيويورك بعد وفاة زوجها (توفّيت إيما في ١٩٨٧ وعمرها اثنتان وتسعون سنة). لم تتحدث مع جيرانها. ترسم ابتسامة خفيفة إذا رأت أحدهم مصادفة، ولا تفعل أكثر من ذلك. كانت نادراً ما تخرج من شقتها. كانت تستطيع الإقامة في أي مكان آخر، بما في ذلك تايوان، خصوصاً أن معظم العاملين لديها من تايوان وإحضارهم إلى نيويورك كلّفها الكثير. لكن الأخت الصغرى اختارت العيش في نيويورك. "ضجيج" المدينة في الجو يتسرّب من النوافذ المغلقة والأبواب المقفلة ويملأ المكان. حتى في عزلتها ظلت ماي–لينغ على تواصل مع العالم.

٢٤

في مواجهة زمن تغير

السنوات الأخيرة التي عاشتها ماي–لينغ في نيويورك تزامنت مع التغيير في البرّ الصيني الرئيسي بعد وفاة ماو في ١٩٧٦. دنغ زياو–بنغ الذي صار الزعيم الأعلى بعد ماو فتح أبواب البلاد أمام الرأسمالية. رحّب المجتمع الدولي بمبادرة بيجينغ. عندما أقامت أميركا علاقات ديبلوماسية مع بيجينغ في ١٩٧٩، صار وضع تايوان مثيراً للقلق. انزعجت ماي–لينغ وأحست بخيبة أمل من موقف البلد الذي اختارت العيش فيه. خلال مفاوضات تايوان مع واشنطن لتحديد العلاقة المستقبلية، قالت لشينغ–كيو إنه يجب أن يلحّ على أن لا يكون لأميركا أي صلة بالبر الرئيسي. هذا الهدف بدا بعيداً لدرجة أن تايوان لم تقترحه. ماي–لينغ وبّخت شينغ–كيو بقسوة. أحست بالضعف والإحباط، وخطر لها أن تتبرع بمبالغ ضخمة لمجموعات معادية للشيوعية في واشنطن، وأرسلت رسولاً سرياً إلى شينغ–كيو ليطلعه على خطتها. لكن أي مبادرة لوقف هذا المدّ لم تعد مجدية.

بالنسبة إلى ماي–لينغ، لم تختلف الصين ما بعد ماو عما كانت عليه زمنه. كانت تشير إلى دنغ رياو–بنغ أنه "قاطع طريق"، فحافظت على الأسلوب اللغوي القديم الذي كان زوجها يستخدمه. تملكها اليأس من أن العالم بدأ على ما يبدو يقبل الصين الشيوعية.

في ١٩٨١، عندما تدهورت حالة تشينغ–لينغ الصحية، دعت بيجينغ ماي–لينغ لتلتقي أختها للمرة الأخيرة. لكنها لم ترد. بعد وفاة "الأخت الحمراء" تلقت دعوة ثانية للمشاركة في الجنازة وتجاهلت الدعوة مجدداً. شعرت ماي–لينغ أنها غير قادرة على رؤية أختها للمرة الأخيرة. ذات مرة ظلت طوال الليل تتحدث مع مرافقة لها عن "الحمراء"، وتتذكر حين أحضرتها تشينغ–لينغ إلى أميركا وهي لا تزال طفلة. لكنها ليست مستعدة لتقدم إلى الشيوعيين أي مادة قد يستغلونها في حملاتهم للدعاية لنظامهم.

في تلك المرحلة، نشرت صحيفة تصدر في أميركا بالصينية رسالة تزعم أن تشينغ–لينغ كتبتها إلى "اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الصيني" وتنتقده بحدة فيها. الرسالة، التي كانت بالتأكيد مزوّرة، غمرت قلب ماي–لينغ بهجة. كتبت إلى شينغ–كيو أن المعاناة التي رافقتها ثلاثين سنة من

أن أختها اختارت البقاء مع الحمر والتعاون معهم أخذت تهدأ الآن. تمكنت أختها أخيراً من رؤيتهم على حقيقتهم، وعبّرت عن رأيها فيهم بصراحة! ''تحررت من وهم الشيوعيين... وأنا ارتحت أخيراً''. بدأت تتخيل أنها لو كانت هي أو الأخت الكبرى في شانغهاي عندما استولى الشيوعيون على المدينة، كانتا على الأرجح سوف تُقنعان شينغ–لينغ بالرحيل. رافقتها السعادة أياماً عدة، وطلبت من ربيبها إعلان الخبر في الاجتماع المقبل للمجلس القومي. لكن شينغ–كيو على الأرجح عرف أن الرسالة ليست حقيقية ولم يشأ تبنّي الخبر. لكنه لا يريد أيضاً أن يخيب أمل زوجة أبيه، ولذلك قال لها إن من واجبه حماية هوية المصدر، وهو عميل سرّيّ للقوميين في البر الرئيسي.

في السنة التالية، بادرت بيجينغ مجدداً للانفتاح على تايوان فكلّفت السياسي العريق لياو شينغ–زي، ابن زونغ–كاي، الذي كان يعرف القائد الأعلى جيداً، إرسال برقية مطوّلة إلى شينغ–كيو. حاكم تايوان رفض الرد وأرسل البرقية إلى ماي–لينغ التي أزاحت العبء عن ظهره وقررت أن ترد بنفسها على البرقية. ماي–لينغ كتبت رسالة طويلة بأسلوب ناري نشرتها جميع الصحف التي تصدر في تايوان. إنها تشبه في نمط كتابتها أسلوب ''الأخت الحمراء'' في مهاجمة شيانغ كاي–شيك، حين كانت الأخت الصغرى تنأى بنفسها عن هذا الصراع. والآن يبدو كأن الأختين تبادلتا الأدوار في شيخوختهما. غضب تشينغ–لينغ المعنوي تلاشى واندفاع ماي–لينغ الأخلاقي تضاعفت حدته. ذكّرت لياو الابن بأنه لم يكد ''يفلت من أنياب النمر'' لأنه نجا من تداعيات الثورة الثقافية الفظيعة التي حفظت طيّ الكتمان معاناة الملايين المروّعة بسببها، فسألته ماي–لينغ هل هو بكامل قواه العقلية كي يتوقع أن تقبل تايوان الخضوع لهذا النظام؟

في نوبة من الغضب والإحباط، انتقدت ماي–لينغ بعنف ما ورد في كتاب ستيرلنغ سيغرايف *The Soong Dynasty* [سلالة سونغ] الذي صدر في ١٩٨٥ وكان الأكثر مبيعاً آنذاك. يسلط الكتاب الضوء على عائلة سونغ بسلبية شديدة القسوة. ليست هذه المرة الأولى التي تواجه فيها ماي–لينغ مثل هذه الاتهامات؛ اطلعت سابقاً على ما هو أسوأ منها. لكنها في هذه المرحلة بالذات كانت مستاءة أكثر من أي وقت مضى من أن تُلقى تبعات كل المآسي التي حلّت بالصين على كاهل عائلتها، فيما يبدو كأن الشيوعيين أفلتوا من تحمل أي مسؤولية في هذا الإطار. اقتنعت ماي–لينغ بأن المؤلف ''يعمل لمصلحة الشيوعيين اللصوص''، وهاجمت الكتاب بأسلوب عدائي لم يكن متوقعاً. طلبت من شينغ–كيو إرسال ابنه الذكي هسياو–يونغ كي تعطيه تعليمات عن كيفية التعاطي مع الكتاب. وضعت ''إستراتيجية'' اشتملت على نشر حملة إعلانية على صفحة كاملة في *The New York Times* و*The Washington Post* تحت عنوان *'A Solemn Statement*

Refuting Distortions of Modern Chinese History in THE SOONG DYNASTY' [موقف رصين يدحض تشويه تاريخ الصين الحديث في كتاب سلالة سونغ]. حملت المقالات أسماء عدد من المؤرخين في تايوان لكن من الواضح أنها كانت تتبع توجيهات النظام. لكنها لم تؤدِّ إلّا إلى مضاعفة اهتمام الرأي العام بالكتاب وارتفاع معدل الإقبال على شرائه. تعرّضت تايوان لمزيد من حملات السخرية. لكن ماي–لينغ استمرت في عنادها. رأت أن ما تفعله من ''هجوم شامل على اللصوص''... ''يؤدي بالطبع إلى رفع معدل مبيعات الكتاب''. عندما صرّح سيغرايف لمراسل على شاشة التلفزيون أنه يختبئ في قارب خوفاً من اغتياله، ضحكت ماي–لينغ ساخرة منه.

قبل ذلك ببضعة أشهر قتل هنري ليو بالرصاص في سان فرانسيسكو، وهو مؤلف تايواني يعدّ كتاباً عن سيرة شينغ–كيو، وذلك على يد عصابة تعمل لمصلحة المخابرات القومية. شجب الرأي العام الأميركي الحادثة واتهم شينغ–كيو باعتماد أسلوب العصابات كما كان يفعل والده. والآن ازداد اشمئزاز الأميركيين. ووصل إلى حدّ أن مبيعات الأسلحة الأميركية إلى تايوان قد تكون في خطر. لكن ماي–لينغ لم تتراجع وواصلت حملتها لمحاربة سيغرايف.

كانت لا تزال بهذه الروحية عندما عادت إلى تايوان في ١٩٨٦ للمشاركة في الذكرى المئوية لولادة زوجها الراحل. الحفل الرئيسي جرى في الساحة الشاسعة لتخليد ذكرى شيانغ كاي–شيك التي تقع أمام القاعة الكبرى التي تحمل اسمه وينتصب فيها تمثال ضخم له، والموقع يكرّس التقليد الحديث لعبادة الشخص الذي بدأه القوميون بتقديس ''أبو الصين''، سون يات–سين. احتشد خمسون ألفاً من الرجال والنساء المنظمين. وأطلقت مجموعات كثيرة من البالونات الملونة والحمائم. ألقت ماي–لينغ خطاباً يالصينية الرسمية. كان خطابها مثل بيان حزبي قاسي اللهجة ولم يلطّفه سوى ابتسامتها الجذابة التي ارتسمت على وجهها عندما انتهت من قراءته.

هذه المناسبة صارت العلامة الأخيرة لنهاية حقبة شيانغ. شينغ–كيو، وريث القائد الأعلى، كان على وشك إنهاء إرث والده الديكتاتوري.

خلال اثنتي عشرة سنة عاشها رهينة في روسيا الستالينية، أُرسل شينغ–كيو للعمل في مصانع عدة، وفي قرية، وفي أحد المعتقلات. عاش حياة قاسية وكافح وسط أدنى طبقات المجتمع، فتوطدت صلاته بالناس العاديين، وأُعجب بهم حتى صار يشبههم ولديه أصدقاء كثيرون بينهم. أحد أصدقائه كان يتيماً يدعى كراف، ويعمل خبيراً فنّياً في أحد المصانع. ''تعلّمت منه الكثير... صرنا صديقين جمعتهما الحاجة، نتشارك في أفراحنا وأحزاننا ومصائبنا''. أحبّ العمال شينغ–كيو وقدّروا موهبته

ورشّحوه لمنصب المدير المساعد. وحين كان مزارعاً، احترمه أبناء القرية الأميون وصار موضع ثقتهم فكلّفوه إدارة شؤون القرية. وفي المعتقل، مارس العمل الشاقّ إلى جانب معتقلين من الأطياف كافة متهمين بمعارضة النظام. يقول: ''أحسست بارتباط عميق بهؤلاء الناس'' لدرجة أنه عندما صدر الأمر بإطلاق سراحه كان لا يكاد يرغب في المغادرة؛ ''كنت متأثراً جداً ولم أعرف كيف أودّع رفاقي المساكين''.

رغم أن شينغ–كيو نفّذ أوامر والده في أوائل الخمسينيات بشنّ حملة ''الرعب الأبيض'' التي تهدف إلى بناء قاعدة جديدة قوية للقوميين، استطاع أن يكسب سمعة أنه ''رجل من الشعب'' بعد وصوله السلطة. وعلى عكس والده الذي لم تكن لديه فعلياً أي صلة مع السكان المحليين، فعل شينغ–كيو ما في وسعه للاقتراب منهم. خلال جولاته التفتيشية التي لا تنتهي، كان يفضل تناول الطعام في أكشاك شعبية صغيرة على جانب الطريق ويتحدث مع سائر الزبائن. وبالنسبة إلى مظهره، تخلّى عن إطلالة والده الرائعة، التي تدل على صلابته، وفضّل المظهر العادي. كما لم يتقيّد بسياسة أبيه في أمور كثيرة. بعد وفاة القائد الأعلى، لم يهتم شيانغ الأب كما ينبغي بتطوير تايوان اقتصادياً، وشينغ–كيو وضع هذا على رأس قائمة أولوياته. أشرف على تنفيذ ''معجزة تايوان'' التي حققت فيها الجزيرة نمواً مضاعفاً، وصار متوسط الدخل الفردي ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل ست سنوات انطلاقاً من ١٩٧٧. خطت البلاد بعدها خطوة مهمة على مسار التحرّر. صار متاحاً للمواطنين للمرة الأولى مغادرة الجزيرة والعودة إليها بملء حريتهم كأنهم سياح. والجنود القوميون القدامى الذين تركوا البرّ الرئيسي سُمح لهم بالعودة لزيارة عائلاتهم. والمنطقتان الساحلية والجبلية صارتا مفتوحتين أمام كل الناس.

اشتهر أعضاء حكومة شينغ–كيو على أوسع نطاق باستقامتهم وهو نفسه لم يجمع ثروة، وكذلك كل أفراد عائلته. اختار فريقه من ذوي الكفاءات المهتمين بالشأن العام الذين يتباهون بأنهم موجودون في مراكزهم لخدمة الناس وليس لمصالحهم الشخصية. نظافة أكفّهم وأسلوبهم الجاد في أدائهم الوظيفي كانا أساس نجاح تايوان. وبينما استمر نظام حكمه يعتمد على الحزب الواحد ويرفض قبول الشيوعيين أو الناشطين من أجل استقلال تايوان، تراجع اللجوء إلى القمع وازدادت شعبيته حاكماً.

هو نفسه سوف يقود تايوان لتحقيق الديموقراطية.

في ١٩٨٥. أعلن شينغ–كيو قطعاً رفضه تولّي أفراد عائلته السلطة، وصرّح أن أياً من أبنائه الثلاثة لن يرث منصب الرئاسة. أما وصوله إلى سدّة الرئاسة، فلم يكن باختياره؛ لقد فُرض الأمر

عليه وإحساسه بعبء المسؤولية فاق سعادته. كان أفراد فريقه يلاحظون توتره عشية الاجتماعات المهمة؛ إنه رجل يحب البساطة ولا تستهويه امتيازات الديكتاتور.

في ظلّ حكم شينغ–كيو، أخذت تايوان تتطور وتتغير. الازدهار الاقتصادي أنعش المجتمع بالآمال والطموحات. ارتفعت أصوات تطالب بالإصلاح وبينها الذين كانوا يسافرون إلى الخارج للدراسة أو للسياحة، ويصل عددهم إلى ثلاثمئة ألف كل سنة. تضاعف عدد المنشورات التي تتحدى الأسلوب الرسمي. في ظلّ هذا النمو السريع للتحول إلى الديموقراطية، قرّر شينغ–كيو في ١٩٨٧ إلغاء الأحكام العرفية، وسمح بتكوين أحزاب معارضة، وكرّس حرية الصحافة.

هذه الخطوة التاريخية اتخذها شينغ–كيو أثناء وجود ماي–لينغ في تايوان. فمدّدت إقامتها بعد حضورها الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد زوجها لأنها تريد متابعة مسألة الإصلاحات ومعرفة وجهتها. اختلطت عليها مشاعرها لأنها ليست ضد التحول إلى الديموقراطية لكنها حريصة على ألا يتعرض أحد لقدسية زوجها أو لمصلحتها الشخصية. لم تكن خائفة كثيراً لأن شينغ–كيو لا يزال في السبعينات وسوف يستمر في تولي السلطة لسنوات.

في ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٨، مات شينغ–كيو فجأة وكان في السابعة والسبعين. ومع أنه كان مصاباً بداء السكري وأمراض أخرى، لم يكن موته متوقعاً. في ذلك الصباح، أطلّ ابنه هسياو–يونغ من باب الغرفة ليقول له ''صباح الخير'' وغادر مباشرة لتناول الغداء مع ماي–لينغ. بعد مدة قصيرة من ذهابه مات شينغ–كيو ولم يكن بجانبه أحد من أفراد عائلته.

تولى منصب الرئيس لي تنغ–هوي، التايواني الذي كان نائب الرئيس. خافت ماي–لينغ. لي لم يظهر أي إخلاص لها أو لزوجها. وتملكتها المخاوف مجدداً من خسارة أساليب الراحة التي تنعم بها. خلال أيام وصلت ابنة أختها جانيت من نيويورك ووضعت يدها بالقوة على Grand Hotel of Taiwan. يقع الفندق على قمة تلة ويبدو كقصر صيني قديم بسقوف ذهبية مائلة وأعمدة ضخمة مطلية بالأحمر القاني. شُيّد هذا المعلم في الخمسينيات ليكون مقراً رسمياً فخماً للضيافة. تابعت ماي–لينغ من كثب عملية بنائه، وجانيت تولّت إدارته فعلياً، وإن لم يكن بالتكليف، ورأت فيه ملكية خاصة لعائلتها. عندما استلم شينغ–كيو السلطة، صدرت قوانين جديدة استبعدت جانيت. والآن حضرت إلى الفندق ومزّقت الأوراق الرسمية أمام المدير، وطردت مسؤول الحسابات، وأجبرت رئيس مجلس الإدارة على تقديم استقالته. وبدعم من ماي–لينغ، عُيّن صديق قديم لشيانغ رئيساً، وجانيت تولت إدارة هذا الصرح المدرّ للمال ثانية.

من أجل حماية مصالحها، توجّهت السيدة الأولى السابقة التي صارت في التسعين نحو السلطة السياسية. حاولت الاحتفاظ بمقعد رئيس ''القومي'' ومنع الرئيس لي من السيطرة عليه (شيانغ الأب والابن وصلا إلى رئاسة الحزب ورئاسة البلاد). وبما أن قيادة الحزب تسمّي الرئيس الجديد رسمياً، طلبت ماي–لينغ من القياديين القوميين تأجيل هذه العملية كي تكسب الوقت وتقترح اسماً تختاره بنفسها. لكن اقتراحها واجه معارضة في المجلس حتى من الموالين القدامى لشيانغ. أراد الجميع أن يتولّى لي مقاليد الحكم. في منتصف إحدى الليالي، اتصلت بالهاتف برجل كان زوجها وصياً عليه لكنه رفض الانصياع لطلبها؛ من الواضح أن تدخلها لم يكن مقبولاً وأن الكل يفضلون الانتقال إلى مرحلة جديدة. وسائل الإعلام التي تحررت حديثاً انقلبت ضدها. كان لا بدّ لماي–لينغ من التراجع. نفذت مبادرة أخيرة عندما حاولت تحذير أعضاء ''القومي'' من الخوض في مسارات جديدة أو إجراء تعديلات أساسية. استمعوا لها بدافع التهذيب لكنهم لم يعطوا أي قيمة لكلامها.

ماي–لينغ التي لا تزال تتمتع بصحة جيدة جسدياً وعقلياً تراجعت ولم تقدم على أي خطوة اعتراضية إضافية. قبلت الهزيمة وعادت إلى نيويورك في ١٩٩١، ونأت بنفسها عن الأوضاع السياسية في تايوان. تقدّمت الجزيرة بخطوات سريعة نحو الديموقراطية، وفي ١٩٩٦، صار الرئيس لي أول رئيس للبلاد يُنتخب بآلية ديموقراطية.

كانت تايوان الديموقراطية سخية بالفعل في التعامل مع ماي–لينغ. رغم القوانين التي أقرّت في حكم لي والتي حدّت من المخصّصات للرؤساء السابقين وزوجاتهم – طُبّقت بحذافيرها على أرملة شينغ–كيو وأولاده – رأت السلطة السياسية أن الأخت الصغرى حالة استثنائية. أسلوب حياتها المرفهة لن يطرأ عليه أي تعديل. Grand Hotel يستمر في كونه المطبخ الشخصي لها فيرسل الطهاة والنّدّل إلى أميركا. واستمرت أيضاً في الحصول على حراس وممرضات وخدم يفدون إليها من تايوان. لكن لا بد من تخفيض معدّل التبذير في بعض الحالات. في ١٩٩٤، أجرت رحلتها الأخيرة إلى تايوان لزيارة جانيت التي كانت تحتضر من مرض السرطان (جانيت اختارت أن تتعالج في تايوان وليس في أميركا لأنها تستطيع هناك الحصول على امتيازات معينة كأن تسمح لها إدارة المستشفى بالاحتفاظ بكلبها معها في الجناح الخاص بها). حكومة تايوان حجزت للسيدة الأولى السابقة مقصورة بكاملها في الدرجة الأولى لكنها لم ترسل إليها طائرة خاصة. كما طلبت من أفراد عائلة كونغ المساهمة في جزء من نفقاتها، ودفع الجميع المبلغ المتوجب عليهم، مع أن بعض الأقارب تذمروا بعيداً من الأنظار.

كانت ماي–لينغ تقلق أحياناً من قلة المال المتوفر لديها. لكنها عامة واجهت زمن التغيير بهدوء. في سنواتها الأخيرة، كانت تمضي معظم وقتها في الصلاة وقراءة **الإنجيل** لتشعر بالسلام والطمأنينة. صارت على مقربة من نهاية حياة دراماتيكية مثيرة، أدركت فيها أحياناً قمة العالم، لكنها لم تسعَ إلى التبجّح بماضيها أو تعداد مآثرها. كانت ترفض إجراء مقابلات مع وسائل الإعلام. عندما اقترح البعض تسمية أحد الشوارع باسمها، رفضت مستشهدة بـ**سفر الجامعة** في **الإنجيل**: "باطل الأباطيل قال الجامعة. باطل الأباطيل، الكلّ باطل"[35]. كانت تنتظر أمر الله برحيلها، وتتمتم: "أبناء جيلي، وحتى الجيل الأصغر مني، رحلوا الواحد منهم تلو الآخر... وأنا لا أزال هنا"، "الله نسيني".

35 **سفر الجامعة**، الإصحاح الأول: "كلام الجامعة ابن داوود الملك في أورشليم (١) باطل الأباطيل...". (م.)

الله تذكرها بعد تخطيها المئة بخمسة أعوام، وبعدما عاصرت ثلاثة قرون. في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣، ماتت ماي–لينغ بهدوء وهي نائمة. لم تترك أي وصية سوى رغبتها في أن تدفن في مقبرة أختها إي–لينغ. اشترى أفراد عائلة كونغ حجرتين خاصتين في مقبرة فيرنكليف، على بعد أربعين كيلومتراً إلى الشمال من وسط مانهاتن. هاتان الحجرتان مشيّدتان بالرخام الأبيض الباهت ولكل منهما نوافذ مزينة بالزجاج الملون، ومذبح بسيط. أقارب ماي–لينغ والعاملون لديها أعدّوا لها جنازة متواضعة. حدث خلل أثناء إدخال التابوت لأن حجمه لم يكن مناسباً للمجاز المعدّ له، وأجريت في الحال عملية تكسير لتوسيع المجاز. كل هذا أبعد ما يكون من جنازة زوجها التي استغرقت جهداً في التخطيط والتنفيذ. لكن جثمان شيانغ كاي–شيك الذي حُفظ بكل عناية من أجل عرضه أمام الناس كان المحتجون يرشونه بالدهان الأحمر، كما أنه أثار الكثير من الجدل حول هل يستحق أموال الضرائب التي أنفقت عليه. ماي–لينغ دفنت كأي إنسان عادي، ورقدت بسكون بجانب أختها التي تحبها، وأفراد عائلتها. في اليوم التالي بعد الجنازة، زار الرئيس التايواني، تشين شوي–بيان بيتها في مانهاتن لأداء واجب العزاء، وكرّمها بمنح علم تايوان لأقاربها. تشين هو أول زعيم من المعارضة يُنتخب رئيساً للبلاد سنة ٢٠٠٠. ماي–لينغ بالفعل واكبت التاريخ في مساره حتى بداية القرن الحادي والعشرين.

حول الكتاب

نبذة

قصة مثيرة عن الحب والحرب والمنفى والتآمر والخيانة، تأخذنا في رحلة مؤثّرة، من أراضي المنفى في اليابان وبرلين إلى غرف اللقاءات السرية في موسكو. تكشف يونغ تشانغ في سردها العاطفي والملحمي حيوات ثلاث نساء مميزات ساعدن في رسم تاريخ الصين في القرن العشرين.

ثلاث أخوات ينطلقن من منزل واحد لتتشابك مصائرهن وتفترق لتمتد حياةً كاملة تعيش فيها الصين أعقد التحولات وأكبرها. أظهرن شجاعة عظيمة واختبرن الحب العاطفي واليأس وانكسار القلب، خاصة عندما انتسبن إلى محاور سياسية متناقضة.

تعد قصة الأخوات الثلاث من شنغهاي من أشهر القصص الحديثة. ففي الوقت الذي عانت فيه الصين مئة عام من الحروب والثورات، لعبت كل واحدة منهنّ دوراً حاسماً وتركت أثراً لا يمكن محوه في التاريخ.

قيل في الكتاب

«حكاية ملهمة» هيلاري كلينتون عن «بجعات برّية»

عن المؤلف

يونغ تشانغ تعدّ كتبها من الأكثر رواجاً في العالم. تُرجمت كتبها إلى أكثر من أربعين لغة. ولدت في الصين عام 1952 وغادرت إلى بريطانيا عام 1978. وهي تعيش في لندن.